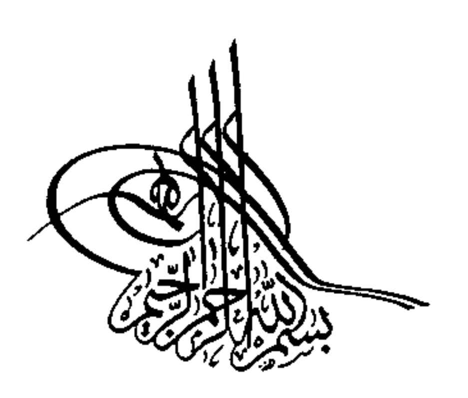
سلسلة الخلفاء



(٥٧٥ - ٦٥٦هـ)

محمود شاكر

المكتب الإسلامي



الخلفاء
(٥١ - ٥٤)

أواخر الخلفاء العباسيين

٥٧٥ - ٦٥٦هـ

٥١ - الناصر لدين الله : ٥٧٥ - ٦٢٢هـ

٥٢ - الظاهر بأمر الله : ٦٢٢ - ٦٢٣هـ

٥٣ - المستنصر بالله : ٦٢٣ - ٦٤٠هـ

٥٤ - المستعصم بالله : ٦٤٠ - ٦٥٦هـ

الطبعة الأولى
١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

المكتب الإسلامي

بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥



مقدمة

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على إمام المرسلين وخاتم النبيين محمد بن عبد الله سيّد ولد آدم وعلى آله وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين. أما بعـد :

فإن الخلافة العباسية قد ضعفت مذ ضعف خلفاؤها في منتصف القرن الثالث الهجري يوم مقتل الخليفة العباسي العاشر المتوكل على الله سنة ٢٤٧هـ، غير أنه قد ظهر في هذه المرحلة أيضاً خلفاء لهم مكانتهم وفي نفوسهم تقواها فأرهبوا أعداء الله وأعداءهم، وأعطوا الخلافة مكانتها وكانوا على رأسها حكاماً مثل المعتضد بالله الخليفة العباسي السادس عشر. ثم سيطر على الخلافة سلاطين بني بويه ولهم أهدافهم الخفية فتسلّط على أمصار الخلافة أمثالهم من القرامطة والسامانيين والعبيديين والحمدانيين، كما أثاروا الفتن وبثّوا الأفكار الغريبة وحطّموا معنويات الأمة فأماتوا الجهاد، وأذلّوا الخلفاء، ثم كانت نهاية بني بويه في منتصف القرن الخامس الهجري (سنة ٤٤٧هـ) على يد السلاجقة بعد سيطرةٍ دامت مائةً وثلاث عشرة سنةً (٣٣٤ ـ ٤٤٧هـ).

جاء السلاجقة بحماسةٍ فرفعوا راية الجهاد، وانتصروا على الروم انتصاراً مؤزّراً فأذلّوا شموخهم حتى أنزلوه إلى الأرض وداسوا عليه، فارتفعت مكانتهم وعلا اسمهم فتسلّموا السلطنة واحترموا مكانة الخلفاء وأعطوهم حقهم الذي حُرموه أيام سلطان البويهيين.

لم يلبث السلاجقة أن ساروا في طريق الدنيا وبهجتها، وتنازعوا فيما بينهم على السلطان كغيرهم فساروا في درب الضعف وضعفت معهم الخلافة، وزال سلطان السلاجقة على يد الخوارزمية سنة ٥٩٠هـ بعد سيطرةٍ دامت مائةً وثلاثاً وأربعين سنةً (٤٤٧ ـ ٥٩٠هـ)، ولم يُعط الخوارزميون دورهم لذا يظنّ بعضهم أن سلطان السلاجقة استمرّ حتى نهاية الدولة العباسية، فيجب ملاحظة هذا.

ظهر في عهد السلاجقة آل زنكي والأيوبيون وكلاهما رفع راية الجهاد وقاتل الصليبيين وانتصر عليهم، ودخل صلاح الدين الأيوبي ﵀ القدس، وأخرج الصليبيين منها في ٢٧ رجب سنة ٥٨٣هـ.

ضعف أمر الأيوبيين بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٩هـ، وانتهى أمر السلاجقة سنة ٥٩٠هـ، وزاد ضعف الخلافة العباسية وانفرجت أسارير الأعداء بذلك غير أنهم كانوا في خوفٍ من أن تظهر جماعة

جديدة ترفع راية الجهاد من جديدٍ فتعود للمسلمين قوتهم فأرادوا القضاء على الخلافة قبل أن يعود إليها ما يتوقّعون، ولكن من الذي يقضي عليها فالصليبيون في ضعفٍ لا يستطيعون معه القتال، وأعداء لا يستطيعون الظهور أمام مجتمعهم بمعاداة الإسلام وإعلان الحرب عليه، وبينما هم على هذه الحال إذ ظهرت قوة المغول الوثنيين في شرق دار الخلافة.

ظهر المغول فخشي الصليبيون أن يُسلم المغول باحتكاكهم بالمسلمين فالإسلام دين الفطرة، وقد حدث أن أسلم السلاجقة والغزّ وهما من قبائل الترك أبناء عمومة المغول، وإذا ما حدث هذا فإن المسلمين يزدادون قوةً إلى قوتهم، ويُخشى حينذاك على أوربا وليس على الصليبيين في الشام فحسب لذا يجب أن يكون عمل الصليبيين بالدرجة الأولى للحيلولة دون حدوث ذلك، ثم العمل لجعل المغول يقاتلون المسلمين الذين يقعون بين نارين: نار المغول من الشرق، ونار الصليبيين من الغرب، ومن هذا المنطلق أرسل الصليبيون مبعوثيهم إلى المغول، وحسّنوا لهم ديار الإسلام وغلّاتها ومنتجاتها وخيراتها وإمكاناتها وجمالها وأهميتها وإمكانية الإفادة منها، وحرّضوهم

على غزوها وامتلاكها هذا بالإضافة إلى المبعوثين كان الصليبيون يبعثون النساء النصرانيات إلى بيوت المغول على شكل حليلاتٍ أو خليلاتٍ فيعملن عمل المبعوثين بشكلٍ مستمرٍ، لقد كان عند أو غطاي بن جنكيز خان وزيران من النصارى، وكانت زوجة هولاكو بن تولوي بن جنكيز خان نصرانية وتحرّضه على الإسلام باستمرارٍ، وقد خضع هولاكو لتأثير النصرانية وكان عدواً لدوداً للإسلام، وهذا ما أوجد الفكرة عند المغول للانطلاق نحو الغرب والاستيلاء على ديار الإسلام.

هذا بالنسبة إلى عمل الصليبيين أما عمل رؤوس الهدم في الداخل الذي يعيشون في ظلال الذِّكْر، ويُغطّون واقعهم بظاهرٍ من القول أمام جماعتهم فقد كانوا أكثر حقداً فأسرعوا إلى المغول ووضعوا أنفسهم في خدمتهم، فكانوا عيوناً لهم، وأعانوهم على دخول بغداد.

وأخيراً نرجو من الله العلي القدير أن نكون أعواناً للحق على صحةٍ في عقيدتنا، وصدقٍ في أقوالنا، وإخلاصٍ في أعمالنا، وحُسنٍ في نيّاتنا، واستقامةٍ على منهجنا، وثباتٍ على إسلامنا، إنه سميع مجيب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة شهر رمضان المبارك ١٤٢٢هـ

الفصل الأول

٥١ - النَاصِر لدِين الله

٥٧٥ - ٦٢٢هـ

الناصر لدين الله هو الخليفة أبو العباس أحمد بن الحسن المستضيء بأمر الله بن يوسف المستنجد بالله بن محمد المقتفي لأمر الله بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على اللهبن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.

(٥٠) المستضيء بأمر الله.

|

(٥١) الناصر لدين الله.

وُلد الناصر لدين الله في العاشر من شهر رجب سنة ٥٥٣هـ، وأمه أم ولد تركية تُدعى زُمُرّد، وبويع بالخلافة بعد وفاة أبيه في مستهل شهر ذي القعدة سنة ٥٧٥هـ، فكان عمره يومذاك اثنتين وعشرين سنةً. وكانت خلافته ستاً وأربعين سنةً وعشرة أشهرٍ وثمانيةً وعشرين يوماً، وكان عمره يوم توفي سبعين سنةً تقريباً، وبقي ثلاث سنواتٍ عاطلاً عن الحركة بالكلية، وقد ذهبت إحدى عينيه، ويبصر بالأخرى إبصاراً ضعيفاً.

كان فصيح اللسان، بليغ البيان، شجاعاً، شهماً، ذا فكرةٍ صائبةٍ وعقلٍ رصينٍ ومكرٍ ودهاءٍ، وكان له من يأتيه بالأخبار من الجهات كافةً، واشتغل برواية الحديث، وكان مع ذلك سيئ السيرة في الرعية، يميل إلى الظلم، وأخذ الأموال، ويفعل أفعالاً متناقضةً، ويميل إلى الرفض.

لم يكن في عهده خليفة سواه، وقد ضعُف أمر الصليبيين، وعلا سلطان الأيوبيين، وقوي أمر الخوارزمية، وانتهى شأن السلاجقة.

خطب سنة ٥٨٥هـ لابنه الأمير أبي نصر محمد بولاية العهد في العراق وغيره من البلاد، ثم عاد بعد ذلك فخلعه من ولاية العهد، وأرسل إلى البلاد بقطع

الخطبة له وإنما فعل ذلك لأنه كان يميل إلى ولده الصغير عليّ، فاتفق أن الولد الصغير قد توفي سنة ٦١٢هـ، ولم يكن للخليفة ولد غيرهما فاضطر إلى إعادة محمد إلى ولاية العهد إلا أنه تحت الاحتياط والحجر، لا يتصرّف في شيءٍ فلما توفي أبوه ولي الولد الخلافة.

الفصل الثاني

٥٢ - الظاهر بأمر الله

٦٢٢ - ٦٢٣هـ

الظاهر بأمر الله هو الخليفة أبو نصر محمد بن أحمد الناصر لدين الله بن الحسن المستضيء بأمر الله بن يوسف المستنجد بالله بن محمد المقتفي لأمر الله بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.

(٥٠) المستضيء بأمر الله.

(٥١) الناصر لدين الله.

(٥٢) الظاهر بأمر الله.

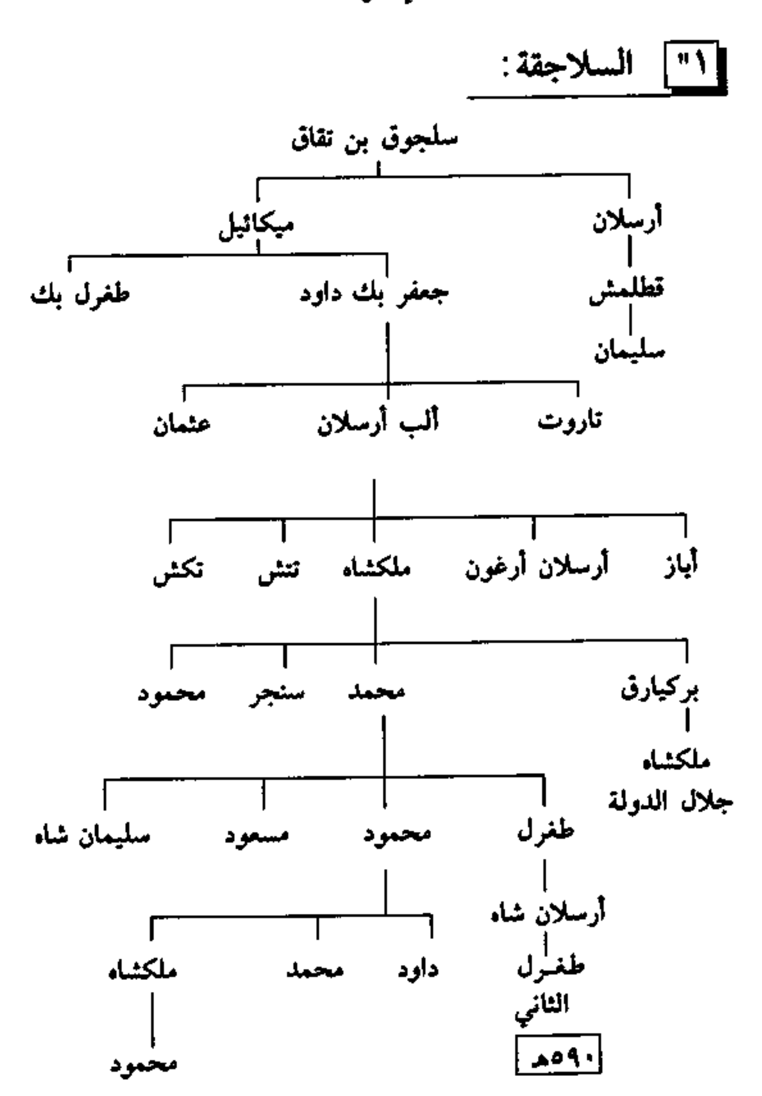
وُلد الظاهر بأمر الله سنة ٥٧١هـ، واستُخلف عند موت أبيه فكان عمره اثنتين وخمسين سنةً، فقيل له: ألا تتفسّح؟ قال: لقد يبس الزرع، فقيل: بارك الله في عمرك! قال: من فتح محله بعد العصر فماذا يكسب؟ ثم إنه أحسن للرعية، وأبطل المكوس، وأزال المظالم، وفرّق الأموال.

تلقّب بالظاهر بأمر الله وعنى أن أباه وجميع أصحابه أرادوا صرف الأمر عنه، فظهر وولي الخلافة بأمر الله لا بسعيٍ من أحدٍ. ولما ولي الخلافة أظهر من العدل والإحسان ما أعاد به سنة العُمَرَيْن، فلو قيل إنه لم يلِ الخلافة بعد عمر بن عبد العزيز مثله لكان القائل صادقاً، فإنه أعاد من الأموال المغصوبة في أيام أبيه وقبله شيئاً كثيراً، وأبطل المكوس في البلاد جميعها، وأمر بإعادة الخراج القديم في جميع العراق وبإسقاط جميع ما جدّده وكان ذلك كثيراً لا يحصى.

وتوفي الظاهر بأمر الله في الثالث عشر من شهر رجب سنة ٦٢٣هـ فكانت خلافته تسعة شهورٍ وأياماً.

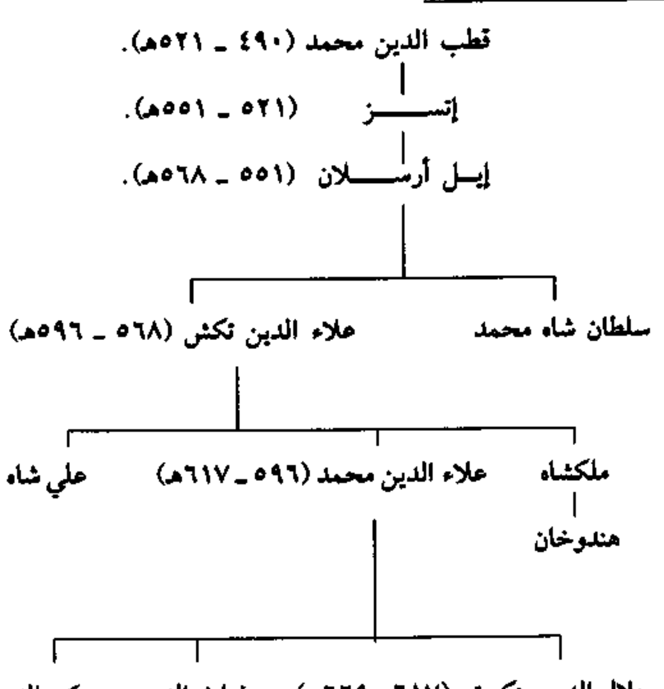
الإمارات

"١" السلاجقة:



توفي السلطان أرسلان شاه بن طغرل سنة ٥٧٣هـ وتولّى مكانه ابنه طغرل الثاني ولم يكن قادراً على تنفيذ ما يريد وقد غدت منطقة نفوذه ضيقةً على حين كانت تتسع رقعة الدولة الخوارزمية، واستطاع علاء الدين تكش الخوارزمي أن يستولي على أكثر البلاد التي يسيطر عليها السلاجقة، وسار جيش خوارزمشاه نحو الريّ فلما سمع السلطان طغرل الثاني بوصوله كانت عساكره متفرقةً فلم يعمل على جمعها بل سار إليه فيمن معه فقيل له: إن الذي تفعله ليس برأيٍ، والمصلحة أن تجمع العساكر، فلم يقبل، وكان فيه شجاعة، وتابع مسيره والتقى العسكران بالقرب من الريّ فحمل طغرل بنفسه في وسط عسكر خوارزمشاه فأحاطوا به وألقوه عن فرسه وقتلوه في الرابع والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٠هـ وسار خوارزمشاه إلى همدان، وملك البلاد جميعها، وانتهى أمر السلاجقة.





توفي خوارزمشاه إيل أرسلان بن إتسز سنة ٥٦٨هـ فخلفه ابنه الأصغر سلطان شاه محمد، وكان صغيراً، فكانت أمه وصيةً عليه، فخرج عن طاعته أخوه الأكبر علاء الدين تكش وملك البلاد، فاستنجد به قتلغ إينانغ ضد السلطان السلجوقي طغرل الثاني فسار إليه سنة ٥٨٨هـ غير أن قتلغ إينانغ قد ندم على ما فعل وخاف على نفسه فمضى من بين يديه وتحصّن في قلعةٍ له فوصل

خوارزمشاه إلى الريّ وملكها وحاصر قلعة «طبرك»[1] وفتحها في يومين، وراسله طغرل الثاني السجلوقي واصطلحا وبقيت الريّ في يد خوارزمشاه فرتّب فيها عسكراً يحفظها وعاد إلى خُوارزم إذ بلغه أن أخاه سلطان شاه محمد قد قصد خوارزم فجدّ في السير خوفاً عليها، غير أنه وهو في الطريق قد بلغه أن أهل خوارزم قد منعوا سلطان شاه محمد عنها ولم يستطع الاقتراب منها وعاد عنها خائباً، فقضى خوارزمشاه فصل الشتاء في مدينة خوارزم (خيوه) فلما انتهى فصل الشتاء سار إلى مرو ويقصد أخاه سلطان شاه محمد وذلك سنة ٥٨٩هـ فترددت الرسل بالصلح بينهما، وأثناء تقرير الصلح ورد عليه رسول من مستحفظ قلعة سرخس لأخيه سلطان شاه محمد يدعوه ليسلّم إليه القلعة لأنه قد استوحش من صاحبه سلطان شاه محمد فسار إليه خوارزمشاه علاء الدين تكش مجدّاً فتسلّم القلعة، وصار معه، وبلغ ذلك سلطان شاه محمد فمات كمداً في نهاية شهر رمضان سنة ٥٨٩هـ، فلما سمع خوارزمشاه بموته سار من ساعته إلى مدينة مرو فتسلّمها وتسلّم مملكة أخيه سلطان

---

(١) طَبَرَك: قلعة على رأس جُبيل بقرب مدينة الريّ على يمين القاصد إلى خراسان.

شاه محمد جميعها وخزائنه، وأرسل إلى ابنه علاء الدين محمد وكان حينئذٍ يلقّب قطب الدين، وهو بخوارزم، فأحضره فولّاه نيسابور، وولّى ابنه الكبير ملكشاه مرو وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥٨٩هـ.

ولما دخلت سنة ٥٩٠هـ قصد السلطان السلجوقي طغرل الثاني مدينة الريّ فأغار على من بها من أصحاب خوارزمشاه ففرّ منه قتلغ إينانغ بن البهلوان وأرسل إلى خوارزمشاه يعتذر منه لفراره ويطلب منه النجدة، ووافق ذلك وصول رسول الخليفة إلى خوارزمشاه يشكو من طغرل الثاني السلجوقي، ويطلب منه قصد بلاده، ومعه أمر من الخليفة بإقطاع خوارزمشاه البلاد.

سار خوارزمشاه علاء الدين تكش من نيسابور إلى الريّ فتلقاه قتلغ إينانغ ومن معه بالطاعة وساروا معه فلما سمع السلطان طغرل بوصوله سار إليه أيضاً رغم أن عساكره كانت متفرقةً والتقى العسكران، وقُتل السلطان طغرل في ٢٤ من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٠هـ، وبذلك انتهى أمر السلاجقة، وسار خوارزمشاه إلى همدان وملك تلك البلاد جميعها، وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سيّر عسكراً لنجدة خوارزمشاه وسيّر له الخلع السلطانية مع وزيره مؤيد الدين بن القصّاب.

واختلف وزير الخليفة مع خوارزمشاه واحتلّ عسكر الوزير بعض مواقع الخوارزميين، وتوفي الوزير في أوائل شهر شعبان سنة ٥٩٢هـ، والتقى خوارزمشاه علاء الدين تكش مع عسكر الخليفة وانتصر خوارزمشاه وملك همذان ثانيةً ولكنه تركها ورجع إلى خراسان.

اتفق مماليك البهلوان والأمراء وقدّموا على أنفسهم «كوكجه» وهو من أعيان البهلوانية، واستولوا على الريّ وما جاورها، وساروا إلى أصفهان لإخراج عسكر الخوارزمية منها وذلك عندما رجع خوارزمشاه إلى خراسان، غير أنهم قد أخبروا بأن عسكر الخليفة عندها فأرسل كوكجه إلى مملوك الخليفة سيف الدين طغرل يعرض نفسه على خدمة ديوان الخليفة ويظهر الطاعة وأنه إنما يقصد أصفهان في طلب العساكر الخوارزمية وحيث رآهم فارقوا أصفهان سار في طلبهم فلم يدركهم، وسار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همدان، وأما كوكجه فإنه تبع الخوارزمية إلى مدينة طبس، وعاد فقصد أصفهان وملكها، وأرسل إلى الخليفة يطلب أن تكون له الريّ وما يتبعها، وقم، وساوه وما يتبعها، وتكون أصفهان، وهمدان، وزنجان وقزوين لديوان الخليفة فأُجيب إلى ذلك وأمر له الخليفة بما طلب، وأرسل له الخلع فكثرت عساكره وقوي أمره.

وصل إلى بغداد سنة ٥٩٣هـ أمير من مصر اسمه أبو

الهيجاء، ويُعرف بالسمين لأنه كان كثير السمن، ويُعدّ من أكابر أمراء مصر، وكانت له بيت المقدس وغيره مما يجاوره فلما ملك دمشق العزيز بن صلاح الدين ثم عمه العادل من الملك الأفضل بن صلاح الدين أخذ القدس من أبي الهيجاء، ففارق الشام وعبر الفرات إلى الموصل ثم انحدر إلى بغداد لأنه طُلب من ديوان الخلافة فلما وصل إليها أُكرم إكراماً كثيراً ثم أمر بالاستعداد والمسير إلى همدان مقدماً على عسكر الخلافة فسار إليها والتقى هناك بالملك أوزبك بن البهلوان وبعض أعوانه، وهم قد كاتبوا الخليفة بالطاعة، فلما اجتمعوا بأبي الهيجاء وثقوا به ولم يحذروه فقبض على أوزبك وآخرين بموافقة أحدهم وهو (أمير علم) فلما وصل الخبر بذلك إلى بغداد أُنكر على أبي الهيجاء بهذا التصرف، وأُمر بالإفراج عمن قبض عليهم، وسيّرت لهم الخلع تطييباً لقلوبهم، فلم يهدؤوا بعد هذه الحادثة ففارقوا أبا الهيجاء، وخاف هو من ديوان الخلافة فلم يرجع إليه، ولم يمكنه أيضاً المقام فعاد يريد أربيل فأصله منها فهو من الأكراد الحكمية من إربيل فتوفي قبل وصوله إليها.

سار خوارزمشاه علاء الدين تكش إلى الريّ وغيرها من بلاد الجبل لأنه بلغه أن نائبه بها قد تغيّر عن طاعته فسار إليه فخافه فجعل يفرّ من بين يديه

وخوارزمشاه في طلبه يدعوه إلى الحضور عنده وهو يمتنع فاستأمن أكثر أصحابه إلى خوارزمشاه، وهرب هو والتحق بقلعةٍ من أعمال مازندران فامتنع بها، فسارت العساكر في طلبه، فأُخذ منها، وأُحضر بين يدي خوارزمشاه فأمر بحبسه بشفاعة أخيه، وسُيّرت الخلع من الخليفة إلى خوارزمشاه وإلى ولده قطب الدين محمد وتقليده ما بيده من البلاد، فلبس الخلعة واشتغل بقتال الملاحدة فدخل قلعةً من قلاعهم تسمى قلعة أرسلان شاه وهي على باب قزوين، وانتقل إلى حصار قلعة ألموت فقُتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية بالريّ قتله الملاحدة. وعاد خوارزمشاه إلى خوارزم فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن علي فقتلوه، فأمر خوارزمشاه علاء الدين تكش ولده قطب الدين بقصد الملاحدة فقصد قلعة ترشيش[1] وهي من قلاعهم فحاصرهم فأذعنوا له بالطاعة وصالحوه على مائة ألف دينارٍ ففارقها، وإنما صالحهم لأنه بلغه خبر مرض أبيه، وكانوا يراسلونه بالصلح فلا يفعل فلما سمع بمرض أبيه لم يرحل حتى

---

(١) ترشيش: قلعة باسم البلدة التي هي منها، وهي من أعمال نيسابور، وأهل خراسان يسمونها طريثيث.

صالحهم على المال المذكور والطاعة ورحل.

في العشرين من شهر رمضان سنة ٥٩٦هـ توفي خوارزمشاه علاء الدين تكش صاحب خُوارزم وبعض خراسان والريّ، وكان قد سار من خُوارزم إلى خراسان، وكان به خوانيق فأشار عليه الأطباء بترك الحركة فامتنع وسار فلما قطع مسافةً اشتدّ عليه المرض ومات، ولما اشتدّ به المرض أرسلوا إلى ابنه قطب الدين محمد يستدعونه ويعلمونه شدة مرض أبيه فسار إليهم وقد مات أبوه فولي الملك بعده ولُقّب علاء الدين ـ وهو لقب أبيه ـ وكان لقبه قطب الدين، وأمر فحُمل أبوه ودُفن بخوارزم، وكان عادلاً، حسن السيرة، له معرفة حسنة بالعلم، يعرف الفقه على مذهب أبي حنيفة، ويعرف الأصول. وكان أخوه علي شاه بأصفهان فأرسل إليه أخوه خوارزمشاه محمد يستدعيه فسار إليه فلما وصل إلى أخيه ولّاه حرب خراسان والتقدّم على جندها وسلّم إليه نيسابور.

استولى الغوريون على مرو الروذ بقيادة محمد بن خرميل فطلب نائب خوارزمشاه علاء الدين محمد على خراسان وهو جقر التركي أن يكون في جملة عسكر غياث الدين ملك الغوريين، فلما وصل الخبر إلى غياث الدين شعر بضعف خُوارزم فأرسل إلى أخيه شهاب الدين في غزنة يستدعيه إلى خراسان فسار

شهاب الدين في عساكره وعدته وما يحتاج إليه. وكان بمدينة هراة الأمير عمر بن محمد المرغني نائباً عن غياث الدين الغوري، وكان يكره خروج غياث الدين إلى خراسان فأحضره غياث الدين واستشاره فأشار إليه بالكفّ عن قصدها وترك المسير إليها فأنكر عليه ذلك وأراد إبعاده عنه، ووصل شهاب الدين في عساكره وعساكر سجستان وغيرها في شهر جمادى الأولى سنة ٥٩٧هـ فلما وصلوا إلى مدينة ميمنة قرب مرو الروذ إلى الشرق منها وصل إلى شهاب الدين كتاب من جقر التركي نائب خوارزمشاه علاء الدين محمد على مرو يطلبه ليسلّمها إليه، فاستأذن شهاب الدين أخاه غياث الدين فأذن له فسار إليه فخرج أهلها مع العسكر الخوارزمي فقاتلوه فأمر أصحابه بالحملة عليهم والصدق في قتالهم فحملوا عليهم فأدخلوهم البلد، وزحفوا إليهم ومعهم الفيلة إلى أن قاربوا السور فطلب أهل البلد الأمان فأمّنهم وكفّ العسكر عن التعرّض إليهم وخرج جقر التركي إلى شهاب الدين فوعده الجميل، ثم حضر غياث الدين إلى مرو بعد دخولها فأخذ جقر التركي وسيّره إلى هراة مكرماً، وسلّم مرو إلى هندوخان بن ملكشاه بن خوارزمشاه علاء الدين تكش، وكان قد هرب من عمه خوارزمشاه علاء الدين محمد

(قطب الدين) بن علاء الدين تكش إلى غياث الدين، ووصاه بالإحسان إلى أهلها، ثم سار غياث الدين إلى مدينة سرخس فأخذها صلحاً وسلّمها إلى الأمير زنكي بن مسعود وهو من أولاد عمه وأقطعه معها نسا وأبيورد، ثم سار بالعسكر إلى طوس فأراد الأمير الذي بها أن يمتنع فيها ولا يسلّمها فأغلق باب البلد ثلاثة أيامٍ فضجّ أهل البلد عليه فأرسل إلى غياث الدين يطلب الأمان فأمّنه فخرج إليه فخلع عليه وسيّره إلى هراة، ولما ملكها أرسل إلى علي شاه بن خوارزمشاه علاء الدين تكش وهو نائب أخيه علاء الدين محمد نيسابور يأمره بمفارقة البلد ويُحذّره إن أقام سطوة أخيه شهاب الدين، وكان مع علي شاه عسكر من خوارزمشاه فاتفقوا على الامتناع من تسليم البلد. وسار غياث الدين إلى نيسابور فوصل إليها في أوال شهر رجب سنة ٥٩٧هـ، وتقدّم عسكر أخيه شهاب الدين إلى القتال، فلما رأى غياث الدين ذلك قال لولده محمود: قد سبقنا عسكر غزنة بفتح مرو، وهم يريدون أن يفتحوا نيسابور، فيحصلوا بالاسم، فاحمل إلى البلد، ولا ترجع حتى تصل إلى السور، فحمل، وحمل معه وجوه الغورية فلم يردّهم أحد عن السور حتى رفعوا علم غياث الدين عليه، فلما رأى شهاب الدين علم أخيه على السور، قال

لأصحابه: اقصدوا بنا هذه الناحية، واصعدوا السور من هاهنا، وأشار إلى مكان بالسور فسقط السور متهدّماً فضجّ الناس بالتكبير، وذُهل الخوارزميون وأهل البلد، ودخل الغورية البلد وملكوه عنوةً ونهبوه ساعةً من نهارٍ، فبلغ الخبر غياث الدين فأمر بالنداء من نهب مالاً أو آذى أحداً فدمه حلال فأعاد الناس ما نهبوه عن آخره.
ثم إن الخوارزميين تحصّنوا بالجامع فأخرجهم أهل البلد فأخذهم الغورية ونهبوا مالهم، وأُخذ علي شاه أخو خوارزمشاه علاء الدين محمد، وأُحضر عند غياث الدين راجلاً فأنكر ذلك على من أحضره وعظم الأمر فيه، وأُحضرت دابة كانت لعلي شاه، وقيل لغياث الدين: أهكذا يُفعل بأبناء الملوك؟ فقال: لا، بل هكذا وأخذ بيده وأقعده معه على السرير، وطيّب نفسه، وسيّر جماعة الأمراء الخوارزمية إلى هراة تحت الملاحظة.
وأحضر غياث الدين ابن عمه وصهره على ابنة ضياء الدين محمد بن أبي علي الغوري وولّاه حرب خراسان وخراجها ولقّبه علاء الدين، وجعل معه وجوه الغورية، ورحل إلى هراة، وسلّم عليّ شاه إلى أخيه شهاب الدين، وأحسن إلى أهل نيسابور وفرّق فيهم مالاً كثيراً، ثم رحل بعده شهاب الدين إلى ناحية قهستان فوصل إلى قريةٍ فذُكر له أن أهلها إسماعيلية فأمر بقتل

المقاتلة، ونهب الأموال، وسبى الذراري، وخرب القرية فجعلها خاويةً على عروشها، ثم سار إلى (كناباد) وهي من المدن التي جميع أهلها من الإسماعيلية فنزل عليها وحاصرها فأرسل صاحب قهستان إلى غياث الدين يشكو أخاه شهاب الدين، ويقول: بيننا عهد فما الذي بدا منا حتى تحاصر بلدي، واشتدّ خوف الإسماعيلية الذين بالمدينة من شهاب الدين فطلبوا الأمان ليخرجوا منها فأمّنهم وأخرجهم وملك المدينة وسلّمها إلى بعض الغورية فأقام بها الصلوات وشعائر الإسلام، ورحل شهاب الدين فنزل على حصنٍ آخر للإسماعيلية وصل إليه رسول أخيه غياث الدين، فقال الرسول: معي تقدّم من السلطان فلا يجري حر أدين فعله، فقال: لا أرحل، قال: إذن أفعل ما أمرني، قال: افعل، فسل سيفه وقطع أطناب سرادق شهاب الدين، وقال: ارحل بتقدّم السلطان، فرحل شهاب الدين والعسكر إلى الهند، وهو كاره، ولم يقم بغزنة غضباً لما فعله أخوه معه. وهكذا فإن الغورية قد أخذوا من خوارزمشاه ما كان يملك من خراسان، ونيسابور، ومرو ثم رجعوا عنها بعد أن أقطعوا البلاد من أرادوا ليديروا أمرها لهم، أما شهاب الدين فقد انطلق إلى الهند مغاضباً لأخيه غياث الدين.

فلما وصلت أخبار مغادرة عساكر الغورية إلى

خراسان وذهاب شهاب الدين إلى الهند لخوارزمشاه علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش أرسل إلى غياث الدين يعاتبه ويقول: كنت أعتقد أن تخلف عليّ بعد أبي وأن تنصرني على الخطا وتردّهم عن بلادي فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذيني وتأخذ بلادي، والذي أريد أن تُعيد ما أخذته مني إليّ وإلا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك إن عجزت عن أخذ بلادي فإنني إنما شغلني عن منعكم عنها الاشتغال بعزاء والدي وتقرير أمر بلادي، وإلا فما أنا بعاجزٍ عنكم وعن أخذ بلادك خراسان وغيرها فغالطه غياث الدين بالجواب ليمهد للأيام بالمراسلات ويخرج أخوه شهاب الدين من الهند بالعساكر وإن غياث الدين كان عاجزاً لمرض النقرس الذي أصابه. فلما وقف خوارزمشاه علاء الدين محمد على رسالة غياث الدين أرسل إلى علاء الدين الغوري نائب غياث الدين بخراسان يأمره بالرحيل عن نيسابور ويتهدّده إن لم يفعل، فكتب علاء الدين الغوري إلى سيده غياث الدين بذلك ويعرفه بميل أهل البلد إلى الخوارزميين، فأعاد غياث الدين جوابه يُقوّي قلبه ويعده النصرة له والمنع عنه. وجمع خوارزمشاه عساكره وسار عن خوارزم في نصف شهر ذي الحجة سنة ٥٩٧هـ، فلما قارب نسا

وأبيورد هرب هندوخان ابن أخي خوارزمشاه من مرو إلى غياث الدين بفيروزكوه، وملك خوارزمشاه مدينة مرو، وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين الغوري فحاصره فيها وقاتله قتالاً شديداً، وطال مقامه عليها، وراسله غير مرةٍ في تسليم البلد إليه وهو لا يجيب إلى ذلك انتظاراً للمدد من غياث الدين، فبقي نحو شهرين فلما أبطأت عليه النجدة أرسل إلى خوارزمشاه يطلب الأمان لنفسه ولمن معه من الغورية، وأن لا يتعرّض إليهم بحبسٍ ولا غيره من الأذى فأجابه إلى ذلك وحلف لهم، وخرجوا من البلد، وأحسن خوارزمشاه إليهم ووصلهم بمالٍ جليلٍ وهدايا كثيرةٍ، وطلب من علاء الدين الغوري أن يسعى بالصلح بينه وبين غياث الدين وأخيه شهاب الدين فأجابه إلى ذلك وسار إلى مدينة هراة وفيها إقطاعه، ولم يمض إلى غياث الدين لأنه تأخّر بنجدته. ولما خرج الغورية من نيسابور أحسن خوارزمشاه إلى الحسين بن خرميل، وهو من أعيان أمرائهم، زيادةً على غيره، وبالغ في إكرامه، فقيل: إنه من ذلك اليوم قد استخلفه لنفسه بأن يكون معه بعد غياث الدين وأخيه شهاب الدين.

ثم سار خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى سرخس وبها الأمير زنكي فحاصره أربعين يوماً وجرت بين

الفريقين وقائع كثيرة فضاقت الحاجات على أهل البلد ولا سيما الحطب فأرسل زنكي إلى خوارزمشاه يطلب منه أن يتأخر عن باب البلد حتى يخرج هو وأصحابه ويترك له البلد فراسله خوارزمشاه للاجتماع به ليحسن إليه وإلى من معه، فلم يُجبه إلى ذلك، واحتجّ بقرب نسبه من غياث الدين فابتعد خوارزمشاه عن باب البلد بعساكره فخرج زنكي فأخرج من الغلّات التي في معسكر خوارزمشاه ما أراد ولا سيما الحطب وعاد إلى البلد وأخرج منه من كان قد ضاق به الأمر، وكتب إلى خوارزمشاه (العود أحمد) فندم خوارزمشاه حيث لم ينفعه الندم، ورحل عن البلد وترك عليه جماعة من الأمراء يحاصرونه، فلما ابتعد خوارزمشاه سار محمد بن جربك من مدينة الطالقان وهو من أمراء الغورية، وأرسل إلى زنكي أمير سرخس يُعْلمه أنه يريد أن يكبس الخوارزميين لئلا ينزعج إذا سمع الأصوات، وسمع الخوارزميون الخبر فارتحلوا عن سرخس وخرج زنكي ولقي محمد بن جربك وعسكرا في مرو الروذ، وأخذا خراجها وما يجاورها فسيّر إليهم خوارزمشاه عسكراً مع خاله فلقيهم محمد بن جربك فحمل على صاحب علم الخوارزمية فضربه فقتله فانهزمت الخوارزمية وركبتهم الغورية قتلاً وأسراً نحو خمسة عشر

كيلاً فكانوا ثلاثة آلاف فارسٍ ومحمد بن جربك في تسعمائة فارسٍ وغنم جميع معسكرهم، فلما سمع خوارزمشاه ذلك عاد إلى خوارزم وأرسل إلى غياث الدين في الصلح فأجابه عن رسالته مغالطاً مع أميرٍ كبيرٍ من الغورية يقال له: الحسين بن محمد المرغني[1] فقبض عليه خوارزمشاه، وسار إلى هراة ليحاصرها فكتب الحسين إلى أخيه عمر بن محمد المرغني يخبره بذلك فاستعدّ للحصار، ووصل خوارزمشاه، وحاصر البلد، ونازل أهلها، ثم بلغه قدوم شهاب الدين أخي غياث من الهند بعسكره فراسل خوارزمشاه أمير هراة عمر المرغني وصالحه على مالٍ حمله إليه وارتحل عن البلد.

وصل شهاب الدين بعسكره في أوائل شهر رجب سنة ٥٩٨هـ إلى هراة ومنها سار إلى بلْخ ومنها إلى باميان ثم إلى مرو عازماً على قتال خوارزمشاه وكان نازلاً هناك والتقت طلائع عسكرهما واقتتلوا قتالاً شديداً وقُتل من الفريقين عدد كبير، ثم انسحب خوارزمشاه، وتوجّه شهاب الدين إلى طوس وفي عزيمته المسير إلى خوارزم وحصارها فأمضى فصل الشتاء في طوس فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين فترك المسير

(١) مرغن: من قرى الغور في غرب غزنة.

إلى خوارزم واتجه إلى مدينة هراة، وجلس للعزاء بأخيه في شهر رجب سنة ٣٥٩هـ وقد أُظهرت وفاته، وكان قد توفي في شهر جمادى الأولى وأُخفيت وفاته حتى شهر رجب أي ما يقرب من شهرين.

وغياث الدين الغوري هو أبو الفتح محمد بن سام الغوري وخلف ولداً اسمه محمود ولُقّب بعد وفاة أبيه غياث الدين أي بلقب أبيه.

ولما سار شهاب الدين من طوس استخلف بمرو الأمير محمد بن جربك فسار إليه جماعة من الأمراء الخوارزمية فخرج إليهم محمد ليلاً وبيّتهم فلم ينجُ منهم إلا القليل. فأمر شهاب الدين بالاستعداد لقصد خُوارزم، وجهّز جيشاً وسيّره مع برفور التركي لقتال محمد بن جربك، فسمع بهم فخرج إليهم ولقيهم على سبعين كيلاً من مرو فاقتتلوا قتالاً شديداً وقُتل من الطرفين خلق كثير، وانهزم الغورية ورجع محمد بن جربك إلى مرو في عشرة فرسان، وجاء الخوارزمية وحاصروه خمسة عشر يوماً فضعف عن المقاومة فأرسل في طلب الأمان فحلفوا له إن خرج إليهم على حكمهم لا يقتلونه فخرج فقتلوه وأخذوا كل ما معه، وسمع شهاب الدين الخبر فعظم عليه، وترددت الرسل بينه وبين خوارزمشاه فلم يستقر الصلح، وأراد العودة إلى

غزنة فاستعمل على هراة ابن أخته ألب غازي، وعلى مدينة فيروزكوه فملك الملك علاء الدين محمد بن أبي علي الغوري وجعل إليها حرب خراسان وكل ما يتعلق بالمملكة من أمرٍ، وأتاه محمد ابن أخيه غياث الدين فولاه مدينة بست وناحيتها وجعله بمعزلٍ عن الملك، ولم يحسن رعايته بعد أبيه.

وعاد خوارزمشاه علاء الدين محمد إلى مدينة هراة في أول شهر رجب سنة ٦٠٠هـ وألقى الحصار عليها وفيها ألب غازي ابن أخت شهاب الدين الغوري وذلك بعد مراسلاتٍ جرت بينهما بالصلح فلم يتم، وكان شهاب الدين قد سار من غزنة إلى لاهور عازماً غزو الهند، فأقام خوارزمشاه على حصار هراة إلى نهاية شعبان، وكان القتال مستمراً والقتل من الفريقين كثيراً.

كان الحسين بن خرميل في كرزيان أميراً لها فأرسل إلى خوارزمشاه يقول: أرسل إليّ عسكراً لنسلّم إليهم الفيلة وخزانة شهاب الدين فأرسل إليه ألف فارسٍ من أعيان عسكره إلى كرزيان فخرج عليهم فقتلهم إلا القليل فبلغ الخبر إلى خوارزمشاه فأُسقط ما في يديه وندم على إرسال العسكر، فأرسل إلى ألب غازي يطلب منه أن يخرج إليه من البلد ويخدمه خدمةً سلطانيةً ليرحل عنه فلم يُجبه إلى ذلك، ولكن لم يلبث أن مرض ألب غازي

واشتدّ عليه المرض فخاف أن يشغله مرضه فيملك خوارزمشاه البلد فأجابه إلى ما طلب واستحلفه على الصلح، وأهدى إليه هديةً جليلةً وخرج من البلد ليخدمه فسقط إلى الأرض ميتاً ولم يشعر أحد بذلك، ورحل خوارزمشاه عن البلد وسار إلى سرخس فأقام بها.

رجع شهاب الدين الغوري إلى خراسان في شهر رمضان سنة ٦٠٠هـ وترك قصده الهند الذي كان قد عزم عليه وذلك بعد أن بلغه حصار خوارزمشاه لهراة وموت ألب غازي نائبه بها، فرجع حاقداً على خوارزمشاه فلما بلغ ميمنة[١] عدل إلى طريقٍ أخرى قاصداً خوارزم، فأرسل له خوارزم شاه يقول له: ارجع إليّ لأُحاربك وإلا سرت إلى هراة ومنها إلى غزنة، وكان خوارزمشاه قد سار من سرخس إلى مرو فأقام بظاهرها، فأعاد إليه شهاب الدين جوابه لعلك تنهزم كما سبق أن هُزمت لكن خوارزم تجمعنا، ففرق خوارزم شاه عساكره، وأحرق ما جمعه من العلف ورحل يسابق شهاب الدين إلى خوارزم فسبقه إليها فقطع الطريق وأجرى فيها المياه فتعذّر على شهاب الدين سلوكها وأقام أربعين يوماً يصلحها حتى أمكنه الوصول إلى خوارزم والتقى

(١) مِيمْنة: بلدة بين مرو الروذ وبلْخ.

العسكران بـ«صوقره» وتعني النهر الأسود فجرى بينهما قتال شديد كثرت فيه القتلى من الجانبين وممن قُتل من الغورية الحسين المرغني وأُسرت جماعة من الخوارزمية فأمر شهاب الدين بقتلهم فقُتلوا، فأرسل خوارزمشاه إلى الأتراك الخطا، وهم يومذاك أصحاب بلاد ما وراء النهر، يستنجدهم، فاستعدّوا وساروا إلى بلاد الغورية، فلما بلغ ذلك شهاب الدين رحل عن خوارزم وسار نحو بلاده فلقي طلائع الأتراك الخطا في صحراء مطلع شهر صفر سنة ٦٠١هـ فقتل فيهم كثيراً وأسر كثيراً فلما كان اليوم التالي جاءه من الأتراك الخطا ما لا طاقة له بهم فانهزمت الغورية هزيمةً قبيحةً ثم جرى الصلح، وسار شهاب الدين إلى الطالقان ومنها إلى غزنة. وأُشيع مقتل شهاب الدين فعمّت الفوضى في غزنة حتى عاد إليها. وأمر شهاب الدين في بلاده كلها بالاستعداد لقتال الخطا. كما قاتل الإسماعيلية الذين في خراسان.

كان بنو كوكر في الهند في منطقة لاهور قد أطاعوا شهاب الدين وحملوا له الخراج فلما بلغهم إشاعة مقتله ثاروا فيمن معهم من القبائل وقطعوا الطرقات فلما وصل الخبر إلى شهاب الدين أرسل إلى نائبه في لاهور والملتان وهو محمد بن أبي علي يأمره بحمل المال إليه لمدة سنتين وهما سنة ٦٠٠هـ وسنة

٦٠١هـ ليتجهّز به لحرب الخطا الأتراك فأجابه أن بني كوكر قد قطعوا الطريق ولا يمكنه إرسال المال، وحضر جماعة من التجار وذكروا أن قافلةً كبيرةً قد أخذها بنو كوكر ولم ينجُ منها إلا القليل، فأمر شهاب الدين مملوكه أيبك مقدم عساكر الهند أن يراسل بني كوكر يدعوهم إلى الطاعة ويتهددهم إن لم يجيبوا، ففعل ذلك، فقال بنو كوكر: لأي معنى لم يرسل السلطان إلينا رسولاً، فقال له الرسول: وما قدركم أنتم حتى يرسل إليكم، وإنما مملوكه يُبصّركم رشدكم ويتهددكم، فقال بنو كوكر: لو كان شهاب الدين حياً لراسلنا وقد كنا ندفع الأموال إليه فحيث قُتل فقل لأيبك يترك لنا لاهور وما والاها، ونحن نصالحه، فقال الرسول: ابعث أنت عيناً لك نثق به يأتيك بخبر شهاب الدين، فلم يصغِ إلى قوله، فردّه فعاد وأخبر بما سمع ورأى، فأمر شهاب الدين مملوكه قطب الدين أيبك بالعودة إلى بلاده وجمع العساكر وقتال بني كوكر فعاد إلى دهلي وأمر عساكره بالاستعداد، وأقام شهاب الدين في مكانه إلى نصف شهر شعبان سنة ٦٠١هـ، ثم عاد إلى غزنة فوصل إليها في أول شهر رمضان وأمر بالنداء في العساكر بالاستعداد لقتال الخطا، وأن المسير سيكون ـ إن شاء الله ـ في أول شهر شوال، فتجهّزوا لذلك.

فاتفق أن الشكايات قد كثرت من بني كوكر وما يقومون من قطع الطرق وإخافة السُّبل، ووافقهم أكثر الهنود، وخرجوا عن طاعة أمير لاهور والملتان وغيرهما، ووصل كتاب الوالي يذكر ما قد دهمه منهم، وأن عماله قد أخرجهم بنو كوكر وجبوا الخراج، وأن مقدمهم ابن كوكر أرسل إليه ليترك له لاهور والبلاد وإلا قتله، ويقول له: إن لم يحضر السلطان شهاب الدين بنفسه ومعه العساكر خرجت البلاد من يده، وتحدث الناس عن كثرة من معهم من الجموع وما لهم من القوة فتغيّر عزم شهاب الدين عن غزو الخطا، وأخرج خيامه، وسار من غزنة في الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٦٠٢هـ، وانقطعت أخباره بعد أن ابتعد حتى أرجف الناس بانهزامه، ووصل إلى شهاب الدين الخبر عن الموضع الذي يعسكر فيه ابن كوكر وجنده فجدّ إليه السير وداهمه قبل الوقت الذي كان يتوقّعه فاقتتلوا قتالاً شديداً يوم الخميس لخمسٍ بقين من شهر ربيع الثاني سنة ٦٠٢هـ من فجر ذلك اليوم إلى ما بعد العصر، وبينما هم في القتال إذ أقبل قطب الدين أيبك في عساكره فنادوا بشعار الإسلام وحملوا حملةً صادقةً فانهزم بنو كوكر وجموعهم وقصدوا أجمةً هناك فاحتموا بها، وأشعلوا النار للتدفئة وجاءتهم جموع شهاب الدين

فذهب بنو كوكر قتلاً وحرقاً وغنم المسلمون منهم كثيراً إذ كانت أموالهم وأهلوهم معهم. وسار شهاب الدين إلى لاهور ليؤمن أهلها ويسكّن روعهم، وأمر الناس بالرجوع إلى بلادهم والاستعداد لحرب الخطا. وأقام شهاب الدين في لاهور إلى السادس عشر من شهر رجب وعاد بعدها إلى غزنة، وأرسل إلى بهاء الدين سام صاحب باميان[1] ليتجهّز للمسير إلى سمرقند ويعمل جسراً ليعبر هو وعساكره عليه.

وفي أول ليلةٍ من شهر شعبان سنة ٦٠٢هـ وقت صلاة العشاء كان شهاب الدين أبو المظفر محمد بن سام الغوري يحمل أموالاً كثيرةً يريد أن يوزّعها على العساكر في سبيل زيادة عددهم ليقصد بلاد الخطا وقد أمر عسكره بالهند باللحاق به وأمر عساكره بخراسان بالاستعداد إلى أن يصل إليهم فانقضّ عليه بعض أفرادٍ من بني كوكر كانوا يراقبونه فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربةً فقتلوه وهو ساجد في مصلاه. كما قيل: إن الإسماعيلية هم الذين قتلوه لأنهم خافوا خروجه إلى خراسان حيث كان له هناك عساكر يحاصرون بعض قلاعهم.

---

(١) باميان: بلدة في الجبال بين بلخ وهراة وغزنة، بها قلعة حصينة، القصبة صغيرة وتوابعها واسعة.

اجتمع الأمراء عند وزيره مؤيد الملك وتحالفوا على حفظ الخزانة والملك، وكتموا قتل سلطانهم شهاب الدين، وخيّطوا جراحه وجعلوه في المحفة وساروا به، وجرى الخلاف فيمن يتولّى الأمر بعده، وكان الخلاف حول غياث الدين محمود بن غياث الدين أخي شهاب الدين وبين بهاء الدين سام ابن أخت شهاب الدين وكان صاحب باميان.

كتب بهاء الدين سام إلى الأمراء الغورية الذين بغزنة يأمرهم بحفظ البلد، ويعرّفهم أنه على الطريق سائر إليهم وكان والي قلعة غزنة يعرف بأميردار وقد أرسل ابنه إلى بهاء الدين سام يستدعيه إلى غزنة، فأعاد جوابه أنه تجهّز ويصل إليه، ويعده الجميل والإحسان. وكتب بهاء الدين سام إلى ملك الغور محمد بن أبي علي، يستدعيه، وإلى غياث الدين، وإلى والي هراة يأمرهما بإقامة الخطبة له، وحفظ ما بأيديهما من الأعمال، وما كان يظنّ أن أحداً يخالفه فأقام أهل غزنة والغورية ينتظرون وصوله أو وصول غياث الدين محمود، والأتراك يقولون: لا نترك غير ابن سيدنا يعنون غياث الدين محمود يدخل غزنة. والغورية يتظاهرون بالميل إلى بهاء الدين سام ومنع غيره.

سار بهاء الدين سام من باميان إلى غزنة في عساكره

ومعه ولداه علاء الدين محمود وجلال الدين فلما سار عن باميان مسافة خمسين كيلاً وجد صداعاً فنزل للراحة عسى أن يخفّ ما يجد من ألمٍ فازداد الصداع واشتدّ فأيقن بالموت فأحضر ولديه وعهد إلى علاء الدين محمود من بعده، وأمرهما بالذهاب إلى غزنة والإحسان إلى مشايخ الغورية، وضبط الملك، والرفق بالرعية وبذل الأموال، ومصالحة غياث الدين على أن يكون له خراسان وبلاد الغور ويكون لهما غزنة وبلاد الهند.

توفي بهاء الدين سام فسار ولداه إلى غزنة فخرج أمراء الغورية وأهل البلد للقائهما وخرج الأتراك معهم على كرهٍ منهم، ودخلا البلد وملكاه، ونزلا دار السلطنة في مستهل شهر رمضان سنة ٦٠٢هـ، وكانا قد وصلا إلى غزنة في ضرٍّ وقلّةٍ من العسكر، وأراد الأتراك منعهما فنهاهما مؤيّد الملك وزير شهاب الدين لقلّتهم ولاشتغال غياث الدين محمود بوالي هراة ابن خرميل، ولما استقرا بالقلعة ونزلا بِدار السلطنة راسلهما الأتراك في غزنة بأن يخرجا من دار السلطنة وإلا قاتلوهما ففرّقا فيهم أموالاً كثيرةً وأخذا منهم العهد فحلفوا لهما وتكلّموا بحق غياث الدين محمود، وبعثا خلعاً إلى تاج الدين الدز أكبر مماليك شهاب الدين وأخبراه أنه بإقطاعه، وطلباه إلى طاعتهما، ووعداه بالأموال

والزيادة بالإقطاع وإمارة الجيش والحكم في جميع الممالك، فأتاه مندوبهما وقد سار بجيشٍ كثيفٍ من الترك فأبلغه الرسالة، فلم يلتفت إليه، وقال: قل لهما يعودان إلى باميان وفيها كفاية، فإني قد أمرني مولاي غياث الدين محمود أن أسير إلى غزنة وأمنعهما عنها، فإن عادا إلى بلدهما قضي الأمر وإلا فعلت بهما ما يكرهان، وردّ ما معه من الهدايا والخلع، ولم يكن قصد تاج الدين الدز بهذا حفظ ملك صاحبه بل أراد أن يجعل هذا طريقاً إلى ملك غزنة لنفسه فعاد المبعوث وأبلغ علاء الدين محمود رسالة تاج الدين الدز، فأرسل علاء الدين محمود وزيره وكان من قبل وزير أبيه إلى باميان، وبلّخ، وترمذ وغيرها ليجمع العسكر ويعود إليه، فأرسل تاج الدين الدز إلى الأتراك الذين بغزنة يعرّفهم أن غياث الدين أمره أن يقصد غزنة ويخرج علاء الدين وأخاه منها، فحضروا عند وزيره علاء الدين محمود وطلبوا منه سلاحاً ففتح خزانة السلاح، وهرب ابن الوزير إلى علاء الدين، وقال له ما قد كان، فلم يستطع أن يفعل شيئاً، وسمع مؤيد الملك وزير شهاب الدين فركب وأنكر على الخازن تسليم المفاتيح وأمره فاستردّ ما نهبه الترك جميعه لأنه كان مطاعاً فيهم، ووصل تاج الدين الدز إلى غزنة فأخرج إليه علاء الدين

جماعةً من الغورية ومن الأتراك وفيهم «صونج» صهر تاج الدين الدز. فأشار أصحاب علاء الدين عليه ألا يفعل وينتظر العسكر مع وزيره فلم يقبل منهم، وسيّر العساكر فالتقوا في الخامس من شهر رمضان فلما التقوا تركوا جانب علاء الدين وانحازوا إلى جانب تاج الدين الدز فانهزم عسكر علاء الدين وأُسر مقدمهم محمد بن علي بن حردون، ودخل عسكر تاج الدين الدز مدينة غزنة فنهبوا بيوت الغورية وبيوت أهل باميان، وحاصر تاج الدين الدز القلعة فخرج منها جلال الدين في عشرين فارساً، كما خرج من غزنة علاء الدين.

أظهر تاج الدين الدز الطاعة لغياث الدين ولكن لم يأمر الخطيب بالخطبة له وبعد أربعة أيامٍ أحضر العلماء ومقدمي الغورية والأتراك، وانتقل إلى الدار السلطانية وطلب أن يخاطب بالملك وذلك في السادس عشر من شهر رمضان سنة ٦٠٢هـ فتغيّرت نيات كثيرٍ من الناس نحوه. وأرسل غياث الدين محمود إلى تاج الدين الدز يشكر له فعله بإخراج ولدي بهاء الدين من غزنة، وسيّر إليه الخلع وطلب منه الخطبة والسكة، فلم يفعل، وأعاد له الرسالة فغالطه وطلب منه أن يخاطب بالملك وأن يعتقه من الرقّ لأن غياث الدين محمود هو ابن أخي سيده شهاب الدين ولا وارث له سواه، وأن ابنه

تزوج ابنة تاج الدين الدز فلم يجبه إلى ذلك. وألزم تاج الدين الدز مؤيد الملك وزير شهاب الدين سابقاً أن يكون وزيراً له فأجابه على كرهٍ بعد تمنّعٍ.

كان غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد في «بُست»، وكان شهاب الدين قد ولّى علاء الدين بن محمد بن أبي علي بلاد الغور، فلما بلغ علاء الدين مقتل شهاب الدين أسرع إلى فيروزكوه خوفاً من أن يسبقه إليها غياث الدين محمود فيملك البلد ويأخذ الخزائن التي بها. وكان علاء الدين حسن السيرة من أكابر بيوت الغورية غير أن الناس قد كرهوه لميلهم إلى غياث الدين. فلما وصل علاء الدين إلى فيروزكوه أحضر جماعةً من الأمراء منهم محمد المرغني وأخوه ومحمد بن عثمان وهم من أكابر الأمراء وحلفهم على مساعدته على قتال خوارزمشاه وبهاء الدين صاحب باميان، ولم يذكر غياث الدين لعدم الاهتمام به حسب الظاهر فحلفوا له ولولده من بعده. كان غياث الدين محمود بمدينة بُست لم يتحرك من مكانه انتظاراً لما يكون من بهاء الدين صاحب باميان لأنهما كانا قد تعاهدا أيام شهاب الدين على أن تكون خراسان لغياث الدين وتكون غزنة والهند لبهاء الدين، وكان بهاء الدين أقوى فلهذا لم يفعل شيئاً. فلما بلغ

غياث الدين محمود خبر موت بهاء الدين جلس على سرير الملك وخطب لنفسه بالسلطنة بالعاشر من شهر رمضان، وأخذ القسم من الأمراء الذين قصدوه، وتلقّب بألقاب أبيه غياث الدين، وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبي علي وهو في مدينة فيروزكوه يستدعيه إليه ويستعطفه ليصدّه عن رأيه ويسلّم مملكته إليه، وكتب إلى الحسين بن خرميل والي هراة مثل ذلك أيضاً، ووعده الزيادة في الإقطاع، فأما علاء الدين فأغلظ له في الجواب، وكتب إلى الأمراء الذين معه يتهدّدهم فرحل غياث الدين إلى فيروزكوه فأرسل علاء الدين عسكراً مع ولده ووزّع عليهم مالاً كثيراً ليمنعوا غياث الدين فالتقوا به قريباً من فيروزكوه فلما تراءى الجمعان كشف إسماعيل الخلجي المغفر عن وجهه، وقال: الحمد لله أن الأتراك الذين لا يعرفون آباءهم لم يُضيّعوا حق التربية وردّوا ابن ملك باميان، وأنتم مشايخ الغورية الذين أنعم عليكم والد هذا السلطان وربّاكم وأحسن إليكم كفرتم الإحسان وجئتم تقاتلون ولده، أهذا فعل الأحرار؟ فقال محمد المرغني وهو مقدم العسكر الذين يصدرون عن رأيه: لا والله. ثم ترجّل عن فرسه وألقى السلاح وقصد غياث الدين وقبّل الأرض بين يديه وبكى بصوتٍ عالٍ، وفعل سائر الأمراء كذلك فانهزم

أصحاب علاء الدين مع ولده، فلما وصل خبر ذلك إلى علاء الدين خرج من فيروزكوه هارباً نحو الغور فأرسل غياث الدين خلفه من ردّه إليه وأخذه وسجنه وملك فيروزكوه وسُرّ أهل البلد بذلك، وقبض غياث الدين محمود على جماعةٍ من أصحاب علاء الدين وقتل بعضهم. ولما دخل غياث الدين محمود فيروزكوه سار إلى الجامع فصلى فيه، ثم سار إلى دار أبيه فاتخذها سكناً له، وسار على نهج أبيه واتخذ حاشيته حاشيةً له.

دعا غياث الدين محمود إلى طاعته والي هراة ابن خرميل فاستدعاه إليه فغالطه بالجواب إذ كان قد كاتب خوارزمشاه يطلب منه أن يرسل له عسكراً ليصير في طاعته ويمتنع بهم على الغورية فطلب منه خوارزمشاه أن يبعث إليه ولده رهينةً يكون لديه ويرسل إليه عسكراً، فأرسل ابن خرميل ولده إلى خوارزمشاه، فكتب خوارزمشاه إلى عسكره الذين بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان يأمرهم بالتوجّه إلى هراة وأن يكونوا تحت تصرّف ابن خرميل. وغياث الدين محمود لا يزال يبعث الكتب إلى ابن خرميل وهو يحتجّ بأسبابٍ واهيةٍ ولكن لا تجعل غياث الدين محمود يقطع الأمل من طاعته، وابن خرميل ينتظر عسكر خوارزمشاه غير أن الأمير علي بن أبي علي أخبر غياث الدين على وضع ابن

خرميل فعزم غياث الدين المسير إلى هراة ولكن بعض أمراء غياث الدين أشاروا عليه بالانتظار إلى آخر المشوار، واستشار الحسين بن خرميل قاضي هراة بالأمر فأشار عليه بالخطبة لغياث الدين وترك المماطلة فبعث برسالةٍ إلى غياث الدين وقصد ابن خرميل بذلك إبعاده عنه، فذهب بالرسالة إلى غياث الدين وأعلمه بميل ابن خرميل إلى خوارزمشاه وحثّه على المسير إلى هراة وقال له: أنا أُسلّمها إليك ساعة وصولك إليها، فوافقه بعض أمرائه على ذلك وخالفه آخرون.

وصلت عسكر خُوارزم إلى هراة فلقيهم الحسين بن خرميل وأنزلهم على باب البلد، فقالوا له: أمرنا خوارزمشاه أن لا نخالف لك أمراً فشكر لهم على ذلك، وكان يخرج إليهم كل يومٍ ويُقدّم لهم ما يطلبون، ووصل الخبر إلى الحسين بن خرميل أن خوارزمشاه قد نزل على بلْخ وحاصرها فلقيه صاحبها وقاتله بظاهر البلد فلم ينزل بالقرب منها بل على بُعد خمسةٍ وعشرين كيلاً فندم الحسين بن خرميل على طاعة خوارزمشاه، وقال لخواصه: لقد أخطأنا حيث صرنا مع هذا الرجل فإنني أراه عاجزاً، وشرع في إعادة العسكر إليه، وقال لأمراء العسكر: إن خوارزمشاه قد أرسل إلى غياث الدين محمود يقول له: إنني على العهد الذي بيننا وأنا أترك ما

كان لأبيك بخراسان، والمصلحة أن ترجعوا حتى ننظر ما سيكون فعادوا وأرسل إليهم الهدايا الكثيرة.

أخذ غياث الدين إقطاعات الحسين بن خرميل وماله وما يملك من دواب وغيرها، وأخذ أصحابه في القيود، ووصلت إلى ابن خرميل رسائل ممن يميل إليه من الغورية، يقولون له: إن رآك غياث الدين قتلك، ولما سمع أهل هراة بما فعل غياث الدين بأهل الحسين بن خرميل وماله عزموا على القبض عليه وتسليمه إلى غياث الدين. ولما علم ابن خرميل ما فعله غياث الدين بأهله وماله، وما قرّره أهل مدينة هراة أن يفعلوه به وخاف أن يعاجلوه بالقبض فحضر عند القاضي وجمع أعيان البلد وألان لهم القول وتقرّب منهم، وأظهر طاعة غياث الدين، وقال: قد رددت عسكر خوارزمشاه، وأريد أن أرسل رسولاً إلى غياث الدين بطاعتي والذي أؤثره منكم أن تكتبوا معه كتاباً بطاعتي فاستحسنوا قوله وكتبوا له ما طلب وسيّر رسوله إلى فيروزكوه، وأمره إذا جنّ عليه الليل أن يرجع على طريق نيسابور ليلحق بعسكر خوارزمشاه ويجدّ السير فإذا لحق بهم ردّهم إليه، ففعل الرسول ما أمره، ولحق عسكر خوارزمشاه على يومين من هراة فأمرهم بالعودة فعادوا، فلما كان اليوم الرابع من سير الرسول

وصلوا إلى هراة والرسول بين أيديهم فلقيهم ابن خرميل وأدخلهم البلد والطبول تضرب بين أيديهم، فلما دخلوا البلد نكّل ببعض العلماء وأخرج القاضي فذهب إلى غياث الدين بفيروزكوه، وأخرج من في البلد من الغورية وكل من يريدهم، وسلّم أبواب البلد إلى الخوارزمية. وأما غياث الدين فقد سار من فيروزكوه نحو هراة مع عسكره، وشنّ الخوارزمية في هراة غارةً على مدينة مرو الروذ وغيرها. وأمر غياث الدين عسكره بالتقدم إلى هراة وجعل المقدم عليهم علي بن أبي علي، وعاد هو فأقام بفيروزكوه عندما بلغه أن خوارزمشاه قد أصبح في مدينة بلْخ.

هاجم الحسين بن خرميل عسكر غياث الدين فجأةً وانتصر عليهم، وشنّ غارات على بعض البلدان التابعة لغياث الدين، فعظم الأمر على غياث الدين فعزم السير بنفسه إلى هراة فأتاه الخبر بأن علاء الدين صاحب باميان قد عاد إلى غزنة، وأن خوارزمشاه لما بلغه مقتل شهاب الدين أخرج من كان عنده من الأسرى الغورية إلى باب خوارزم فخلع عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم الأموال وقال: إن غياث الدين أخي ولا فرق بيني وبينه فمن أحب منكم المقام عندي فليقم ومن أحب أن يسير إليه فإنني أسيّره ولو أراد مني مهما أراد نزلت له عنه،

وعهد إلى محمد بن علي بن بشير وهو من أكابر الأمراء الغورية فأحسن إليه استمالةً للغورية وجعله سفيراً بينه وبين صاحب بلْخ وسيّر أخاه علي شاه بين يديه في عسكره إلى بلْخ فلما اقترب منها خرج إليه عماد الدين عمر بن الحسين الغوري أميرها فدفعه عن النزول عليها فنزل على بُعد خمسةٍ وعشرين كيلاً منها، فأرسل إلى أخيه خوارزمشاه يعلمه قوتهم فسار إليها في شهر ذي القعدة سنة ٦٠٢هـ فلما وصل إليها خرج إليهم صاحبها فقاتلهم فلم يستطع منعهم لكثرتهم فنزلوا فصار يوقع بهم ليلاً فكانوا على حالٍ غير طيبةٍ وأقام صاحب بلْخ مُلقىً عليه الحصار ينتظر المدد من أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان وقد كانوا في قتالٍ بغزنة، فأقام خوارزمشاه على مدينة بلْخ أربعين يوماً، كل يومٍ يُنازل أهلها فيخسر الكثير من أصحابه قتلى ولا يظفر بشيءٍ فراسل صاحبها عماد الدين عمر بن الحسين الغوري مع محمد بن علي بن بشير الغوري وبذل له الكثير ليسلّم له البلد فلم يُجبه إلى ذلك، وقال: لا أسلم البلد إلا إلى أصحابه فعزم السير إلى هراة. وسار أصحابه أولاد بهاء الدين صاحب باميان إلى غزنة مرةً ثانيةً ووقعوا في أسر تاج الدين الذز فرجع خوارزمشاه عن عزمه بالسير إلى هراة وأرسل محمد بن علي بن بشير إلى عماد الدين

عمر بن الحسين الغوري يعرفه حال أصحابه وأسرهم، وأنه لم يبق له حجة وليس له في التأخّر عذر فدخل عليه ولم يزل يخدعه تارةً يرغّبه وتارةً يرهبه حتى أجاب إلى طاعة خوارزمشاه والخطبة له وذكر اسمه على السكة، وقال: أنا أعلم أنه لا يفي له، وأرسل من يستحلفه على ما أراد فتمّ الصلح وخرج إلى خوارزمشاه فخلع عليه وأعاده إلى بلده، وكان ذلك في نهاية شهر ربيع الأول سنة ٦٠٣هـ. ثم سار خوارزمشاه إلى بلدة كرزيان[١] ليحاصرها وبها علي بن أبي علي، وأرسل إلى غياث الدين يقول له: إن هذه كان قد أقطعها عمك شهاب الدين لابن خرميل فتنزل عنها فامتنع وقال: بيني وبينكم السيف، فأرسل إليه خوارزمشاه مع محمد بن علي بن بشير فرغّبه وجعله يائساً من نجدة غياث الدين ولم يزل به حتى نزل عنها وسلّمها وعاد إلى فيروزكوه، فأمر غياث الدين بقتله فشفع فيه الأمراء وسلّم خوارزمشاه كرزيان إلى ابن خرميل، ثم أرسل إلى عماد الدين عمر بن الحسين صاحب بلْخ يطلبه إليه ويقول له: احضر معهم ولا غنىً عن حضورك فأنت اليوم من أخصّ أوليائنا فحضر عنده فقبض عليه وسيّره

---

(١) كرزيان: بلدة قرب الطالقان، وهي من قرى مدينة مرو الروذ.

إلى خُوارزم، ومضى هو إلى بلْخ فأخذها وجعل جعفر التركي نائباً له بها.

بعد أن أخذ خوارزمشاه مدينة بلْخ سار عنها إلى مدينة ترمذ مُجدّاً في سيره، وبها ولد عماد الدين عمر بن الحسين الغوري الذي كان صاحب بلْخ فأرسل إليه محمد بن علي بن بشير يقول له: إن أباك قد صار من أكابر أمراء دولتي ومن أقربهم إليّ وقد سلّم إليّ مدينة بلْخ وإنما ظهر لي منه ما أنكرته فسيّرته إلى خوارزم مكرماً محترماً، وأما أنت فتكون عندي أخاً ووعده وأقطعه الكثير فخدعه محمد بن علي، ورأى صاحب ترمذ أن خوارزمشاه قد حصره من جانبٍ وحصره الخطا من جانبٍ آخر، وأصحابه قد أسرهم تاج الدين الدز بغزنة فضعفت نفسه فأرسل من يستحلف له خوارزمشاه فحلف له وتسلّم منه ترمذ، وقام بدوره فسلّمها إلى الخطا، وقد اكتسب بذلك خوارزمشاه سبةً عظيمةً وذكراً قبيحاً ثم ظهر للناس بعد ذلك أنه إنما سلّمها إليهم ليتمكّن بذلك من ملك خراسان ثم يعود إليهم فيأخذها وغيرها منهم لأنه لما ملك خراسان وقصد بلاد الخطا وأخذها وأفناهم ظهر أنه فعل ذلك خديعةً ومكراً.

كان تاج الدين الدز التركي قد وصل إلى غزنة وأخرج منها علاء الدين محمود وجلال الدين ولدي

بهاء الدين سام صاحب باميان وذلك بعد أن ملكها وأقام هو في غزنة من العاشر من شهر رمضان سنة ٦٠٢هـ إلى الخامس من شهر ذي القعدة من السنة نفسها، وعدل بين الرعية، وأقطع البلاد للأجناد فبعضهم أقام وآخرون ساروا إلى غياث الدين، ولم يخطب لأحدٍ ولا لنفسه، وكان يقول للرعية: إن رسولي عند مولاي غياث الدين محمود فإذا عاد خطبت له فكان يفرحون بقوله، وإنما يفعل ذلك مكراً، وخديعةً بهم بل وبغياث الدين لأنه لو لم يظهر ذلك لفارقه الكثير وعندها لا يستطيع مقاومة صاحب باميان، فلما ظفر بصاحب باميان أظهر ما كان يضمره، وبينما هو على ذلك إذ جاء الخبر بقرب علاء الدين وجلال الدين ولدي بهاء الدين سام صاحب باميان مع العساكر الكثيرة، وأنهم قد عزموا على نهب مدينة غزنة واستباحة الأموال والأنفس فوقع الخوف في قلوب سكان غزنة، وجهّز تاج الدين الدز وسيّرهم إلى طريق الغزاة والتقت طلائع الفريقين فقتل كثير من الأتراك وأدركهم الغزاة ولم يكن لعساكر غزنة قوة بالقادمين فانهزموا وتبعهم عساكر علاء الدين يقتلون ويأسرون ووصل المنهزمون إلى غزنة فخرج عنها تاج الدين الدز منهزماً إلى كرمان فأدركه نحو ثلاثة آلافٍ من عسكر باميان فقاتلهم قتالاً

شديداً وردّهم عنه، ووصل إلى كرمان وأخذ منها مالاً كثيراً وسلاحاً وفرّقه على العساكر.

لم يدخل علاء الدين وأخوه جلال الدين غزنة بل تبعا تاج الدين الدز فسمع بهما فسار عن كرمان فنهب الناس بعضهم بعضاً، وملك علاء الدين كرمان وأمّن أهلها وعزم على العودة مع أخيه وعسكرهما إلى غزنة ونهبها فسمع أهلها بذلك فقصدوا القاضي وشكوا إليه حالهم فمشى إلى وزير علاء الدين وأخبره بحال الناس فطيّب قلوبهم، ولكن أخبرهم غيره أنهم مجمعون على النهب فاستعدّوا وضيّقوا أبواب الدروب والشوارع، وأعدوا العرادات والأحجار، وبعد وساطاتٍ كثيرةٍ وعدوا بالتعويض للناس والتجار إذا تمّ النهب. ووصلت العساكر إلى غزنة فى أواخر شهر ذي القعدة سنة ٦٠٢هـ، وعزم علاء الدين على أن يستوزر مؤيد الملك، وسمع أخوه جلال الدين بذلك فأحضر مؤيد الملك وخلع عليه واستوزره، فلما سمع علاء الدين بذلك قبض على مؤيد الملك وقيّده وسجنه، فلما رأى السكان ذلك تغيّرت نيّاتهم واختلفوا، ثم إن علاء الدين وجلال الدين قد اقتسما أموال الخزانة وجرى بينهما من المشاحنة ما لا يجري بين التجار. ثم إن جلال الدين وعمه عباساً سارا في بعض العسكر إلى باميان وبقي

علاء الدين بغزنة فأساء وزيره عماد الملك السيرة مع الجند والرعية، ونهب أموال الأتراك.

جمع تاج الدين الدز عسكراً كثيراً وسار بهم إلى غزنة فملكوا في طريقهم بعض البلدان وقتلوا جماعةً من الغورية ووصل المنهزمون إلى كرمان فسار تاج الدين الدز وراءهم، وكان في كرمان عسكر لعلاء الدين ووصل عسكر تاج الدين الدز إلى كرمان وهجموا على المدينة وقتلوا عسكر علاء الدين عن آخرهم، ووصل خبر ذلك إلى غزنة في العشرين من شهر ذي الحجة سنة ٦٠٢هـ، وملك تاج الدين الدز كرمان وأحسن إلى أهلها.

أرسل علاء الدين وزيره الصاحب إلى أخيه جلال الدين في باميان يستنجده ويخبره خبر تاج الدين الدز. وكان قد أعدّ العسكر ليسير إلى بلْخ ليطرد منها خوارزمشاه، فلما جاءه الخبر ترك ما عزم عليه واتجه إلى غزنة، وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه وقصدوا غياث الدين محمود.

وصل تاج الدين الدز إلى غزنة في أواخر شهر ذي الحجة سنة ٦٠٢هـ ونزل مع عسكره مقابل القلعة وحاصر علاء الدين وجرى بينهما قتال شديد، ونادى تاج الدين بالأمان وتهدئة الناس من أهل البلد والغورية

وعسكر باميان. ووصل جلال الدين في أربعة آلاف فارسٍ من عسكر باميان وغيرهم، فسار إليهم تاج الدين بعد أن أقام محاصراً غزنة أربعين يوماً، فلما سار تاج الدين وجنده سيّر علاء الدين وراءهم من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا عسكر تاج الدين من خلفهم ويكون جلال الدين مع عسكره من أمامهم فيقع تاج الدين بين عسكر الأخوين، التقى تاج الدين وعسكره مع جلال الدين وعسكره فانهزم جلال الدين وعسكره ووقع جلال الدين أسيراً وحُمل إلى تاج الدين الدز فلما رآه تاج الدين ترجّل وقبّل يده وأمر بالحفاظ عليه وعاد إلى غزنة ومعه جلال الدين أسيراً مع ألف أسيرٍ آخرين من أهل باميان كما غنم أصحاب تاج الدين أموال عسكر جلال الدين، فلما وصلوا إلى غزنة أرسل إلى علاء الدين يقول له: سلّم القلعة وإلا قتلت من معي من الأسرى فلم يُسلّمها، فقتل من الأسرى أربعمائةٍ مقابل القلعة، فلما رأى علاء الدين ذلك أرسل مؤيد الملك يطلب الأمان فأمّنه تاج الدين، فلما خرج أقبل عليه ووكّل به وبأخيه من يحميهما، وقبض على وزيره لسوء سيرته. وكان هندوخان ملكشاه بن خوارزمشاه علاء الدين تكش مع علاء الدين محمود بقلعة غزنة فلما خرج قبض عليه أيضاً وكتب إلى

غياث الدين محمود بالفتح وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى.

سار نحو عشرة آلف فارس من عسكر خوارزم سنة ٦٠٢هـ إلى بلاد الجبل فوصلوا إلى زنجان قرب قزوين وكان صاحبها مشغولاً مع صاحب أربيل وصاحب مراغة واغتنموا فرصة غياب صاحب زنجان فأغاروا على البلد، فلما عاد صاحب زنجان إلى بلده التقى مع الخوارزمية واشتدّ القتال بين الفريقين ثم انهزم الخوارزمية وقُتل منهم عدد كبير وأُسر مثل ذلك ولم ينجُ إلا الشريد، وغُنمت أموالهم، وسُبيت نساؤهم حيث كان معهم أهلهم وأولادهم.

لما انهزم عسكر مدينة باميان أمام تاج الدين الدز ورجعوا إلى مدينتهم أخبروا الناس أن علاء الدين محمود وأخاه جلال الدين قد وقعا في الأسر وأن تاج الدين الدز ومن معه قد غنموا ما في أيديهما فأخذ وزير أبيهما المعروف بالصاحب ما أمكنه من الأموال والجواهر والتحف كما أخذ فيلاً وسار إلى خوارزمشاه يستنجده على تاج الدين الدز ويطلب منه أن يبعث معه عسكراً لينقذ به صاحبيه، فلما فارق الوزير الصاحب مدينة باميان ورأى عمهما عباس خلو البلد من الوزير ومن ابني أخيه جمع أصحابه، وقام في البلد فملكه

وصعد إلى القلعة فملكها، وأخرج منها أصحاب ابني أخيه وهما علاء الدين محمود وجلال الدين، وبلغ ذلك الوزير الصاحب الذي انطلق إلى خوارزمشاه فجمع الجموع وحشد ما استطاع من عسكر وحاصر عباساً في القلعة، وكان هذا الوزير مطاعاً في ممالك بهاء الدين سام وولديه علاء الدين وجلال الدين من بعده، وأقام الصاحب محاصراً لعباس بالقلعة غير أنه لم يكن لديه من المال ما يقوم بما يحتاج إليه وإنما كان معه ما أخذه ليحمله إلى خوارزمشاه. فلما تخلّص جلال الدين من أسر تاج الدين الدز وسار إلى مدينة باميان ووصل إليها جاءه وزير أبيه الصاحب واجتمع به وسارا إلى القلاع، وراسلا عباساً عمّ جلال الدين وهو المتغلّب على القلاع ولاطفوه فسلّمها جميعها إلى جلال الدين ابن أخيه، وقال: إنما حافظت عليها خوفاً من أن يأخذها خوارزمشاه، فاستحسن فعله، وعاد إلى ملكه.

بعد أن سلّم خوارزمشاه مدينة ترمذ إلى الخطا سار عنها إلى ميمنة وكتب إلى نائب غياث الدين بمدينة الطالقان يستميله إليه فرجع حامل الكتاب بالجواب خائباً بل إن أمير الطالقان جمع عساكره وخرج ليقاتل خوارزمشاه فالتقوا بالقرب من الطالقان فلما تقابل العسكران انطلق أمير الطالقان وحده حتى اقترب من

عسكر خوارزمشاه فألقى نفسه على الأرض ورمى بسلاحه، وسأل العفو، فلم يلتفت إليه خوارزمشاه بل دخل الطالقان وأخذ ما فيها من مالٍ وسلاحٍ ودواب وأرسله إلى غياث الدين، وأناب على البلد بعض أصحابه، وسار هو إلى مدينة هراة فنزل بظاهرها.

سار ابن خرميل صاحب هراة في جمعٍ من عسكره فاحتلّ بعض البلدان وأرسل إلى صاحب سجستان حرب بن محمد يدعوه إلى طاعة خوارزمشاه والخطبة له ببلاده فأجابه إلى ذلك، وكان غياث الدين قد راسله قبل ذلك إلى طاعته والخطبة له فلم يجبه إلى ما طلب وامتنع عنه. ولما كان خوارزمشاه على هراة عاد إليها القاضي صاعد بن الفضل الذي كان محمد بن خرميل قد أخرجه من هراة في العام الماضي وسار إلى غياث الدين فعاد الآن من عنده فلما وصل إلى هراة قال محمد بن خرميل لخوارزمشاه: إن هذا يميل إلى الغورية ويريد دولتهم ووقع فيه فسجنه خوارزمشاه بإحدى القلاع، وولى القضاء بهراة الصفي أبا بكر بن محمد السرخسي الذي كان ينوب عن صاعد وابنه بالقضاء في هراة.

لما عاد تاج الدين الدز إلى غزنة وأسر علاء الدين وأخاه جلال الدين وكتب إلى غياث الدين يطالبه بالخطبة له فأجابه غياث الدين: إما أن تخطب لنا وإما

أن تعرّفنا ما في نفسك، فلما وصل رسول غياث الدين إلى تاج الدين الدز وسلّمه رسالة غياث الدين أحضر تاج الدين خطيبه في غزنة وأمره أن يخطب لنفسه بعد الترحّم على شهاب الدين فخطب الخطيب لتاج الدين الدز بغزنة، فلما سمع الناس ذلك ساءهم ما سمعوا وتغيّرت نواياهم ونيّات الأتراك الذين معه ولم يروه أهلاً ليكونوا أعواناً له، إذ كانوا يطيعونه ظنّاً منهم أنه يُؤيّد غياث الدين، فلما خطب لنفسه أرسل إلى غياث الدين يقول له: بماذا تشتطّ عليّ وتتحكّم، هذه الخزانة قد جمعناها بأسيافنا، وهذا المُلك قد أخذته، وأنت قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة، وأقطعتهم الإقطاعات، وقد وعدتني ولم تفِ بشيءٍ من الأمور التي وعدتني بها، فإن أنت أعتقتني خطبت لك وحضرت لخدمتك، فلما وصل الرسول أجابه غياث الدين إلى عتق تاج الدين الدز بعد الامتناع الشديد والعزم على مصالحة خوارزمشاه على ما يريد وقصد غزنة ومحاربته بها، فلما أجابه إلى العتق أشهد به عليه وأشهد عليه أيضاً بعتق قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين ونائبه لبلاد الهند، وأرسل إلى كل واحدٍ منهما ألف قباءٍ وألف قلنسوةٍ ومناطق الذهب وسيوفاً كثيرةً ومائة فرسٍ، وأرسل إلى كل واحدٍ منهما مبعوثاً

فقبل تاج الدين الدز الخلع. وسار المبعوث إلى قطب الدين أيبك فلما وصل إليه، وقد ضبط مملكته وحفظ فيها ومنع المفسدين من الفساد والأذى فلقي المبعوث على بُعدٍ، وترجّل، ولبس الخلعة.

وأرسل خوارزمشاه إلى غياث الدين يطلب منه أن يتصاهرا، وأن يُعيد صاحب هراة الحسين بن خرميل إلى طاعته، وأن يسير معه في العساكر إلى غزنة فإذا ملكها من تاج الدين الدز اقتسموا المال بينهم ثلاثة أقسامٍ متساويةٍ: قسم لخوارزمشاه، وقسم لغياث الدين، وقسم للعساكر فأجابه إلى ذلك، ولم يبق إلا الصلح.

وصل الخبر إلى خوارزمشاه بموت صاحب مازندران فسار عن هراة إلى مرو.

وسمع تاج الدين الدز بالصلح بين خوارزمشاه وغياث الدين محمود فجزع لذلك جزعاً شديداً ظهر أثره عليه، وأرسل إلى غياث الدين يقول له: ما حملك على هذا، فأجاب: حملني عليه عصيانك وخلافك عليّ. فسار تاج الدين الدز إلى بعض المدن مثل: بُست وغيرها فملكها وقطع الخطبة لغياث الدين فيها، وأرسل إلى صاحب سجستان يأمره بإعادة الترحم على شهاب الدين وقطع الخطبة لخوارزمشاه، وأرسل إلى

الحسين بن خرميل صاحب هراة بمثل ذلك وتهدّدهما بقصد بلادهما فخالفه الناس. ثم إن تاج الدين الدز أخرج جلال الدين صاحب باميان من أسره وسيّر معه خمسة آلاف فارس، مع أحد مماليك شهاب الدين ويدعى إيدكز التتر إلى باميان ليعيده إلى ملكه ويطرد ابن عمه عنه، وزوّجه ابنته، ولكن اختلف جلال الدين وإيدكز التتر في الطريق وافترقا. ثم سار إيدكز التتر إلى غزنة فوصل إليها في مطلع شهر رجب سنة ٦٠٣هـ ودخلها دون القلعة وخطب لغياث الدين وقطع خطبة تاج الدين الدز، وأقام الدز وإيدكز في غزنة وأرسل غياث الدين عسكراً إلى إيدكز، واستردّ غياث الدين مدينة بُست من تاج الدين الدز.

توفي صاحب مازندران حسام الدين أردشير سنة ٦٠٣هـ وترك ثلاثة أولادٍ فملك بعده ابنه الأكبر فأخرج أخاه الأوسط من البلاد فقصد جرجان وبها الملك علي شاه بن خوارزمشاه علاء الدين تكش أخو خوارزمشاه علاء الدين محمد، وهو ينوب عن أخيه فيها، فشكا إليه ما صنع به أخوه من إخراجه من البلاد، وطلب منه أن ينجده عليه، ويأخذ له البلاد ليكون في طاعته، فكتب علي شاه إلى أخيه خوارزمشاه علاء الدين محمد في ذلك فأمره بالمسير معه إلى مازندران وأخذ البلاد له

وإقامة الخطبة فيها لخوارزمشاه فسار واستولى على القلاع ووصل علي شاه إلى البلاد ومعه صاحب مازندران فنهبوها وخربوها، وامتنع منهم الأخ الصغير بالقلاع وأقام بقلعة كورا، وهي التي فيها الأموال والذخائر، وحاصره فيها بعد أن ملكوا البلاد كافةً مثل سارية وآمل وغيرها من البلاد والحصون وخطبوا لخوارزمشاه فيها جميعها فصارت في طاعته، ورجع علي شاه إلى جرجان، وأقام ابن الملك مازندران في البلاد مالكها جميعها سوى قلعة كورا القلعة التي فيها أخوه الأصغر، وهو يراسله ويستميله ويستعطفه وأخوه لا يردّ جواباً ولا ينزل من حصنه.

عبر خوارزمشاه علاء الدين محمد سنة ٦٠٤هـ نهر جيحون لقتال الخطا وذلك لأنهم غير مسلمين وقد طالت أيامهم في تركستان وبلاد ماوراء النهر، وثقلت وطأتهم على أهلها، ولهم في كل مدينة نائب يجبي إليهم الأموال، وكانوا يقيمون من قبل في نواحي كاشغر وأوزكند وتلك النواحي ثم سيطروا على بلاد ما وراء النهر، وكان سلطان بخارى وسمرقند في هذه الأيام، ويُلقّب خان خاتان ويعني كبير السلاطين وهو من المسلمين فأنف من تحكّم الكفار بالمسلمين فأرسل إلى خوارزمشاه يقول له: إن الله قد أوجب عليك بما

أعطاك من سعة الملك وكثرة الجند أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدي الكفار، وتخلّصهم مما يجري عليهم من التحكّم في الأموال والبشر، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا، ونحمل إليك ما نحمل إليهم، ونذكر اسمك في الخطبة وعلى السكة، فأجابه إلى ذلك، وقال: أخاف أنكم لا توفون لي. فسيّر إليه صاحب سمرقند وجوه أهل بخارى وسمرقند بعد أن حلّفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمّنه وضمنوا عنه الصدق والثبات على ما بذل، وجعلوا عنده رهائن، فشرع في إصلاح أمر خراسان وتقرير قواعدها وولّى أخاه علي شاه على طبرستان إضافةً إلى جرجان كما ولّى الأمراء على المناطق، وأقرّ الأمير الحسين بن خرميل على هراة وجعل معه فيها ألف فارس، وكذا أقرّ غياث الدين محمود على ما بيده من بلاد الغور، وأمر الجميع بحسن السياسة والاحتياط، وجمع عساكره جميعها، وسار إلى خوارزم وتجهّز منها، وعبر نهر جيحون، واجتمع بسلطان سمرقند، وسمع أهل الخطا بذلك فحشدوا وجمعوا وساروا إليه، وجرت معارك بينهما، وكان القتال سجالاً.

رأى صاحب هراة الحسين بن خرميل سوء معاملة عسكر خوارزمشاه للرعية وتعدّيهم على الأموال فقبض على المعتدين وسجنهم، وبعث رسولاً إلى خوارزمشاه

يعتذر إليه ويُعرّفه ما جنت أيديهم فعظم عليه، ولم يمكنه التحقيق بالأمر لاشتغاله بقتال الخطا، فكتب إليه يستحسن فعله ويأمره بإرسال الجند الذين قبض عليهم إليه لحاجته إليهم، وقال له: إنني قد أمرت عز الدين جلدك بن طغرل أن يكون عندك لما أعلمه من عقله وحسن سيرته، وأرسل إلى عز الدين جلدك يأمره بالمسير إلى هراة وأسرّ إليه أن يحتال بالقبض على الحسين بن خرميل، ولو كان أول ساعةٍ يلقاه، فسار عز الدين في ألفي فارس، وكان أبوه طغرل والياً على هراة أيام السلطان سنجر، فلما اقترب عز الدين جلدك من هراة أمر الحسين بن خرميل الناس بالخروج للقائه واستقباله، وكان للحسين وزير يُعرف بخواجه الصاحب، وكان كبير السنّ، قد علّمته التجارب وعركته الأيام، فقال للحسين بن خرميل: لا تخرج للقائه ودعه يدخل إليك منفرداً فإنني أخاف أن يغدر بك، وأن يكون خوارزمشاه أمر بذلك، فقال الحسين: لا يجوز أن يقدم إليّ مثل هذا الأمير ولا أخرج للقائه، وأخاف أن يجعل ذلك ضغينةً في نفس خوارزمشاه، وما أظنّه يتجاسر عليّ، فخرج إليه الحسين بن خرميل، فلما بصر كل واحدٍ منهما بصاحبه ترجّل للالتقاء، وكان عز الدين جلدك قد أمر أصحابه بالقبض عليه فاختلطوا بهما

وجالوا بين الحسين بن خرميل وأصحابه وقبضوا عليه فانهزم أصحابه ودخلوا المدينة هراة وأخبروا الوزير بما حدث فأمر بإغلاق الأبواب والصعود إلى الأسوار والاستعداد للحصار، ونزل عز الدين جلدك على البلد وأرسل إلى الوزير يبذل له الأمان ويتهدّده إن لم يسلم البلد بقتل الحسين بن خرميل فنادى الوزير بشعار غياث الدين محمود الغوري، وقال لعز الدين جلدك: لا أسلم البلد إليك ولا إلى الغادر ابن خرميل وإنما لغياث الدين محمود ولأبيه من قبله. وقُدّم الحسين بن خرميل إلى السور فخاطب الوزير وأمره بالتسليم فلم يفعل، فقُتل ابن خرميل.

لما قُتل الحسين بن خرميل كتب عز الدين جلدك إلى خوارزمشاه فكتب إلى والي نيسابور وإلى ولاةٍ آخرين بالمسير إلى هراة وحصارها وأخذها، فساروا في عشرة آلاف فارسٍ فنزلوا على مدينة هراة وراسلوا الوزير بالتسليم فلم يلتفت إليهم، وقال: ليس لكم من المحل ما يسلم إليكم مثل هراة ولكن إذا وصل إليّ السلطان خوارزمشاه سلّمتها إليه فقاتلوا وجدّوا في قتاله فلم يتمكّنوا منه، وكان الحسين بن خرميل قد حصّن هراة وبنى لها أربعة أسوارٍ محكمةٍ، وحفر خندقها، وشحنها بالتموينات فلما فرغ مما أراد، قال: بقيت

أخاف على هذه المدينة من شيءٍ واحدٍ وهو أن تُغلق المياه التي لها أياماً كثيرةً ثم تُفتح دفعةً واحدةً فتخرق أسوارها فلما حاصرها هؤلاء سمعوا قول الحسين بن خرميل فسكروا المياه حتى اجتمعت كثيراً ثم أطلقوها على هراة فأحاطت بها ولم تصل إلى السور، وامتلأ الخندق ماءً وصار حولها وحل فانتقل العسكر عنهم ولم يمكنهم القتال لبعدهم عن المدينة فأقاموا مدةً حتى جفّ الماء، فكان قول ابن خرميل من أحسن الحيل.

استمرّ القتال بين خوارزمشاه وبين الخطا، واشتدّ القتال في بعض الأيام، وهُزم خوارزمشاه هزيمةً قبيحةً إذ قُتل الكثير من عسكره ووقع هو بالأسر مع أحد أمرائه الكبار، أسرهما رجل واحد، ووصل المنهزمون إلى خُوارزم ولم ير الناس السلطان خوارزمشاه معهم، وبلغ الخبر إلى أمير عسكره الذي يحاصر هراة وذلك عن طريق أخته، فترك حصار هراة واتجه إلى نيسابور.

وبلغ خبر فقد السلطان خوارزمشاه إلى أخيه علي شاه وهو بطبرستان فدعا إلى نفسه وقطع خطبة أخيه واستعدّ لطلب السلطنة واختلطت الأمور في خراسان كثيراً وعمّت الفوضى.

ولجأ الأمير الأسير إلى الحيل فقال لخوارزمشاه:

يجب أن تدع السلطنة في هذه الأيام وتصير خادماً لعلّي أحتال في خلاصك فصار خوارزمشاه يخدم الأمير الأسير الذي كان معه ويُبالغ بالخدمة ويُظهر الكثير من احترامه فقال الرجل الذي أسرهما للأمير: أرى هذا الرجل يُعظّمك فمن أنت؟ فقال: أنا الأمير ابن شهاب الدين مسعود، وهذا غلامي، فقام إليه وأكرمه، وقال: لولا أن القوم عرفوا بمكانك عندي لأطلقتك، ثم تركه أياماً فقال له ابن مسعود: إني أخاف أن يرجع المنهزمون فلا يراني أهلي معهم فيظنون أني قُتلت فيعملون العزاء والمأتم وتضيق صدورهم لذلك، ثم يقتسمون مالي فأهلك، وأحب أن تُقرّر عليّ شيئاً من المال حتى أحمله إليك، فقرّر عليه مالاً، وقال: أريد أن تأمر رجلاً عاقلاً يذهب بكتابي إلى أهلي ويخبرهم بعافيتي، ويُحضر معه من يحمل المال، ثم قال: إن أصحابكم لا يعرفون أهلنا ولكن هذا غلامي أثق به ويُصدّقه أهلي فأذن له الذي أسرهما بإرساله فسيّره وبعث معه فرساً وعدة فرسانٍ يحمونه، فساروا حتى اقتربوا من خُوارزم، ورجع الفرسان ووصل خوارزمشاه إلى خوارزم فاستبشر به الناس، وزيّنوا البلد، وعمّت البشائر، وأتته أخبار مملكته مما قام به أخوه علي شاه، وما فعله أمير نيسابور.

سار خوارزمشاه إلى نيسابور فأخذ أمير نيسابور أمواله وعساكره وهرب نحو العراق، والتجأ أخوه علي شاه أمير طبرستان إلى غياث الدين محمود الغوري صاحب فيروزكوه فتلقّاه وأكرمه وأنزله عنده، ووصل خوارزمشاه إلى نيسابور فأصلح أمرها وولّى عليها نائباً له، وسار إلى هراة فنزل عليها مع عسكره الذين يحاصرونها، وأرسل إلى واليها يقول له: إنك وعدت عسكري أنك تُسلّم المدينة إن حضرت أنا، وها قد حضرت فنفّذ ما وعدت به، قال: لا أفعل لأني أعرف أنكم قوم غدّارون لا تُبقون على أحدٍ، ولا أسلّم البلد إلا إلى غياث الدين محمود، فغضب خوارزمشاه من ذلك وزحف إليه بعساكره فلم يكن له حيلة، فاتفق جماعة من أهل هراة، وقالوا: هلك الناس من الجوع والقلّة، وقد تعطّلت علينا معايشنا وقد مضى على ذلك سنة وشهر، وكان الوالي الوزير قد وعد بتسليم البلد إلى خوارزمشاه إذا وصل إليه، وقد حضر خوارزمشاه ولم يُسلّمه البلد، فيجب أن نحتال في تسليم البلد والخلاص من هذه الشدّة التي نحن فيها، فانتهى ذلك إلى الوزير فبعث إليهم جماعة من عسكره وأمر بالقبض عليهم، فمضى الجند إليهم، فثارت فتنة في البلد، وقد عظم خطبها، فاحتاج الوزير إلى تداركها بنفسه ومضى

في ذلك فكتب من البلد إلى خوارزمشاه بالخبر فزحف إلى البلد وأهله على خلافٍ فدخله وملكه وقبض على الوزير الوالي وقتله وذلك سنة ٦٠٥هـ، وأصلح حال البلد وسلّمه إلى خاله وهو من أعيان أمرائه ولم يزل بيده حتى هلك خوارزمشاه سنة ٦١٧هـ. وأما ابن شهاب الدين مسعود فبقي أسيراً عند الخطا مدة فقال له يوماً الذي أسره: قد سمعت أن خوارزمشاه قد هلك فماذا عندك من أخباره؟ فقال له: أما تعرفه؟ قال له: لا، قال: هو أسيرك الذي كان عندك، قال: لماذا لم تعرفني عليه حتى كنت أخدمه وأسير بين يديه إلى مملكته، قال: قد خفتكم عليه. فقال: سر بنا إليه، فسارا إليه، فأكرمهما وأحسن إليهما، وبالغ في ذلك.

لما سلّم خوارزمشاه مدينة هراة إلى خاله وسار هو إلى خُوارزم أمره أن يقصد غياث الدين، فسار خاله إلى فيروزكوه فوصل الخبر إلى غياث الدين محمود فأرسل يبذل الطاعة ويطلب الأمان فأعطاه ذلك فنزل غياث الدين محمود إليه فقبض عليه وعلى علي شاه أخي خوارزمشاه فسألاه أن يحملهما إلى خوارزمشاه ليرى فيهما رأيه، فأرسل إلى خوارزمشاه يعرفه الخبر فأمر بقتلهما فقُتلا في يومٍ واحدٍ واستقامت خراسان كلها لخوارزمشاه وذلك سنة ٦٠٥هـ. وكان غياث الدين

محمود آخر ملوك الغورية، وكان عادلاً حليماً كريماً.

لما استقرّ أمر خراسان لخوارزمشاه علاء الدين محمد سار إلى الخطا وعبر نهر جيحون فجمع له الخطا جمعاً عظيماً وساروا إليه، والتقى الجمعان فكانت بينهما حروب شديدة، وكان صاحب سمرقند إلى جانب خوارزمشاه فانهزم الخطا وقُتل منهم وأُسر عدد كبير، وقد كان مقدمهم بين الأسرى وقد حُمل إلى خوارزمشاه فأكرمه وأجلسه إلى جانبه ثم سيّره إلى خوارزم. ثم قصد خوارزمشاه بلاد ما وراء النهر وملكها مدينةً مدينةً وعيّن نوابه وعاد إلى خوارزم ومعه صاحب سمرقند فزوّجه هناك ابنته وأعاده إلى سمرقند ليكون فيها كما كان أيام الخطا. وبعد مرور سنةٍ ندم صاحب سمرقند على ما قام به فأرسل إلى ملك الخطا يدعوه إلى سمرقند ليُسلّمها إليه ويعود إلى طاعته، وأمر بقتل كل من في سمرقند من الخوارزمية، وأراد قتل زوجته ابنة خوارزمشاه فأغلقت الأبواب دونه ونصحته بحكمةٍ، وقالت: أنا امرأة وقتل مثلي قبيح، ولم يكن مني إليك ما أستوجب به هذا منك، ولعلّ تركي فيه عاقبة فاتق الله. فتركها ووكّل بها من يمنعها من التصرّف بنفسها. ووصل الخبر إلى خوارزمشاه فغضب غضباً شديداً، وأمر بقتل كل من بخوارزم من الغرباء فمنعته

أمه من ذلك وقالت له: إن هذا البلد قد أتاه الناس من أقطار الأرض، ولم يرض بما كان من هذا الرجل، فأمر بقتل أهل سمرقند فقط فنهته أمه فانتهى، وأمر عساكره بالتجهيز إلى ما وراء النهر وسيّرهم جماعاتٍ كلما تجهّزت جماعة عبرت نهر جيحون فعبر منهم خلق كثير ثم عبر هو بنفسه في آخرهم ونزل على سمرقند، وأرسل إلى صاحبها يقول له: قد فعلتَ ما لم يفعله مسلم، واستحللت من دماء المسلمين ما لا يفعله عاقل ولا مسلم ولا كافر وقد عفا الله عما سلف فاخرج من البلاد وامض حيث شئت، فقال: لا أخرج وافعل ما بدا لك، فأمر عساكره بالزحف فزحفوا ونصبوا السلالم على السور فلم يكن بأسرع من أن أخذوا البلد، وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند مدة ثلاثة أيامٍ ثم أمر بالكفّ عن النهب والقتل، ثم زحف إلى القلعة فرأى صاحبها ما ملأ قلبه هيبةً وخوفاً فأرسل يطلب الأمان، فقال: لا أمان لك عندي فزحفوا على القلعة فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزمشاه فطلب العفو فلم يعفُ عنه وأمر بقتله، فقُتل صبراً وقُتل معه جماعة من أقاربه، ورتّب في سمرقند وفي سائر البلاد نوابه، ولم يبق لأحدٍ معه في البلاد حكم.

بعد أن هزم خوارزمشاه الخطا سار من سلم منهم إلى ملكهم إذ لم يحضر الحرب التي دارت مع خوارزمشاه فاجتمعوا عنده، وكانت قد خرجت جماعة عظيمة من المغول من بلادهم منغوليا ونزلوا وراء بلاد تركستان وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا بما أصابهم من هزيمةٍ على يد خوارزمشاه قصدوهم مع ملكهم «كشلي خان» فلما سمع ملك الخطا ذلك أرسل إلى خوارزمشاه يقول له: أما ما كان منك من أخذ بلادنا وقتل رجالنا فقد عفونا عنه، وقد أتى من هذا العدو ما لا قبل لنا به، وإنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم، ونحن نحلف لك أننا إذا ظفرنا بهم لا نتعرض إلى ما أخذت من البلاد ونقنع بما في أيدينا. وأرسل إليه كشلي خان ملك المغول يقول: إن هؤلاء الخطا أعداؤك وأعداء آبائك وأعداؤنا فساعدنا عليهم، ونحلف أننا إذا انتصرنا عليهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواضع التي ينزلونها، فأجاب كلاً منهما أنني معك ومعاضدك على خصمك، وسار بعسكره إلى أن نزل قريباً من المكان الذي التقوا فيه فلم يخالطهم مخالطةً يُعلم بها أنه من أحدهما، فكان كل فريقٍ يظنّ أنه معه، والتقى المغول والخطا بالقتال فانهزم الخطا

هزيمةً عظيمةً فمال حينئذٍ عليهم وجعل يقتل ويأسر وينهب ولم يترك أحداً ينجو منهم، فلم يسلم منهم إلا جماعة قليلة مع ملكهم، وانضمّ إلى خوارزمشاه جماعة منهم وساروا في عسكره، وبعث خوارزمشاه إلى كشلي خان ملك المغول يمنّ عليه بأنه حضر لمساعدته ولولاه ما تمكّن من الخطا فاعترف له كشلي خان بذلك مدةً ثم أرسل إليه يطلب منه المقاسمة على بلاد الخطا، وقال: كما اتفقنا على إبادتهم ينبغي أن نقتسم بلادهم، فقال: ليس لك عندي إلا السيف ولستم بأقوى من الخطا شوكةً ولا أعزّ ملكاً فإن قنعت بالمساكنة وإلا سرت إليك وفعلت بك شرّاً مما فعلت بهم، وتجهّز وسار حتى نزل قريباً منهم، وعلم خوارزمشاه أنه لا طاقة له به فكان يراوغه، فإذا سار إلى موضعٍ قصد خوارزمشاه أهله وأثقالهم فينهبها، وإذا سمع أن جماعةً سارت عن موطنهم سار إليها فأوقع بها، فأرسل إليه كشلي خان يقول له: ليس هذا فعل الملوك بل هذا فعل اللصوص، وإلا إن كنت سلطاناً كما تقول فيجب أن نلتقي فإما أن تهزمني وتملك البلاد التي بيدي وإما أن أفعل أنا بك ذلك، فكان يغالطه ولا يجيبه إلى ما طلب لكنه أمر أهل الشاش وفرغانة وما حولها بالجلاء عنها واللحاق ببلاد الإسلام. ثم خرج جنكيزخان على كشلي خان

فشغل المغول عن خوارزمشاه فسار إلى خراسان.

كان أحد أمراء علاء الدين تكش أمير اسمه أبو بكر ولقبه تاج الدين، وتقدّم أيام ولده خوارزمشاه علاء الدين محمد حتى فاق الأمراء كلهم، وكان ذا رأيٍ وشجاعةٍ وحزمٍ، وغدا أمير «زوزن» وهي منطقة بين نيسابور وهراة، فقال أبو بكر لخوارزمشاه: إن بلاد كرمان مجاورة لبلدي فلو أضاف إليّ السلطان عسكراً لملكتها بأسرعِ وقتٍ، فسيّر معه عسكراً كثيراً فمضى إلى كرمان وصاحبها اسمه «حرب بن محمد بن أبي الفضل» الذي كان صاحب سجستان أيام السلطان السلجوقي سنجر فقاتله فملك أبو بكر بلاده بأسرع وقتٍ، وسار منها إلى نواحي مكران فملكها كلها إلى السند من حدود كابل، وسار إلى مدينة هرمز على الخليج العربي فأطاعه صاحبها وخطب بها لخوارزمشاه وذلك سنة ٦١١هـ.

بعد أن استولى خوارزمشاه علاء الدين محمد بن خوارزمشاه علاء الدين تكش على خراسان كافةً وملك باميان أرسل إلى تاج الدين الدز صاحب غزنة يطلب منه أن يخطب له ويضرب السكة باسمه ويرسل له فيلاً واحداً ليصالحه وبيده غزنة ولا يعارضه فيها فأحضر تاج الدين الدز الأمراء وأعيان دولته واستشارهم وكان أكبر أمير

بينهم واسمه قتلغ تكين وهو من مماليك شهاب الدين الغوري أيضاً، وإليه الحكم في دولة تاج الدين الدز، وهو النائب عنه بمدينة غزنة، فقال: الرأي أن تخطب له وتعطيه ما طلب وتستريح من الحرب والقتال، وليس لنا بهذا السلطان قوة، فقال الجماعة مثل قوله فأجاب إلى ما طلب منه، وخطب لخوارزمشاه وضرب السكة باسمه، وغاب عن بلده قليلاً في صيده فأرسل الأمير قلتغ تكين من غزنة إلى خوارزمشاه يطلبه ليسلّم إليه غزنة فسار مجدّاً فسلّم إليه قتلغ تكين غزنة وقلعتها فلما دخل إليها قتل من فيها من عسكر الغورية لا سيما الأتراك، فوصل الخبر إلى تاج الدين الدز بذلك، فقال: ما فعل قتلغ تكين، وكيف ملك القلعة مع وجوده فيها؟ فقيل له: هو الذي أحضره وسلّمها إليه. فمضى تاج الدين الدز هارباً إلى لاهور، وأقام خوارزمشاه بغزنة، فلما تمكّن منها أحضر قتلغ تكين، فقال له: كيف حالك مع الدزّ ـ وكان عالماً به وإنما أراد أن تكون له الحجة عليه ـ، فقال: كلانا مماليك شهاب الدين الغوري، ولم يكن الدزّ يقيم بغزنة سوى أربعة أشهر الصيف وأنا الحاكم فيها، والمرجع إليّ في كل الأمور، فقال له خوارزمشاه: إذا كنت لا ترعى رفيقك ومن أحسن إليك صحبته وإحسانه فكيف يكون حالي أنا معك، وما الذي تصنع

مع ولدي إذا تركته عندك، فقبض عليه وأخذ منه أموالاً جمةً، فلما أخذ ماله قتله، وترك ولده جلال الدين منكبرتي بغزنة مع جماعة من عسكره وأمرائه، وعاد إلى خوارزم وذلك سنة ٦١٣هـ.

لما هرب تاج الدين الدزّ من غزنة إلى لاهور لقيه صاحبها ناصر الدين قباجه وهو من مماليك شهاب الدين الغوري أيضاً وله من: لاهور، والملتان، وديبل وغيرها إلى ساحل البحر، ومعه خمسة عشر ألف فارسٍ على حين لم يبق مع تاج الدين الدزّ سوى ألف وخمسمائة فارسٍ فوقع بينهما خلاف واقتتلا فهُزمت ميمنة الدز وميسرته وأخذت الفيلة التي معه، ولم يبق معه سوى فيلين، ثم حمل تاج الدين فيمن بقي معه من العسكر في القلب وكشف عن رأسه وشمّر عن يديه وقال: إما ملك وإما هلك، وانهزم ناصر الدين قباجه واستولى تاج الدين الدزّ على مدينة لاهور وسار ليملك غيرها من البلدان التي بيد المسلمين فالتقى مع شمس الدين الترمش وهو من مماليك قطب الدين أيبك مملوك شهاب الدين الغوري أيضاً، وكان قد ملك شمس الدين الترمش المنطقة بعد سيده ووقع القتال فانهزم تاج الدين الدز وأُخذ وقُتل.

وفي سنة ٦١٤هـ سار خوارزمشاه علاء الدين

محمد بن علاء الدين تكش إلى بلاد الجبل فملكها وخُطب له فيها. وكذا ملك قزوين، وزنجان، وهمدان، وأصفهان، وقم، وقاشان، وعزم المسير إلى بغداد فلم تتهيأ له الأسباب، وعاد إلى خراسان فوصل إلى مرو سنة ٦١٥هـ، وحاول قطع الخطبة للخليفة العباسي الناصر لدين الله وزعم أنه قد مات.

وفي سنة ٦١٧هـ ظهر المغول إلى بلاد الإسلام، وكان ملكهم جنكيزخان المعروف بتموجين قد غادر بلاده وسار إلى نواحي تركستان وبعث جماعةً من التجار والأتراك ليشتروا له ثياباً للكسوة فوصلوا إلى بلدة تسمى «أوترار» وهي آخر ولاية خوارزمشاه، وكان له نائب هناك فلما ورد عليه التجار أرسل إلى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر له ما معهم من الأموال فبعث إليه خوارزمشاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإرساله إليه، فقتلهم وبعث ما معهم وكان شيئاً كثيراً إلى خوارزمشاه. وكان خوارزمشاه بعد أن استولى على بلاد ما وراء النهر من الخطا وقتلهم، واستولى المغول على تركستان الشرقية فصار المغول يحاربون عسكر خوارزمشاه ولذلك منع الميرة عنهم ومنها الكسوة.

ولما قتل نائب خوارزمشاه في «أوترار» أصحاب

جنكيزخان أرسل له عيوناً إلى جنكيزخان ليعرف قوته وما يعزم أن يعمل، ورجع العيون وأخبروا نائب خوارزمشاه بكثرة عدد المغول حتى يصعب إحصاؤهم، وعندهم قوة صبرٍ عظيمة على القتال، وأنهم يعملون بأيديهم ما يحتاجون إليه من سلاحٍ فندم خوارزمشاه على قتل أصحابهم وأخذ أموالهم واستشار، واختلفت الآراء وبينما هم على ذلك إذ ورد رسول من جنكيزخان يتهدّد خوارزمشاه ويقول: تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم، استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمعٍ لا قبل لكم به، فلما سمع خوارزمشاه بذلك أمر بقتل مبعوث جنكيزخان فقُتل، وأمر خوارزمشاه بإعادة الجماعة الذين كانوا مع المبعوث ليخبروا جنكيزخان بقتل مبعوثه، ويقولون له: إن خوارزمشاه يقول لك: أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك، وتجهّز خوارزمشاه وسار بعد مبعوث جنكيزخان مبادراً ليسبق خبره ويكبسهم، وجدّ بالسير فوصل إلى بيوتهم فلم ير فيها إلا النساء والأطفال فأوقع بهم وأخذ ما وجد، وكان سبب غيبة المغول عن بيوتهم أنهم في حرب أحد أعدائهم فقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا فبلغهم الخبر وهم في الطريق بما فعله خوارزمشاه بديارهم فجدّوا بالسير

فأدركوه قبل أن يخرج من منازلهم فاقتتلوا ثلاثة أيامٍ قتالاً شديداً قُتل فيه من الجانبين أعداد هائلة، ولم يظفر أحد منهما، وصبر كل منهما صبراً يفوق ما اعتاده المقاتلون، وكان عدد قتلى الخوارزميين عشرين ألفاً ولا يقلّ عن ذلك قتلى المغول، ولم يحضر جنكيزخان هذه الوقعة إذ كان غائباً وإنما كان ابنه قائد قومه، وعاد المغول إلى ملكهم جنكيزخان، ورجع خوارزمشاه إلى بخارى يستعد للهجوم عليه، وأمر أهل بخارى وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر للامتناع، وجعل في بخارى عشرين ألف فارسٍ لحمايتها وفي سمرقند خمسين ألف فارسٍ، وقال لعساكره: احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع العساكر واستنهض همّة الناس للجهاد وقتال هؤلاء المغول الوثنيين.

جاء المغول إلى بلاد ما وراء النهر فوصلوا إلى بخارى بعد خمسة أشهرٍ من وصول خوارزمشاه إليها وحاصروا بخارى وقاتلوا أهلها ثلاثة أيامٍ قتالاً شديداً واضطر العسكر فيها إلى الانسحاب منها باتجاه خراسان، وبانسحابهم ضعفت معنويات أهل البلد فطلبوا من القاضي أن يطلب لهم الأمان فأعطاهم جنكيزخان الأمان، وفتحت المدينة أبوابها يوم الثلاثاء

الرابع من شهر ذي الحجة سنة ٦١٦هـ، ودخل المغول مدينة بخارى ولم يتعرّضوا لأحدٍ بل طلبوا منهم أن يُخرجوا ما عندهم من ذخيرة السلطان، وأن يساعدوهم على قتال من بقي بالقلعة من عسكرٍ وهم الذين لم يستطيعوا الهرب. وأحاط جنكيزخان بالقلعة بنفسه ونادى في البلد ألا يتخلّف أحد ومن تخلّف قُتل فحضروا جميعهم فأمر بردم الخندق، وتابعوا الزحف إلى القلعة وفيها نحو أربعمائة فارسٍ فاستطاعوا الدفاع عن القلعة مدة اثني عشر يوماً يقاتلون المغول وأهل البلد، وأخيراً استطاع المغول ومن معهم دخول القلعة وقتلوا من فيها من العسكر جميعاً، ثم أحضر جنكيزخان رؤساء أهل البلد وطلب المال الذي أخذه خوارزمشاه من أصحابه، ثم أمر أهل البلد بالخروج منها فخرجوا مجرّدين من أموالهم ليس مع أحدٍ منهم غير ثيابه التي عليه، ودخل المغول البلد ونهبوه وقتلوا من وجدوا فيه، وأصبحت بخارى خاويةً على عروشها، وكان يوماً عصيباً، حتى فضّل بعضهم الموت لما رأى ما رأى ومنهم الفقيه ركن الدين إمام زاده وولده فإنهما لما رأيا ما يُفعل بالنساء هجما على المجرمين وقاتلا حتى قُتلا وكذلك فعل القاضي صدر الدين خان.

انتقل المغول من بخارى إلى سمرقند وقد تحقّقوا

عجز خوارزمشاه عنهم، وهو بمكانه بين ترمذ وبلْخ، وأحاطوا بسمرقند وخرج أهل البلد لهم فتراجع المغول مكيدةً وتبعهم أهل سمرقند، وكان المغول قد نصبوا لهم كميناً فلما تجاوز أهل البلد الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد وعاد المتراجعون فبقي أهل سمرقند في الوسط وأخذ يحصدهم السيف فقُتلوا عن آخرهم وكانوا سبعين ألفاً، وضعفت معنويات العسكر داخل البلد وكذلك من فيه من السكان، وطمع الجند الأتراك بالعصبية الجاهلية فطلبوا الأمان فأجابوهم إلى ذلك ففتحوا لهم أبواب البلد ولم تستطع العامة منعهم وخرج أصحاب العصبية الجاهلية بأهليهم وأموالهم، فقال لهم المغول: ادفعوا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نسيّركم إلى مأمنكم، ففعلوا ذلك فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا نساءهم وأموالهم، ثم نادوا في البلد أن يخرج أهله جميعهم ومن تأخّر قتلوه فخرجوا ففعلوا بهم أقبح أنواع الأفعال، وأخيراً انتهوا منهم. وكان خوارزمشاه في مكانه يجمع العسكر كلما اجتمع إليه فوج سيّرهم إلى سمرقند فيرجعون دون إمكانية الوصول.

بعد أن ملك المغول سمرقند سيّر جنكيزخان

عشرين ألف فارسٍ، وقال لهم: اطلبوا خوارزمشاه أين كان حتى تدركوه وتأخذوه، وسُمّيت هذه الفرقة التي تبعت خوارزمشاه المغرّبة لأنها سارت نحو غرب خراسان. وعبروا نهر جيحون ووصلوا إلى المكان الذي فيه خوارزمشاه وكان عسكره قد مُلئوا رعباً وخوفاً من المغول ولم يتمكّنوا من أن يتماسكوا أو يثبتوا بل تفرّقوا واتجهت كل جماعةٍ إلى جهةٍ، وسار خوارزمشاه في نفرٍ من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع عليه بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل المغول إلى المنطقة حيث كانوا يجدّون في السير في طلبه لا يلتفتون إلى نهبٍ أو قتلٍ، فلما سمع خوارزمشاه باقتراب المغول منه رحل إلى مازندران، وكان كلما رحل عن منزلٍ نزلوه فوصل إلى شاطئ بحر الخزر ونزل هو وأصحابه في السفن ووصلوا وراءه إلى الساحل وعجزوا عن اللحاق به في البحر، فرجعوا وملكوا مازندران رغم حصانتها وامتناع قلاعها ثم اتجهوا إلى الريّ فالتقوا بالطريق مع والدة خوارزمشاه وأهله وأموالهم يقصدون بلاد الجبل ليعتصموا بها بعد أن سمعوا أخبار خوارزمشاه وملاحقته فأخذوا كل ذلك وسيّروهم إلى جنكيزخان في سمرقند.

وصل المغول المغربة إلى الريّ وملكوها وكلما

مروا على بلدٍ نهبوه وفعلوا أقبح الأفعال من قتلٍ وسبيٍ وحرقٍ ولم يُبقوا على شيءٍ حتى وصلوا إلى همدانَ وكان خوارزمشاه قد حلّ بها مع نفرٍ من أصحابه ففارقها، وطلب أهل همدان الأمان من المغول وقدّموا لهم الأموال فأجابوهم إلى ما طلبوا، وتابع المغول سيرهم إلى مدينة قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم ودخل المغول البلد عنوةً بالسيف بعد قتالٍ ذهب ضحيته عدد كبير من الفريقين وقد زاد عدد قتلى أهل قزوين على أربعين ألفاً. وقد غاب خوارزمشاه بعد همدان ولا يدرى من أمره شيئاً، ويُظنّ أنه قد مات - والله أعلم -.

وصل المغول إلى أذربيجان وفعلوا في طريقهم أعمالهم من القتل والنهب والسبي والمنكرات على أقبح صورةٍ ووصلوا إلى مدينة تبريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان فلم يخرج إليهم بل أرسل إليهم وصالحهم وسخا عليهم بما يملك، واتجهوا إلى الغرب وقاتلوا الكرج وانتصروا عليهم، وحاول الكرج الصلح مع الجوار والتحالف للوقوف في وجه المغول فلم يفلحوا، بل انضم إلى المغول بعض أصحاب المصالح ورجال الشهرة وطلاب الشهوة وانتصروا على الكرج ثانيةً، ثم رحلوا عن الكرج ليتمكّنوا فيما ملكوه،

فاتجهوا إلى مراغة في أذربيجان وملكوها سنة ٦١٨هـ.

أخذ الخليفة العباسي في بغداد يكتب إلى الأمراء للاجتماع والوقوف في وجه المغول، وفي الوقت نفسه جاء الطلب من مصر بطلب النجدة والدعم للوقوف في وجه الصليبيين فتوزّع عسكر الأمراء المسلمين، ورجع المغول إلى همدان وطالبوا أهلها بما لم يقدروا عليه فلم ير أهل همدان أمامهم سوى الجهاد فوقفوا بوجه المغول وقاتلوهم فتغلّب المغول، واستنجد المسلمون بالخليفة ولكن ليس عنده من العسكر ما يسدّ الثغرة، كما أن المغول قد حالوا دون وصول المبعوثين إلى الخليفة بل حتى الكتب قد تعثّر وصولها.

ولما انتهى المغول من أمر همدان ساروا إلى أذربيجان فملكوا بلدانها وفعلوا الأفاعيل المنكرة بأهاليها، ثم انطلقوا إلى بلاد الكرج، وكان الكرج قد استعدّوا وسيّروا جيشاً لملاقاة المغول عند أطراف البلاد، فالتقوا وانهزم الكرج وقُتل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ووصل المنهزمون منهم إلى عاصمتهم تفليس وبها ملكهم فجمع الجموع وسيّرهم إلى المغول ليمنعوهم من التوغّل في بلاد الكرج، فرأوهم قد توغّلوا فرجع عسكر الكرج إلى تفليس وقد أصابهم رعب شديد، ولكن المغول رجعوا عن الكرج ما داموا غير موالين للمسلمين.

اتجه المغول إلى بلاد شروان وحاصروا مدينة شماخي وقاتلوا أهلها وحاولوا ارتقاء الأسوار فلم يفلحوا وصبر أهل البلد، وأخيراً دخلوا شماخي، ثم انطلقوا إلى باب الأبواب (دربند) فعجزوا عن دخولها حتى دلّهم على طريقٍ لها رجال من أصحاب ملك شماخي أرسلهم إليهم مكرهاً، وكانوا عشرة رجالٍ فقتلوا أحدهم ليخيفوا الآخرين فدلّوهم على طريقٍ لها.

ولما دخل المغول باب الأبواب انطلقوا إلى بلاد اللان والقفقاس (الشراكسة) وهما على وئامٍ ففرّقوا بينهما، وشجّعوا الشراكسة على اللان ومنّوهم الأماني، وتفرّد المغول باللان ودخلوا بلادهم، ولما انتهوا منهم اتجهوا إلى الشراكسة فاحتلّوا بلادهم، وتفرّق الشراكسة في الجبال والغياض وفرّت جماعة منهم إلى بلاد الروس ليأمنوا على حياتهم.

سار المغول إلى بلاد الروس سنة ٦٢٠هـ ووصل خبرهم إلى أهل البلاد وكانوا قد استعدّوا فساروا إلى طريق المغول ليلقوهم قبل أن يدخلوا بلادهم وعرف المغول سير الروس إليهم فتراجعوا فظنّ الروس أن تراجع المغول عجزاً وخوفاً فجدّوا في اتّباعهم ولم يزل المغول متراجعين والروس يقتفون أثرهم اثني عشر يوماً ثم انعطف المغول عليهم وأعملوا فيهم السيف ونالوا

منهم وهُزم الروس ومعهم الشراكسة الذين فرّوا إليهم هزيمةً منكرةً ولم يَسلم منهم إلا القليل ومن سلم رجع إلى بلده على أبشع صورةٍ.

وفي أواخر سنة ٦٢٠هـ سار المغول إلى بُلغار (قازان) وكان أكثرية بُلغار قد اعتنقوا الإسلام عن طريق تجار الفراء، ورحل إليهم الرحالة ابن فضلان في أول القرن الرابع الهجري (٣٠٩هـ). فلما سمع أهل بلغار باقتراب المغول منهم كمنوا لهم في عدة مواضع وخرجوا إليهم واستجرّوهم إلى أن جاوزوا موضع الكمائن فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فأوقعوهم بين عسكريهم وأعملوا فيهم السيف من كل ناحيةٍ فقتلوا أكثرهم ولم ينجُ منهم إلا القليل، وقد رجع من نجا إلى ملكهم جنكيزخان وخلت أرض الروس والقفقاس منهم.

بعد أن هُزم خوارزمشاه من خراسان قسّم جنكيزخان عساكره إلى عدة أقسامٍ منها من اتجه إلى فرغانة ومنها من سار إلى ترمذ و... وقد استولى كل قسمٍ على الجهة التي سار إليها، وارتكب أعمال النهب والسلب والقتل والسبي والإفساد الشيء الكثير ثم عادوا جميعهم إلى ملكهم جنكيزخان وهو بسمرقند يجهّز الجيوش ويستعدّ للسيطرة.

سيّر جنكيزخان جيشاً إلى خراسان فقصد مدينة بلْخ فطلب أهلها الأمان فأُجيبوا إلى ما طلبوا، ولم يُصب أهل البلد بأذىً، وسار عسكر جنكيزخان إلى بلدان أخرى فملكوها جميعها وجعلوا عليها الولاة، وتابعوا السير حتى وصلوا إلى الطالقان فحاصروها ستة أشهرٍ يقاتلون أهلها ليلاً نهاراً فلم يظفروا منها بشيءٍ فأرسلوا إلى جنكيزخان يبلغونه عجزهم عن دخول القلعة لحصانتها فسار إليها بنفسه وبمن عنده من عسكره فبقي على حصارها وقتال أهلها أربعة أشهرٍ أخرى وقد قُتل من عسكره عدد كبير فأمر بجمع الحطب والأخشاب وما يمكن جمعه، وأخذوا يضعون التراب فوق الأخشاب صفاً بعد صفٍ حتى صار تلّاً أمام القلعة، فاجتمع من بها وفتحوا بابها وانطلقوا منها وحملوا حملة رجلٍ واحدٍ منسحبين فنجا الخيالة وسلكوا تلك الجبال والشعاب أما الرجالة فقد قتلوا جميعاً ودخل المغول القلعة فأخذوا النساء والأطفال ونهبوا الأموال والأمتعة.

وانطلق المغول بعد ذلك نحو مدينة مرو بعد أن جمعوا العسكر فألقوا عليها الحصار وأخذوا بقتال أهلها وبعد خمسة أيامٍ من الحصار والقتال أرسل المغول إلى أمير البلد يقولون له: لا تهلك نفسك وأهل بلدك،

واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك، فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد فأُجيب إلى ما طلب فخرج إليهم فتلقّاه ابن جنكيزخان وأبدى احترامه له، وقال له: أريد أن تعرض عليّ أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا طلبناه وأعطيناه إقطاعاً ويكون معنا فلما حضروا عنده وتمكّن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم وكبّلهم فلما فرغ منهم قال لهم: اكتبوا إلى التجار ورؤساء الصناعات وأرباب الأموال واعرضوا ذلك علينا ففعلوا، ثم أمر أهل البلد أن يخرجوا منه جميعاً بأهليهم فخرجوا ولم يبق فيه أحد، فجلس على كرسي وأمر أن يحضر أولئك الأجناد المكبّلون فضربت أعناقهم صبراً والناس ينظرون إليهم ويبكون، وأما التجار وأصحاب الصناعات فقد طلبت منهم الأموال وضُربوا وعُذّبوا حتى أعطوا كل ما يملكون، ثم أمر بإحراق البلد، وبعد أربعة أيامٍ قُتل أهل البلد جميعاً إذ قيل له: إنهم عصوا علينا، وذُكر أن عدد القتلى كان سبعمائة ألف قتيلٍ[١].

ثم سار المغول نحو نيسابور فألقوا الحصار عليها خمسة أيامٍ ثم دخلوا المدينة فأخرجوا أهلها إلى الفيافي وقتلوهم جميعاً وسبوا نساءهم، وأقاموا خمسة

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

عشر يوماً يفتشون المنازل عن الأموال. ثم اتجهوا إلى مدينة طوس فارتكبوا فيها الجرائم نفسها التي فعلوها في المدن السابقة.

وساروا إلى مدينة هراة وهي من أحصن البلدان فألقوا الحصار عليها مدّة عشرة أيامٍ فملكوها وأمنوا أهلها وقتلوا بعضهم.

واندفع المغول بعد ذلك إلى مدينة غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزمشاه فقاتلهم وهزمهم فرجعوا ولم يتعقبهم. ووثب أهل هراة على من بقي عندهم من المغول فقتلوهم، ورجع المغول المنهزمون أمام جلال الدين فدخلوا مدينة هراة قهراً وعنوةً فقتلوا كل من فيها ونهبوا الأموال، وسبوا النساء، وأحرقوا المدينة ونهبوا ضواحيها وأفسدوا في الأرض.

رجع عسكر المغول إلى ملكهم جنكيزخان وهو بمدينة الطالقان يبثّ السرايا، ويأمر بسير الجيوش، وقد انتهى أمر خراسان سنة ٦١٧هـ.

وكان جنكيزخان قد بعث بجيشٍ إلى خوارزم ويُعدّ هذا الجيش أكثر الجيوش التي سيّرها عدداً وأعظمها عتاداً فسار حتى وصل إلى خوارزم وفيها عسكر كثير وأهلها كثيرون أيضاً وقد عُرفوا بالشجاعة،

وأُلقي الحصار عليها مدة خمسة أشهرٍ وقد ذهب قتلى كثير من الجانبين وإن كان قتلى المغول أكثر لأن أهل البلد وعسكرها يقاتلون من وراء حصونهم، فأرسل المغول إلى ملكهم جنكيزخان يطلبون منه المدد فأمدهم بعسكرٍ كثيرٍ فلما وصل المدد المغولي إلى هدفه زحفوا إليه مراتٍ متتابعةً فملكوا طرفاً من المدينة ولم يتمكّن الخوارزميون من إخراجهم، وأخذ المغول يتقدّمون تدريجياً ويستولون على محلّةٍ بعد أخرى حتى ملكوا البلد جميعه فقتلوا كل من فيه ونهبوا كل ما فيه، وحوّلوا مياه نهر جيحون على البلد فأُغرق وتهدّمت الأبنية. ولما انتهوا من خراسان وخوارزم عادوا إلى ملكهم جنكيزخان بالطالقان.

سيّر جنكيزخان جيشاً كثيفاً إلى غزنة وبها جلال الدين بن خوارزمشاه مالكاً لها وقد جاءه من سلم من عسكر أبيه فلما وصل المغول إلى أعمال غزنة خرج إليهم جلال الدين والتقى بهم واقتتلوا قتالاً شديداً استمرّ ثلاثة أيامٍ أسفر عن انتصار جلال الدين وهزيمة المغول وعودة من سلم منهم إلى ملكهم جنكيزخان بمدينة الطالقان، ولما سمع أهل هراة بالخبر ثاروا على واليهم المغولي فقتلوه فبعث إليهم جنكيزخان عسكراً ملكوا البلد وخربوه. ولما انهزم المغول أرسل

جلال الدين مبعوثاً له إلى جنكيزخان يقول له: في أي موضعٍ تريد أن تكون الحرب بيننا حتى نأتي إليه؟ فجهّز جنكيزخان جيشاً كثيفاً بقيادة أحد أولاده وسيّره إليه فوصل إلى كابل فالتقى به هناك جيش جلال الدين فانهزم المغول وقُتل منهم عدد كبير وغنم المسلمون ما معهم وكان شيئاً كثيراً، كما استنقذ المسلمون ما كان مع المغول من أسرى المسلمين وكان عدداً كبيراً. ثم وقعت فتنة بين المسلمين على الغنيمة، وكانت بين أميرين من كبار الأمراء يُقال لأحدهما سيف الدين بغراق وللثاني ملك خان فغضب بغراق وفارق العسكر وسار إلى الهند فتبعه كثير من العسكر إذ كان شجاعاً، وحاول جلال الدين أن يستعطفه وذهب إليه بنفسه وذكّره بالجهاد وخوّفه من الله تعالى وبكى بين يديه فلم يُجْدِ ذلك وانطلق مفارقاً، فضعفت بذلك قوة المسلمين.

ورد خبر إلى المسلمين أن جنكيزخان قد سار إليهم بجموعه وجيوشه، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين بسبب من فارقهم من العسكر فلم يستطع المقام فسار نحو الهند، ووصل إلى نهر السند ولم يجد الوسيلة التي يعبر بها النهر، وكان جنكيزخان يتتبع أثره مسرعاً فأدركه على شاطئ النهر، واضطر جلال الدين إلى القتال، فوقعت معركة حامية بين الطرفين استمرّت

ثلاثة أيامٍ قُتل فيها الأمير ملك خان، وهو صاحب هراة، وبينه وبين خوارزمشاه نسب، وهو الذي سبق أن اختلف الأمير الشجاع سيف الدين بغراق، وكان عدد القتلى كبيراً من الفريقين وإن كان من المغول أكبر وكذا كان الجرحى، وتراجع المغول عن القتال وانسحبوا إلى مكانٍ بعيدٍ ونزلوا، ورأى المسلمون ضعفهم ولم يعرفوا وضع عدوهم، وطلبوا الزوارق فجاءتهم وعبروا نهر السند، وفي اليوم التالي رجع المغول إلى غزنة ودخلوها لخلوها من العسكر والحماة فقتلوا ونهبوا وسبوا ثم خربوها وأحرقوها وكذا فعلوا بضواحيها فأصبحت غزنة خاويةً على عروشها كأن لم تغن بالأمس.

وفي شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢٠هـ كان غياث الدين بن خوارزمشاه علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش، وغياث الدين هو أخو جلال الدين، كان غياث الدين صاحب بلاد الجبل والريّ وأصبهان وكرمان وكان خاله إيغان طائسي في خدمته وهو أكبر أميرٍ معه، لا يصدر غياث الدين إلا عن رأيه، والحكم إليه في المملكة جميعها، فلما ارتفع شأنه حدّث نفسه بالاستيلاء على الملك، وحسّن له ذلك غيره وأطمعه فيه. وقيل: إن الخليفة العباسي الناصر لدين الله أقطعه

البلاد سراً وأمره بذلك فقويت نفسه على الخلاف فاستمال جماعةً من العسكر، فلما تمّ له أمره أظهر الخلاف على غياث الدين، كما خرج عن طاعته آخرون وربما كانوا متفقين على العصيان وساروا جميعهم إلى غياث الدين ليقاتلوه ويملكوا بلاده فالتقى الجمعان، وهُزم خال غياث الدين وهو إيغان طائسي ومن معه وقُتل من عسكره الكثير وأُسر الكثير، ورجع المنهزمون إلى أذربيجان وقوي سلطان غياث الدين.

بعد أن ترك المغول الريّ وبعض البلدان التي دخلوها وقتلوا أهلها ونهبوها ورجعوا إلى ملكهم جنكيزخان رجع من سلم من أهلها إليها وعمروها ولكن لم يشعروا إلا وقد داهمهم فوج جديد من المغول فلم يمتنعوا عنهم إذ لا طاقة لهم بهم فأعملوا فيهم السيف فقتلوا ما شاء لهم هواهم أن يقتلوا وينهبوا ويخربوا وقد بدؤوا بمدينة الريّ ومنها انتقلوا إلى ساوة ثم ساروا إلى قم وقاشان وكانتا قد سلمتا في المرة الأولى حيث لم يقربوهما ولا أصابهما أذىً فكان دورهما الآن بالقتل والنهب والخراب، ثم انتقلوا إلى همدان فأبادوا من عاد إليها وخربوها. وكان المغول لما دخلوا الريّ في هذه المرة الثانية وجدوا فيها عسكراً من الخوارزمية فأغاروا عليهم فجأةً فقتلوا بعضهم وانهزم بعضهم نحو أذربيجان

ووصلت جماعة منهم إلى مدينة تبريز فأرسل المغول إلى صاحبها أوزبك بن البهلوان يقولون له: إن كنت على وفاقٍ معنا فسلّم إلينا من عندك من الخوارزمية وإلا فأخبرنا أنك على غير وفاقٍ معنا ولا أنت في طاعتنا فأصابه الرعب منهم وهو يسمع ويرى ما يحلّ بأهل البلدان التي يدخلها المغول من مصائب ونكباتٍ فعمد إلى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم وبعث بالأسرى ورؤوس القتلى مع كثير من المال والثياب والدواب إلى المغول فعادوا عن بلاده نحو خراسان، وما فعل المغول ما فعلوا عن كثرة في العسكر حيث لم يكونوا أكثر من ثلاثة آلاف فارسٍ ولكن بالرعب الذي نزل بالناس منهم.

كان غياث الدين بن خوارزمشاه علاء الدين محمد يملك الريّ وأصفهان وهمدان وما بينها كما يملك كرمان فلما توفي أبوه علاء الدين محمد سنة ٦١٧هـ وصل المغول إليه فامتنع عنهم بمدينة أصفهان ولم يستطيعوا اقتحامها ودخولها عليه فتركوا حصارها وساروا إلى بلاد القفقاس فعاد غياث الدين فملك ما سبق أن احتله المغول وأقام بها إلى أواخر سنة ٦٢٠هـ، ثم سار إلى بلاد فارس فاحتمى صاحبها سعد الدين بن دكلا بقلعة إصطخر، واتجه غياث الدين إلى مدينة شيراز

قاعدة البلاد فدخلها في بداية سنة ٦٢١هـ وملك أكثر البلاد، ثم جرى الصلح بينه وبين سعد الدين حيث ملك كل واحدٍ منهما قسماً من البلاد، وأقام غياث الدين بشيراز، وتوطّن فيها أكثر عندما بلغه ما فعله المغول بالريّ وباقي البلدان.

كان جلال الدين بن خوارزمشاه علاء الدين محمد قد ارتحل إلى الهند بعد أن قصده المغول في غزنة ولكن تعذّرت عليه الإقامة بالهند فسار عنها إلى كرمان ومن كرمان سار إلى أصفهان وهي بيد أخيه غياث الدين فملكها، ومنها سار إلى بلاد فارس وكان أخوه غياث الدين قد استولى على قسمٍ منها فأعاد ما استولى عليه أخوه إلى صاحبها سعد الدين بن دكلا، وصالحه وسار من عنده إلى خوزستان (الأهواز) فحاصر مدينة تستر في شهر المحرم سنة ٦٢٢هـ وصاحبها الأمير مظفر الدين المعروف بوجه السبع مملوك الخليفة الناصر لدين الله فألقى جلال الدين الحصار عليها ولكن لم يستطع دخولها وتفرّق العسكر الخوارزمية في سواد المنطقة ينهبون حتى وصل بعضهم إلى ضواحي البصرة فسار إليهم أمير البصرة ملتكين فأوقع بهم وقتل جماعةً منهم.

استمرّ حصار جلال الدين لمدينة تستر مدة شهرين

ولـم يتمكّن من دخولها فرحل عنها، وكانت عسكر الخليفة الناصر لدين الله مع مملوكه جمال الدين قشتمر قريبةً من جلال الدين ولكن لما رحل لـم تستطع منعه، ووصل جلال الدين إلى بعقوبة على نهر ديالي إلى الشمال الشرقي من مدينة بغداد وعلى بعد ثمانين كيلاً منها، فلما وصل الخبر إلى بغداد استعدوا للحصار، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد، ورجع عسكر جلال الدين إلى الأهواز فنهب المنطقة وأخذوا الدواب وكانوا بأشد الحاجة لها، وسار بعدها جلال الدين إلى أذربيجان.

وصل جلال الدين إلى مدينة مراغة وملكها، وبلغه خبر وصول الأمير إيغان طائيسي وهو خال أخيه غياث الدين إلى همدان فسار جلال الدين نحوه وأحاط بعسكره ليلاً فلما أصبح عسكر الأمير إيغان وجدوا أنفسهم محاصرين فأرسل إيغان زوجته وهي أخت جلال الدين تطلب له الأمان فأمنه وطلبه إليه فحضر عنده فأخذ عسكره ورجع إلى مراغة فأقام بها، وكان صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان قد غادر تبريز خوفاً من جلال الدين، فأرسل جلال الدين عسكراً إلى تبريز ثم سار إليها وحاصرها مدة خمسة أيامٍ، وطلب أهلها الأمان فأعطاهم إياه وطلبوا منه كذلك أن يُؤمّر

زوجة أوزبك بن البهلوان عليهم ولا يخالفها فيما تقرّر، وهي ابنة السلطان طغرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السلجوقي فوافقهم، وقد ملك جلال الدين تبريز في السابع عشر من شهر رجب سنة ٦٢٢هـ، وسيّر زوجة أوزبك صاحبة البلد لتقيم في مدينة خوي، واستولى هو على عددٍ من البلدان الأخرى، وسيّر العساكر إلى الكرج.

كان الكرج يُغيرون على أذربيجان وغيرها من بلاد المسلمين المجاورة لهم ويفسدون فيها نهباً وقتلاً وسبياً، وما أن انتهى جلال الدين من أمر أذربيجان حتى استعدّ لقتال الكرج وبعث إليهم يُؤذنهم بذلك فاستعدّوا وتوعّدوا فسار إليهم والتقى بهم في أواخر شهر شعبان سنة ٦٢٢هـ، وانتصر عليهم، وفرق عسكره في بلاد الكرج ينهبون ويقتلون ويسبون ويخربون.

وصل الخبر إلى جلال الدين وهو في بلاد الكرج أن أعيان تبريز قد اجتمعوا وتحالفوا على الامتناع على جلال الدين، وجاءه مبعوث وزيره شرف الملك الذي خلفه في تبريز بالخبر نفسه فاضطر للعودة إلى تبريز وخلّف أخاه غياث الدين مع العساكر في بلاد الكرج.

لما رجع جلال الدين إلى تبريز قبض على أعيان

البلد فأما الرئيس فيهم فقد أمر أن يُطاف به على البلد، وكل من له مظلمة فليأخذها منه ـ وكان ظالماً ـ ففرح الناس بذلك، ثم قتله، وأما الآخرون وفيهم شمس الدين الطغرائي فقد حبسوا، وعندما استقر له أمر البلد تزوج زوجة أوزبك البهلوان ابنة السلطان طغرل السلجوقي، وكانت قد بانت من زوجها بعد أن حلف بطلاقها، وأقام جلال الدين مدةً في تبريز، وسيّر عسكراً دخلت بعض البلدان.

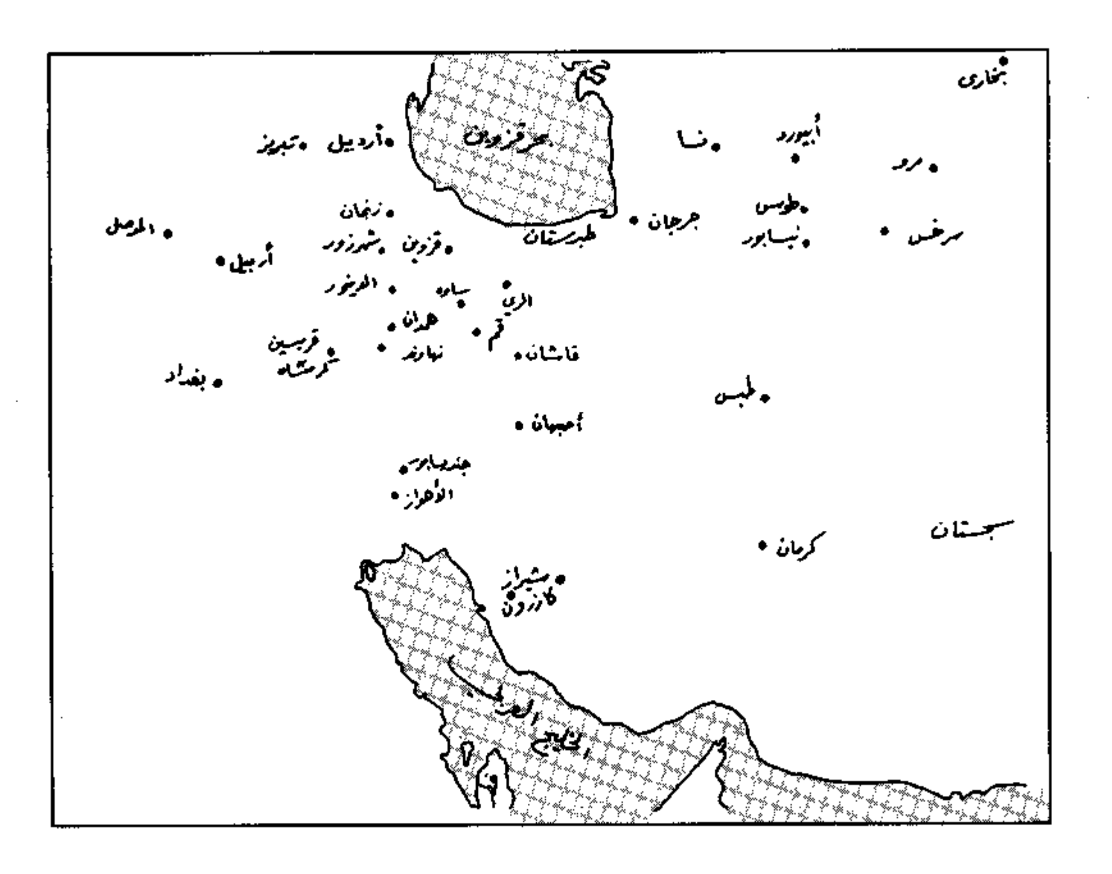
عندما استقر الوضع لجلال الدين في أذربيجان رجع إلى بلاد الكرج في شهر ذي الحجة سنة ٦٢٢هـ، وكان الكرج قد حشدوا وجمعوا من الشعوب التي حولهم العسكر حتى غدت لهم جيوش كثيفة وطمعوا بقتال جلال الدين إذ غرّتهم كثرتهم، وجاءهم ما يحلمون والتقوا بجلال الدين ومعه عسكره فانهزم الكرج بأول لقاءٍ وولّوا هاربين فتبعهم المسلمون حتى كادوا يُفنونهم فقصد جلال الدين عند ذلك دار ملكهم تفليس فلما اقترب منها نصب الكمائن وسار إليها بثلاثة آلاف فارسٍ فلما رآه من بها طمعوا به لقلّة من معه فخرجوا إليه وقاتلوه فتأخّر عنهم فزاد طمعهم حيث ظنّوه أنه قد هُزم فتبعوه فلما أصبحوا وسط الكمائن خرج عليهم رجالها ووضعوا السيف فيهم فقُتل أكثرهم وهُزم الباقون

إلى المدينة فدخلوها وتبعهم المسلمون فاستسلم الكرج وملك المسلمون المدينة عنوةً.

عزم جلال الدين السير إلى خلاط[1] فقصدها ولكن جاءه خبر أن نائبه على كرمان وهو «بلاق حاجب» قد عصى عليه فترك جلال الدين خلاط وسار إلى كرمان، وكان النائب عليها قد اتصل بالمغول، وبعث جلال رسولاً إلى بلاق حاجب فلم يُجدِ ذلك نفعاً حيث تحصّن وأصحابه بالقلاع، فتوقّف جلال الدين عند أصفهان ولم يتابع المسير إلى كرمان.

كان جلال الدين قد ترك بعض عساكره في تفليس مع وزيره شرف الملك فقلّت عليهم المواد الغذائية فساروا إلى أرضروم فنهبوا وسبوا وأخذوا الكثير من المواد ورجعوا فكان طريقهم على ولاية خلاط فسمع النائب على خلاط بذلك فجمع العسكر وسار إليهم فأوقع بهم، وأخذ ما معهم مما نهبوا وسلبوا.

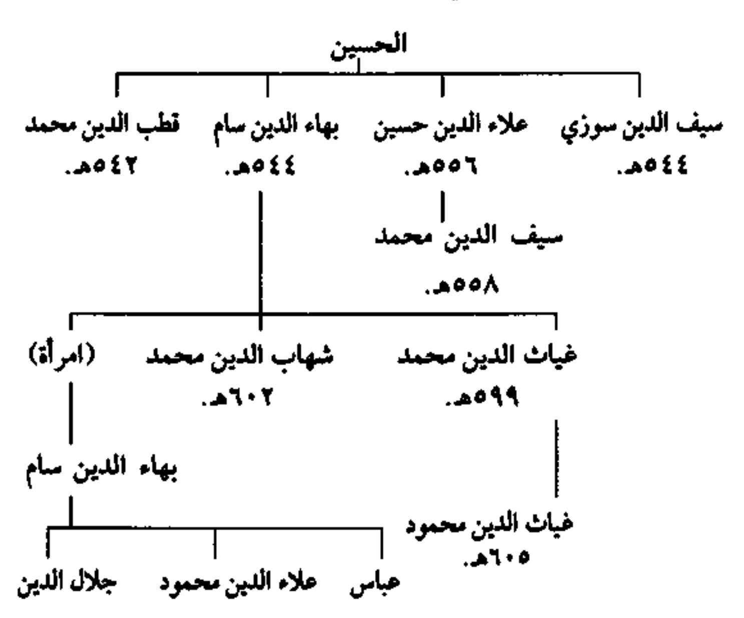
(١) خلاط: مدينة في شرقي تركيا اليوم، على مقربةٍ من بحيرة وان.


بخارى
أبيورد
نسا
مرو
طوس
سرخس
نيسابور
جرجان
طبرستان
بحر قزوين
أردبيل
تبريز
زنجان
الموصل
قزوين
شهرزور
أربيل
الدينور
ساوه
الري
همذان
قم
قرميسين
كرمنشاه
نهاوند
قاشان
بغداد
طبس
أصبهان
جنديسابور
الأهواز
سجستان
كرمان
شيراز
كازرون
الخليج العربي

٣ الغوريون:

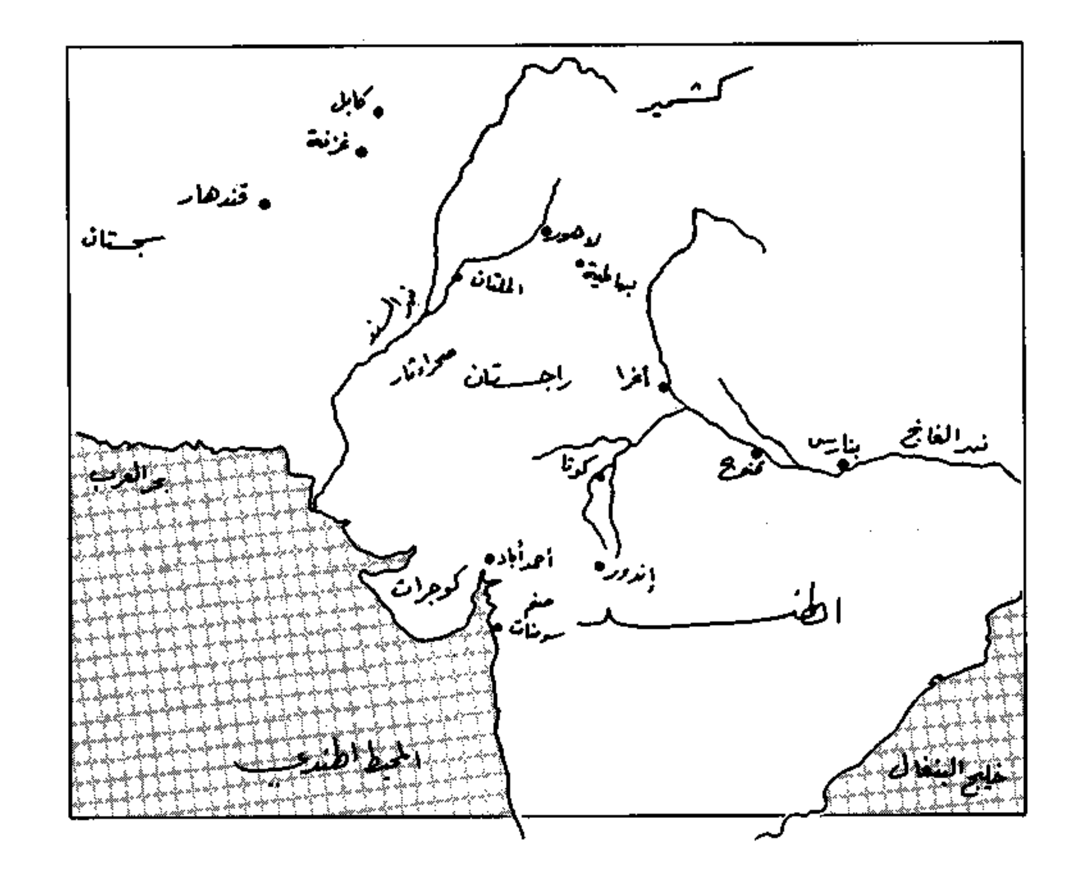
يقيمون في المنطقة الجبلية بين غزنة وهراة وفيها قلعة فيروزكوه المشهورة، برز فيهم قطب الدين محمد الغوري الذي صاهر الغزنويين إذ تزوج ابنة ظهير الدين إبراهيم الغزنوي أخت بهرام شاه.

في سنة ٥٤٢هـ دبّر بهرام شاه مؤامرةً لقتل صهره قطب الدين محمد الغوري فقُتل، وهذا ما أثار أخويه سيف الدين سوزي وعلاء الدين حسين جهان سوزي فسارا إلى غزنة فهرب منها بهرام شاه واتجه إلى الهند، وتولّى أمر غزنة سيف الدين سوزي نيابةً عن أخيه علاء الدين حسين.

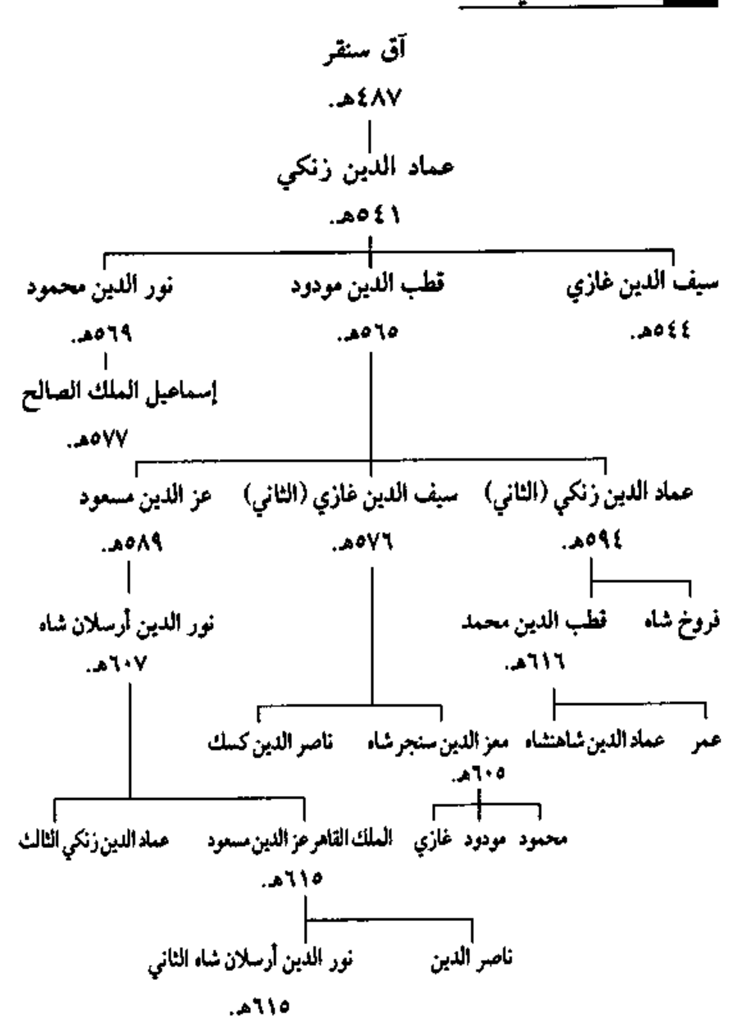


إن أحداث هذه الإمارة مرتبطة بإمارة خوارزم التي قضت على الإمارة الغورية.




كشمير
كابل
غزنة
قندهار
سجستان
لوهور
بهاطية
الملتان
نهر السند
صحراء ثار
راجستان
أغرا
قنوج
بنارس
نهر الغانج
كوتا
إندور
أحمد أباد
كوجرات
صنم
سومنات
الهند
بحر العرب
المحيط الهندي
خليج البنغال

٤" آل زنكي:



توفي في الثالث من شهر صفر سنة ٥٧٦هـ سيف الدين غازي الثاني صاحب الموصل وديار الجزيرة

الفراتية بمرض السلّ، وعمره حينئذٍ ثلاثون عاماً، وكانت ولايته عشر سنواتٍ وثلاثة أشهرٍ، ولما اشتدّ مرضه أراد أن يعهد بالملك لابنه معز الدين سنجر شاه، وكان عمره يومذاك اثنتي عشرة سنةً فخاف عليه وعلى الدولة لأن صلاح الدين الأيوبي كان قد تمكّن بالشام وقوي أمره، كما أن أخا سيف الدين غازي وهو عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود قد امتنع من الإذعان لذلك وإجابته إلى ما أراد، فأشار عليه الأمراء ومجاهد الدين قايماز أن يجعل الملك بعدها لأخيه عزّ الدين لما هو عليه من السنّ والشجاعة والعقل وقوة النفس وأن يعطي ابنيه بعض البلدان ويكون مرجعهما إلى عمهما، ففعل ذلك، وجعل الملك لأخيه، وأعطى جزيرة ابن عمرو وقلاعها لولده معز الدين سنجر شاه وقلعة الحميدية لولده الصغير ناصر الدين كسك، فلما توفي سيف الدين غازي الثاني ملك أخوه عز الدين مسعود، وكان الموجّه للدولة مجاهد الدين قايماز، وهو الحاكم الفعلي في الجميع، واستقرت الأمور على ذلك.

وتوفي الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود في شهر رجب سنة ٥٧٧هـ وهو صاحب حلب وعمره تسع عشرة سنةً ولما اشتدّ المرض عليه وشعر بدنو الأجل أحضر عنده الأمراء وسائر الأجناد

وأوصاهم بتسليم البلد إلى ابن عمه عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود، واستحلفهم على ذلك، فقال له بعضهم: إن عماد الدين هو ابن عمك أيضاً، وهو زوج أختك، وكان والدك يحبه ويؤثره، وهو الذي تولّى تربيته، وليس له غير سنجار فلو أعطيته البلد لكان أصلح، وعز الدين له من البلاد من الفرات إلى همدان ولا حاجة به إلى بلدك، فقال: إن هذا لم يغب عني ولكن علمتم أن صلاح الدين قد تغلّب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ومتى سلّمت حلب إلى عماد الدين يعجز عن حفظها، وإن ملكها صلاح الدين لم يبق لأهلنا معه مقام، وإن سلّمتها إلى عز الدين أمكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله، وعجبوا من جودة فطنته مع شدّة مرضه وصغر سنه، ثم مات، وكان حسن السيرة ملتزماً بأمور دينه. ولما قضى نحبه أرسل الأمراء إلى عز الدين مسعود يستدعونه إلى حلب فسار هو ومجاهد الدين قايماز إلى الفرات وأرسل أن يحضر الأمراء عنده من حلب فحضروا وساروا جميعاً إلى حلب فدخلها في العشرين من شهر شعبان سنة ٥٧٧هـ، وكان صلاح الدين الأيوبي حينئذ بمصر. ولما اجتاز عز الدين مسعود نهر الفرات كان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين بمدينة منبج فسار عنها هارباً إلى

حماة. وأشار عسكر حلب على عز الدين مسعود بقصد دمشق وأطمعوه فيها وفي غيرها من بلاد الشام، وقالوا له: إن أهلها يحبونه ويحبون أهل بيته ويذكرون عمه نور الدين محمود بخيرٍ كبيرٍ، فلم يفعل، وقال: بيننا يمين فلا نغدر، وأقام بحلب عدة شهورٍ ثم سار عنها إلى الرقة.

لما دخل عز الدين مسعود الرقة جاءته رسل أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار يطلب أن يُسلّم إليه حلب ويأخذ منه مدينة سنجار عوضاً عنها فلم يجبه إلى ذلك، ولجّ عماد الدين بالسؤال، وقال: إن سلّمت إليّ حلب وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين فأشار حينئذٍ جماعة من الأمراء على عز الدين مسعود بتسليمها إليه وكان أشدّهم في ذلك مجاهد الدين قايماز فلم يمكن لعزّ الدين مخالفته لتمكّنه في الدولة وكثرة عساكره، وإنما حمل مجاهد الدين على ذلك خوفه من عز الدين لأنه عظم في نفسه وكثر العسكر معه وكان أمراء حلب لا يلتفتون إلى مجاهد الدين ويسلكون معه من الأدب ما يفعله عسكر الموصل فاستقر الأمر على تسليم حلب إلى عماد الدين وأخذ سنجار عوضاً عنها، فسار عماد الدين إلى حلب وتسلّمها وسلّم سنجار إلى أخيه عز الدين وعاد إلى الموصل، وكان صلاح الدين

بمصر قد بلغه خبر ملك عز الدين حلب فعظم الأمر عليه وخاف أن يسير منها إلى دمشق وغيرها ويملك الجميع وأيس من حلب فلما بلغه ملك عماد الدين لها سار من يومه من مصر إلى الشام فملك ديار الجزيرة، وحاصر الموصل فلم يظفر بها، وملك سنجار، وآمد، ثم استولى على حلب وحارم.

وفي شهر جمادى الأولى قبض عز الدين مسعود صاحب الموصل على نائبه مجاهد الدين قايماز وقد رأى مصلحةً في ذلك كما أشار عليه كبار أمرائه، ولما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين بل أظهر أنه مريض وانقطع عن الركوب عدة أيامٍ فدخل عليه مجاهد الدين ليعوده، فلما دخل عليه قبض عليه وركب من ساعته إلى القلعة التي فيها أموال مجاهد الدين وخزائنه فاحتواها كلها، وولّى مكانه عز الدين محمود زلفندار، وشرف الدين أحمد بن أبي الخير وهما من أكابر الأمراء، ولم يبق لعز الدين مسعود سوى مدينة الموصل وقلعتها، والقلعة بيد مجاهد الدين فلما قبض عز الدين مسعود على مجاهد الدين امتنع صاحب أربيل عن طاعة عز الدين مسعود وكذلك صاحب جزيرة ابن عمرو. كما أخذ الخليفة بعض البلدان ومنها (دقوقا) وهي بين بغداد

وأربيل، ولم يبق لعز الدين مسعود سوى منطقةٍ صغيرةٍ بعد اتساعٍ بالملك، وغدت ديار الجزيرة الفراتية ومدينة أربيل أكثر المناطق خطراً عليه فأرسل إلى صلاح الدين بالطاعة والدخول في خدمته، كما أرسل الخليفة بعض الأعيان للصلح بين صلاح الدين وعز الدين فاشترط صلاح الدين عدم البحث في ديار الجزيرة وأربيل، ورأى رجال الخليفة أن هذه مناطق تتبع بغداد لذا لم يتم الصلح وطمع صلاح الدين بالموصل بعد القبض على مجاهد الدين، وشعر عز الدين بما لحقه من ضررٍ بالقبض على مجاهد الدين لذا أخرجه وقبض على عز الدين محمود زلفندار وشرف الدين أحمد بن أبي الخير.

أطلق عز الدين مسعود صاحب الموصل من السجن مجاهد الدين قايماز في شهر المحرم سنة ٥٨٠هـ بشفاعة شمس الدين البهلوان صاحب همدان وبلاد الجبل وسيّره إلى البهلوان وأخيه قزل يستنجدهما على صلاح الدين الأيوبي، فسار مجاهد الدين أولاً إلى قزل صاحب أذربيجان ولم يمكنه من السير إلى البهلوان، وقال: ما نختار أفعله أنا، وجهّز معه ثلاثة آلاف فارسٍ فاتجه بهم إلى أربيل ليحاصرها فلما اقترب منها أخذ العساكر الذين معه يفسدون في الأرض نهباً وسلباً وسبياً

وحرقاً وتخريباً ولم يستطع مجاهد الدين أن يمنعهم فخرج إليهم زين الدين يوسف صاحب أربيل في عسكره فلقيهم وهم متفرقون للإفساد في القرى فهجم على أول من لقي منهم فهزمهم وتمت هزيمة الجميع وغنم أهل أربيل سلاحهم وأموالهم ودوابهم ورجع مجاهد الدين إلى الموصل فكان يقول: إنني مازلت أنتظر العقوبة من الله تعالى على سوء أفعال هؤلاء العسكر فإنني رأيت ما لا كنت أظنه يفعله مسلم بمسلمٍ وكنت أنهاهم فلا يسمعون حتى كان من الهزيمة ما كان.

سار صلاح الدين الأيوبي من دمشق في شهر ذي القعدة سنة ٥٨٠هـ قاصداً حلب فوصل إليها وأقام بها قليلاً، وفي شهر المحرم من سنة ٥٨١هـ خرج منها متجهاً إلى ديار الجزيرة فعبر نهر الفرات واتجه إلى مدينة حرّان فلما وصل إليها قبض على مظفر الدين كوكبري بن زين الدين الذي كان سبب ملكه ديار الجزيرة، وسبب القبض عليه أن مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين دائماً ويشير عليه بقصد الموصل ويُحسّن له ذلك ويقوّي من همّته حتى إنه بذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينارٍ فلما وصل صلاح الدين إلى حران لم يفِ له بما وعد وأنكر ذلك فقبض عليه، ووكّل به، ثم أطلقه وأعاد إليه مدينتي حران والرها، وكان قد

أخذهما منه، وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف الناس عنه بديار الجزيرة، وسار صلاح الدين عن مدينة حران في شهر ربيع الأول سنة ٥٨١هـ، وحضر عنده عسكر الحصن ومعز الدين سنجر شاه صاحب سنجار وهو ابن أخي عز الدين مسعود صاحب الموصل وكان قد ترك طاعة عمه بعد القبض على مجاهد الدين قايماز، وسار مع صلاح الدين إلى الموصل فلما اقتربوا منها بعث عز الدين مسعود والدته إلى صلاح الدين ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن زنكي وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان دولته يطلبون منه المصالحة وبذلوا له الإنجاد بالعساكر ليعود عنهم فلم يقبل، ورجع من جاءه، وتابع هو سيره إلى الموصل فلما اقترب منها نزل على بُعد أربعة عشر كيلاً منها، ولكن لم يستطع الظفر بما يريد، ورحل عنها وذلك أنه قد بلغه في العشرين من شهر ربيع الثاني أن شاه أرمن صاحب خلاط قد توفي في التاسع من الشهر نفسه أي قبل أحد عشر يوماً من وصول الخبر إليه، وأن شاه أرمن لم يخلف ولداً ولم يكن له أحد من أهل بيته يملك بلده بعده وإنما استولى عليها مملوك له اسمه (بكتمر) ولقبه سيف الدين فعزم صلاح الدين على الرحيل إلى خلاط وتملكها، واستشار صلاح الدين أمراءه ووزراءه فاختلفوا بالرأي

فأما من هواه بالموصل فقد أشار بالمقام وملازمة الحصار لها وأما من يكره أذى البيت الزنكي فإنه قد أشار بالرحيل وقال: إن ولاية خلاط أكثر اتساعاً وأكبر فائدةً ولا حافظ لها وهذه لها سلطان يحفظها ويدافع عنها، وإذا ملكنا تلك سهل علينا أمر هذه وغيرها فاتفق أن جاءه كتب جماعةٍ من أعيان خلاط وأمرائها يستدعونه ليسلّموا إليه البلد فسار صلاح الدين الأيوبي عن الموصل. وكانت مراسلة من كاتبه خديعةً ومكراً فإن شمس الدين البهلوان بن إيلدكز صاحب أذربيجان وهمدان قد قصدهم ليأخذ البلد منهم، وكان قد زوّج شاه أرمن على كبر سنه بنتاً له ليجعل ذلك طريقاً لملك خلاط وأعمالها فلما بلغ أهل خلاط مسير شمس الدين البهلوان إليهم كاتبوا صلاح الدين يستدعونه إليهم ليسلّموا البلد إليه ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان وتبقى البلد بأيديهم، فسار صلاح الدين الأيوبي نحو خلاط وسيّر في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين فساروا إلى خلاط ونزلوا بالقرب منها، وسار صلاح الدين إلى ميافارقين، وسار البهلوان أيضاً إلى خلاط ونزل قريباً منها، وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبين صلاح الدين فلم يصلوا إلى صلحٍ، ثم اتفقوا مع البهلوان وخطبوا له.

حاصر صلاح الدين الأيوبي مدينة ميافارقين من بداية شهر جمادى الأولى سنة ٥٨١هـ، ولم يظفر بها فلجأ إلى الحيلة فملكها ونظم أمورها، وعزم على السير إلى الموصل ثانيةً وجعل طريقه على مدينة نصيبين فمر عليها ونزل بها في شعبان وأقام بها شهري شعبان ورمضان وتردّدت الرسل بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل في سبيل الصلح، ومرض صلاح الدين وعاد إلى حران فلحقته الرسل بالإجابة إلى ما طلب فتقرّر الصلح وحلف على ذلك وكان الاتفاق أن يسلّم عز الدين لصلاح الدين بعض الولايات وأن يخطب له على منابر بلاده ويضرب اسمه على السكة فلما حلف أرسل مبعوثيه إلى عز الدين فحلف له وتسلّم الولايات التي اتفقوا عليها، ووصل صلاح الدين إلى حران وهدأت الأحوال وكان ذلك بمساعي مجاهد الدين قايماز.

وزاد مرض صلاح الدين بمدينة حران وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل وله حينئذٍ حلب وولده الملك العزيز عثمان، واشتدّ مرضه، وأيسوا من صحته فحلّف الناس لأولاده وجعل لكل واحدٍ منهم شيئاً معلوماً وجعل أخاه العادل وصياً على الجميع، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في شهر المحرم سنة ٥٨٢هـ.

ووقعت فتنة سنة ٥٨١هـ بين الأكراد والتركمان لسببٍ تافهٍ ودامت عدة سنواتٍ وذلك أن الأكراد طلبوا من التركمان إقامة وليمة عرسٍ تمّ فلم يقبلوا ثم أصلح بين الطرفين مجاهد الدين قايماز ـ جزاه الله خيراً ـ.

سار عز الدين مسعود صاحب الموصل في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ إلى جزيرة ابن عمرو، وألقى الحصار عليها وكان صاحبها ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازي الثاني وسبب هذا الحصار أن سنجر شاه كان يؤذي عمّه بمراسلة صلاح الدين الأيوبي وإخباره بأنه يريد قصد بلادك وأحياناً يخبره أنه يحثّ أعداءك لقتالك وعزّ الدين يصبر على ما يكره صلةً للرحم وخوفاً من أن يسلّم سنجر شاه جزيرة ابن عمرو إلى صلاح الدين.

وسار سنجر شاه سنة ٥٨٦هـ إلى صلاح الدين الأيوبي وهو في عكا وأقام عنده مدةً ثم استأذنه للعودة فلم يأذن له إذ كان مريضاً تنتابه حمى شديدة ففارقه دون رغبةٍ من صلاح الدين فودّعه وانصرف، وكان تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين قد أقبل من مدينة حماة في عسكره فكتب إليه صلاح الدين بإعادة سنجر شاه طوعاً أو كرهاً فالتقى به عند عقبة (فيق) فأعاده فبقي عند صلاح الدين عشرة أيامٍ.

وكتب صلاح الدين إلى عز الدين مسعود يأمره بقصد جزيرة ابن عمرو وحصارها وأخذها وأن يرسل إلى طريق سنجر شاه من يقبض عليه إذا عاد، فلم يُنفّذ عز الدين مسعود ما أمره به صلاح الدين إذ خاف أن يكون ذلك مكيدةً ولكنه طلب عز الدين من صلاح الدين أن يكتب له ذلك بخطه وبالعهد إليه بملك الجزيرة وتردّدت الرسل بينهما حتى تمّ الاتفاق، فسار عز الدين إلى جزيرة ابن عمرو وحاصرها مدة أربعة أشهرٍ وعدّة أيامٍ في شهر شعبان سنة ٥٨٧هـ، وانتهى الاتفاق برأي صلاح الدين على أن يكون نصف أعمال الجزيرة لعز الدين مسعود ونصفها الآخر لسنجر شاه وأن تكون الجزيرة ذاتها بيد سنجر شاه.

لما بلغ عز الدين مسعود صاحب الموصل خبر وفاة صلاح الدين الأيوبي جمع أهل الرأي من أصحابه وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير رجال دولته والمقدم على كل من فيها وهو نائبه فيهم واستشارهم فيما يفعل فأشار بعضهم بأن يسير عز الدين مسعود مسرعاً إلى مدينة نصيبين ويراسل من هناك من أصحاب الأطراف مثل صاحب إربيل مظفر الدين بن زين الدين، وابن أخيه سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمرو، وأخاه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار

ونصيبين ويعلمهم أنه إنما خرج يطلب منهم المساعدة والدعم، وعندما يرونه قد خرج يخافون منه فإن أجابوه سار بهم إلى هدفه وإلا بدأ بأخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب نصيبين وسنجار فأخذ أملاكه وتابع إلى الخابور والرقة وحران فملكها، وأشار مجاهد الدين قايماز بمراسلة أصحاب الأطراف واستمالتهم والطلب منهم بالحركة معاً لأخذ الشام جميعها، وتمت المراسلة وجاءت الإجابة بالرأي على الانتظار وعدم الحركة.

وبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل صاحب دمشق أخي صلاح الدين يعلمهم موت أخيه صلاح الدين وأن البلاد قد استقرت لولده الملك الأفضل نور الدين علي وأن الناس على طاعته وأنه هو المدبّر لدولة الأفضل وأنه قد سيّره في عسكرٍ كثيفٍ إلى ماردين لما بلغه أن صاحبها قد تعرّض لبعض القرى التي له، ولم تلبث أن وصلت الأخبار إلى عز الدين مسعود أن الملك العادل قد وصل إلى ظاهر حران وأن الملك الأفضل قد سيّر له قوةً ضخمةً، فسار عز الدين مسعود من الموصل إلى نصيبين واجتمع بها هو وأخوه عماد الدين زنكي الثاني، وساروا منها إلى سنجار ومنها إلى الرها وكان الملك العادل قد عسكر قريباً منها بمرج

الريحان فخافهم خوفاً عظيماً، ولما اقتربوا منه أصاب عز الدين مسعود مرض ألزمه على ترك العسكر مع أخيه عماد الدين ورجع إلى الموصل مع مائتي فارس، ومجاهد الدين، واشتدّ عليه المرض فكتب وصيته وسلّمها إلى مجد الدين بن الأثير، ودخل الموصل مريضاً في أول شهر رجب سنة ٥٨٩هـ. وتوفي في ٢٩ شعبان سنة ٥٨٩هـ.

توفي عماد الدين زنكي الثاني بن قطب الدين مودود في شهر المحرم سنة ٥٩٤هـ وهو صاحب سنجار ونصيبين والرقة، وكان قد ملك هذه المدن سنة ٥٧٩هـ، وخلفه ولده قطب الدين محمد، وفي شهر جمادى الأولى من السنة نفسها أي بعد خمسة أشهرٍ من ولاية قطب محمد سار ابن عمه من الموصل إلى نصيبين وملكها وكان يطمع بذلك أيام عمه، وسار قطب الدين محمد إلى سنجار، واستنجد مجاهد قايماز وأمراء قطب الدين بالملك العادل أبي بكر بن أيوب ليعيد لهم نصيبين، غير أن الأمراض قد أضعفت عسكر نور الدين بن مسعود فاضطر للعودة إلى الموصل في شهر رمضان من السنة نفسها فرجع قطب الدين محمد إلى نصيبين وتسلّمها.

كان بين نور الدين أرسلان شاه صاحب

الموصل وبين ابن عمه قطب الدين محمد صاحب سنجار وحشة مستحكمة ثم اتفقا وسارا معاً إلى مدينة ميافارقين سنة ٥٩٥هـ، ثم أرسل الملك العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب صاحب مصر ودمشق وبلاد الجزيرة إلى قطب الدين محمد واستماله فمال إليه وخطب له.

فلما سمع نور الدين أرسلان شاه ذلك سار إلى مدينة نصيبين في نهاية شهر شعبان سنة ٦٠٠هـ وهي لقطب الدين محمد فحاصرها وتمكّن من دخولها وبقيت القلعة فحاصرها عدة أيامٍ وكاد أن يتسلّمها فجاءته الأخبار أن صاحب أربيل قد قصد أعمال الموصل فنهب نينوى وأحرق غلّاتها فما كان من نور الدين أرسلان شاه إلا أن ترك حصار القلعة بل وغادر المدينة متجهاً إلى الموصل وقد عزم على غزو أربيل ونهبها كما فعل صاحبها ببعض البلدان التابعة له ثم تبيّن له أن الأخبار التي بلغته مبالغ بها لذا فقد غيّر وجهته إلى تل أعفر وهي لصاحب سنجار قطب الدين محمد فحاصرها واحتلّها ورتّب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوماً.

كان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب قد سار من مدينة حران إلى

مدينة رأس العين دعماً لقطب الدين صاحب سنجار ونصيبين وقد اتفق هو وصاحب أربيل مظفر الدين وصاحب آمد وصاحب جزيرة ابن عمرو وغيرهم على منع نور الدين أرسلان شاه من أخذ شيء من بلاد قطب الدين محمد، وكلهم خائفون منه، ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين فلما فارقها نور الدين أرسلان شاه سار إليها الملك الأشرف موسى وأتاه أخوه نجم الدين صاحب ميافارقين وصاحب الحصن وصاحب جزيرة ابن عمرو وغيرهم وساروا نحو نور الدين أرسلان شاه في تل أعفر وسار هو أيضاً نحوهم ونزل قريباً وقد أعيى التعب عسكره وأتاه الخبر أن عسكر الخصم قد ركبوا فركب هو وأصحابه وساروا نحوهم فلم يجدوا لهم أثراً فعاد هو وعسكره إلى خيامهم وتفرّقوا في القرى والأطراف في سبيل جمع ما يحتاجون إليه من علف الدواب ومؤونة الأهل فجاءه من أخبره بحركة الخصم نحوه فركب وركب عسكره وتقدّموا إليهم وبين الفريقين حوالي خمسة عشر كيلاً فوصلوا إليهم وقد أضنى التعب نور الدين أرسلان شاه وعسكره بينما كان عسكر الطرف الثاني في راحةٍ فالتقوا واقتتلوا ولم يطل وقت المعركة حتى انهزم نور الدين أرسلان شاه وعسكره واتجهوا نحو الموصل فوصلوا

إليها وخصمهم خلفهم يعيث أفراده في القرى الفساد، وترددت الرسل بالصلح وتمّ الأمر على إعادة تل أعفر إلى قطب الدين محمد وتأخّر نور الدين أرسلان شاه بإعادتها ثم سلّمها وتمّ الصلح بين بداية سنة ٦٠١هـ، وتفرقت العسكر في البلاد.

وفي سنة ٦٠٥هـ قُتل معز الدين سنجار شاه صاحب جزيرة ابن عمرو قتله ابنه غازي لأنه اشتدّ عليه وظلمه حيث كان سنجر شاه سيئ السيرة سيئ التصرّف، وقُتل ابنه غازي بعده، وتولّى أمر جزيرة ابن عمرو محمود بن سنجر شاه وتلقّب بلقب أبيه «معز الدين».

تمت مصاهرة بين نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل وبين الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب إذ تزوج ولد الملك العادل بابنة نور الدين أرسلان شاه، وقد حسّن وزراء نور الدين له مراسلة الملك العادل لاقتسام البلاد التي تخضع لقطب الدين محمد وجزيرة ابن عمرو التي تخضع لمحمود بن سنجر شاه على أن تكون أملاك قطب الدين محمد للملك العادل وتكون جزيرة ابن عمرو لنور الدين فاستحسن نور الدين هذا الرأي وأرسل إلى الملك العادل بهذا الرأي فأجابه إلى ذلك

موافقاً إذ طمع بأخذ الموصل بعد امتلاك ما تمّ الاتفاق عليه كما طمع نور الدين أرسلان شاه بأخذ هذه البلدان إذا سلّمها الملك العادل لولده الذي هو صهر نور الدين.

سار الملك العادل من دمشق بعسكره وقصد الخابور وأخذ المنطقة فلما سمع نور الدين أرسلان شاه بذلك شعر بعدم الراحة وكأنه خاف من ذلك فاستشار أعوانه فسكت من كان قد أشار عليه بالاتفاق مع الملك العادل ومن لم يسبق له إبداء الرأي أشار بالاستعداد للحصار وجمع العساكر، وعظم الخطب ولم يكن من أمرٍ سوى المقام بالموصل. وقد احتلّ الملك العادل نصيبين ومنطقة الخابور وألقى الحصار على سنجار، وكانت نيّة صاحبها قطب الدين محمد أن يستسلم ويسلّم بلده إلى الملك العادل مقابل عوضٍ عنها يأخذه غير أن بعض أمرائه قد حالوا دون ذلك ودافعوا عن البلد.

وجهّز نور الدين أرسلان شاه عسكراً مع ولده الملك القاهر ليسيروا إلى الملك العادل، غير أن مظفر الدين كوكبري صاحب أربيل أرسل وزيره إلى نور الدين أرسلان شاه يبذل من نفسه المساعدة على منع الملك العادل عن سنجار، وأن الاتفاق معه على ما

يريده فوصل الوزير ليلاً إلى الموصل وأبلغ الرسالة إلى نور الدين أرسلان شاه فأجابه إلى ما طلب وحلف له على ذلك فسار الوزير من ليلته فانطلق مظفر الدين واجتمع مع نور الدين ونزلا بعسكرهما بظاهر مدينة الموصل وكان مظفر الدين يظنّ أنه يمكنه أن يشفع لنور الدين عند الملك العادل لما بينهما من صلةٍ ومودةٍ وخدماتٍ قدمها مظفر الدين للملك العادل فيما مضى، غير أن الملك العادل لم يقبل شفاعة مظفر الدين ولم ينظر لما مضى بعد أن وقف مظفر الدين بجانب نور الدين أرسلان شاه، وعندها وافق مظفر الدين على الاتفاق مع نور الدين أرسلان شاه ضد الملك العادل، ولما اجتمعا بظاهر الموصل راسلا الملك الظاهر غازي صاحب حلب ابن صلاح الدين الأيوبي كما راسلا كيخسرو بن قلج أرسلان السلجوقي رجل سلاجقة بلاد الروم فكلاهما أجاب إلى ما دُعي له وتداعوا إلى المسير إلى بلاد الملك العادل إن امتنع من الصلح والإبقاء على سنجار لصاحبها قطب الدين محمد، وأرسلا أيضاً إلى الخليفة الناصر الدين الله ليرسل رسولاً إلى الملك العادل بالصلح أيضاً فارتفعت بذلك معنويات صاحب سنجار قطب الدين محمد على الامتناع.

سارت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى الموصل ومنها انطلقت إلى الملك العادل وهو على سنجار يلقي الحصار عليها فأجاب أولاً إلى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط في سبيل كسب الوقت عسى أن يبلغ غرضه من سنجار فلم ينل منها أمله وأجاب إلى الصلح على أن يأخذ ما استولى عليه وتبقى سنجار لصاحبها قطب الدين محمد وتمّ الاتفاق على ذلك وعلى أن يكونوا يداً واحدةً على من يخالف الاتفاق وينكث بعهده، ورحل الملك العادل عن سنجار إلى حران، وعاد مظفر الدين إلى أربيل، وبقي كل واحدٍ من الملوك في بلده. وعند إقامة مظفر الدين بالموصل عند نور الدين أرسلان شاه زوّج ابنتين له من ولدي نور الدين أرسلان شاه وهما: عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي.

توفي نور الدين أرسلان شاه في أواخر شهر رجب سنة ٦٠٧هـ وهو صاحب الموصل، وكان مرضه قد طال ومزاجه قد فسد، وكانت مدة ملكه سبع عشرة سنةً وأحد عشر شهراً، وكان منظّم شؤون مملكته مجاهد الدين قايماز، وخلف نور الدين أرسلان شاه ولده عز الدين مسعود الملك القاهر، وكان عمره عشر سنوات.

وتوفي الملك القاهر عز الدين مسعود ليلة الاثنين

لثلاثٍ بقينِ من شهر ربيع الأول سنة ٦١٥هـ، فكانت ولايته سبع سنين وتسعة أشهرٍ، فكان عمره يوم وفاته ثماني عشرة سنةً، وكان قد أوصى من بعده لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه، وجعل الوصي عليه والمنظم لأمور دولته بدر الدين لؤلؤ وهو الذي كان يتولّى دولة أبيه الملك القاهر ومن قبله دولة أبيه نور الدين أرسلان شاه.

كان عماد الدين زنكي الثالث يتولّى أمر بعض القلاع بالقرب من مدينة الموصل ومنها قلعة العمادية فأراد تسليمها إلى بعض مماليك جده عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود فوصل الخبر إلى بدر الدين لؤلؤ فبادره بالعزل مع أميرٍ كبيرٍ وجماعةٍ من الجند، فلم يمكنه الامتناع فسلّم القلعة إلى نائب بدر الدين، وجعل بدر الدين في غير العمادية من القلاع الأخرى نواباً له. وكان نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر مريضاً فأرسل عماد الدين زنكي الثالث إلى العسكر في العمادية يقول لهم: إن نور الدين ابن أخي قد توفي ويريد بدر الدين لؤلؤ أن يملك البلاد وأنا أحق منه بملك آبائي وأجدادي فاستدعاه الجند الذين بالعمادية وسلّموها إليه في الثامن عشر من شهر رمضان سنة ٦١٥هـ، وقبضوا على نائب بدر الدين لؤلؤ وأعوانه،

ووصل الخبر إلى بدر الدين لؤلؤ فاستنفر رجاله وساروا مجدّين إلى العمادية وألقوا الحصار عليها غير أن القتال كان صعباً لشدة البرد وكثرة الثلج، ووقف مظفر الدين صاحب أربيل إلى جانب عماد الدين ودعمه، وحاول بدر الدين ثني مظفر الدين عن عزمه لكنه لم يفلح تماماً وإن أظهر مظفر الدين السكوت، وعمل بعض أمراء بدر الدين على التقدم إلى القتال داخل العمادية ففشل وعاد منسحباً وارتفعت معنويات عماد الدين فراسل باقي القلاع هناك ودعاهم إلى طاعته فأجابوه إلى ذلك وسلّموا قلاعهم إليه فجعل الولاة فيها وتسلّمها وحكمها.

لما رأى بدر لؤلؤ خروج القلاع من يده واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه ولم ينفع معهما لين ولا شدة بل أخذا بالإغارة على أطراف بلاده وإلحاق الأذى بأهلها ونهب أملاكهم عند ذلك اتصل بالملك الأشرف موسى ابن الملك العادل، والأشرف هو صاحب أكثر الجزيرة الفراتية ورجاه الموافقة على الدخول في طاعته، وأعلمه امتداد بدر الدين لؤلؤ وتعاليه وهو مملوك فأجابه الأشرف موسى بالقبول وبذل المساعدة له والمحاربة دونه واستعادة ما أُخذ من القلاع التي كانت له. وكان الأشرف موسى

يومذاك بظاهر حلب فأرسل إلى مظفر الدين ينكر عليه تصرّفه ومخالفته لما سبق من العهد معهم، وطلب إعادة القلاع إلى الموصل. ولكن صاحب آمد (ديار بكر) والحصن قد امتنع على موافقة الأشرف موسى، غير أن الأشرف قد هدّد مظفر الدين بالسير إليه مع عسكره، وفعلاً فقد جهّز عسكراً وسيّره إلى مدينة نصيبين نجدةً لبدر الدين إن احتاج إليهم.

رجع عسكر بدر الدين لؤلؤ من حصار العمادية وبها عماد الدين زنكي الثالث فارتفعت معنوياته وأمده مظفر الدين بعسكرٍ كثيرٍ، فلما وصل الخبر إلى بدر الدين لؤلؤ جهّز العسكر وسيّرهم إلى أطراف مدينة الموصل يحمونها فأقاموا على بُعد خمسةٍ وعشرين كيلاً منها، ثم اتفقوا فيما بينهم على مداهمة عماد الدين في قلعة (العقر) حيث كان عندها مع عسكره وقتاله هناك فساروا إلى ذلك دون أمرٍ من بدر الدين لؤلؤ ولكن أعلموه بإرسالهم فرقةً من العسكر إلى عماد الدين. وصل عسكر بدر الدين لؤلؤ إلى قلعة العقر حيث عماد الدين صباح يوم الأحد لأربعٍ بقين من شهر المحرم سنة ٦١٦هـ فالتقوا واقتتلوا وانتصر عسكر بدر الدين لؤلؤ وانهزم عماد الدين وعسكره وسار إلى أربيل منهزماً. وجاءت وفود من الخليفة الناصر لدين الله ومن الملك

الأشرف لتجديد الصلح، فتمّ الصلح والتحالف بوجود الوفود.

كان نور الدين أرسلان شاه الثاني صاحب الموصل مريضاً بعدة أمراضٍ فتوفي سنة ٦١٥هـ فرتّب بدر الدين لؤلؤ مكانه أخاه ناصر الدين وله من العمر ثلاث سنواتٍ.

بعد وفاة نور الدين أرسلان شاه الثاني عاد الطمع إلى مظفر الدين كوكبري صاحب أربيل وإلى عماد الدين زنكي الثالث صاحب العمادية ومما زاد في طمعهما صغر سنّ ناصر الدين فجمعا العسكر وتجهّزا للحركة فظهر ذلك للناس وسار بعض أصحابهما إلى أطراف ولاية الموصل ينهبون ويفسدون في الأرض. وكان بدر الدين لؤلؤ قد سيّر ولده الأكبر في جمعٍ من العسكر إلى الملك الأشرف موسى في حلب نجدةً له بسبب اجتماع الصليبيين بمصر في دمياط، ويريد الملك الأشرف أن يدخل الأجزاء التي يسيطر عليها الصليبيون على سواحل بلاد الشام فيعمل فيها نهباً وتخريباً ليعود بعض الذين بدمياط إلى ذويهم بساحل الشام فيخفّ الضغط على الملك الكامل صاحب مصر.

فلما رأى بدر الدين لؤلؤ تحرك مظفر الدين

وعماد الدين وإن بعض عسكره بالشام نجدةً للملك الأشرف أرسل إلى عسكر الملك الأشرف الذين بنصيبين يستدعيهم ليتقوّى بهم وكان المقدم عليهم أحد مماليك الملك الأشرف ويُسمّى أيبك فجاءت هذه العساكر إلى الموصل في الرابع من شهر رجب سنة ٦١٦هـ فلما رأى بدر الدين هذه العساكر استقلّهم لأنهم أقل من عسكره الذين بالشام، وألحّ أيبك على عبور نهر دجلة والسير إلى أربيل لقتال مظفر الدين فمنعه بدر الدين من ذلك وأمره بالاستراحة فنزل بظاهر الموصل أياماً ثم عاد فأصرّ على السير إلى أربيل فوافقه بدر الدين وسارا معاً نحو أربيل ونزلا شرق الموصل على بعد خمسة عشر كيلاً منها فلما سمع مظفر الدين بالخبر جمع عسكره وسار إليه ومعه عماد الدين زنكي الثالث والتقى العسكران في العشرين من شهر رجب سنة ٦١٦هـ على بُعد واحدٍ وعشرين كيلاً إلى الشرق من الموصل فانتصر مظفر الدين وعماد الدين ورجع بدر الدين وأيبك إلى الموصل وتبعهم عسكر أربيل غير أن بدر الدين قد قوي أمره بانضمام أهل الموصل إليه فهزم جند أربيل الذين رجعوا نحو بلدهم، ثم سعى بعض الأمراء بالصلح بين الفريقين فتمّ ذلك، ولكن لم يلبث أن حدث الخلاف وعاد الصراع.

سار الملك الأشرف نحو الموصل فالتقى في طريقه بوفدٍ من صاحب سنجار فروخ شاه يعرض عليه تسلّم سنجار وتعويض صاحبها بمدينة الرقة فوافق الأشرف على ذلك وغادر فروخ شاه سنجار وتسلّم الرقة، وانتهى حكم آل زنكي لسنجار بعد حكمٍ دام أربعاً وتسعين سنةً. وكان فروخ شاه قد قتل أخاه قطب الدين محمد الذي تسلّم حكم سنجار بعد أبيه عماد الدين زنكي الثاني، واستلم مكانه.

بعد أن تسلّم الملك الأشرف موسى مدينة سنجار سار يريد الموصل فقدّم عساكره بين يديه على شكل فرقٍ فكانت كل يومٍ تصل فرقة ووصل هو أخيراً يوم الثلاثاء التاسع عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٦١٥هـ، وجاءته رسل الخليفة ومظفر الدين صاحب أربيل في سبيل الصلح، ووافق مظفر الدين على تسليم القلاع التي أُخذت من بدر الدين لؤلؤ عدا قلعة العمادية فإنها تبقى بيد عماد الدين زنكي الثالث، ورأى الجميع أن المصلحة قبول الصلح لتزول الفتن ويتجه المسلمون للجهاد وقتال الصليبيين، وطال البحث في الأمر مدةً تقرب من الشهرين، ثم رحل الملك الأشرف موسى يريد مظفر الدين صاحب أربيل فوصل إلى قرية السلامية بالقرب من نهر الزاب الكبير، وكان مظفر الدين ينزل

بالقرب منه من جهة أربيل، وكان ناصر الدين صاحب آمد (ديار بكر) يميل إلى مظفر الدين فأشار بالإجابة إلى ما بذل وأعانه على ذلك آخرون فتمّت الإجابة وجرى الصلح على ذلك، وجُعل أجل محدّد لتسليم القلاع، وحمل عماد الدين زنكي الثالث إلى الملك الأشرف موسى ليكون عنده رهينةً إلى حين تسليم القلاع، وسُلّمت بعض القلاع إلى نواب الملك الأشرف وهي لعماد الدين زنكي الثالث وذلك رهناً على تسليم ما اتفق عليه من القلاع، فإذا سُلّمت أُطلق عماد الدين وأُعيدت إليه قلاعه، وسلّم الملك الأشرف إلى عماد الدين قلعتين وعاد إلى سنجار وكان رحيله عن الموصل في الثاني من شهر رمضان سنة ٦١٧هـ، وأرسلوا إلى رجال القلاع ليسلّموا قلاعهم إلى نواب بدر الدين فلم تسلّم سوى قلعةٍ واحدةٍ، وأظهر حماة بقية القلاع امتناعهم عن ذلك وانتهى الأجل المحدّد، وأخذ عماد الدين يتقرّب من شهاب الدين غازي بن الملك العادل فاستعطف له أخاه الملك الأشرف فمال إليه وأطلقه وسلّمه بعض القلاع، كما سلّم الملك الأشرف قلعةً إلى بدر الدين.

لم يُحسن عماد الدين زنكي الثالث السيرة مع رعيته في القلاع التي استلمها على حين كان بدر الدين

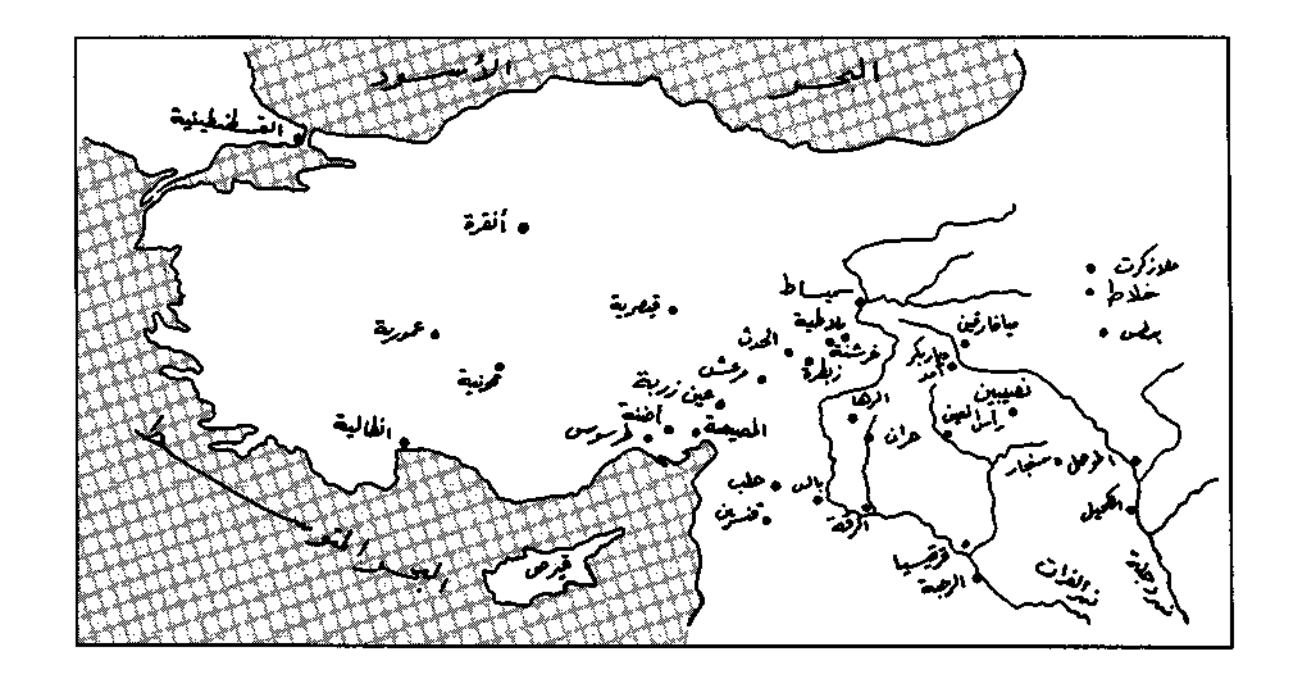
لؤلؤ يُحسن لرعاياه ويبذل لهم الأموال، لذا فإن أصحاب القلاع التي أخذها عماد الدين كانوا يريدون العودة إلى حكم بدر الدين لما عهدوه منه فأرسلوا إليه في شهر المحرم سنة ٦١٨هـ يطلبون منه العودة إليه ويرجون العفو عنهم فأجابهم إلى ذلك وأرسل إلى الملك الأشرف يستأذنه في ذلك فلم يأذن له، وعاد عماد الدين زنكي الثالث من عند الملك الأشرف فجمع جموعاً وحاصر قلعة العمادية فلم ينل منها غرضه، وأعادوا مراسلة بدر الدين من أجل التسليم إليه فكتب إلى الملك الأشرف في المعنى وبذل له قلعةً جديدةً ومدينة نصيبين وولاية بين النهرين ليأذن له في أخذ قلعة العمادية فأذن له فأرسل إليها النواب من عنده وتسلّموسا فأحسن إلى أهلها ورحل عنها عماد الدين زنكي الثالث ووفّى له بدر الدين بما بذله له فطمع بذلك أهل بقية القلاع.

وتوفي قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي الثاني في الثامن من شهر صفر سنة ٦١٦هـ، وكان حسن السيرة وتولّى بعده ابنه عماد الدين شاهنشاه وبقي عدة أشهرٍ فيما تولّاه ثم دخل عليه أخوه عمر ومعه جماعة فقتلوه وملك عمر بعده، وبقي والياً على سنجار حتى سلّمها للملك الأشرف في شهر جمادى الأولى سنة

٦١٧هـ، وسار الملك الأشرف إلى الموصل فأقام بظاهرها وتابع المسير باتجاه أربيل يريد صاحبها مظفر الدين فتردّدت الرسل بينهما بالصلح فتمّ في شهر شعبان سنة ٦١٧هـ.

كان أهل قلعة العمادية قد أظهروا العصيان وسلّموا قلعتهم إلى عماد الدين زنكي الثالث وذلك سنة ٦١٥هـ، ولكن لم يلبثوا أن خالفوا عماد الدين ورجعوا إلى طاعة بدر الدين فأحسن إليهم، وبقوا على عهدهم مدةً يسيرةً ثم رجعوا يراسلون عماد الدين، ومظفر الدين صاحب أربيل، وشهاب الدين غازي ابن الملك العادل صاحب خلاط، ويعدون كلاًّ منهم بالانحياز إليه والطاعة له ويظهرون مخالفة بدر الدين فكانوا يوافقون على إقامة نائبه الذي يرضون عنه ويمنعون الذي يكرهون فطال الأمر وهو يحتمل فعلهم ويداريهم وهم لا يزدادون إلا طمعاً وخروجاً عن الطاعة حتى سنة ٦٢٢هـ فسار إليهم بدر الدين في عسكره فأتاهم بغتةً وحاصرهم وضيّق عليهم وقطع التموين عنهم وأقام بنفسه عليهم، ثم عاد إلى الموصل.

وهكذا فقد ضعفت أسرة آل زنكي وقلّت هيبة أمرائها، وزالت مكانتها في ديار الخلافة.


البحر الأسود
القسطنطينية
أنقرة
قيصرية
عمورية
قونية
ملطية
خرشنة
الحدث
زبطرة
مرعش
عين زربة
أذنة
طرسوس
المصيصة
حلب
قنسرين
بالس
الرقة
الرها
حران
ميافارقين
آمد
نصيبين
رأس العين
سنجار
الموصل
الكحيل
قرقيسيا
الرحبة
نهر الفرات
نهر دجلة
ملازكرت
خلاط
بدليس
قبرص

"٥" الأيوبيون:

يرجع الأيوبيون في نسبهم إلى أيوب بن شادي بن مروان، ويكنى أيوب أبا الشكر، ويلقّب الملك الأفضل نجم الدين، وكان والده شادي بن مروان من أهل دَوِينَ[١] ومن أبناء أعيانها والمعتبرين بها، وهم أكراد رَوادية وبطن من الهذبانية وهي قبيلة كبيرة من الأكراد، وعلى باب دَوِين من قريةٍ يقال لها «أَجْدانَقان» وأهلها جميعهم من الأكراد الرَوادية، وقد ولد نجم الدين أيوب بها.

كان لشادي بن مروان صديق في بلده يُدعى جمال الدولة المجاهد بهروز وقد جرت له قضية في دَوِين فخرج منها حياءً وحشمةً ولم يقدر على الإقامة بالبلد، وقصد خدمة أحد الملوك السلاجقة وهو غياث الدين محمد بن ملكشاه واتصل جمال الدولة بمربي أولاد غياث الدين وتقدّم عنده، وصار يلتقي بالسلطان فسُرّ به، وتوفي مربي أولاد السلطان فجعله السلطان لأولاده مربياً مكان صديقه الذي توفي فسار ذكره في تلك النواحي فسيّر إلى شادي يستدعيه من بلده ليشاهد ما صار إليه من النعمة، وليقاسمه فيما خوّله الله تعالى،

(١) دَوين: بفتح أوله وكسر ثانيه، بلدة من نواحي «أران» في آخر حدود أذربيجان وبالقرب من حدود الكرج قرب تفليس.

وليعلم أنه ما نسيه، فلما وصل إليه بالغ في إكرامه.

سيّر السلطان إلى بغداد جمال الدولة ليكون نائباً له فيها فاستصحب معه صديقه شادي، فسار هو وأولاده بصحبته. وأعطى السلطان قلعة تكريت لجمال الدين بهروز فلم يجد من يثق به في أمرها سوى صديقه شادي فأرسله إليها، فمضى وأقام بها مدةً ثم توفي بها فولّى مكانه ولده نجم الدين أيوب فنهض في أمرها، وشكر له جمال الدولة بهروز، وكان نجم الدين أيوب أكبر سناً من أخيه أسد الدين شيركوه. ومات شادي بن مروان يوم الأربعاء في الثالث والعشرين من شهر رجب سنة ٥٤٠هـ.

قصد مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ومعه عماد الدين زنكي صاحب الموصل قصدا حصار بغداد في عهد الخليفة المسترشد غير أنهما هُزما في معركة جرت يوم الخميس في الثاني عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥٢٦هـ، فاتجه عماد الدين زنكي ناحية مدينة تكريت ودخلها فأكرمه نجم الدين أيوب وخدمه وأقام له الزوارق فعبر نهر دجلة هناك وتبعه أصحابه فأحسن إليهم نجم الدين وسيّرهم، وبلغ ذلك جمال الدولة بهروز فبعث إليه وأنكر عليه، وقال له: كيف ظفرت بعدونا فأحسنت إليه وأطلقته؟ ثم إن أسد الدين شيركوه قتل رجلاً بتكريت لكلامٍ جرى بينهما، فأرسل بهروز إلى ولدي شادي

وهما: نجم الدين أيوب وأسد الدين شيركوه فأخرجهما من تكريت، فقصدا عماد الدين زنكي بالموصل، وهو صاحبها، فأحسن إليهما، وعرف لهما خدمتهما، وأقطعهما إقطاعاً حسناً، وصارا من جملة جنده.

دخل عماد الدين زنكي بعلبك وملكها فجعل نجم الدين أيوب نائباً له عليها. وقُتل عماد الدين زنكي سنة ٥٤١هـ وهو يحاصر قلعة جعبر على نهر الفرات بعد أن حكم الموصل عشرين سنةً، وملك حلب إضافةً إليها.

بعد مقتل عماد الدين زنكي سار صاحب دمشق مجير الدين إلى بعلبك وحاصر نجم الدين أيوب فيها، فأرسل نجم الدين إلى سيف الدين غازي بن عماد الدين زنكي وهو صاحب الموصل إذ خلف أباه فيها يُنهي الحال إليه ويطلب منه نجدةً ليفكّ الحصار عنه صاحب دمشق، وكان سيف الدين في ذلك الوقت في أول ملكه، وهو مشغول بمن حوله فلم يتفرّغ له، وضاق الأمر على أهل بعلبك من الحصار، فلما رأى نجم الدين أيوب الحال وخاف أن تؤخذ منه بعلبك قهراً لذا أرسل في تسليم القلعة، وطلب إقطاعاً ذكره، فأُجيب إلى ذلك، وحلف له صاحب دمشق عليه، وسلّم القلعة، ووفّى له صاحب دمشق بما حلف عليه من الإقطاع والتقدّم، وصار عنده من أكبر الأمراء. اتصل أسد الدين

شيركوه أخو نجم الدين أيوب بصاحب حلب نور الدين محمود الذي تولّى حكم حلب بعد مقتل أبيه عماد الدين زنكي، فقرّبه نور الدين وأقطعه، وكان يرى منه في الحروب آثاراً تدلّ على شجاعته وجُرأته، فصارت له حمص والرحبة، وجعله مقدم عسكره.

واتجه شاور[1] من الصعيد إلى الشمال وسار إلى القاهرة ودخلها يوم الأحد الثاني والعشرين من شهر المحرم سنة ٥٥٨هـ، وهرب العادل رُزيّك وأهله من القاهرة ليلة العشرين من شهر المحرم أي قبل دخول شاور إليها بيومين، ولكن تمكّن شاور من قتل العادل رزيّك وأخذ موضعه من الوزارة وتمكّن من استلام السلطة.

خرج على شاور أبو الأشبال ضرغام بن عامر بن

---

(١) شاور بن مجير بن نزار، أبو شجاع: يعود في نسبه إلى قبيلة بني سعد التي منها مرضعة رسول الله ﷺ. ولّاه الصالح بن رُزيّك الصعيد الأعلى من صعيد مصر، ثم ندم على توليته، وتمكّن شاور في الصعيد، وكان ذا شهامةٍ ونجابةٍ وفروسيةٍ، وكان الصالح بن رزيك قد أوصى ولده العادل رُزيّك أن لا يتعرّض لشاور بإساءةٍ ولا يُغيّر عليه وضعه فإنه لا يأمن عصيانه والخروج عليه، وكان كما أشار، وقد دخل القاهرة، وتسلّم الوزارة، وقُتل شاور يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥٦٤هـ، وكان الذي قتله الأمير عز الدين جُرْديك عتيق نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام.

سوّار الملقّب فارس المسلمين، وأخرج شاور من القاهرة، وقتل ولديه، وسجن الثالث، وتسلّم ضرغام الوزارة مكان شاور الذي فرّ إلى الشام في شهر رمضان سنة ٥٥٨هـ مستنجداً بصاحب الشام نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي، وتعهد له بدفع نفقات الحملة وتقديم ثلث خراج مصر لقتال الصليبيين، فاحترمه نور الدين محمود، ووافقه على طلبه إذ في رغبته حكم مصر ليستطيع تنفيذ مهمته في حصار الصليبيين وخاصةً أنه يعلم أن العبيديين على درجةٍ من الضعف لا يستطيعون معه الوقوف أمام الصليبيين إضافةً إلى أن بعضهم أولياء بعضٍ وكلاهما عدوّ مبين للمسلمين ولكن طرفاً يظهر ذلك وينادي به علناً وطرفاً يُخفيه ويكتمه إذ يحكم شعباً مسلماً إذ لو أبداه لزال سلطانه وقُتل أبناؤه، لذا كان التوجّه إلى مصر ضرورةً فأرسل نور الدين محمود مع شاور حملةً بقيادة أسد الدين شيركوه بن شادي.

كان العبيديون يدفعون أتاوةً للصليبيين، واتفق أن اختلف ضرغام الوزير في مصر مع عموري ملك الصليبيين في بيت المقدس، فسار عموري إلى مصر سنة ٥٥٩هـ ليفرض أتاوةً سنويةً كبيرةً على مصر وليفرض رأيه، ويعرف أنه لا يستطيع حكم مصر لقلّة الصليبيين أمام أعداد مسلمي مصر، واستطاع عموري من إحراز النصر على ضرغام في

بلبيس، ولكن ضرغام أراد أن يتجنّب هزيمةً أكبر فعمد إلى فتح السدود على النيل، وكان وقت الفيضان بل في أوسع مدىً له فأُغرق كثير من أراضي الدلتا، فاضطر عموري أن يرجع من حيث أتى، وتمّ لضرغام ما أراد.

وبعد أن خرج عموري من مصر وصل إلى مسامع ضرغام خبر اتفاق شاور مع نور الدين محمود، فأسرع ضرغام إلى عقد حلفٍ مع عموري زاد فيه من قيمة الأتاوة التي يدفعها للصليبيين، وطلب منه أن يسير بقوةٍ إلى مصر ليقف معه ضد عسكر نور الدين محمود القادمين مع شاور، فأجاب عموري واتجه بقواته نحو مصر. غير أن شاور قد وصل برفقة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب قبل أن تصل قوات الصليبيين بقيادة عموري ملك بيت المقدس، وعند وصوله اصطدم الطرفان في بلبيس وانتصر أسد الدين شيركوه، واستولى شاور على الفسطاط بينما كان ضرغام في قصر القاهرة، وقد قُتل ضرغام وهو يُحرّض الناس إذ تخلّى عنه أصحابه.

تصالح شاور مع العبيدي العاضد صاحب مصر، فرأى ارتفاع مكانته وشعر بقوته فرفض أن يدفع لأسد الدين شيركوه نفقات الحملة بل نقض عهده معه وطلب منه أن يرجع إلى الشام إذ انتهت مهمته، ولكن أسد الدين لم

يستجب لطلبه فأسرع شاور وتحالف مع الصليبيين وألقوا الحصار على أسد الدين شيركوه في بلبيس فاضطر أن يعود إلى الشام بعد حصارٍ دام ثمانية أشهرٍ، ولم يتمكّن من فكّ الحصار عنه إلا بعد أن قام نور الدين محمود بهجومٍ على الأجزاء الشمالية من البلاد التي بيد الصليبيين، وانتصر على جموعهم، وأسر أمراءهم، كما دخل بعض البلدان مثل بانياس وحارم فاضطر الصليبيون إلى فكّ الحصار عن أسد الدين شيركوه في بلبيس، والسير نحو الشمال للوقوف في وجه نور الدين محمود.

أفاد أسد الدين شيركوه من هذه الحملة حيث عرف أوضاع مصر، وطبيعة أهلها، واختلاف أبنائها، ورأى من الضرورة بمكانٍ امتلاكها كي يستطيع القضاء على الصليبيين فبدأ يُعدّ العدّة، واستمرّ مدة عامين في إعداد حملةٍ قويةٍ على مصر.

سار أسد الدين شيركوه بجيشٍ كبيرٍ إلى مصر، ووصل إلى بلبيس وهزم المصريين غير أن شاور قد عاد فاستنجد بالصليبيين فجاءوا إلى مصر بأعدادٍ كبيرةٍ وحاصروا شيركوه في بلبيس، وأجبروه على العودة إلى الشام، وبعد مدةٍ رجع الصليبيون أيضاً إلى مناطقهم في بيت المقدس. قامت ثورة في مصر بقيادة يحيى بن الخياط الذي يطلب الوزارة لنفسه، وهو من أصحاب

طلائع بن رُزيّك، غير أن شاور قد استطاع أن يقمع هذه الثورة، ولكن قامت عدة ثوراتٍ أخرى لكنها كانت كلها أقلّ أهميةً من ثورة ابن الخياط.

بلغ نور الدين وأسد الدين مكاتبة شاور للصليبيين وما تقرر بينهم فخافا على الديار المصرية أن يملكها الصليبيون ويملكوا بطريقها البلاد جميعها فتجهّز أسد الدين، وبعث معه نور الدين العساكر، وصلاح الدين في خدمة عمه أسد الدين. وكان سيرهم من الشام في شهر ربيع الأول سنة ٥٦٢هـ. وكان وصول أسد الدين إلى مصر مقارناً لوصول الصليبيين إليها، ومشى الجيشان على ضفاف نهر النيل والتقيا في معركةٍ جنوب مدينة المنيا، وقد انتصر أسد الدين شيركوه، وانسحب الصليبيون نحو القاهرة حيث كان معسكر أميرهم عموري، ولم يجد أسد الدين شيركوه نفسه قادراً على السير إلى القاهرة لذا فقد وطّد أقدامه بالصعيد وجبى الخراج، ثم سار عن طريق الصحراء إلى الإسكندرية فدخلها دون مقاومةٍ فولّى عليها صلاح الدين ابن أخيه وترك معه نصف الجيش، وعاد هو إلى الصعيد، وسارت القوات العبيدية والصليبية نحو الإسكندرية وحاصرتها براً وبحراً حيث وصل أسطول صليبي إلى مياهها، واستمرّ الحصار أربعة أشهرٍ،

واستنجد صلاح الدين بعمّه أسد الدين شيركوه فجاء إليه مسرعاً، وجرى صلح بين الطرفين ينسحب بموجبه أسد الدين شيركوه من مصر مقابل خمسين ألف دينارٍ، ولم يقبل الصليبيون بالصلح إلا لأن قوتهم ضعُفت ورأوا أن من المصلحة السير بقوتهم إلى الشمال حيث سار نور الدين محمود ومعه أخوه قطب الدين مودود إلى البلاد التي يسيطرون عليها في منطقة طرابلس حيث دخلا صافيتا، وأغارا على عرقة، وحلبا.

قرر الصليبيون احتلال مصر إذ رأوا أن الوقت مناسب لهم فجمعوا رجالهم وفرسانهم وخرجوا يريدون الديار المصرية ناكثين بعهودهم كلها مع المصريين وأسد الدين شيركوه وذلك طمعاً في البلاد فلما بلغ ذلك نور الدين وأسد الدين لم يسعهما الصبر دون المسارعة للسير إلى مصر أما نور الدين فبالمال والرجال إذ لم يمكنه المسير بنفسه خوفاً على البلاد من الصليبيين في الشمال حيث كان قد توفي نائبه على أربيل وبعض الحصون في الجزيرة الفراتية وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥٦٣هـ، وأما أسد الدين فبنفسه وماله وأهله ورجاله. كما أن شاور لما أحسّ بخروج الصليبيين إلى مصر على تلك الحال سيّر إلى أسد الدين يستصرخه ويستنجده، فخرج مسرعاً، وكان وصوله في

شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ. ولما علم الصليبيون بخروج أسد الدين إلى مصر على اتفاقٍ بينه وبين أهلها رحلوا راجعين على أعقابهم. وكان نور الدين قد وجد في التعاون مع شاور تحقيق الانتصار على الصليبيين ثم يمكن بعدها التخلّص من شاور وحُكم مصر، وعندها تقوى جبهة المسلمين حيث تصبح واحدةً ويمكن وقتئذٍ طرد الصليبيين من ديار الإسلام.

أقام أسد الدين شيركوه بالقاهرة وكان يتردّد عليه شاور الذي كان قد وعد بمالٍ يُؤدّيه إلى أسد الدين مقابل ما خسره من نفقاتٍ في إعداد الحملة ولكنه لم يُؤدّ إليه شيئاً، وتمكّن أسد الدين بمصر، وعلم أنه متى سمحت الفرصة للصليبيين هاجموا مصر، وأن شاور يلعب تارةً مع هؤلاء وأخرى مع هؤلاء، وتحقّق أسد الدين أنه لا سبيل لحكمه مصر مع بقاء شاور، فرأى أن يقبض عليه إذا خرج إليه، وكان أمراء أسد الدين يترددون لخدمة شاور، ولكن لم يتجاسر أحد على القبض عليه، فقام بالمهمة أسد الدين نفسه، وذلك أنه عندما سار شاور إلى أسد الدين تلقّاه راكباً، وسار إلى جانبه، وأخذ بتلابيبه، وأمر جنده بأن يقصدوا أصحاب شاور ففعلوا ففرّ أصحابه، وأُنزل شاور في خيمةٍ مفردةٍ، وقُتل، وعهد صاحب مصر العبيدي

العاضد بالوزارة بعد شاور إلى أسد الدين في السابع عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٦٤هـ. واستمرّ في مهمته حتى توفي في الثاني والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٥هـ. وكان صلاح الدين ابن أخيه يباشر الأعمال ويقررها لسياسته وحسن رأيه ودرايته وكفايته. وفي الوقت نفسه استولى نور الدين محمود في الشام على قلعة جعبر وأخذها من أيدي الصليبيين.

خلف صلاح الدين يوسف عمه أسد الدين بالوزارة ولُقِّب بالملك الناصر، وقد سار بالوزارة سيرةً حسنةً فكسب ثقة أهل مصر، غير أن العبيدي صاحب مصر كان يخشى من صلاح الدين لاختلاف العقيدة بينهما لذا أخذ العبيدي يحيك المؤامرات ضد صلاح الدين ومنها العمل على قتله، ووقع حب الدنيا في نفوس بعض الأمراء الذين مع صلاح الدين ومنهم: عين الدولة الباروقي، وقطب الدين ينال، وسيف الدين المشطوب الهكاري، وشهاب الدين محمود الحارمي وهو خال صلاح الدين، وكل واحدٍ من هؤلاء يريد الوزارة لنفسه وقد جمع أصحابه ليغالب عليها.

أرسل العاضد العبيدي إلى صلاح الدين فأحضره عنده، وخلع عليه، وولّاه الوزارة بعد عمّه أسد الدين شيركوه، وكان الذي حمله على ذلك أن أصحابه قالوا

له: ليس في الجماعة أضعف ولا أصغر سناً من يوسف والرأي أن يُولّى فإنه لا يخرج من تحت حكمنا ثم نضع على العساكر من يستميلهم إلينا فيصير عندنا من الجنود من نمنع بهم البلاد ثم نأخذ يوسف أو نخرجه. فلما خلع عليه لقب الملك الناصر لم يطعه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه، وكان الفقيه عيسى الهكاري معه فسعى مع سيف الدين المشطوب حتى أماله إليه، وقال له: إن هذا الأمر لا يصل إليك مع عين الدولة الباروقي وشهاب الدين الحارمي وغيرهما، ثم قصد الحارمي، وقال: هذا صلاح الدين هو ابن أختك وعزّه وملكه لك وقد استقام له الأمر فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه، ولا يصل إليك فمال إليه أيضاً، ثم فعل مثل هذا بالباقين وكلهم أطاع غير عين الدولة الباروقي فإنه قال: أنا لا أخدم يوسف وعاد إلى نور الدين بالشام ومعه غيره من الأمراء، وثبت قدم صلاح الدين[1]، ومع هذا فهو نائب عن الأمير نور الدين محمود. واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل الأموال فمالوا إليه وأحبوه، وضعف

---

(١) كان عمر صلاح الدين يوسف يومذاك ٣٣ سنة إذ ولد هو سنة ٥٣٢هـ.

أمر العاضد العبيدي، ثم أرسل صلاح الدين يطلب من نور الدين أن يرسل إليه إخوته وأهله فأرسلهم إليه وشرط عليهم طاعته والقيام بأمره ومساعدته وكلهم فعل ذلك.

كان بقصر العاضد العبيدي رجل يعرف بلقب مؤتمن الخليفة ويقوم بالحكم بالقصر ويتقدّم على جميع الذين فيه، فاتفق هو وجماعة من المصريين على مراسلة الصليبيين واستدعائهم إلى مصر للتقوّي بهم على صلاح الدين ومن معه، وبعثوا بالكتب مع إنسانٍ يثقون به وجعلوها داخل نعلين جديدين وأقاموا ينتظرون الجواب، فسار ذلك الرجل إلى البئر البيضاء فلقيه رجل تركماني فرأى معه نعلين جديدين فأخذهما منه، وارتاب في أمره إذ قال في نفسه لو كان هذا الرجل يلبس هذين النعلين لما كانا جديدين فإنه رثّ الهيئة، فأتى به إلى صلاح الدين ففتقهما فرأى الكتاب فيهما فقرأه وسكت عليه، وكان قصد مؤتمن الخلافة أن يتحرك الصليبيون إلى الديار المصرية فإذا وصلوا إليها خرج صلاح الدين في العساكر إلى قتالهم فيثور مؤتمن الخلافة بمن معه من المصريين على متخلفيهم فيقتلونهم ثم يخرجون بأجمعهم يتبعون صلاح الدين فيأتون من وراء ظهره والصليبيون من أمامه فلا يبقى لهم باقية، فلما قرأ

الكتاب سأل عن كاتبه، فقيل: رجل يهودي، فأُحضر، فأمر بضربه وتقريره، فابتدأ وأظهر إسلامه، وأخبره الخبر، فأخفى صلاح الدين الحال، وشعر مؤتمن الخلافة فلازم القصر ولم يخرج منه خوفاً، وإذا خرج لم يبعد من صلاح الدين، وصلاح الدين لا يُظهر له شيئاً من الطلب لئلا ينكر ذلك، فلما طال الأمر خرج من القصر إلى قريةٍ له تعرف بـ(الخرقانية) للتنزّه فلما علم به صلاح الدين أرسل إليه جماعةً فأخذوه وقتلوه وأتوا برأسه، وبعدها عزل صلاح الدين جميع الخدم الذين يتولّون أمر القصر، وكلّف بهاء الدين قراقوش بالإشراف على الجميع فكان لا يجري في القصر صغير ولا كبير إلا بأمر بهاء الدين، فغضب أبناء إفريقية السوداء لمقتل مؤتمن الخلافة من باب العصبية حيث كان هو يتعصّب لهم فحشدوا وجمعوا فزاد عددهم على خمسين ألفاً وقصدوا حرب عساكر صلاح الدين فاجتمع العسكر أيضاً والتقى الطرفان بين القصرين واقتتلوا وكثر القتل في الفريقين فأرسل صلاح الدين إلى محلتهم فأُشعلت فيها النيران وفيها أولادهم وأهليهم وأموالهم فلما وصل إليهم الخبر ولّوا منهزمين فوضع السيف فيهم، وأُخذت عليهم مداخل الطرق فطلبوا الأمان بعد أن كثُر فيهم القتل فأُجيبوا إلى ذلك فأُخرجوا من القاهرة إلى الجيزة

فانتقل إليهم أخو صلاح الدين الأكبر توران شاه محمد شمس الدولة في جماعةٍ من العسكر فأعمل فيها السيف فأباد أكثرهم، ولم يبق منهم إلا القليل ممن هو شريد[1].

لما تمكّن أسد الدين شيركوه في مصر وملك أمورها خاف الصليبيون على أنفسهم وأيقنوا بالهلاك ما داموا قد حُصروا بين جبهتين للمسلمين في مصر والشام وكلاهما بيد نور الدين محمود الذي يرفع راية الجهاد، وإذا رفع المسلمون راية الجهاد كان النصر حليفهم ـ بإذن الله ـ وهذا ما يعرفه الصليبيون وأعداء المسلمين عامةً وذلك من خلال معاركهم السابقة معهم. فلما رأى الصليبيون في المشرق ذلك كاتبوا إخوانهم بصقلية والأندلس من جهاتٍ أخرى في أوروبا يستمدّونهم ويُعرّفونهم ما تجدّد من ملك آل زنكي لمصر، وأنهم خائفون على بيت المقدس منهم فأرسلوا جماعةً من القساوسة والرهبان يحرّضونهم على الحركة فأمدّوهم بالأموال والرجال والسلاح وتواعدوا على النزول في ثغر دمياط المصري، ولما نزلوا دمياط كان أسد الدين شيركوه قد توفي وملك صلاح الدين.

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

اجتمع الصليبيون على دمياط وحاصروها وضيّقوا على أهلها فأرسل صلاح الدين إلى دمياط العساكر عن طريق نهر النيل وأمدّ أهلها بالأموال والسلاح والذخائر والتموين، وأرسل إلى نور الدين يشكو ما هم فيه من الخوف ويقول: إني إن تأخّرت عن دمياط ملكها الصليبيون وإن سرت إليها خلفني المصريون في أهلها بالشرّ وخرجوا عن طاعتي، وساروا خلفي والصليبيون أمامي فلا تبقى لنا باقية فسيّر نور الدين العساكر إليه أرسالاً يتلو بعضها بعضاً، ثم سار هو بنفسه إلى البلدان التي يسيطر عليها الصليبيون من بلاد الشام فأغار عليها واستباحها فوصلت الغارات إلى بلدان لم تكن تبلغها من قبل وذلك لخلوها من المُدافع.

وكان على رأس إحدى الفرق التي أرسلها نور الدين محمود من الشام نجدةً لصلاح الدين هو نجم الدين أيوب والد صلاح الدين، وقد قال له نور الدين حين أرسله: أن يأمر ابنه صلاح الدين بالدعاء للخليفة العباسي، المستنجد بالله.

لما رأى الصليبيون تتابع العساكر إلى مصر ودخول نور الدين إلى البلدان التي يسيطرون عليها وتخريبها رجعوا خائبين لم يظفروا بشيءٍ ووجدوا بلادهم خراباً وأهلها بين قتيلٍ وأسيرٍ وشرّيدٍ، وكانت

مدة مقامهم على ثغر دمياط خمسين يوماً.

غادر الصليبيون دمياط، وتفرّغ صلاح الدين لتوطيد أقدامه، فجاءت أسرته من بلاد الشام فعيّن أباه نجم الدين أيوب على بيت المال، وأسند مناصب القضاء إلى رجالٍ من المسلمين، وأعطى أمراءه بعض قيادات الجيش، وعزل من يشكّ في إخلاصهم له فضعف بهذا وضع العبيدي العاضد صاحب مصر، وأقام صلاح الدين على قصر العاضد بهاء الدين قراقوش، وحصر الأسرة العبيدية في جناحٍ خاصٍ من القصر، وعقد مجلساً للأمراء واستشارهم في الخطبة للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله فوافقوه على ذلك، وتمّ الأمر وتوفي العاضد العبيدي في مطلع سنة ٥٦٧هـ، ولم يدر ما حدث، وبذا انتهت الدولة العبيدية بموت العاضد وتسلّم صلاح الدين أمر مصر كلها.

كان صلاح الدين قد سار من مصر باتجاه الأراضي التي يحتلّها الصليبيون فأغار على المناطق التابعة لمدينة عسقلان، ولمدينة الرملة، وهاجم ضواحي غزة، فسار إليه ملك الصليبيين في قلّةٍ من العسكر فدحرهم صلاح الدين، وأُفلت ملك الصليبيين من أيدي المسلمين بعد أن أوشك على الوقوع في الأسر. ورجع صلاح الدين إلى مصر، وعمل مراكب مفصلة وحملها

على الجمال في البر وقصد أيلة (العقبة) فجمع قطع المراكب وألقاها في البحر وحاصر أيلة براً وبحراً وتمكّن من دخولها عنوةً في العشر الأول من شهر ربيع الثاني سنة ٥٦٦هـ، واستباح أهلها وما فيها وعاد إلى مصر غانماً.

كان بمصر داراً للشحنة تسمى دار المعونة يُحبس فيها من يراد حبسه فهدمها صلاح الدين وبناها مدرسةً للشافعية وأزال ما كان فيها من الظلم، وبنى دار العدل مدرسةً للشافعية أيضاً، وأقام قاضياً للشافعية في مصر فاستناب القضاة الشافعية في مصر كلها وذلك في العشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٦٦هـ.

اشترى تقي الدين عمران أخو صلاح الدين منازل العزّ بمصر وبناها مدرسةً للشافعية.

أغار شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين على الأعراب بصعيد مصر وكانوا قد أفسدوا.

وفي الجمعة الثانية من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ قُطعت خطبة العاضد العبيدي وذلك بعد أن ألحّ نور الدين محمود صاحب الشام على صلاح الدين وألزمه إلزاماً لا فسحة له في مخالفته، وكان في

الحقيقة نائب نور الدين، واتفق أن العاضد مرض هذا الوقت مرضاً شديداً، فلما عزم صلاح الدين على قطع خطبته استشار أمراءه فمنهم من أشار به ولم يُفكّر في المصريين ومنهم من خافه إلا أنه ما يمكنه إلا امتثال أمر نور الدين محمود وكان قد دخل إلى مصر رجل أعجمي يُعرف بالأمير العالم فلما رأى ما هم فيه من الإحجام وأنه لا يتجاسر أحد أن يخطب للخليفة العباسي، قال: أنا أبتدئ بالخطبة له فلما كان أول جمعةٍ من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ صعد المنبر قبل الخطيب ودعا للخليفة العباسي المستضيء بأمر الله فلم يتكلم أحد وكُتب بذلك إلى سائر بلدان مصر ففعلوا. وكان سبب الخطبة بمصر أن صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب قد ثبتت قدمه بمصر وضعف العبيدي وصار قصره يحكم فيه صلاح الدين ونائبه بهاء الدين قراقوش وهو من أعيان أمراء أسد الدين شيركوه، وكل من في القصر يرجعون إليه، وكذا أمر صاحب الشأن نور الدين محمود. وكان العاضد العبيدي قد اشتدّ مرضه ولم يُعلمه أحد من أهله وأصحابه بقطع الخطبة، وقالوا: إن عوفي فهو يعلم وإن توفي فلا ينبغي أن نفجعه بمثل هذه الحادثة قبل موته، فتوفي يوم عاشوراء سنة

٥٦٧هـ ولم يعلم بقطع الخطبة، ولما توفي جلس صلاح الدين للعزاء، واستولى على قصر العبيديين وعلى جميع ما فيه فحفظه بهاء الدين قراقوش الذي كان قد رتّبه قبل موت العاضد فحمل ذلك كله إلى صلاح الدين وكان ما فيه من اللآلئ والياقوت ومختلف النفائس ما يصعب حصره وإحصاؤه. وأخرج جميع من فيه من الإماء والعبيد فباع بعضهم وأعتق بعضهم الآخر عدا من وهب، فخلا القصر من السكان.

وكانت مدة سيادة العبيديين منذ ظهور عبيد الله بمدينة سجلماسة بالمغرب في شهر ذي الحجة سنة ٢٩٩هـ إلى وفاة العاضد بالقاهرة في العاشر من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ مائتين وثمانٍ وستين سنةً وشهراً واحداً تقريباً. ولما وصلت البشارة إلى بغداد عمّ الفرح عدة أيامٍ وازيّنت المدينة وأرسلت الهدايا إلى نور الدين محمود وإلى صلاح الدين يوسف وإلى خطباء الجوامع بمصر.

سار صلاح الدين من مصر في شهر صفر سنة ٥٦٧هـ لغزو الصليبيين فاتجه عبر سيناء فالنقب حتى وصل إلى الشوبك (بين الطفيلة ومعان في الأردن اليوم) فحاصر حصن الشوبك وضيّق على من به من الصليبيين

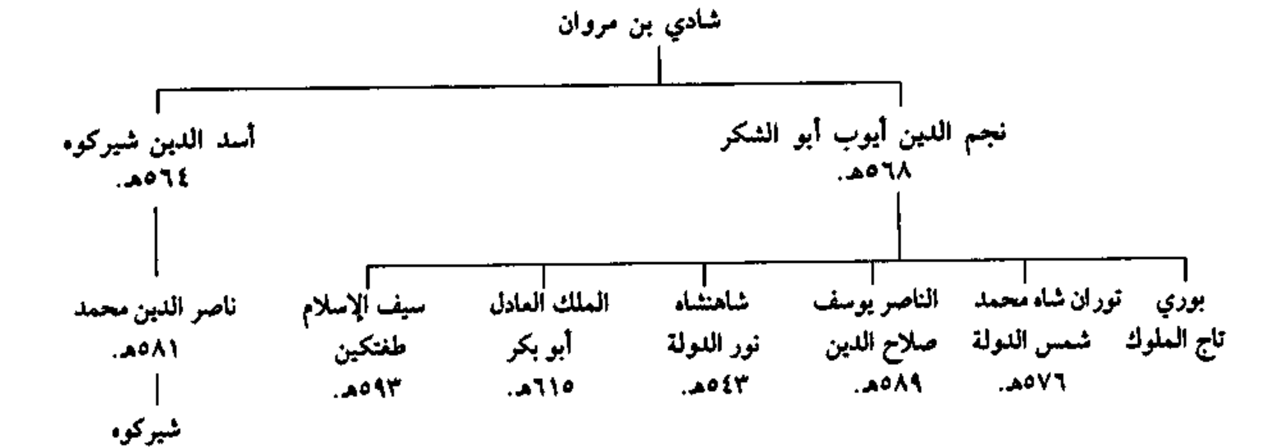
وجدّ بالقتال حتى طلبوا الأمان واستمهلوه عشرة أيامٍ فأجابهم إلى ذلك ورجع إلى مصر، فلما سمع نور الدين بما فعله صلاح الدين سار عن دمشق قاصداً الجهاد وقتال الصليبيين من جهةٍ أخرى فيقع الصليبيون بين جبهتين فيكون ليس أمامهم إلا الهزيمة والجلاء عن بعض البلدان التي يحتلّونها وهي للمسلمين، ولما وصل خبر انسحاب صلاح الدين عن الشوبك والعودة إلى مصر دون إعلام نور الدين محمود الذي سار إلى الجهاد لوجود صلاح الدين على الساحة حيث يمكن حصرهم وحصدهم أو على الأقل الانتصار عليهم وإجلاؤهم عن بعض بلدان المسلمين بل إن سير صلاح الدين للجهاد لم يكن بعد إخبار نور الدين الذي يُعدّ أمير صلاح الدين ورئيسه المباشر وهذا ما جعل شيئاً في نفس نور الدين على نائبه بمصر، وفي الوقت نفسه فإن المغرضين وأصحاب الأهواء غير المعروفين عند صلاح قد قالوا له: إن نور الدين إذا دخل على الصليبيين وهم على هذه الحال أنت من جانبٍ وهو من جانبٍ انهزم الصليبيون وملك نور الدين ما كانوا يستعمرون، ومتى زال الصليبيون وأخذ نور الدين ملكهم وزالوا من طريقه إلى مصر لم يبق بديار مصر مقام مع نور الدين، وإن جاء نور الدين إليك وأنت في الشوبك

فلا بدّ لك من الاجتماع به، وهو أميرك فيكون حينئذٍ هو المتحكّم فيك بما شاء إن شاء تركك وإن شاء أخذك فقد لا تقدر على الامتناع عليه، فالمصلحة هي الرجوع إلى مصر، وهذا سبب رجوعه دون إخبار أميره، ولكن شعر بعد عودته بخطأ ما فعل فكتب إلى نور الدين يعتذر إليه بما حدث ويُعلّل ذلك باختلال حدث في مصر إذ بلغه أن أعوان العبيديين قد عزموا على الوثوب بها فخاف من بُعده عن البلاد فعاد إليها قبل أن يقوم أهلها على من تخلّف بها من أهله وأصحابه فيخرجوهم ويمتنعون بها من جديدٍ، وأطال الاعتذار، ولكن نور الدين محمود لم يقبل منه ذلك، وتغيّر عليه، وعزم على السير إلى مصر وإخراجه عنها، وسرت شائعة ذلك، وسمع صلاح الدين الخبر فجمع أهله وفيهم أبوه نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، واستشارهم فلم يجبه أحد بكلمةٍ واحدةٍ فقام تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فقال: إذا جاء قاتلناه ومنعناه عن البلاد ووافقه غيره من أهليهم فأنكر ذلك والد صلاح الدين واستعظمه، وشتم تقي الدين وأقعده، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا خالك شهاب الدين، ونحن أكثر محبةً لك من جميع من ترى، والله لو

رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم نمكث إلا أن نُقتل بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلناه فإذا نحن هكذا فما ظنّك بغيرنا، وكل ما ترى عندك من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا على الثبات على سروجهم، وهذه البلاد له ونحن مماليكه ونوابه فيها، فإن أراد سمعنا وأطعنا، والرأي أن تكتب كتاباً وترسله مع المولى نجاب تقول فيه: بلغني أنك تريد الحركة لأجل البلاد فأي حاجةٍ إلى هذا ترسل المولى نجاباً يضع في رقبتي منديلاً ويأخذني إليك وما هاهنا من يمتنع. وقام الأمراء وغيرهم وتفرّقوا على هذا. فلما خلى به أبوه نجم الدين أيوب، قال له: بأيّ عقلٍ فعلت هذا، أما علمت أن نور الدين إذا سمع عزمنا على منعه ومحاربته جعلنا أهمّ الوجوه إليه وحينئذٍ لا نقوى عليه، وأما الآن إذا بلغه ما جرى وطاعتنا له تركنا واشتغل بغيرنا والأقدار تعمل عملها. ففعل صلاح الدين ما أشار به أبوه فترك نور الدين قصده واشتغل بغيره، فكان الأمر كما ظنّ نجم الدين أيوب، وتوفي نور الدين سنة ٥٦٩هـ ولم يقصده وملك صلاح الدين البلاد وكان هذا من أحسن الآراء وأجودها[١].

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.


شادي بن مروان
نجم الدين أيوب أبو الشكر
٥٦٨هـ.
أسد الدين شيركوه
٥٦٤هـ.
بوري
تاج الملوك
توران شاه محمد
شمس الدولة
٥٧٦هـ.
الناصر يوسف
صلاح الدين
٥٨٩هـ.
شاهنشاه
نور الدولة
٥٤٣هـ.
الملك العادل
أبو بكر
٦١٥هـ.
سيف الإسلام
طغتكين
٥٩٣هـ.
ناصر الدين محمد
٥٨١هـ.
شيركوه

وفي شهر جمادى الأولى سنة ٥٦٨هـ سار شمس الدولة توران شاه أخو صلاح الدين الأكبر من مصر إلى بلاد النوبة ليملكها، وذلك أن صلاح الدين وأهله اقتنعوا أن نور الدين قد عزم على دخول مصر فاستقرّ الرأي بينهم أن يملكوا بلاد النوبة أو بلاد اليمن حتى إذا وصل إليهم نور الدين لقوه وصدوه عن مصر فإن استطاعوا منعه أقاموا بمصر على ما هم عليه وإن عجزوا ركبوا البحر ولحقوا بالبلاد التي قد افتتحوها. جهّز شمس الدولة قوةً وسار إلى أسوان ومنها إلى بلاد النوبة فنازل قلعةً اسمها «أبزيم» وحاصرها فقاتله أهلها فانتصر عليهم فاضطروا إلى الاستسلام وسلّموا قلعتهم فملكها وأقام بها غير أنه لم ير للبلاد دخلاً يُرغب فيه ويستحق ما تحمّل من أجله من مشقّةٍ حيث يقتات أهل البلاد بالذرة لذا ترك النوبة ورجع إلى مصر بما غنم وكانت غنائمه العبيد والجواري.

سار قراقوش مملوك تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين مع قوةٍ من الترك إلى جبل نفوسة جنوب طرابلس الغرب فاجتمع هناك مع مسعود بن زمام وكان خارجاً على طاعة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي، فاتفقا وكثر جمعهما وسارا إلى طرابلس الغرب فحاصراها وضيّقا على أهلها ثم دخلاها

عنوةً فأسكن قراقوش أهله في قصرها، وملك كثيراً من بلدان إفريقية (تونس اليوم)، وكثر عسكر قراقوش وجمع أموالاً كثيرةً أيضاً فارتفعت معنوياته وقويت نفسه وحدثته بالسيطرة على إفريقية لبُعد أبي يعقوب كبير الموحدين عنها.

سار صلاح الدين في شهر شوال سنة ٥٦٨هـ بعساكر مصر كلها يريد قتال الصليبيين، واتجه إلى حصن الكرك بقصد حصاره والاجتماع هناك مع نور الدين محمود والاتفاق على الهجوم على الصليبيين من جهتين كل واحدٍ منهما في جهةٍ بعساكره، وسبب ذلك أن نور الدين لما أنكر على صلاح الدين عودته في العام الماضي عن حصن الشوبك وأراد نور الدين قصد مصر وأخذها منه أرسل صلاح الدين يعتذر ويستعدّ للحركة على ما يقرره نور الدين وتمّ الاتفاق بينهما أن يسير صلاح الدين من مصر ويسير نور الدين من دمشق فأيهما سبق صاحبه يقيم إلى أن يصل الآخر، واتفقا على اللقاء عند الكرك وتواعدا على يومٍ معلوم يكون وصولهما فيه فسار صلاح الدين عن مصر قبل الموعد لأن طريقه أكثر بُعداً ووعورةً فوصل قبل وحاصر الكرك، وأما نور الدين فإنه لما وصل إليه كتاب صلاح الدين يعلمه بمسيره من مصر فإنه فرّق الأموال

وجمع الأزواد وجهّز ما يحتاج إليه وسار إلى الكرك فوصل إلى الرقيم بينه وبين الكرك مرحلتان، فلما سمع صلاح الدين بقربه خافه هو وجميع أهله واتفق رأيهم على العودة إلى مصر وترك الاجتماع بنور الدين لأنهم علموا أنه إن اجتمعا كان عزله على نور الدين سهلاً فرحلوا، وعند عودتهم أرسل صلاح الدين الفقيه عيسى إلى نور الدين يعتذر عن رحيله بأنه كان قد استخلف أباه نجم الدين أيوب على ديار مصر وأنه الآن مريض شديد المرض ويخاف أن يحدث حادث الموت فتخرج البلاد من أيديهم وأرسل مع الفقيه عيسى الهدايا الرائعة فجاء عيسى إلى نور الدين وأعلمه ذلك فعظم الأمر على نور الدين وعلم المراد من العودة إلا أنه لم يُظهر للفقيه عيسى تأثُّراً بل قال: حِفظ مصر أهم عندنا من غيرها. وسار صلاح الدين إلى مصر فوجد أباه قد قضى نحبه، وكان سبب موته أنه ركب يوماً فرساً بمصر فنفر به الفرس نفرةً كبيرةً شديدةً فسقط عنه فحُمل إلى قصره فمات في السابع والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٦٨هـ، وكان خيّراً عاقلاً جواداً حسن السيرة.

وعندما رجع صلاح الدين إلى مصر استأذن نور الدين في أن يُسيّر حملةً إلى اليمن إذ أن صاحب زبيد قد قطع خطبة الخليفة العباسي فأذن له في ذلك،

فأخذ صلاح الدين يستعدّ فجهّز السلاح والأزواد وطلب من أخيه شمس الدولة توران شاه أن يسير بالعساكر إلى اليمن فسار في مستهل شهر رجب سنة ٥٦٩هـ، فوصل إلى مكة ومنها انطلق إلى زبيد فقاتل جندها فهزمهم ووصل بعساكره إلى سور مدينة زبيد فلم يجدوا لها حماةً فنصبوا السلالم وصعدوا على سورها ودخلوا البلد عنوةً وأخذوا صاحبها عبد النبي[1] أسيراً مع زوجته المدعوة بـ(الحُرّة)، وسلّم شمس الدولة بعض الأسرى ومنهم عبد النبي إلى أحد أمرائه وهو سيف الدولة مبارك بن كامل من بني منقذ أصحاب شيزر وأمره أن يستخرج من عبد النبي الأموال فأعطاه منها شيئاً كثيراً، ثم إنه دلّهم على قبرٍ كان قد حفره لوالده وبنى عليه بناءً فخماً وبجانبه دفائن كثيرة فأعلمهم بها فاستُخرجت منها أموال كثيرة جداً، وأما الحُرّة فإنها أيضاً كانت تدلّهم على ودائع لها فأُخذ منها مال كثير. ولما ملك شمس الدولة توران شاه زبيد واستقرّ أمره بها ودان أهلها له،

---

(١) عبد النبي بن علي بن مهدي الحميري: تولى أمر زبيد سنة ٥٥٩ بعد وفاة أخيه مهدي، وقد قاتل ملوك اليمن واجتمع له ملك الجبل وتهامة، وانتقلت إليه جميع أموال اليمن وذخائرها، وكان يقتل المنهزم من عسكره، وقد ظفر به وقتله ملك صنعاء علي بن حاتم سنة ٥٧٠هـ.

وأُقيمت الخطبة للخليفة العباسي في بغداد سار شمس الدولة إلى عدن فخرج صاحبها لقتال الغزاة ويُسمى ياسر غير أنه انهزم ودخل الجيش الأيوبي عدن وأُخذ صاحبها ياسر أسيراً، وأراد العسكر نهب عدن فمنعهم شمس الدولة، وقال: ما جئنا لنفسد في البلاد وإنما جئنا لنملكها ونعمّرها وننتفع بدخلها فلم ينهب أحد منها شيئاً فبقيت على حالها وثبت ملك شمس الدولة توران شاه واستقرّ أمره. ولما سار شمس الدولة إلى عدن كان معه عبد النبي صاحب زبيد أسيراً.

رجع شمس الدولة إلى زبيد وحاصر قلعة تعز وهي من أكثر القلاع مناعةً وبها خزائن صاحب زبيد، فملكها، كما ملك عدداً من قلاع الجبل، وقد أناب عنه في عدن عز الدين عثمان بن الزنجبيلي، وفي زبيد سيف الدين مبارك بن كامل من بني منقذ، كما جعل في كل قلعةٍ نائباً له من أصحابه، وأحسن إلى أهل البلاد فأطاعوه.

اتفق جماعة من أتباع العبيديين ومن أصحاب المصالح والأهواء على الوثوب على الأيوبيين بمصر وقد استغلّوا غياب بعض العسكر مع شمس الدولة توران شاه أخي صلاح الدين في اليمن، واجتمع رأي الخارجين عن الطاعة استدعاء الصليبيين من ساحل

الشام والإفرنج من صقلية على شيءٍ يبذلونه لهم من المال والبلاد فإذا قصدوا مصر فإن خرج إليهم صلاح الدين بنفسه ثاروا هم في القاهرة ومصر وأعادوا الدولة العبيدية وعاد من معه من العسكر الذين وافقوهم فلا يبقى له مقام مقابل الصليبيين والإفرنج، وإن أقام صلاح الدين وأرسل إليهم العسكر ثاروا عليه وأخذوه أخذاً باليد لعدم وجود الناصر له. وقال لهم الشاعر اليمني عمارة: أنا حسنت لأخيه اليمن خوفاً من أن يسدّ مسدّه وتجتمع الكلمة عليه بعده. وكان من لطف الله بالمسلمين أن جماعة المصريين أدخلوا معهم زين الدين علي بن نجا الواعظ والقاضي المعروف بـ(ابن نجية) ورتّبوا الخليفة والوزير والحاجب والداعي والقضاة إلا أن بني رزيّك قالوا: يكون الوزير منا. فلما علم ابن نجا الحال حضر عند صلاح الدين وأعلمه حقيقة الأمر فأمره بملازمتهم ومخالطتهم ومواطأتهم على ما يريدون فعله وتعريفه بما يتجدّد أولاً بأول، ففعل ذلك، وصار يُطلعه على كل ما يعزمون عليه، ثم وصل مبعوث من ملك الصليبيين بساحل الشام ومعه هدية ورسالة وهو في الظاهر إلى صلاح الدين وفي الحقيقة إلى أولئك الخارجين عن الطاعة إذ كان يرسل بعض النصارى إليهم ويأتيه مندوبون عنهم، فأتى الخبر إلى صلاح الدين

بجلية الحال فوضع صلاح الدين على مبعوث الصليبيين بعض من يثق به من نصارى مصر لقاء مالٍ فأخبره بالخبر على حقيقته فقبض حينئذٍ على المقدمين في هذه الحادثة وصلبهم في الثاني من شهر رمضان سنة ٥٦٩هـ.

ارتحل كثير من أجناد المصريين إلى الساحل، وجعلت حماية بالقصر على أهل العاضد العبيدي الذي كان سيّد مصر وتوفي قبل سنتين. ووصل الإفرنج من صقلية إلى الإسكندرية وأما الصليبيون على ساحل الشام فلم يتحركوا نحو مصر لعلمهم بوصول الخبر إلى صلاح الدين.

وتوفي نور الدين محمود صاحب الشام وديار الجزيرة الفراتية ومصر يوم الأربعاء في الحادي عشر من شهر شوال سنة ٥٦٩هـ بعلّة الخوانيق ودفن بقلعة دمشق ونُقل إلى المدرسة التي أنشأها، وكان نور الدين محمود قد شرع يتجهّز للدخول إلى مصر لأخذها من صلاح الدين الأيوبي فإنه رأى منه فتوراً في غزو الصليبيين من ناحيته إذ كان يعلم أنه إنما يمنع صلاح الدين من الغزو الخوف منه ومن الاجتماع به، ويرى أن صلاح الدين يرغب بوجود الصليبيين في الطريق بينه وبين نور الدين ليمتنع بهم على نور الدين. فأرسل نور الدين إلى الموصل وديار بكر وديار الجزيرة

الفراتية يطلب العساكر للغزو، وكان في نيته أن يترك الشام مع ابن أخيه سيف الدين غازي صاحب الموصل ويسير هو بعساكره إلى مصر فبينما هو يتجهّز لذلك أتاه أمر الله الذي لا مردّ له، وكان صالحاً ـ والله أعلم ـ. ولما توفي نور الدين قام بالملك بعده ابنه إسماعيل الملك الصالح، وكان عمره إحدى عشرة سنةً. وبايعه الأمراء والمقدمون بالشام كما أطاعه صلاح الدين الأيوبي بمصر، وكتب إليه يعزيه ويهنئه بالملك وأرسل إليه دنانير مصريةً عليها اسمه، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له كما كانت لأبيه.

لما طلب نور الدين العساكر من الموصل وديار بكر والجزيرة سار إليه ابن أخيه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودودبن زنكي صاحب الموصل كما طلب عمه فلما كانوا ببعض الطريق وصلت إليهم الأخبار بوفاة نور الدين محمود فرجع سيف الدين غازي فملك نصيبين والخابور وحران والرها والرقة وسروج وجميع بلدان الجزيرة الفراتية سوى قلعة جعبر فإنها كانت منيعةً كما أنه لم يتعرّض لرأس العين حيث كانت لابن خاله صاحب ماردين، ولما وصلت هذه الأخبار إلى صلاح الدين أرسل إلى الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين يعتب عليه حيث لم يُعلمه بما فعل سيف الدين

غازي ابن عمه من أخذه بلدان الجزيرة ليحضر في خدمته ويطرد سيف الدين مما ملكه. وكتب صلاح الدين إلى أمراء نور الدين يقول: لو أن نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامي أو يثق به مثل ثقته بي لسلّم إليه مصر التي هي أعظم ممالكه وولاياته، ولو لم يعجل عليه الموت لم يعهد إلى أحدٍ بتربية ولده والقيام بخدمته غيري، وأراكم تفردتم بمولاي وابن مولاي دوني، وسوف أصل إلى خدمته ـ إن شاء الله ـ وأجازي إنعام والده بخدمةٍ يظهر أثرها، وأُجازي كلاً منكم على سوء صنيعه في ترك الدفاع عن بلاده وتمسّك الأمراء في دمشق بالملك الصالح إسماعيل ولم يرسلوه إلى حلب خوفاً من أن يغلب عليه أكبر أمراء نور الدين في حلب وهو شمس الدين علي بن الداية ولكن المرض هو الذي حال دون اتصاله بالملك الصالح، ولما شعر بعجزه عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب لتمتنع به بلدان الجزيرة الفراتية من سيف الدين غازي ابن عمه قطب الدين مودود.

كان المصريون الذين يريدون الحركة على صلاح الدين وقد طلبوا من ملك الصليبيين بساحل الشام توجيه العسكر إلى مصر، وكذا طلبوا من صاحب صقلية، وقد ذكرنا أن ملك الصليبيين بساحل الشام لم

يرسل عسكراً من قبله إذ علم أن صلاح الدين قد وصلت إليه أخبار الفتنة ورجالها أما صاحب صقلية فقد جهّز أسطولاً كبيراً عدته مائتا مركبٍ تحمل الرجال، وست وثلاثون تحمل الخيل، وست مراكب كبيرة تحمل آلة الحرب، وأربعون تحمل الأزواد، وفيها من الرجال خمسون ألفاً ومن الفرسان ألف وخمسمائةٍ، وكان المقدم عليهم ابن عمّ صاحب صقلية. وسارت المراكب بما عليها إلى الإسكندرية فوصلت إليها في السادس والعشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٦٩هـ على حين غفلةٍ من أهل الإسكندرية، فلما بلغهم ذلك خرجوا بأسلحتهم وعدتهم ليمنعوا الأعداء من النزول فمنعهم الوالي من ذلك وأمرهم بملازمة السور، فنزل الإفرنج إلى البر وتقدّموا إلى البلد ونصبوا عليها الدبابات والمنجنيقات وقاتلوا أشدّ قتالٍ وصبر لهم الأهالي ولم يكن عندهم من العسكر إلا القليل، ورأى الإفرنج من شجاعة أهل الإسكندرية ما راعهم. وسُيّرت الكتب بالحال إلى صلاح الدين يستدعونه لدفع العدو عنهم، ودام القتال يومين وفي اليوم الثالث وصلت القوات الإسلامية من المناطق القريبة من الإسكندرية، وفتح المسلمون باب البلد وخرجوا منه على الإفرنج من كل جانبٍ وارتفعت الأصوات بالتكبير فارتاع الأعداء،

واشتدّ القتال، ووصل المسلمون إلى الدبابات وأحرقوها واستمر القتال إلى آخر النهار ودخل المسلمون إلى الإسكندرية فرحين مستبشرين بالنصر، وضعفت همة الإفرنج وفتر قتالهم وكثر القتل والجراح في رجالهم. وأما صلاح الدين فإنه لما وصل إليه الخبر سار بعساكره، وسيّر مملوكاً له إلى الإسكندرية يُبشّر بوصوله، وسيّر جماعةً من العسكر إلى مدينة دمياط خوفاً عليها واحتياطاً لها.

وصل مملوك صلاح الدين الذي أرسله إلى الإسكندرية من يومه وقت العصر، والناس قد رجعوا من القتال فنادى في البلد بمجيء صلاح الدين والعساكر مسرعين فلما سمع الناس ذلك عادوا إلى القتال وقد زال ما بهم من تعبٍ وألم الجراح وكل منهم يظنّ أن صلاح الدين معه، وسمع الإفرنج باقتراب صلاح الدين في عسكره فانهارت معنوياتهم وزادهم ذلك خوفاً وضعفاً وفتوراً فهاجمهم المسلمون عند اختلاط الظلام فوصلوا إلى خيامهم فأخذوها بما فيها من الأسلحة الكثيرة والأزواد وأعملوا برجالهم السيف فهرب كثير منهم إلى البحر وقرّبوا مراكبهم إلى الساحل ليركبوا فيها فسلم بعضهم وركب وغرق بعضهم، وغاص بعض المسلمين في الماء وخرق بعض مراكب الإفرنج فغرقت

فخاف الباقون من ذلك فولّوا هاربين، واحتمى ثلاثمائةٍ من فرسانهم على رأس تلٍّ فقاتلهم المسلمون فصاروا بين قتيلٍ وأسيرٍ، وانتهى أمرهم.

وخالف بعض الأمراء في صعيد مصر وخلع الطاعة فسيّر صلاح الدين إليه قوةً فقتلته مع كثيرٍ من أعوانه واطمأنت المنطقة وساد الأمن.

لما مات نور الدين محمود بدمشق سنة ٥٦٩هـ خلفه ابنه إسماعيل الملك الصالح، وكان سعد الدين كمشتكين قد هرب من سيف الدين غازي صاحب الموصل والتجأ إلى حلب فأقام عند أميرها شمس الدين علي بن الداية، فلما استولى سيف الدين غازي على بلدان الجزيرة الفراتية خاف شمس الدين علي أن يُغير على حلب فيملكها فأرسل سعد الدين كمشتكين إلى دمشق ليحضر الملك الصالح ومعه العساكر إلى حلب فلما قارب دمشق سيّر إليه كبير أمراء الملك الصالح ويُدعى شمس الدين محمد بن المقدم سيّر إليه عسكراً أخذوا ما معه من متاعٍ وسلاحٍ وأعادوه خائباً إلى حلب، ثم إن الأمراء الذين بدمشق قد نظروا في مصالحهم فرأوا في مسير الملك الصالح إسماعيل إلى حلب أفضل لهم ولإمارتهم فأرسلوا إلى شمس الدين علي بن الداية يطلبون منه إرسال سعد الدين كمشتكين

ليأخذ الملك الصالح إسماعيل إلى حلب فقبل ذلك وبعثه إلى دمشق في شهر المحرم سنة٥٧٠هـ وأخذ الملك الصالح وعاد إلى حلب، وما أن وصل إليها حتى قبض سعد الدين على شمس الدين علي بن الداية حيث وجده مريضاً كما قبض على إخوته معه وعلى كبار أعوانه واستبدّ بأمور الملك الصالح إسماعيل فخاف شمس الدين محمد بن المقدم وغيره من أمراء دمشق من مسير سعد الدين كمشتكين ـ إن استقر له أمر حلب ـ إلى دمشق وفعله فيها كما فعل بحلب، ورأوا مراسلة سيف الدين غازي صاحب الموصل والطلب منه بالمسير إلى دمشق ليسلّموه مدينتهم، فلم يفعل إذ خاف أن تكون مكيدةً له يسير إليهم فيمنعوه عن دمشق ويأتيه ابن عمه الملك الصالح إسماعيل وعسكر حلب من خلفه فيهلك، بهذا أشار عليه بعض أمرائه بالموصل فامتنع عن الإجابة فكاتبوا حينئذٍ صلاح الدين بمصر، وطلبوا منه الحضور إليهم ليملّكوه عليهم، فلما وصلت الرسل إلى صلاح الدين سار في سبعمائة فارس, والصليبيون في طريقه فلم يُبال بهم، فلما دخل أرض الشام قصد بصرى وكان بها حينئذٍ صاحبها وهو من جملة من كاتبه فخرج إليه ولقيه فلما رأى قلّة من معه خاف على نفسه، واجتمع بالقاضي فقال له: ما أرى معكم عسكراً، وهذا

بلد عظيم لا يُقصد بمثل هذا العسكر، ولو منعكم من به ساعةً من النهار أخذكم أهل السواد، قال: إن كان معكم مال سهل الأمر، فقالوا: هنا مال كثير يكون خمسين ألف دينارٍ، فضرب صاحب بصرى على رأسه، وقال: هلكتم وأهلكتمونا، وجميع ما كان معهم عشرة آلاف دينارٍ. ثم سار صلاح الدين إلى دمشق فخرج كل من بها من العسكر إليه فاستقبلوه وخدموه، ودخل البلد، ونزل في دار والده المعروفة بـ(العفيفي) وكانت القلعة بيد مملوك اسمه ريحان، فأحضر صلاح الدين إليه كمال الدين بن الشهرزوري، وهو قاضي البلد والحاكم في أموره جميعها من الديوان والوقف وغير ذلك وأرسله إلى ريحان ليسلّمه القلعة، وقال: أنا مملوك الملك الصالح إسماعيل وما جئت إلا لأناصره وأخدمه وأُعيد البلاد التي أُخذت منه إليه، وكان يُخطب له في بلادي كلها، فصعد كمال الدين إلى ريحان ولم يزل معه حتى سلّم القلعة فصعد صلاح الدين إليها وأخذ ما فيها من أموالٍ وأخرجها ووسّع على نفسه بها، وثبتت قدمه وقويت نفسه، وهو مع هذا يُظهر طاعة الملك الصالح إسماعيل والخطبة والسكة باسمه.

لما استقرّ الأمر لصلاح الدين بدمشق استخلف عليها أخاه سيف الإسلام طغدكين بن أيوب وسار إلى

مدينة حمص في مستهل شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ، وكان بقلعة حمص والٍ يحفظها فلما نزل صلاح الدين على حمص في الحادي عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٠هـ راسل من فيها بالتسليم فامتنعوا فقاتلهم من الغد فملك البلد وأمّن أهلها، وبقيت القلعة ممتنعةً عليه، وترك بمدينة حمص من يحفظها ويمنع الذين بالقلعة من التصرّف، كما يمنع أن تصعد إلى القلعة قوة، وسار إلى مدينة حماة، وهو في أحواله جميعها لا يظهر إلا طاعة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود وأنه إنما خرج لحفظ بلاده عليه من الصليبيين واستعادة ما أخذه سيف الدين غازي صاحب الموصل من بلاد الجزيرة الفراتية فلما وصل إلى حماة في مستهل شهر جمادى الآخرة سنة ٥٧٠هـ، وكان بقلعتها الأمير عز الدين جورديك وهو من مماليك نور الدين محمود فامتنع من التسليم إلى صلاح الدين فأرسل إليه صلاح الدين يُعرّفه ما هو عليه من طاعة الملك الصالح وإنما يريد حفظ بلاده عليه فاستحلفه جورديك على ذلك وسار إلى حلب في اجتماع الكلمة على طاعة الملك الصالح وفي إطلاق شمس الدين علي بن الداية وأخويه حسن وعثمان من السجن، واستخلف جورديك بقلعة حماة أخاه

ليحفظها، فلما وصل جورديك إلى حلب قبض عليه سعد الدين كمشتكين وسجنه، فلما وصل الخبر إلى أخيه في حماة بذلك سلّم القلعة إلى صلاح فملكها.

لما ملك صلاح الدين حماة سار إلى حلب فحاصرها فقاتله أهلها وركب الملك الصالح وهو صبي وعمره اثنتا عشرة سنةً وجمع أهل حلب وقال لهم: قد عرفتم إحسان أبي إليكم ومحبته لكم وسيرته فيكم وأنا يتيمكم وقد جاء هذا الظالم الجاحد إحسان والدي إليه يريد أن يأخذ بلدي ولا يراقب الله تعالى ولا الخلق، وبكى فأبكى الناس فبذلوا له الأموال والأنفس واتفقوا على القتال دونه والمنع عن البلد وجدّوا في القتال وفيهم شجاعة إذ ألفوا الحرب واعتادوا عليها، فقد كانوا يخرجون ويقاتلون صلاح الدين فلا يستطيع أن يقترب من البلد، وأرسل سعد الدين كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية وبذل له أموالاً كثيرةً ليقتلوا صلاح الدين فأرسلوا جماعةً منهم إلى عسكره فلما وصلوا إلى العسكر رآهم أمير اسمه خمارتكين صاحب قلعة بوقيس فهو قريب منهم كثير القتال لهم، فقال لهم: ما الذي أقدمكم؟ وفي أيِّ شيءٍ جئتم؟ فضربوه فجرحوه عدة جراحاتٍ مثخنةٍ، وحمل أحدهم على صلاح الدين ليقتله فقُتل قبل أن يصل إليه، وحمل

الباقون من الإسماعيلية على العسكر فقتلوا جماعةً ثم قُتلوا جميعاً. وبقي صلاح الدين محاصراً حلب إلى آخر شهر جمادى الآخرة ورحل عنها في مستهل شهر رجب وذلك أن ملك طرابلس الصليبي سار إلى حمص ونازلها في السابع من شهر رجب، ولما تجهّز للسير إليها سمع صلاح الدين بالخبر فرحل عن حلب فوصل إلى حماة في الثامن من شهر رجب بعد نزول الصليبيين على حمص بيومٍ واحدٍ، ثم رحل إلى الرستن فلما سمع الصليبيون بقربه رحلوا عن حمص، ووصل صلاح الدين إليها فحاصر القلعة وملكها في الحادي والعشرين من شهر شعبان، فصار أكثر الشام بيده، وسار من حمص بعد أن ملكها واستقرّ أمرها فيها إلى بعلبك وعليها والٍ من أيام نور الدين محمود يسمى «يمن» فحاصرها صلاح الدين فأرسل يمن يطلب الأمان له ولمن معه فأمّنهم صلاح الدين وتسلّم القلعة في الرابع عشر من شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ.

لما ملك صلاح الدين دمشق وحمص وحماة كتب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود لابن عمه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين ويطلب منه أن يسيروا إليه ليأخذوا منه البلدان التي دخلها فحشد

سيف الدين غازي عسكره وكتب إلى أخيه عماد الدين زنكي الثاني صاحب سنجار يأمره أن يسير إليه بعسكره ليجتمعوا ويسيروا إلى الشام لمنازلة صلاح الدين فامتنع من ذلك، وكان صلاح الدين قد أرسل إلى عماد الدين وأطمعه في الملك لأنه هو الكبير فحمله الطمع من الامتناع على أخيه، فلما رأى سيف الدين غازي امتناعه جهّز أخاه عزّ الدين مسعوداً في عسكرٍ كثيرٍ وسيّره إلى الشام، وجعل المقدم على العسكر أكبر أمرائه ويقال له عزّ الدين محمود ويلقّب أيضاً زلفندار وجعله صاحب الكلمة، أما سيف الدين غازي نفسه فقد سار على رأس قوةٍ من العسكر إلى أخيه عماد الدين في سنجار وألقى الحصار عليه في شهر رمضان وقاتله وجدّ بالقتال وامتنع عماد الدين ببلده ودافع عنها بإمكاناته كلها، واستمرّ الحصار حتى جاءت الأخبار إلى سيف الدين بهزيمة عساكره مع أخيه عز الدين مسعود أمام صلاح الدين، فراسل حينئذٍ أخاه عماد الدين وصالحه ورجع إلى بلده الموصل، وترددت الرسل للصلح بين صلاح الدين وسيف الدين ولكن لم يتمّ الاتفاق.

سارت عساكر سيف الدين مع أخيه عز الدين مسعود والمقدّم عليها زلفندار عز الدين محمود واتجهت إلى حلب فانضمت إليها عساكرها وساروا جميعاً لقتال

صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إلى سيف الدين يبذل له تسليم حمص وحماة على أن يقرّ له بدمشق فتبقى ملكاً له وهو فيها نائب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود فلم يقبل سيف الدين وقال: لا بد من تسليم جميع ما أخذ من الشام والعودة إلى مصر، وكان صلاح الدين يحشد عسكره ويستعدّ للقتال فلما امتنع سيف الدين غازي عن إجابته فيما بذل سار في عسكره نحو عزّ الدين مسعود وزلفندار فالتقوا في التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٥٧٠هـ على مقربةٍ من مدينة حماة فلما التقى الجمعان لم يثبت جند سيف الدين غازي بل ولّوا الأدبار وثبت عز الدين مسعود بن نور الدين محمود فحمل عليه عسكر صلاح الدين فأزالوه عن موقفه وتبع أصحابه ولاحقهم صلاح الدين بعسكره وتجاوزوا معسكرهم وغنموا ما فيه، ورجع المنهزمون إلى حلب ووراءهم صلاح الدين حتى حاصرهم في مدينتهم وأخذ في منازلتهم، وحينئذٍ قطع خطبة الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود وأزال اسمه عن السكة في بلاده، واستمرّ في حصارهم فلما طال الأمر عليهم راسلوه في الصلح على أن يكون له ما بيده من بلاد الشام ولهم ما بأيديهم منها فأجابهم إلى ذلك وتمّ الصلح ورحل عن حلب في أوائل شهر شوال سنة ٥٧٠هـ.

وصل صلاح الدين إلى حماة ووصلت إليه خلع الخليفة وهداياه مع مبعوثه، وكان الخليفة يومذاك هو المستضيء بأمر الله الحسن بن يوسف (٥٦٦ ـ ٥٧٥هـ). وسار صلاح الدين من حماة إلى حصن (بارين)[١] ولعله هو صافيتا الآن أو على مقربةٍ منها وذلك في العشر الأخير من شهر شوال سنة ٥٧٠هـ فحاصرها ونصب عليها المنجنيقات ونازلها فسلّمها واليها فخر الدين مسعود بن الزعفراني بالأمان، وهو من أكابر أمراء نور الدين محمود، فلما ملكها صلاح الدين رجع إلى حماة وأقطعها إلى خاله شهاب الدين محمود بن تكش الحارمي، وأقطع حمص إلى ناصر الدين ابن عمه أسد الدين شيركوه، ثم سار إلى دمشق.

جمع سيف الدين غازي ما استطاع جمعه من عسكر ووزّع بينهم الأموال وطلب دعماً من صاحب مدينة ماردين ومن صاحب حصن كيفا فوصل إليه دعمهما فاجتمع لديه ستة آلاف فارس، ثم سار إلى حلب فجاءه سعد الدين كمشتكين بعساكر حلب. وسار صلاح الدين من دمشق بعسكرٍ قليلٍ لأنه قد سيّر عسكراً إلى مصر وتأخّروا عليه، ووصل صلاح الدين

---

(١) بارين: يكتبونها أحياناً «بعرين».

إلى جهات حلب والتقى بتلّ السلطان مع عسكر سيف الدين غازي، وكان وصول صلاح الدين وقت العصر وكان عسكره في تعبٍ وقد أصابهم العطش فألقوا بأنفسهم إلى الأرض كأنه ليس بهم قدرة على الحركة فأشار بعضهم على سيف الدين غازي أن يُداهموا صلاح الدين وعسكره على هذه الحال، فقال عز الدين محمود زلفندار ليس بنا حاجة إلى قتال هذا الخارجي في هذه الساعة غداً في الصباح نأخذهم كلهم، فتركوا القتال إلى الصباح، فلما كان صباح اليوم التالي اصطفوا للقتال ووضع زلفندار أعلامهم في وهدةٍ من الأرض لم يرها إلا من هو بالقرب منها فلم يرها كثير من عسكرهم فظنّوا أن السلطان قد انهزم فولّوا الأدبار إذ الخوف يملأ نفوسهم من صلاح الدين من قبل، وقد وجدوا السبيل ولم يقتل من الفريقين على كثرتهم سوى رجلٍ واحدٍ، ووصل سيف الدين غازي إلى حلب فترك بها أخاه عز الدين مسعوداً في جمعٍ من العسكر وانطلق هو إلى الموصل ولا يتوقّع النجاة حيث يظنّ أن صلاح الدين سيلاحقه حتى فكّر بمغادرة الموصل والاعتصام بإحدى القلاع الحصينة في تلك الديار غير أن بعض أمرائه قد شدّوا من عزيمته فثبت، وعزل عز الدين محمود زلفندار عن قيادة

الجيوش واستعمل مكانه مجاهد الدين قايماز.

استولى صلاح الدين على أثقال عسكر سيف الدين غازي المنهزم فتقوّى بها وتابع سيره إلى بزاعة (بين حلب ومنبج في وادي بطنان) فوقف في وجهه عسكر قلعتها وقاتلوه فانتصر عليهم وتسلّمها، وجعل فيها من يحفظها وتابع سيره إلى منبج فحاصرها في آخر شهر شوال سنة ٥٧١هـ وبها صاحبها قطب الدين ينال بن حسّان المنبجي وكان شديد العداوة لصلاح الدين فوقف في وجهه لكن دون جدوى، واستطاع صلاح الدين أن يملك المدينة غير أنه توقّف أمام القلعة إذ فيها كثير من الرجال مع كثيرٍ من السلاح والذخيرة فحاصرها صلاح الدين وضيّق على من فيها ثم زحف عليها ووصل النقّابون إلى السور فنقبوه ودخلوها عنوةً وغنموا كل ما فيها وأخذوا صاحبها أسيراً فأخذ صلاح الدين ماله كله ثم أطلقه فقيراً لا يملك شيئاً، فذهب إلى الموصل فأقطعه سيف الدين غازي مدينة الرقة.

سار صلاح الدين من مدينة منبج إلى قلعة اعزاز فنازلها في اليوم الثالث من شهر ذي القعدة سنة ٥٧١هـ وهي قلعة حصينة فحاصرها وضيّق على أهلها ونصب عليها المنجنيقات، وبينما كان صلاح الدين في خيمة بعض أمرائه ويقال له جاولي إذ وثب عليه باطني فضربه

بسكينٍ في رأسه ولولا أن المغفر الزرد تحت القلنسوة لقتله ـ والله أعلم ـ. فأمسك صلاح الدين يد الباطني بيده إلا أنه لم يستطع على منعه من الضرب بالكلية إنما كان يضربه ضرباً ضعيفاً فبقي الباطني يضربه في رقبته بالسكين فتقع فيحول ما يلبس دون تأثير الضربات وكانت الزردية تمنعها من الوصول إلى رقبته، وجاء أمير من أمراء صلاح الدين اسمه «يازكش» فأمسك السكين بكفه فجرحه الباطني ولم يطلقها من يده إلى أن قُتل الباطني، وجاء آخر من الإسماعيلية فقُتل أيضاً وثالث فقُتل، وركب صلاح الدين إلى خيمته كالمذعور لا يُصدّق بنجاته، ثم تفكّر في جنده فمن أنكره أبعده ومن عرفه أقرّه على خدمته، واستمر محاصراً اعزاز ثمانيةً وثلاثين يوماً، وكل يومٍ يشتد القتال فيه عما قبله، وكثرت النقوب في سورها فأذعن من فيها وسلّموا القلعة إلى صلاح الدين فتسلّمها في الحادي عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٧١هـ.

بعد أن انتهى صلاح الدين من قلعة اعزاز رجع إلى حلب فحاصرها في منتصف شهر ذي الحجة سنة ٥٧١هـ وفيها الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ومعه العسكر وقد دافعوا عن بلدهم وزاد الحصار على الشهر دون نتيجةٍ وترددت الرسل بينهم في

الصلح في العشرين من شهر المحرم سنة ٥٧٢هـ فوقعت الإجابة إليه من الجانبين فأهل حلب خافوا من طول الحصار وضعفوا وضجروا، وصلاح الدين وجد صعوبةً في الدنو من البلد لشدّة المقاومة وتقرر رحيل صلاح الدين عن حلب وإعادة إعزاز للملك الصالح إسماعيل وأن يكون الجميع عوناً على الغادر الذي ينكث بالعهد والجميع هم: الملك الصالح إسماعيل، وسيف الدين غازي صاحب الموصل، وصاحب حصن كيفا، وصاحب ماردين وصلاح الدين.

رحل صلاح الدين عن حلب وسلّم إعزاز وسار إلى بلدة مصياف بلد الباطنية في شهر المحرم سنة ٥٧٢هـ ليقاتلهم على ما فعلوه به من الوثوب عليه، ولما يعتقدون به وما يفعلونه فنهب بلدهم وخرّبه وأحرقه وحاصر قلعة مصياف وهي أعظم حصونهم وأكثر قلاعهم مناعةً فنصب عليها المنجنيقات وضيّق على من بها، ولم يزل كذلك فأرسل سنان مقدم الإسماعيلية إلى شهاب الدين الحارمي صاحب حماة وهو خال صلاح الدين يسأله أن يدخل بينهم ويصلح الحال ويشفع فيهم، ويقول له: إن لم تفعل قتلناك وجميع أهل صلاح الدين فشفع فيهم وسأل الصفح عنهم فأجابه إلى ذلك وصالحهم ورحل عنهم، وكان عسكره قد ملّوا من

طول الغربة والبعد عن الأهل وقد امتلأت أيديهم مما غنموا من عسكر الموصل ومن مناطق الإسماعيلية فطلبوا العودة إلى بلادهم للاستراحة فأذن لهم وسار هو إلى مصر لأنه كان قد طال عهده عنها، ولما وصل إليها أمر ببناء سورٍ على القاهرة محيطه تسعة وعشرون ألف ذراع وثلاثمائة ذراعٍ بالذراع الهاشمي، ولم يزل العمل فيه إلى أن توفي صلاح الدين.

كان شمس الدين محمد بن عبد الملك ابن المقدم صاحب بعلبك فأتاه خبر أن جماعةً من الصليبيين قد قصدوا البقاع من أعمال بعلبك وأغاروا عليها فسار إليهم وكمن لهم في الغياض وأوقع بهم، وقتل منهم كثيراً، وأسر نحو مائتي رجلٍ منهم، وسيّرهم إلى صلاح الدين، وكان شمس الدولة تورانشاه أخو صلاح الدين قد وصل إلى دمشق قادماً من اليمن، وهو في دمشق فسمع أن جماعةً من الصليبيين قد خرجوا من مناطقهم التي يسيطرون عليها ودخلوا أعمال دمشق فسار إليهم ولقيهم عند (عين الجر)[1] فلم يثبت لهم وانهزم منهم وظفروا بجمعٍ من أصحابه فأسروهم، ومنهم: سيف الدين أبو بكر بن السلار وهو من أعيان جند

(١) عين الجَرّ: موضع بالبقاع بين بعلبك ودمشق.

دمشق، وتجرأ الصليبيون بعدها في هذه المنطقة.

سار صلاح الدين يوسف بن أيوب في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ من مصر إلى ساحل الشام مجاهداً في سبيل الله لقتال الصليبيين ومعه عسكره فوصلوا إلى عسقلان في الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى فقتلوا وأسروا ولم يجدوا من الصليبيين دفاعاً ولم يروا لهم عسكراً فطمعوا وتقدّموا فوصلوا إلى نهر (الصرّار) عند بلدة (أسدود) فازدحم الناس للعبور فلم يرعهم إلا والصليبيون قد وصلوا إليهم، وكان مع صلاح الدين بعض العسكر حيث تفرّق أكثرهم في طلب الغنيمة فلما رآهم وقف لهم فيمن معه وتقدّم بين يديه محمد ابن أخيه فباشر القتال بنفسه بين يدي عمه فقُتل جماعة من أصحابه وكذلك من الصليبيين، وكان لتقي الدين ولد اسمه أحمد، وهو من أحسن الشباب أول ما تكاملت لحيته فأمره أبوه بالحملة عليهم فحمل عليهم وقاتلهم وعاد سالماً وقد أثّر فيهم أثراً كثيراً فأمره بالعودة إليهم ثانيةً فحمل عليهم فقُتل شهيداً ومضى حميداً رحمه الله وأصيب المسلمون بالهزيمة، وحمل بعض الصليبيين على صلاح الدين فاقترب منه وكاد يصل إليه فقُتل الصليبي بين يديه، وتكاثر الصليبيون عليه فمضى منهزماً يسير قليلاً ويقف ليلحقه عسكره إلى أن حلّ

الظلام فسلك البرية إلى أن مضى في نفرٍ يسيرٍ إلى مصر، ولقوا في طريقهم مشقّةً شديدةً وقلّ عليهم القوت والماء وهلك كثير من دواب العسكر جوعاً وعطشاً وسرعة سيرٍ، وأما عسكر المسلمين الذين كانوا في هذه الغارة فقد ذهب أكثرهم ما بين قتيلٍ وأسيرٍ، وكان من جملة من أُسر الفقيه عيسى الهكّاري[1] الذي كان أشدّ الناس قتالاً ذلك اليوم كما أُسر أخوه الظهير وكانا قد سارا منهزمين فضلّا الطريق فأُخذا ومعهما جماعة من أصحابهما وبقوا سنين في الأسر فافتدى صلاح الدين الفقيه عيسى بستين ألف دينارٍ مع جماعةٍ كثيرةٍ من الأسرى، ووصل صلاح الدين إلى القاهرة في منتصف شهر جمادى الآخرة ٥٧٣هـ.

نزل على ساحل الشام «كند» أكبر طواغيت

---

(١) عيسى بن محمد بن عيسى الحسني الطالبي، أبو محمد، ضياء الدين الهكاري: كان في بداية أمره يشتغل بالفقه في حلب، واتصل بالأمير أسد الدين شيركوه فصار إمامه، وتوجّه معه إلى مصر، ولما توفي شيركوه سعى الهكاري إلى إقامة صلاح الدين في موضعه من الوزارة، وتولى صلاح الدين، وعظم أمره فعرف لضياء الدين سابقته، واعتمد عليه في الآراء والمشورات، ولم يكن يخرج عن رأيه، وكان يلبس لباس الجند ويعتمّ بعمامة الفقهاء، وتوفي قرب عكا سنة ٥٨٥هـ، ونُقل إلى القدس ودُفن بظاهرها.

الصليبيين في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٣هـ، ورأى أن صلاح الدين قد سار إلى مصر منهزماً وأن نائبه على دمشق أخاه شمس الدولة تورانشاه ليس عنده كثير من العسكر فاغتنم هذا الصليبي الوضع وسار نحو حماة فحاصرها وبها صاحبها شهاب الدين محمود الحارمي خال صلاح الدين وهو مريض شديد المرض، وكانت فرقة من عسكر صلاح الدين بالقرب من مدينة حماة فدخلوا إليها ودعموا أهلها، وقاتل الصليبيون قتالاً شديداً وقاموا بهجماتٍ عنيفةٍ وكادوا يملكون البلد قهراً ودافع أهلها بحماسةٍ مع العسكر الذين دعموهم فنصرهم الله على أعدائهم فرحل الصليبيون خائبين وكان مقامهم على حماة أربعة أيامٍ، وساروا إلى حارم وألقوا الحصار عليها، وبعد أن رحلوا عن حماة مات صاحبها شهاب الدين الحارمي ومات ابنه قبله بثلاثة أيامٍ.

رجع الصليبيون إلى مدينة حماة في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٤هـ بعد أن جمعوا كثيراً من الصليبيين في الشام رجالة وفرسان طمعاً بالنهب فشنّوا الغارات على القرى فنهبوها وخرّبوها وأحرقوا، وأسروا وقتلوا وفعلوا ما استطاعوا فعله من جرائم وفسادٍ، فلما سمع العسكر المقيم بحماة ما يجري ساروا إليهم، وهم قليل، ساروا بعد أن توكلوا على الله فالتقوا مع عدوهم واقتتلوا

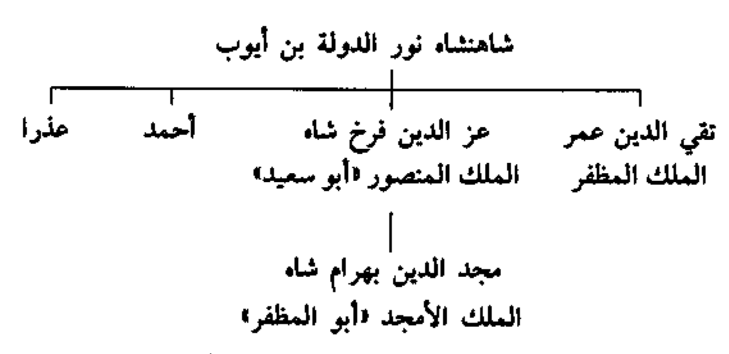
وصدق المسلمون فنصرهم الله تعالى وانهزم الصليبيون وكثر القتل والأسر فيهم، وأخذ المسلمون منهم ما نهبوا من السواد، وكان صلاح الدين قد عاد من مصر إلى الشام في شهر شوال سنة ٥٧٤هـ، ونزل بظاهر حمص فحُملت إليه الأسرى والأسلاب فأمر بقتل الأسرى فقُتلوا.

عصى شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم على صلاح الدين في بعلبك وكانت له قد سلّمها صلاح الدين إليه لما فتحها جزاء له حيث سلّم إليه ابن المقدم دمشق لما فتحها فلم تزل بيده إلى الآن، فطلب شمس الدولة توران شاه محمد أخو صلاح الدين منه بعلبك وألحّ عليه لأن تربيته ومنشأه كان بها وكان يحبها ويختارها على غيرها من البلدان وكان الأخ الأكبر لصلاح الدين فلا يمكن لصلاح الدين مخالفته فأمر شمس الدين محمد بن عبد الملك المقدم بتسليمها إلى أخيه ليعوّضه عنها فلم يجب إلى ذلك وذكّره بالعهود التي له وما اعتمده معه من تسليم البلاد إليه وألحّ في أخذها فسار ابن المقدم إليها واعتصم بها فوجّه إليه صلاح الدين عسكراً وحاصره بها مدةً ثم رحل عنها من غير أن يأخذها وترك عليها عسكراً يحاصره فيها فلما طال عليه الحصار أرسل إلى صلاح الدين يطلب

العوض عنها ليسلّمها إليه فعوّضه عنها وسلّمها فأقطعها صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه محمد.

حشد الصليبيون قوتهم وساروا مع ملكهم إلى دمشق في شهر ذي القعدة سنة ٥٧٤هـ فأغاروا على أعمالها فنهبوا وقتلوا وأسروا وسبوا فأرسل إليهم صلاح الدين ولد أخيه وهو أبو سعيد عز الدين فرخ شاه بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب في جمعٍ من العسكر وأمره إذا قاربهم أن يرسل إليه يخبره على جناح طائرٍ ليسير إليه، وتقدّم إليه أن يأمر أهل البلاد بالنزوح من بين يدي الصليبيين فسار عز الدين فرخ شاه في عسكره يطلبهم فلم يشعر إلا والصليبيون قد خالطوه فاضطر إلى القتال فاقتتلوا أشدّ قتالٍ، وألقى فرخ شاه نفسه عليهم وتقدّم للقتال ولم يكله إلى سواه فانتصر المسلمون ـ بإذن الله ـ وانهزم الصليبيون، وقُتل من قادتهم جماعة ومنهم (هنفري) الذي يضرب به المثل عندهم بالشجاعة والرأي بالحروب، كما قُتل عدد من أقرانه ولم يبلغ عدد عسكر فرخ شاه ألف فارسٍ، وقام الصليبيون بعدة غارات على المسلمين في اللاذقية وشيزر. كما أغار صاحب طرابلس الصليبي على جمعٍ كثيرٍ من التركمان فأجحف بأموالهم، وكان صلاح الدين على بانياس فسيّر ولد أخيه تقي الدين عمر إلى حماة

وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه إلى حمص وأمرهما بحفظ البلاد وحياطة أطرافها من العدو.



كان الصليبيون قد بنوا حصناً منيعاً على مقربةٍ من بانياس الجنوب عند بيت يعقوب عليه السلام، بمكانٍ يُعرف بمخاضة الأحزان فلما سمع صلاح الدين بذلك سار من دمشق إلى بانياس وأقام بها وبثّ الغارات في المناطق التي يُسيطر عليها الصليبيون ثم سار إلى الحصن ليخبره ثم يعود إليه عند اجتماع العساكر، فلما نازل الحصن قاتل من به من الصليبيين ثم عاد عنه إلى بانياس ولم يفارقها وخيله تُغير على الأعداء، وأرسل جماعةً من عسكره مع الذين يجلبون التموينات حمايةً لهم فلم يشعروا إلا والصليبيون مع ملكهم، فأرسلوا إلى صلاح الدين يخبرونه بالحال فسار إليهم مجداً في عسكره حتى وافاهم أثناء القتال فقاتل الصليبيون قتالاً

شديداً وحملوا على المسلمين عدة حملاتٍ كادوا يزيلونهم عن مواقعهم، ثم أنزل الله نصره على المسلمين فهزموا أعداءهم وقتلوا منهم مقتلةً كثيرةً ونجا ملكهم فريداً هارباً وأُسر منهم عدد كبير، منهم: ابن بيرزان صاحب الرملة ونابلس وهو الرجل الثاني عند الصليبيين بعد الملك، كما أُسر أخوه صاحب جبيل، وصاحب طبرية، ومقدم الداوية، ومقدم الاسبتارية، وصاحب جنين وغيرهم من مشاهير فرسانهم، فأما ابن بيرزان فإنه فدى نفسه بمائةٍ وخمسين ألف دينارٍ وإطلاق ألف أسيرٍ من المسلمين، وقد أبلى فرخ شاه ابن أخي صلاح الدين بلاءً حسناً يُذكر له، وعاد صلاح الدين من أرض المعركة إلى بانياس وتجهّز لدخول ذلك الحصن، فسار إليه في شهر ربيعٍ الأول سنة ٥٧٥هـ وأحاط به، وزحف المسلمون على الحصن بحماسةٍ تغمرهم روح الجهاد فخرقوا السور وألقوا فيه النار فسقط يوم الخميس لستٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ٥٧٥هـ ودخل المسلمون الحصن عنوةً وأسروا كل من فيه، وأطلقوا من كان به من أسرى المسلمين، وقتل صلاح الدين كثيراً من الأسرى وأدخل الباقين إلى دمشق. وكان الصليبيون في الحصن قد استنجدوا بإخوانهم فاجتمعوا في طبرية ليسيروا لحماية الحصن

ولنجدة إخوانهم وقبل أن يتحرّكوا لقصدهم جاءهم الخبر بدخول المسلمين ذلك الحصن ففتّ ذلك في عضدهم وخاصةً عندما بلغهم أن المسلمين قد رفعوا راية الجهاد وعلا تكبيرهم وتردّد صدى ذلك في المنطقة فتفرّق ما تجمّع من الصليبيين في طبرية.

ووقعت حرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وبين عسكر الملك قلج أرسلان صاحب بلاد قونية وسط الأناضول، وذلك أن نور الدين محمود كان قد أخذ من قلج أرسلان حصن رَعْبان[1]، وسلّمه إلى شمس الدين ابن المقدم ولا يزال معه، فلما توفي نور الدين محمود، ورأى قلج أرسلان عدم الاتفاق بين الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين وبين صلاح الدين

---

(١) رَعْبان: مدينة بالثغور بين حلب وسُمَيساط قرب الفرات وتعدّ من العواصم، وهي قلعة تحت جبل خرّبتها الزلازل سنة ٣٤٠هـ، فبعث سيف الدولة الحمداني ابن عمه أبا فراس في قطعةٍ من الجيش فأعاد عمرانها في سبعةٍ وثلاثين يوماً. وفي كتاب الفتوح بعث أبو عبيدة بن الجراح سنة ١٦هـ بعد فتح منبج عياض بن غَنْم إلى رعبان وذُلوك فصالحه أهلها على مثل صلح منبج واشترط أن يبحثوا عن أخبار الروم ويُكاتبوا بها المسلمين.

يوسف فطمع قلج أرسلان بحصن رعبان فأخذ يجمع العسكر فاجتمع لديه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألفاً فأرسل إليهم صلاح الدين ألف فارسٍ مع تقي الدين عمر فالتقى بهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد إلى صلاح الدين.

وعاد صلاح الدين يوسف سنة ٥٧٦هـ لقتال قلج أرسلان وذلك أن نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر كان قد تزوّج ابنة قلج أرسلان صاحب ملاطية وسيواس وقونية وبقيت عنده مدةً ثم إنه أحبّ مغنيةً فتزوجها ومال إليها فتحكّمت في بلاده وخزائنه وأعرض عن ابنة قلج أرسلان وتركها كالمعلّقة فبلغ أباها الخبر فعزم على نور الدين محمد وأخذ بلاده فأرسل نور الدين محمد إلى صلاح الدين يستنجده ويسأله كفّ يد قلج أرسلان عنه فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان في المعنى، فأعاد الجواب: إنني كنت قد سلّمت نور الدين محمد عدة حصونٍ تجاور بلاده لما تزوج ابنتي فحيث آل الأمر معه إلى ما يعلمه فأنا أريد أن يُعيد لي ما أخذه مني وترددت الرسل بينهما ولكن دون الوصول إلى تفاهمٍ واتفاقٍ فهادن صلاح الدين الصليبيين وسار في عساكره فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل إليه أكبر

أميرٍ عنده ويقول له: إن هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا ولا بد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه فلما وصل رسوله الأمير واجتمع بصلاح الدين وأدّى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للأمير: قل لصاحبك والله الذي لا إله إلا هو لئن لم يرجع لأسيرنّ إلى ملاطية وبيني وبينها يومان ولا أنزل عن فرسي إلا في البلد، ثم أقصد بلاده جميعها وآخذها منه، فرأى الرسول الأمير أمراً شديداً فقام من عنده، وكان قد رأى العسكر، وما هو عليه من القوة وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك، وليس عند قلج أرسلان ما يقارب ذلك فعلم إن قصدهم صلاح الدين أخذ بلادهم فأرسل إليهم من الغد يطلب أن يجتمع به فأحضره، فقال: أريد أن أقول شيئاً من عندي ليس رسالةً عن صاحبي وأحب أن تنصفني، فقال له: قل، قال: يا مولانا، أما هو قبيح بمثلك وأنت أعظم السلاطين وأكبرهم شأناً أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الصليبيين وتركت الجهاد ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامةً وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة من أجل مغنيةٍ؟ ثم ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الإسلام والعالم

كافةً، وأحسب أن أحداً ما يواجهك بهذا، أما يعلمون أن الأمر هكذا، ثم أحسب أن قلج أرسلان مات وهذه ابنته أرسلتني إليك تستجيرك وتسألك أن تنصفها من زوجها، فإن فعلت فهو الظنّ بك أن لا تردّها، فقال: والله الحق بيدك وإن الأمر لهو كما تقول، ولكن هذا الرجل دخل عليّ واستجار بي ويقبح بي تركه لكنك أنت اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ما تحبون وأنا أساعدكم عليه وأُقبّح فعله، ووعد من نفسه بكل جميل. فاجتمع الأمير الرسول بصاحب الحصن وتردّد القول بينهم، واستقر الرأي على أن يُخرج صاحب الحصن المغنية عنه بعد سنةٍ وإن لم يفعل يترك صلاح الدين نصرته ويكون هو وقلج أرسلان عليه واتفقوا على ذلك، وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام، ورجع نور الدين محمد إلى بلاده فلما انقضت المدة أخرج نور الدين محمد المغنية عنه فتوجّهت إلى بغداد وأقامت بها إلى أن ماتت.

بعد أن انتهى صلاح الدين من موضوع قلج أرسلان قصد ابن ليون الأرمني وذلك أن الأرمني كان قد استمال جماعةً من التركمان وبذل لهم الأموال وأمرهم أن يرعوا مواشيهم في البلدان التي تتبعه، وهي بلاد حصينة كلها حصون منيعة والدخول إليها صعب

لأنها مضايق وجبال وعرة ثم غدر بهم وسبى حريمهم وأسر رجالهم وأخذ أموالهم بعد أن قتل منهم من حان أجله، ونزل صلاح الدين على النهر الأسود وبثّ الغارات في بلاده فخاف ابن ليون الأرمني على حصنٍ له في رأس جبلٍ أن يؤخذ فخرّبه وأحرقه فسمع صلاح الدين بذلك فأسرع السير إليه فأدركه قبل أن ينقل ما فيه من ذخائر وأقوات فغنمها وانتفع المسلمون بما غنموه فأرسل ابن ليون يبذل إطلاق من عنده من الأسرى والسبي وإعادة أموالهم على أن يعودوا عن بلاده فأجابه صلاح الدين إلى ذلك واستقر الحال وأطلق الأسرى وأُعيدت أموالهم، وعاد عنه صلاح الدين في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٧٦هـ.

توفي سنة ٥٧٦هـ شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين الأكبر بالإسكندرية.

سار صلاح الدين في شهر شعبان سنة ٥٧٦هـ من الشام إلى مصر واستخلف بالشام عز الدين فرخ شاه ابن أخيه نور الدولة شاهنشاه وكان عاقلاً حازماً شجاعاً.

كان صاحب مدينة الكرك شرق جنوبي البحر الميت من الصليبيين يدعى (أرناط) ويُعدّ من شياطينهم ومن أشدهم حقداً على المسلمين، وفكر في غزو

المدينة المنورة مدينة رسول الله ﷺ، والاستيلاء عليها، فحشد ما أمكنه حشده من عسكرٍ وسلاحٍ وعتادٍ، وعزم المسير في البرّ إلى تيماء ومنها إلى المدينة فسمع عزّ الدين فرخ شاه نائب صلاح الدين بدمشق فجمع عساكره وسار إلى الكرك فنهبها وخرّبها وعاد إلى أطراف بلاده ليمنع أرناط من متابعة قصده فامتنع فعلاً وتوقّف، وبقي كل طرفٍ مقابل الآخر ويراقبه فلما طال مقام كل واحدٍ منهما علم أرناط أن المسلمين لا يعودون حتى يتفرّق جمعه فما كان منه إلا أن فرّق عسكره فارتحلوا إلى بلدانهم وانقطع طمعه من الحركة فرجع عندها عز الدين فرخ شاه إلى دمشق.

بعد وفاة شمس الدولة تورانشاه بالإسكندرية سنة ٥٧٦هـ اختلف نوابه في اليمن وعمّت الفوضى ووصلت الأخبار إلى صلاح الدين فسيّر أخاه سيف الإسلام طغدكين إلى بلاد اليمن وأمره بتملّكها فسار إليها وتمكّن، وأنهى الخلافات القائمة.

سار صلاح الدين من مصر إلى الشام في الخامس من شهر المحرم سنة ٥٧٨هـ فوصل إلى دمشق في الحادي عشر من شهر صفر من السنة نفسها، وكان مسيره عن طريق العقبة (أيلة) فسمع وهو في الطريق أن الصليبيين قد جمعوا له ليحاربوه ويصدّوه عن المسير

فلما قارب مناطقهم سيّر الضعفاء والأثقال مع أخيه تاج الملوك بوري إلى دمشق وبقي هو في العساكر المقاتلة فشنّ الغارات على أطراف المناطق التي تخضع لسيطرة الصليبيين وخاصةً على (الكرك) و(الشوبك) فلم يخرج إليه منهم أحد ولا أقدم على الدنو منه فتابع سيره إلى دمشق.

لما حشد الصليبيون جموعهم بالكرك لإعاقة مسير صلاح الدين أو لانتهاز فرصةٍ للنيل منه فخلت بذلك مناطقهم القريبة من الشام من حُماتها فسمع بذلك فرخ شاه ابن أخي صلاح الدين ونائبه على دمشق فجمع عسكر دمشق وسار بهم إلى مناطق السيطرة الصليبية فأغار عليها ونهب وقتل وأسر وسبى وغنم وفتح بعض المواقع ومنها: (الشقيف)[1] وكان على المسلمين منه أذى شديد ففرح المسلمون بفتحه فرحاً عظيماً، وأرسل عز الدين فرخ شاه إلى عمه صلاح الدين بالبشارة فلقيه

---

(١) الشقيف: كالكهف، وتوجد عدة مواقع تحمل الاسم نفسه، وللتمييز بينها ينسب أحدها إلى اسم موضع أو لاسم رجل، وهذا الشقيف المقصود يُسمّى: شقيف أرنون نسبة لرجلٍ روميّ، وهذا الشقيف قلعة حصينة جداً في كهفٍ من الجبل قرب بانياس الجنوب بينها وبين الساحل. وهناك شقيف تيرون وهو حصن منيع بالقرب من صور.

في الطريق، وفتّ ذلك في عضد الصليبيين وانكسرت شوكتهم.

لما وصل صلاح الدين إلى دمشق أقام أياماً يريح ويستريح ثم سار إلى الصليبيين في شهر ربيع الأول سنة ٥٧٨هـ فقصد طبرية فنزل بالقرب منها، وخيّم بالأقحوانة من الأردن وجاء الصليبيون بجموعهم فنزلوا بطبرية فسيّر صلاح الدين عز الدين فرخ شاه ابن أخيه إلى بيسان فدخلها قهراً وغنم ما فيها وقتل وسبى وشنّ على الغور غارةً شعواء وأخذ قتلاً وأسراً بمن يقيم به من الصليبيين، وجاءت الأعراب فأغارت على جنين واللجون حتى قاربوا مرج عكا. وسار الصليبيون من طبرية في سفوح جبل كوكب فتقدّم صلاح الدين إليهم وأرسل العساكر عليهم يرمونهم بالنشّاب فلم يبرحوا مكانهم ولم يتحرّكوا لقتالٍ فأمر ابني أخيه تقي الدين عمر وعز الدين فرخشاه فحملا على الصليبيين فيمن معهما فقاتلوا قتالاً شديداً، ثم إن الصليبيين انسحبوا، فلما رأى صلاح الدين ما ناله منهم تركهم ورجع عنهم إلى دمشق.

سار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت وكان قد أمر الأسطول المصري بالإقلاع إليها فوصل إليها ونزل العسكر من المراكب فأغاروا على البلد، ووافاهم

صلاح الدين براً وأخذ عسكره ما أمكنهم أخذه وحاصرها عدة أيامٍ وكان عازماً على الاستمرار بحصارها حتى يفتحها غير أنه قد وصلت إليه أخبار بأن البحر قد ألقى جمعاً عظيماً من الإفرنج إلى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسر من بها من العسكر ألفاً وستمائة وستاً وسبعين أسيراً بعد أن غرق كثير منهم. أرسل صاحب حران مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي بن بكتكين إلى صلاح الدين وهو يحاصر بيروت يُعلمه أنه معه ومحب لدولته ووعده بنصره إذا عبر الفرات ويطمعه في البلاد ويحثّه على الوصول إليه فسار صلاح الدين عن بيروت ورسل مظفر الدين تترى إليه يحثّه على القدوم فجدّ صلاح الدين في السير مُظهراً أنه يريد حصار حلب تغطيةً لهدفه فلما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين فعبر الفرات واجتمع به فقصد البيرة وهي قلعة منيعة على الفرات من جهة الجزيرة الفراتية وهي قريبة من بلدة سميساط ولها رستاق واسع، وكان صاحبها قد سار مع صلاح الدين وفي طاعته، فعبر هو وعسكره الفرات على الجسر الذي عند البيرة، وكان عز الدين مسعود صاحب الموصل ومجاهد الدين قايماز لما بلغهما خبر وصول صلاح الدين إلى الشام قد جمعا العسكر وسارا إلى

نصيبين ليكونا على أهبةٍ واجتماعٍ لئلا يتعرّض صلاح الدين إلى حلب ثم تقدّما قليلاً فجاءهما أمر لم يكن في الحساب فلما بلغهما خبر عبور صلاح الدين الفرات عادا إلى الموصل، وأرسلا عسكراً إلى الرها يحميها ويمنعها، ولما عبر صلاح الدين الفرات راسل الملوك وأصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته فأجابه نور الدين محمد بن قرة أرسلان صاحب حصن كيفا إلى ما طلب منه إذ اتفقا أن يحاصر صلاح الدين مدينة آمد ويملكها ويسلّمها له، وسار صلاح الدين إلى مدينة الرها فحاصرها في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٨هـ وقاتلها أشدّ قتالٍ فاضطر صاحبها فخر الدين مسعود الزعفراني إلى التسليم وطلب الأمان وسلّم البلد وصار في خدمة صلاح الدين وتابع زحفه إلى قلعتها فسلّمها إليه أميرها على مالٍ أخذه فلما ملكها سلّمها إلى مظفر الدين ثم سار عنها إلى حران فالرقة فلما وصل إلى الرقة كان بها الأمير قطب الدين ينال بن حسّان المنبجي فتركها وسار عنها إلى عز الدين أتابك وملكها صلاح الدين وسار إلى منطقة الخابور فملكها ومنها قرقيسيا فلما استولى على ذلك اتجه إلى نصيبين فأخذ المدينة مباشرةً وبقيت القلعة فحاصرها عدة أيامٍ فملكها أيضاً وأقام بها ليصلح شأنها ثم

سلّمها لأميرٍ كان معه يدعى أبا الهيجاء السمين وسار عنها ومعه نور الدين محمد صاحب حصن كيفا فأتاه الخبر أن الصليبيين قد قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا إلى داريا وأرادوا هدم جامعها فأرسل إليهم نائب صلاح الدين بدمشق جماعةً من النصارى يقول لهم: إن هدمتم الجامع جدّدنا عمارته وهدّمنا كل كنيسةٍ في بلادنا ولا نمكّن أحداً من عمارتها فتركوه.

بعد أن ملك صلاح الدين نصيبين جمع أمراءه وأصحاب الرأي عنده وسألهم بأي البلاد نبدأ بالموصل أم بسنجار أم بجزيرة ابن عمرو فتباينت الآراء فقال له مظفر الدين كوكبري بن زين الدين لا ينبغي أن نبدأ بغير الموصل فإنها في أيدينا ولا مانع لها فإن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع الجبلية ووافقه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ابن عم صلاح الدين وكان قد بذل لصلاح الدين مالاً كثيراً ليقطعه الموصل إذا ملكها وقد أجابه صلاح الدين فسار إلى الموصل، وكان عز الدين مسعود صاحب الموصل ومجاهد الدين قايماز نائبه قد جمعا بالموصل العساكر الكثيرة ما بين فارسٍ وراجلٍ ومن السلاح والعتاد الشيء الكثير كما استعدوا وشحنوا سنجار وإربيل

وجزيرة ابن عمرو ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وسار صلاح الدين حتى قارب الموصل فانفرد هو وابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، ومظفر الدين ومعهم نفر من أعيان دولته واقتربوا من بلد الموصل فرأوا استعداد أهلها والمسؤولين بها فهالهم ذلك فعلموا أنهم لا يستطيعون أخذها وأنهم سيعودون خائبين، فقال صلاح الدين لمظفر الدين وناصر الدين غررتماني وأطمعتماني في غير مطمعٍ ولو قصدت غيره قبله لكان أسهل أخذاً بالاسم والهيبة التي حصلت لنا ومتى نازلنا هذا البلد وعدنا عنه تنكسر نفوسنا ويفلّ حدّنا وشوكتنا ثم رجع إلى معسكره وفي صباح اليوم التالي نازل البلد وذلك في شهر رجب سنة ٥٧٨هـ، وقد نزل صلاح الدين مقابل باب كنده، ونزل نور الدين محمد صاحب حصن كيفا مقابل باب الجسر، ونزل تاج الملوك بوري أخو صلاح الدين مقابل باب العمادي وأنشب القتال فلم يظفر أحد، وخرج يوماً بعض العامة للقتال فنالوا قليلاً من عسكر صلاح الدين، ولم يسمح عز الدين مسعود ومجاهد قايماز لأحدٍ من العسكر بالخروج للقتال بل ألزماهم الأسوار، ثم إن تقي الدين عمر أشار على حمه صلاح الدين بنصب المنجنيق فقال: مثل هذا البلد لا ينصب عليه منجنيق وفيه هذا العدد الكثير، فألحّ عليه

تقي الدين عمر، وقال: نُجرّب فنصب منجنيقاً فنُصب عليه من البلد تسعة منجنيقات، وخرجت جماعة من العامة فأخذوه وجرى عنده قتال شديد، وتردّدت الرسل إلى عز الدين ومجاهد الدين في الصلح فطلب عز الدين إعادة البلدان التي أُخذت منهم فأجاب صلاح الدين بشرط أن تُسلّم إليه حلب فامتنع عز الدين ومجاهد الدين، ثم نزل عز الدين عن ذلك وأجاب إلى تسليم البلاد بشرط أن يتركوا إنجاد صاحب حلب عليه فلم يُجاب إلى ذلك أيضاً وقال عز الدين: هو أخي وله العهود والمواثيق ولا يسعني أن أنكثها، ووصلت رسل للصلح من صاحب أذربيجان ومن صاحب خلاط ولكن لم ينتظم أمر ولا تمّ صلح. فلما رأى صلاح الدين أنه لا ينال من الموصل غرضاً ولا يحصل على غير العناء والتعب ارتحل عنها.

سار صلاح الدين من الموصل إلى سنجار فسيّر مجاهد الدين قايماز إليها عسكراً قوةً لها ونجدةً فاعترض صلاح الدين سبيلهم وأوقع بهم وأخذ سلاحهم ودوابهم وسار إليها ونازلها وألقى الحصار عليها فكاتبه بعض أمراء الأكراد الزرزارية الذين يدافعون عن سنجار وأشار إليه بقصده من الناحية التي هو بها ليسلّم إليه البلد فطرقه صلاح الدين ليلاً فسلّم إليه ناحيته

فلما سمع شرف الدين صاحب سنجار الخبر خضع وطلب الأمان فأجابه صلاح الدين وأمنه وملك البلد، وسار شرف الدين ومن معه إلى الموصل، واستقر وضع سنجار لصلاح الدين فاستناب بها سعد الدين بن معين الدين ورحل هو عنها.

سار صلاح الدين من سنجار إلى نصيبين فلقيه أهلها شاكين من أميرهم أبي الهيجاء السمين باكين من ظلمه متأسفين على دولة عز الدين وعدله فيهم فلما سمع صلاح الدين ذلك أنكر على أبي الهيجاء ظلمه وعزله عنهم وأخذه معه وسار إلى حران، وفرّق عسكره ليستريحوا وبقي مع جماعةٍ من خواصه وثقات أصحابه، وقد وصل إلى بلدة حران في أوائل شهر ذي القعدة سنة ٥٧٨هـ.

أرسل عز الدين مسعود صاحب الموصل إلى شاه أرمن صاحب خلاط يستنجده ويستنصره على صلاح الدين فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل في الشفاعة إليه بالكفّ عن الموصل وكل ما يتعلق بعز الدين فلم يجبه إلى ذلك وغالطه فأرسل إليه أخيراً مملوكه سيف الدين بكتمر الذي ملك خلاط بعد شاه أرمن فأتى صلاح الدين وهو يحاصر سنجار يطلب منه أن يتركها ويرحل عنها، وتهدّده إن لم يرحل وأنه

سيسير إليه ويقاتله فأبلغه سيف الدين بكتمر الشفاعة فسوّفه في الجواب رجاء أن يفتحها فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه رسالة التهديد وفارقه وهو غضبان، ولم يقبل منه صلةً، وأخبر صاحبه الخبر وخوّفه عاقبة الإهمال والتواني عن صلاح الدين.

سار شاه أرمن من خلاط إلى ماردين وصاحبها حينئذٍ قطب الدين بن نجم الدين وهو ابن أخت شاه أرمن وابن خال عز الدين وحموه، وانطلق عز الدين من الموصل في عسكره واجتمع مع شاه أرمن وكان صلاح الدين قد ملك سنجار وسار عنها إلى حران وفرّق عساكره فلما بلغه اجتماعهم بعث إلى تقي الدين عمر يستدعيه من حماة فوصل إليه مسرعاً وأشار عليه بالرحيل فرحل إلى رأس العين فلما سمعوا برحيله تفرّقوا فعاد شاه أرمن إلى خلاط واعتذر بأنه سيجمع العسكر ثم يعود، ورجع عز الدين مسعود إلى الموصل، وأقام قطب الدين بماردين، وسار صلاح الدين فنزل قريباً من ماردين، وكان ذلك في شهر ذي الحجة ٥٧٨هـ.

أخذ الأمير الصليبي أرناط صاحب الكرك يعمل في بناء قطع مراكب أسطولٍ بحريٍ في الكرك، ولما فرغ من ذلك جمع قطعه بعضها إلى بعض وحملها إلى

خليج العقبة (أيلة) وجمعها في وقتٍ سريعٍ وفرغ منها وسيّرها في البحر، وافترقت فرقتين فرقة رست على حصن العقبة (أيلة) تحاصره وتمنع أهله من ورود الماء فأصاب أهله شدة وضيق، وأما الفرقة الثانية فقد أبحرت مراكبها نحو عيذاب[1] فأفسد رجالها في السواحل ونهبوا وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار وباغتوا الناس في بلدانهم إذ لم يعهدوا بهذا البحر صليبياً لا تاجراً ولا محارباً. وكان بمصر الملك العادل أبو بكر بن أيوب ينوب عن أخيه صلاح الدين فأنشأ أسطولاً وسيّره وفيه جمع كثير من المسلمين ومقدّمهم حسام الدين لؤلؤ الحاجب وهو متولي الأسطول بديار مصر، فسار مجدّاً في طلبهم فابتدأ بالذين على العقبة (أيلة) فانقضّ عليهم وقاتلهم فقتل بعضهم وأسر الباقي، وانطلق بعدها إلى الذين قصدوا عيذاب فلم ير لهم أثراً حيث كانوا قد غادروا عيذاب إلى ميناء آخر لينهبوا ويفسدوا كما فعلوا فيه وكانوا عازمين على دخول الحجاز مكة المكرمة والمدينة المنورة وأخذ الحاج ومنعهم عن البيت الحرام

---

(١) عيذاب: ميناء على البحر الأحمر على السواحل الغربية منه ترسو فيه المراكب قادمةً من جهات عدن إلى منطقة الصعيد.

والمسير بعد ذلك إلى اليمن، فلما وصل حسام الدين لؤلؤ إلى عيذاب ولم يرهم سار يقتفي أثرهم فبلغ رابغ وساحل الجوزاء[1] فأدركهم بساحل الجوزاء فأوقع بهم هناك فلما أيقنوا بالهلاك نزلوا إلى البر واعتصموا ببعض تلك الشعاب فنزل حسام الدين لؤلؤ من مراكبه إليهم وقاتلهم أشدّ قتالٍ وأخذ خيلاً من الأعراب الذين هناك فامتطاها وقاتلهم فرساناً ورجالةً فظفر بهم وقتل أكثرهم وأخذ الباقين أسرى فأرسل بعضهم إلى مِنى لينحروا بها عقوبةً لمن رام إخافة حجاج بيت الله الحرام، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلهم جميعاً.

توفي في شهر جمادى الأولى سنة ٥٧٨هـ عز الدين فرخشاه ابن أخي صلاح الدين شاهنشاه، وكان عز الدين فرخشاه ينوب عن عمه صلاح الدين بدمشق، ولما وصل خبر موته إلى صلاح الدين أعاد شمس الدين محمد ابن المقدم إلى دمشق وكان معه عندما عبر نهر الفرات إلى الجزيرة الفراتية، أعاده ليكون مقدماً على عسكرها.

سار صلاح الدين من المكان الذي نزل به قرب

(١) ساحل الجوزاء: الساحل الذي جنوب رابغ ويمتد إلى جنوب دهبان.

ماردين إلى آمد (ديار بكر ـ اليوم) وكان نور الدين محمد بن قره أرسلان يطالبه في كل وقتٍ بقصدها وأخذها وتسليمها إليه بناءً على اتفاقٍ سابقٍ بينهما فوصل إليها في السابع عشر من شهر ذي الحجة سنة ٥٧٨هـ وأقام يحاصرها، وكان متولي أمرها والحاكم فيها بهاء الدين بن نيسان ولم يكن لصاحبها معه شيء من الأمر، فلما نازلها صلاح الدين لم يحسن بهاء الدين التدبير من حيث تقديم السلاح والذخيرة والمال للمقاتلين من أهل البلد، وقاتلهم صلاح الدين ونصب المنجنيقات عليها وهي حصينة منيعة ويُضرب المثل بقوة سورها غير أن أهلها قد بدا عليهم التهاون والرغبة بالسلامة لسوء تصرّف المتحكم فيها بهاء الدين بن نيسان بل ويحبون انقراض عهده وزوال سلطانه، وأمر صلاح الدين أن يُكتب على السهام لأهل البلد يعدهم الخير والإحسان إن أطاعوه ويتهددهم إن قاتلوه فزادهم ذلك تخاذلاً في المقاومة وحباً لملك صلاح الدين وتركوا القتال وزادوا في مطالبة بهاء الدين، ووصل النقّابون في عسكر صلاح الدين إلى السور فنقبوه، فلما رأى العسكر وأهل البلد ذلك زادت مطالبهم فما كان من بهاء الدين إلا أن عمل على طلب الأمان له ولأهله وماله وأن يؤخّره ثلاثة أيامٍ لينقل ما يملك من مالٍ

ومتاعٍ فأجابه صلاح الدين فسلّم البلد في شهر المحرم سنة ٥٧٩هـ وأخرج خيامه إلى خارج البلد وأخرج بعض ما يريد إخراجه قبل مضي الأيام الثلاثة وطلب المساعدة من صلاح الدين فأمر له بالرجال والدواب ليأخذ ما يريد ولكن لم يستطع وبقي له الكثير. وتسلّم صلاح الدين البلد وسلّمها لصاحب حصن كيفا نور الدين محمد.

بعد أن انتهى صلاح الدين من أمر آمد (ديار بكر) سار إلى الشام فعبر نهر الفرات واتجه إلى تلّ خالد وهو من أعمال حلب فحاصره ورماه بالمنجنيق فنزل أهله وطلبوا الأمان فأمنهم وتسلّم تل خالد في شهر المحرم أيضاً ثم سار إلى بلدة عينتاب فحاصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد وهو أخو الشيخ إسماعيل الذي كان خازن نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وصاحبه وكان قد سلّمها إليه نور الدين فبقيت معه إلى الآن فلما نازله صلاح الدين أرسل إليه يطلب أن يقرّ الحصن بيده وينزل إلى خدمته ويكون تحت حكمه وطاعته فأجابه صلاح الدين إلى ذلك وحلف له عليه فنزل إليه وصار في خدمته وذلك في شهر المحرم سنة ٥٧٩هـ.

تحرّك أسطول مصر في البحر في العاشر من شهر المحرم سنة ٥٧٩هـ فالتقى بقطعٍ بحريةٍ للصليبيين عليها

نحو ثلاثمائةِ رجلٍ بالسلاح التام ومعهم الأموال والسلاح إلى الصليبيين بالساحل فاقتتلوا فانتصر المسلمون وأخذوا الصليبيين أسرى فقتلوا بعضهم وأبقوا الآخرين بالأسر وغنموا ما معهم وعادوا إلى مصر سالمين.

وتحرّكت جماعة من الصليبيين نحو مصر تريد الإغارة للنهب والإفساد فسمع المصريون بذلك فخرجوا إليهم على طريق أيلة فانسحب الصليبيون أمامهم ونزلوا على ماءٍ يقال له (العسيلة) وتلك الجهات لا ماء فيها فيريد الصليبيون أن يسيطروا على منطقة الماء ويجعلوا المسلمين هلكى من العطش حيث يمكن القضاء عليهم أو يتراجعون على تعبٍ فيمكن الظفر بهم فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك فرأوا أن الصليبيين قد ملكوا الماء فتضرعوا إلى الله فأغاثهم برحمةٍ منه وفضلٍ إذ جاءت سحابة عظيمة وأنزلت الغيث حتى ارتووا، وكان الوقت وقت قيظٍ والحرّ شديد في برٍ مهلكٍ فلما رأى المسلمون ذلك قويت نفوسهم ووثقوا بنصر الله وقاتلوا الصليبيين بحماسةٍ فنصرهم الله عليهم وقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد، وغنم المسلمون ما معهم من مالٍ وسلاحٍ ودواب، وعادوا قاهرين منصورين بفضل الله.

سيطرة صلاح الدين على حلب:

سار صلاح الدين من عينتاب إلى حلب ونزل عليها في شهر المحرم أيضاً سنة ٥٧٩هـ وأقام عليها عدة أيامٍ والقتال مستمر بين العسكرين، وكان صاحب حلب عماد الدين زنكي (الثاني) ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي ومعه العسكر النوري وهم يقاتلون بحماسةٍ ويدافعون بشجاعةٍ ولما رأى كثرة النفقات وزيادة طلبات العسكر مال إلى تسليم حلب وأخذ العوض عنها وأرسل مع الأمير طمان الياروقي ـ وكان يميل إلى صلاح الدين ـ أن يسلّم حلب ويأخذ عوضاً عنها سنجار، ونصيبين، والخابور، والرقة، وسروج وجرت اليمين على ذلك فنزل عنها في الثامن عشر من شهر صفر سنة ٥٧٩هـ وتسلّمها صلاح الدين فعجب الناس كلهم من تصرّف عماد الدين وأسمعه بعضهم كلاماً، واستقرّ ملك صلاح الدين بملك حلب، وسار عماد الدين إلى البلاد التي أُعطيت له فتسلّمها وأخذ صلاح الدين حلب واستقر الحال بينهما أن عماد الدين يحضر في خدمة صلاح الدين بنفسه وعسكره إذا استدعاه لا يحتج بحجةٍ. ومن الأمور العجيبة والملفتة للانتباه أن محيي الدين ابن الزكي قاضي دمشق مدح صلاح الدين بقصيدةٍ جاء فيها:

وفتحكم حلباً بالسيف في صفرٍ
مُبشِّر بفتوح القدس في رجب

فكان فتح القدس بأمر الله في شهر رجب بعد أربع سنواتٍ (سنة ٥٨٣هـ). وقد قُتل على حلب أخو صلاح الدين الأصغر، وهو تاج الملوك بوري، وكان فارساً شجاعاً كريماً حليماً طُعن في ركبته فمات من أثر ذلك بعد الصلح.

دخول صلاح الدين بلدة حارم:

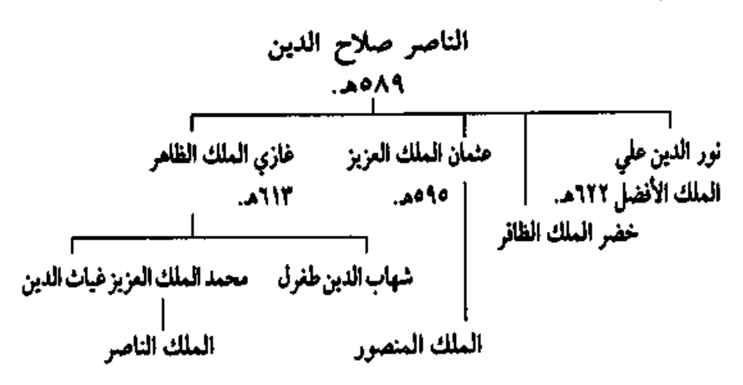
لما ملك صلاح الدين حلب كان بقلعة حارم، وهي من أعمال حلب، بعض مماليك نور الدين محمود واسمه (سرخك) فامتنع من تسليمها لصلاح الدين فراسله صلاح الدين وقال له: اطلب من الإقطاع ما أردت ووعده الإحسان فاشتط بالطلب وترددت الرسل بينهما فراسل سرخك الصليبيين ليحتمي بهم، فسمع من معه من الأجناد أنه يراسل الصليبيين فخافوا أن يُسلّمها لهم فوثبوا عليه وقبضوا عليه وسجنوه وراسلوا صلاح الدين يطلبون منه الأمان والإنعام فأجابهم إلى ما طلبوا فسلّموا إليه الحصن، فجعل عليه بعض خواصه، وكذا رتّب أمور باقي قلاع حلب. وأقام صلاح الدين بحلب إلى أن نظّم أمورها وأقطع أعمالها، وأرسل منها

فجمع العساكر من جميع البلاد التابعة له. وجعل في حلب ولده الملك الظاهر غازي، وهو صبي وجعل معه الأمير سيف الدين يازكج، وكان أكبر أمراء الأسدية.

جهاد صلاح الدين:

بعد أن فرغ صلاح الدين من أمر حلب وغدت مصر والشام تحت سلطانه وأحاط بأكثر البلاد التي يسيطر عليها الصليبيون إذ صار معظمها بين مصر والشام فرأى أن يوجّه اهتمامه إلى الجهاد بقتال الصليبيين فسار من حلب إلى دمشق وتجهّز للجهاد ومعه عساكر الشام وديار بكر والجزيرة الفراتية واتجه إلى الصليبيين فعبر نهر الأردن في التاسع من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٧٩هـ فرأى أن أهل تلك النواحي قد فارقوها خوفاً فقصد بلدة بيسان وأغار عليها وعلى ما حولها فاجتمع الصليبيون وجاءوا للقائه فرأوا كثرة عساكره فلم يقدموا عليه فسار نحوهم فجعلوا جبلاً خلفهم وخندقوا عليهم فأحاط بهم، وأصبحت عساكره ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا من موقعهم وأقام المسلمون خمسة أيامٍ عليهم ثم رجعوا عنهم في السابع عشر من شهر جمادى الآخرة عسى أن يطمع الصليبيون ويخرجون فيستدرجونهم ليبلغوا منهم هدفاً، غير أن

الصليبيين لم يخرجوا فلم يكن لهم رغبة في غير السلامة، فأغار المسلمون على تلك الجهات يميناً وشمالاً وحصلوا على كثيرٍ من الغنائم، ثم رجعوا إلى الشام.



غزو الكرك:

رجع صلاح الدين وعسكره من غزوة بيسان إلى الشام ولم يلبثوا قليلاً حتى تجهّزوا من جديدٍ للجهاد وغزو الكرك، فسار صلاح الدين مع عسكره من دمشق إلى الكرك، وكتب إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب نائبه على مصر يأمره بالخروج بالعسكر جميعاً إلى الكرك. وكان الملك العادل قد أرسل إلى أخيه صلاح الدين يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه أهله وماله، فوصل صلاح الدين إلى الكرك في شهر رجب سنة ٥٧٩هـ

ووافاه أخوه الملك العادل في العسكر المصري فكثر جمعه وتمكّن من حصار الكرك ونصب عليه سبع منجنيقاتٍ كانت ترمي بالحجارة ليلاً نهاراً فلم تعمل شيئاً مؤثراً في ذلك الحصن المنيع فرحل عنه في منتصف شهر شعبان سنة ٥٧٩هـ، وسيّر تقي الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه إلى مصر نائباً عنه ليتولّى ما كان يتولّاه أخوه الملك العادل، واستصحب معه إلى دمشق أخاه الملك العادل وأعطاه مدينة حلب وقلعتها وأعمالها ومدينة منبج وما يتعلق بها، وسيّره إليها في شهر رمضان سنة ٥٧٩هـ، واستقدم منها إلى دمشق ولده غازي الملك الظاهر.

وعاد صلاح الدين فسار من دمشق إلى الكرك في شهر ربيع الثاني سنة ٥٨٠هـ وجمع عساكره فأتته من كل ناحيةٍ وممن أتاه نور الدين محمد بن قره أرسلان صاحب حصن كيفا، وكتب إلى مصر ليحضر عسكرها عنده على الكرك. فنازل الكرك وحاصره وضيّق على من به وأمر بنصب المنجنيقات على ربضه واشتدّ القتال فملك المسلمون الربض وبقي الحصن وهو والربض على جبلٍ واحدٍ إلا أن بينهما خندقاً عظيماً عمقه نحو ستين ذراعاً، فأمر صلاح الدين بردمه فلم يستطع أحد على الدنو منه لكثرة الرمي بالسهام والأحجار من

المنجنيقات، فأمر أن تُبنى سقائف باللبن والأخشاب ليتمكّن الرجال من المشي تحتها بسلامٍ ويردمون الخندق، وكانت منجنيقات المسلمين ترمي الحصن ليلاً ونهاراً. وأرسل من في الحصن من الصليبيين إلى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم ويعرفونهم عجزهم وضعفهم عن حفظ الحصن، فاجتمع الصليبيون وساروا إلى نجدتهم مسرعين فلما وصل خبر مسيرهم إلى صلاح الدين رحل عن الكرك إلى طريقهم ليلقاهم ويناازلهم ويعود بعد أن يهزمهم إلى الحصن، فاقترب منهم وخيّم ونزل ولم يمكنه الدنو منهم لخشونة الأرض وصعوبة المسالك إليهم وضيقها، فأقام أياماً ينتظر خروجهم من ذلك المكان ليتمكّن منهم فلم يبرحوا منه خوفاً على أنفسهم، فلما رأى ذلك رحل عنهم عدة فراسخ وجعل مقابلهم من يعلمه بمسيرهم فساروا ليلاً إلى الكرك، فلما رأى ذلك صلاح الدين علم أنه لا يتمكّن حينئذٍ ولا يبلغ غرضه فسار إلى مدينة نابلس وألحق الأذى أثناء سيره بأملاك الصليبيين، فلما وصل إلى نابلس قتل وأسر وسبى من أعدائه، ثم سار إلى سبسطية إلى الشمال من نابلس وبها كنيسة، وفيها جماعة من أسرى المسلمين فاستنقذهم ورحل إلى جنين فأخذ ما استطاع من أملاك الصليبيين ثم سار إلى دمشق

فبثّ السرايا في طريقه يميناً وشمالاً يغنمون ووصل إلى دمشق.

حصار صلاح الدين الموصل:

سار صلاح الدين من دمشق في شهر ذي القعدة سنة ٥٨٠هـ فوصل إلى حلب وأقام بها، وسار منها في شهر المحرم سنة ٥٨١هـ وعبر الفرات إلى أرض الجزيرة فلما وصل إلى حران قبض على مظفر الدين كوكبري بن زين الدين الذي كان سبب ملكه الجزيرة الفراتية وذلك أن مظفر الدين كان يراسل صلاح الدين كل وقتٍ ويشير عليه بالمسير إلى الموصل ويحسّن له ذلك حتى إنه بذل له إذا سار إليها خمسين ألف دينارٍ فلما وصل صلاح الدين إلى حران لم يفِ له بما وعد من المال فقبض عليه ووكّل به ثم أطلقه وأعاد إليه مدينتي حران والرها وكان قد أخذهما منه، وإنما أطلقه لأنه خاف انحراف الناس عنه ببلاد الجزيرة الفراتية لأنهم يعلمون بما قام به مظفر الدين معه من ملك البلاد فأطلقه، وسار صلاح الدين عن حران في شهر ربيع الأول سنة ٥٨١هـ، وحضر عنده عساكر حصن كيفا[1]،

---

(١) حصن كيفا: كيفا: بلدة وقلعة عظيمة تشرف على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمرو.

ودارا[١]، ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمرو، وهو ابن أخي عز الدين مسعود صاحب الموصل وكان قد فارق عمه عندما قبض على مجاهد الدين قايماز سنة ٥٧٩هـ، وسار صلاح الدين مع هذه العساكر إلى الموصل فلما اقتربوا منها أرسل عز الدين مسعود إلى صلاح الدين والدته ومعها ابنة عمه نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون منه الصلح وبذلوا له الموافقة والنجدة له بالعساكر إذا طلب ليعود عنهم، لأنه ومن عنده من رجال دولته ظنّوا أنهم إذا طلبوا الشام منه أجابهم إلى ذلك لا سيما معهم ابنة نور الدين محمود الذي رفع شأنه، فلما وصلوا إليه أنزلهم وأكرمهم، واستشار صلاح الدين أصحابه في طلب من قدم إليه فأشار بعضهم بإجابتهم إلى ما طلبوا، وقال له الفقيه عيسى وعلي بن أحمد المشطوب وهما من بلد الهكارية من أعمال الموصل: مدينة كالموصل لا تُترك لامرأةٍ،

---

(١) دارا: بلدة في وهدة جبل بين ماردين ونصيبين، وعندها كان معسكر دارا بن دارا بن قباذ لما لقيه الاسكندر المقدوني فقتله الاسكندر وتزوج ابنته، وبنى في موضع معسكره هذه المدينة وسماها باسمه.

فإن عز الدين مسعود ما أرسلهم إلا وقد عجز عن حفظ البلد، فأعاد صلاح الدين من قدم إليه واعتذر لهم بأن المسلمين يجب أن يكونوا جميعاً وحدةً إداريةً تتبع مسؤولاً واحداً هو الخليفة حتى يمكن مقارعة هؤلاء الصليبيين المعتدين الذين نغّصوا على المسلمين حياتهم، وعندما أعاد من جاء إليه من قبل صاحب الموصل عزّ الدين مسعود، تابع صلاح الدين سيره إلى الموصل ونزل على فرسخين منها، وكانت تحدث مناوشات بين الطرفين، وأخيراً رحل صلاح الدين عن الموصل دون أن يظفر بهدفه، وسار إلى ميافارقين في آخر شهر ربيع الثاني سنة ٥٨١هـ، وكان مما شجّعه على الرحيل وفاة شاه أرمن صاحب خلاط في التاسع من شهر ربيع الثاني سنة ٥٨١هـ، ووصل الخبر إلى صلاح الدين في العشرين من الشهر نفسه فعزم على الرحيل ليتملّك خلاطاً فإن شاه أرمن لم يخلّف ولداً كما لم يكن هناك أحد من أهل بيته يملك بلاده وإنما استولى عليها مملوك له اسمه بكتمر ولقبه سيف الدين فاستشار صلاح الدين أعيان دولته فمنهم من أشار بالملازمة على حصار الموصل، ومنهم من أشار بالرحيل وقصد خلاط إذ هي الآن ولاية لا حافظ لها فتردّد في أمره ولكن جاءه كتب جماعةٍ من أعيان خلاط

من أهلها وأمرائها يدعونه إليهم ليسلّموه البلد فسار عن الموصل، وكانت مراسلته خديعةً ومكراً وذلك أن صاحب أذربيجان وهمدان شمس الدين البهلوان بن إيلدكز قد قصدهم ليأخذ البلاد منهم، وكان قبل ذلك قد زوج شاه أرمن على كبر سنه إحدى بناته ليجعل ذلك طريقاً إلى ملك خلاط وأعمالها فلما بلغ أهل خلاط مسيره إليهم كاتبوا صلاح الدين إليهم ليسلّموا البلد ليدفعوا به البهلوان ويدفعوه بالبهلوان وتبقى البلد بأيديهم. فسار صلاح الدين وسيّر في مقدمته ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ومظفر الدين بن زين الدين وغيرهما فساروا إلى خلاط ونزلوا (بطوانة) بالقرب من خلاط، وسار صلاح الدين إلى (ميافارقين). وأما البهلوان فإنه سار إلى خلاط ونزل قريباً منها وترددت رسل أهل خلاط بينهم وبينه وبين عسكر صلاح الدين، ثم إنهم أصلحوا أمرهم مع البهلوان وصاروا من جماعته وخطبوا له.

وفاة صاحب حصن كيفا:

توفي نور الدين محمد بن قره أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وآمد وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٨١هـ وذلك عندما كان صلاح الدين يحاصر الموصل،

وخلّف نور الدين محمد ولدين فملك الأكبر منهما مكان أبيه واسمه (سقمان) ويُلقّب قطب الدين وقد تولّى تدبير أمور دولته وزيره القوام بن سماقا الأسعردي، وكان نور الدين محمد قد سيّر أخاه عماد الدين في عساكره إلى صلاح الدين وهو يحاصر الموصل فشارك معه في الحصار، فلما بلغه خبر وفاة أخيه نور الدين محمد سار ليملك البلاد بعده لصغر أولاد أخيه فتعذّر عليه ذلك فسار إلى (خرت برت)[1] فملكها، ولما حضر صلاح الدين إلى (ميافارقين) جاء إليه ولد نور الدين محمد فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد، وكانوا قد خافوا أن يأخذها منهم فلم يفعل وردّهم إلى بلادهم وشرط عليهم أن يراجعوه فيما يفعلونه ويصدرون عن أمره ونهيه، ورتّب معه أميراً من أصحاب أبيه ولقبه صلاح الدين.

احتلال ميافارقين:

لما سار صلاح الدين إلى خلاط جعل طريقه على ميافارقين حيث كان صاحبها قطب الدين صاحب

(١) خرت برت: اسم أرمني في أقصى ديار بكر، وهو المعروف بالعربي باسم حصن زياد، بينه وبين ملاطية مسيرة يومين وبينهما نهر الفرات.

ماردين قد توفي وملكها بعده ابنه وهو طفل، وكان حكمها شاه أرمن وعسكره فلما توفي شاه أرمن وجاء صلاح الدين فحاصرها وكانت مشحونةً بالرجال فأقام صلاح الدين على حصارها من أول جمادى الأولى سنة ٥٨١هـ، وكان المقدم على عسكرها أمير يسمى (يرنقش) ولقبه أسد الدين، وكان شجاعاً يحفظ البلد، واشتدّ القتال عليه ونصب المنجنيقات والعرادات فلم يصل صلاح الدين إلى ما يريد من البلد فلما رأى ذلك عدل عن القوة إلى الحيلة فبعث إلى امرأة قطب الدين المقيمة بالبلد وهي أخت نور الدين محمد الذي توفي، فقال: نحن نرعى حق أخيك نور الدين فيك بعد وفاته، ونريد أن يكون لك في الأمر نصيب، وأنا أزوج بناتك لأولادي وتكون ميافارقين لك وبحكمك، وبذا مال فريق من أهل البلد إلى صلاح الدين. وفي الوقت نفسه فقد وصل إلى صلاح الدين مبعوث من خلاط يبذلون له الطاعة، فدخل هذا المبعوث إلى ميافارقين وأخبر أسد الدين يرنقش بالذي جاء له فضعفت قوة حماة ميافارقين وأرسل أسد الدين يقترح أقطاعاً ومالاً فأُجيب إلى ذلك وسلّم البلد في نهاية شهر جمادى الأولى سنة ٥٨١هـ.

مصالحة صلاح الدين للموصل:

لما فرغ صلاح الدين من أمر ميافارقين وأحكم قواعدها وقرّر أقطاعاتها وولاياتها قرّر العودة إلى الموصل فسار نحوها وجعل طريقه على نصيبين فوصل إلى (كفر زمار) من قرى الموصل والوقت شتاء فنزل فيها وعزم على الإقامة وذلك في شهر شعبان سنة ٥٨١هـ، فأقام بها شعبان ورمضان وترددت الرسل بينه وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل بالصلح، وأصاب المرض صلاح الدين فعاد من كفر زمار إلى حران فتبعه الرسل بالإجابة إلى ما طلب فتقرر الصلح وحلف علي ذلك وكان الاتفاق على أن يسلّم إليه ولاية شهرزور وجميع ما وراء نهر الزاب، وأن يخطب له على منابر بلاده، وأن يضرب اسمه على السكة، وأرسل صلاح الدين رسله إلى عز الدين فحلف له، وتمّ تسليم ما جرى الاتفاق عليه.

ووصل صلاح الدين إلى حران واشتد مرضه وكان عنده من أهله أخوه الملك العادل وله حينئذٍ حلب، وولده الملك العزيز عثمان، وزاد مرضه حتى أيس أهله من عافيته فحلف الناس لأولاده وجعل لكلٍ منهم شيئاً من البلاد وجعل أخاه الملك العادل وصياً على الجميع، ثم إنه عوفي وعاد إلى دمشق في شهر المحرم

سنة ٥٨٢هـ. ولما كان مريضاً بمدينة حران كان عنده ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه وله من الأقطاع حمص والرحبة فسار من عنده إلى حمص فمرّ على حلب وكان هناك جماعة من أهل دمشق واتفقوا على تسليم بلدهم إليه إذا مات صلاح الدين، وأقام ناصر الدين محمد بحمص ينتظر موت صلاح الدين ليسير هو إلى دمشق فيملكها فعوفي صلاح الدين، ووصل الخبر إلى ناصر الدين فلم يمض غير قليلٍ حتى توفي ناصر الدين ليلة عيد الأضحى سنة ٥٨١هـ، وخلفه على أقطاعه ولده شيركوه بن ناصر الدين محمد.

فتنة بين التركمان والأكراد:

وقعت فتنة سنة ٥٨١هـ بين الأكراد والتركمان في ديار الجزيرة الفراتية وديار بكر والموصل وشهرزور وأذربيجان والشام ودامت عدة سنواتٍ وذهب ضحيتها الكثير من الطرفين ونُهبت الأموال وتقطعت الطرق وكلها لأسبابٍ تافهةٍ ثم إن مجاهد الدين قايماز جمع عنده جمعاً من رؤساء الطرفين وأصلح بينهم وجاد عليهم، وانتهت الفتنة.

تنقّلات إدارية:

استدعى صلاح الدين ولده نور الدين علي الملك

الأفضل من مصر إلى دمشق وأقطعها له، وأخذ حلب من أخيه أبي بكر الملك العادل وسيّره مع ولده عثمان الملك العزيز إلى مصر وجعله نائباً له، كما استدعى من مصر تقي الدين عمر الملك المظفر وهو ابن أخيه شاهنشاه نور الدولة وسبب ذلك أنه كان قد استناب تقي الدين بمصر وجعل معه ولده الأكبر نور الدين علي الملك الأفضل فأرسل تقي الدين يشكو من ابن عمه نور الدين علي ويذكر أنه عجز عن جباية الخراج معه، فأحضر ولده نور الدين علي وقال لتقي الدين لا تحتج بالخراج وغيره بحجةٍ، وتغيّر على تقي الدين إذ ظنّ أنه يريد إخراج نور الدين عليّ لينفرد بمصر حتى يملكها إذا مات صلاح الدين فاستدعى تقي الدين إلى الشام فامتنع عن الحضور وجمع العساكر ليسير إلى المغرب إلى قراقوش وكان قد استولى على برقة وجبل نفوسة وقد كتب إليه يرغّبه في تلك البلاد فتجهّز للسفر إليه فلما سمع ذلك صلاح الدين ساءه، وتوقّع إن أرسل إليه يمنعه لم يجبه فأرسل إليه يقول له: أريد أن تحضر عندي لأودعك وأوصيك بما تفعله، فلما حضر عنده أحسن إليه وزاد في أقطاعه حيث أعطاه حماة ومنبج والمعرة وكفرطاب وميافارقين بجميع أعمالها.

خلاف بين الصليبيين:

كان أمير طرابلس الصليبي هو ريموند بن ريموند الصنجيلي ويُعرف بـ(القومس)، وكان ذا رأيٍ صائبٍ وشجاعةٍ بين الصليبيين وقد تزوج بملكة الصليبيين في طبرية وانتقل إليها وأقام عندها، ومات ملك الصليبيين بالشام وأوصى بالملك إلى ابن أختٍ له وكان صغيراً فكفله القومس فقام بسياسة الملك وتدبيره فطمع بملك الشام ولكن الصغير مات فانتقل الملك إلى أمه وانتهى ما كان القومس يحدث نفسه به ويحلم به، وهو المُلك، ثم إن الملكة قد عشقت رجلاً من الصليبيين الذين قدموا وتزوجته ونقلت الملك إليه وجعلت التاج على رأسه وأحضرت البطارقة والقساوسة والرهبان وأعلمتهم أنها قد ردّت الملك إليه وأشهدتهم عليها بذلك فأطاعوه ودانوا له فعظم ذلك على القومس، وطولب بحساب ما جبى من أموالٍ مدة ولايته على الصبيّ الذي آل إليه الملك ثم مات فادّعى أنه أنفقه عليه وزاده ذلك نفوراً وجاهر بالمباينة والخلاف وراسل صلاح الدين وطلب منه المساعدة لبلوغ غرضه ففرح صلاح الدين والمسلمون لما وقع بين أعدائهم، ووعد صلاح الدين القومس بالنصر والعمل له ليكون ملكاً مستقلاً للصليبيين، وكان عنده أسرى من فرسان القومس

فأطلقهم، فحلّ ذلك عند القومس أعظم محلّ وأظهر طاعة صلاح الدين، ووافق القومس جماعة من الصليبيين فاختلفت بذلك كلمتهم وتفرّق شملهم، وهذا ما شجّع صلاح الدين للبدء بالتخطيط للقضاء على الصليبيين واستنقاذ بيت المقدس منهم.

قتال أرناط:

كان الصليبي أرناط صاحب الكرك من أبرز قادة الصليبيين وأخبثهم، وأشدّهم حقداً على الإسلام والمسلمين، وأكثرهم أذىً لهم لذا اتجه صلاح الدين نحوه يلقي الحصار عليه مرةً بعد مرةٍ ويُغير على مناطق سلطانه آناً بعد آنٍ حتى ضعف وذلّ أمام صلاح الدين وخشي وخاف منه على مكانته وعلى البلدان التي يسيطر عليها فطلب من صلاح الدين الصلح فأجابه إلى ذلك وهادنه ليقع الخوف في نفوس الصليبيين عامةً وتفترق كلمتهم بين مؤيّدٍ للصلح ومخالفٍ، وأخذت القوافل التجارية وغيرها تتردّد بين مصر والشام ذاهبةً وآيبةً، وجاءت قافلة وافرة الأموال كثيرة الرجال ومعها جماعة قليلة من الجند فغدر بهم أرناط وأخذهم عن آخرهم فأودعهم السجون وسطا على أموالهم ودوابهم وسلاحهم فأرسل إليه صلاح الدين يلومه ويُقبّح فعله

وغدره ويتوعّده إن لم يُطلق الأسرى ويُعيد الأموال فلم يُجب إلى ذلك وأصرّ على الامتناع فنذر صلاح الدين أن يقتله إن ظفر به.

كتب صلاح الدين إلى البلاد جميعها يستنفر الناس للجهاد فكتب إلى الموصل وأربيل وديار الجزيرة الفراتية وإلى مصر وسائر بلاد الشام يدعوهم إلى الجهاد ويحثّهم عليه ويأمرهم بالتجهّز له بغاية الإمكانات كافةً، ثم خرج من دمشق في أواخر شهر المحرم سنة ٥٨٣هـ ومعه عسكر دمشق وسوادها فسار إلى قرب النهر الأعوج وتلاحقت به العساكر الشامية فلما اجتمعوا جعل عليهم ولده نور الدين علي الملك الأفضل، وسار صلاح الدين مع فرقةٍ من العسكر إلى بصرى، وكان سبب مسيره وقصده بصرى أن الأخبار أتته أن الأمير أرناط صاحب الكرك يريد أن يقصد الحجاج ليأخذهم من طريقهم وأنه إذا فرغ من أخذ الحجاج يرجع إلى طريق العسكر المصري يصدهم عن الوصول إلى صلاح الدين، فسار إلى بصرى ليمنع أرناط من طلب الحجاج ويلزم بلده خوفاً منه، فلما سمع أرناط بقرب صلاح الدين من الكرك لم يفارقها وانقطع من نفسه عما طمع فيه فوصل الحجاج سالمين فلما وصلوا سار صلاح الدين إلى الكرك وبثّ سراياه من هناك على

ولاية الكرك والشوبك[1] وغيرهما فنهبوا وأحرقوا وخرّبوا وأرناط محصور لا يقدر المنع عن حصنه، كما أن سائر الصليبيين قد لزموا طُرق مناطقهم خوفاً من عسكر نور الدين علي الملك الأفضل فتمكّن فعل ما فعله أبوه من نهبٍ وقتلٍ وتخريبٍ.

الهجوم على عكا:

أرسل صلاح الدين إلى ولده نور الدين علي الملك الأفضل يأمره أن يرسل فرقةً من الجيش إلى عكا يُغيرون على جهات عكا فسيّر مظفر الدين كوكبري بن زين الدين صاحب حران والرها وأضاف إليه بعض الأمراء فساروا ليلاً وصبّحوا صفورية في أواخر شهر صفر سنة ٥٨٣هـ فخرج إليهم الصليبيون والتقوا معهم في معركةٍ فنصر الله المسلمين وانهزم الصليبيون وقُتل منهم جماعة وأُسر الباقون، وغنم المسلمون الكثير وعادوا سالمين مروراً بطبرية وبها (القومس) فلم ينكر ذلك.

ولما جاءت صلاح الدين البشرى بهزيمة الصليبيين

---

(١) الشوبك: بين الكرك ومعان والمسافة بين الشوبك وكلا البلدين واحدة تقريباً.

وقتل من قُتل منهم وأسر الباقين عاد عن الكرك إلى العسكر الذي مع ولده نور الدين علي، كما التحق بهم بقية الأمراء والعساكر وساروا جميعاً وقد بلغ عددهم ما يقرب من اثني عشر ألف فارس، ونزلوا بالأقحوانة قرب طبرية. ولما رأى الصليبيون تصميم المسلمين على غزوهم أرسلوا إلى القومس صاحب طبرية البطارقة والقساوسة والرهبان وكثيراً من الفرسان فأنكروا عليه انتماءه إلى صلاح الدين وقالوا له: لا شك أنك أسلمت، وإلا لم تصبر على فعل المسلمين أمس بالصليبيين يقتلون منهم ويأسرون ويجتازون بهم عليك وأنت لا تنكر ذلك ولا تمتنع عنه ووافقهم على ذلك من عنده من عسكر طبرية وطرابلس وتهدّده البطرك أنه يحرمه ويفسخ عليه نكاح زوجته وما إلى ذلك من تهديدات، فلما رأى القومس شدة الأمر عليه خاف واعتذر وتنصّل وتاب فقبلوا عذره وغفروا زلّته وطلبوا منه موافقتهم على قتال المسلمين والمؤازرة على حفظ مناطق الصليبيين وأجابهم إلى المصالحة والانضمام إليهم والاجتماع بهم، وسار معهم إلى ملك الصليبيين واجتمعت كلمتهم بعد فرقتهم، وجمعوا فارسهم وراجلهم وساروا من عكا إلى صفورية ولكن قد ملئت قلوبهم رعباً.

فتح صلاح الدين طبرية:

لما سار الصليبيون إلى صفورية جمع صلاح الدين أمراءه واستشارهم فأشار أكثرهم بترك اللقاء وأن يُضعف الصليبيين بشنّ الغارات على مناطقهم والعمل على تخريبها مرةً بعد مرةٍ، فقال له بعض أمرائه: الرأي عندي أن نجوس مناطقهم وننهب ونخرب ونحرق ونسبي فإن وقف أحد من عسكر الصليبيين بين أيدينا قاتلناه فإن الناس بالمشرق يلعنوننا ويقولون تركوا قتال الكفار وأقبلوا يريدون قتال المسلمين والرأي أن نفعل فعلاً نُعذر فيه ونكفّ الألسنة عنا، فقال صلاح الدين: الرأي عندي أن نلقى بجمع المسلمين جمع الكفار فإن الأمور لا تجري بحكم الإنسان ولا نعلم قدر الباقي من أعمارنا ولا ينبغي أن نفرّق هذا الجمع إلا بعد الجدّ بالجهاد. ثم رحل من الأقحوانة في اليوم الخامس من نزوله بها لسبعٍ بقين من شهر ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ فسار حتى خلّف طبرية وراء ظهره وارتقى جبلها وتقدم حتى اقترب من الصليبيين فلم ير منهم أحداً، ولا فارقوا خيامهم، فنزل وأمر العسكر بالنزول فلما جنّ عليهم الليل جعل مقابل الصليبيين من يمنعهم من القتال وسار هو بفرقةٍ من جنده إلى طبرية وقاتل من فيها ونقب بعض أبراجها وأخذ البلد عنوةً في ليلةٍ ولجأ من بها من

العساكر إلى القلعة التي لها فامتنعوا بها وفيها صاحبتها ومعها أولادها، فأحرق ما أحرق من البلد وخرب ما خرّب فلما سمع الصليبيون بنزول صلاح الدين إلى طبرية وتملّك البلد وأخذ ما فيها اجتمعوا للمشورة فأشار بعضهم بالتقدم إلى المسلمين وقتالهم وطردهم من طبرية، فقال القومس: إن طبرية لي ولزوجتي، وقد فعل صلاح الدين بالبلد ما فعل، وبقيت القلعة وفيها زوجتي، وقد رضيت أن يأخذ القلعة وزوجتي ومالنا بها ويعود، فوالله لو رأيت عساكر المسلمين قديماً وحديثاً فما رأيت مثل هذا العسكر الذي مع صلاح الدين كثرةً وقوةً وإذا أخذ طبرية لا يمكنه المقام بها فمتى فارقها وعاد عنها أخذناها، وإن أقام بها لا يقدر على المقام بها إلا بعساكره جميعها ولا يستطيعون على الصبر مدى الأيام بعيدين عن أوطانهم وأهليهم فيضطر إلى تركها والفتك بمن أسر منا، فقال له الأمير أرناط صاحب الكرك قد أطلت في إخافتنا من المسلمين ولا شك أنك تريدهم وتميل إليهم وإلا ما كنت تقول هذا، وأما قولك إنهم كثيرون فإن النار لا يضرها كثرة الحطب، فقال: أنا واحد منكم إن تقدمتم تقدمت وإن تأخّرتم تأخّرت وسترون ما يكون. فقوي عزمهم على التقدّم إلى المسلمين وقتالهم فرحلوا من معسكرهم الذي لزموه

واقتربوا من عسكر المسلمين، فلما سمع صلاح الدين بذلك عاد عن طبرية إلى عسكره وكان قريباً منهم وإنما كان قصده بمحاصرة طبرية أن يفارق الصليبيون مكانهم ليتمكّن من قتالهم، وكان المسلمون قد نزلوا على الماء والوقت وقت قيظٍ شديد الحر فأصاب الصليبيين العطش ولم يتمكّنوا من الوصول إلى ذلك الماء من المسلمين، وكانوا قد استهلكوا ما عندهم من ماءٍ في الخزانات، ولم يتمكّنوا من الرجوع خوفاً من المسلمين فبقوا على حالهم إلى اليوم التالي وهو يوم السبت وقد أخذ العطش منهم كل مأخذٍ، وأما المسلمون فقد طمعوا فيهم وكانوا من قبل يخافونهم فباتوا يُحرّض بعضهم بعضاً على الجهاد وأكثروا من التكبير والتهليل ليلتهم تلك، ورتّب السلطان صلاح الدين تلك الليلة الرماة ووزّع عليهم النشّاب.

موقعة حطّين:

أصبح المسلمون يوم السبت لخمسٍ بقين من شهر ربيع الثاني سنة ٥٨٣هـ فركب صلاح الدين وعسكره وتقدموا نحو الصليبيين وركب الصليبيون ودنا بعضهم من بعضٍ فاقتتلوا قتالاً شديداً وصبر الفريقان ووجّه الرماة المسلمون سهامهم على الصليبيين فقتلوا

كثيراً من خيولهم، وأخذ الصليبيون يقاتلون وهم يتجهون نحو طبرية لعلهم يردون الماء إذ أضناهم العطش فانتبه صلاح الدين إلى خطتهم فصدّهم عن مرادهم ووقف بالعسكر في وجههم وطاف على جنده يحثّهم على الجهاد ويأمرهم بالصبر لينالوا الظفر فحملوا حملةً قويةً على أعدائهم زعزعت نفوسهم وهزّت أركانهم، فلما رأى القومس صاحب طبرية شدّة الوطيس علم أنهم لا طاقة لهم أمام المسلمين فاتفق هو وجماعة وحملوا على من يليهم من المسلمين وكان المقدّم عليهم في تلك الناحية تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين فلما رأى حملة الصليبيين حملة مكروبٍ علم أنه لا سبب إلى الوقوف في وجههم فأمر أصحابه أن يفتحوا لهم طريقاً يخرجون منها، وكان بعض المتطوعة قد ألقى في تلك الأرض ناراً وكان الحشيش كثيراً وقد جفّ ويبس فاحترق وكانت ريح فحملت حرّ النار والدخان إليهم في تلك الطريق فاجتمع عليهم العطش وحرّ الوقت وحرّ النار والدخان وشدّة القتال فانهزم القومس ومن معه فلما رأى الصليبيون هزيمته سقط في أيديهم وكادوا يستسلمون ثم رأوا أنه لا ينجيهم من الموت إلا الإقدام عليه فحملوا حملةً متداركةً وكادوا يزيلون المسلمين على كثرتهم عن مواقعهم غير أن ما قُتل منهم في

حملتهم تلك قد فتّ في عضدهم وأوهن قواهم كثيراً فأحاط بهم المسلمون فارتقى من بقي من الصليبيين إلى تلٍّ بناحية حطين وأرادوا أن ينصبوا خيامهم ويحموا أنفسهم به فاشتدّ القتال عليهم من سائر الجهات ومُنعوا عما أرادوا ولم يتمكّنوا من نصب خيمةٍ سوى خيمة ملكهم لا غير، وأخذ المسلمون صليبهم الأعظم الذي يسمّونه صليب الصلبوت ويذكرون أن فيه قطعةً من الخشبة التي صلب عليها المسيح عليه السلام بزعمهم، فكان أخذه عندهم من أعظم المصائب عليهم وأيقنوا بعده بالقتل والهلاك هذا والقتل والأسر يعملان في فرسانهم ورجالتهم فبقي الملك على التل ومعه نحو مائة وخمسين فارساً من الفرسان المشهورين والشجعان المعروفين عندهم، فحمل هؤلاء حملةً منكرةً على المسلمين الذين يقابلونهم حتى ألحقوهم بصلاح الدين فتغيّر لون صلاح الدين فأمسك بلحيته وتقدّم بحماسةٍ وهو يصيح: كذب الشيطان فعاد المسلمون على الصليبيين بقوةٍ فهزموهم ـ بإذن الله ـ وسقطت خيمة ملكهم فنزل صلاح الدين عن جواده وسجد شكراً لله تعالى وبكى من فرحه، وكان الصليبيون قد نزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض حيث لم يجدوا طريقاً للخلاص مما هم فيه سوى ذلك فصعد المسلمون إليهم

فألقوا خيمة الملك وأسروهم عن بكرة أبيهم وفيهم الملك وأخوه والأمير أرناط صاحب الكرك، وصاحب جبيل، وما أُصيب الصليبيون منذ أن خرجوا على الساحل الشامي سنة ٤٩١هـ إلى الآن بمثل هذه الوقعة، فلما فرغ المسلمون منهم نزل صلاح الدين في خيمته، وأحضر ملك الصليبيين والأمير أرناط عنده، وأجلس الملك إلى جانبه وقد أهلكه العطش فسقاه ماءً مثلجاً فشرب وأعطى فضله للأمير أرناط فشرب، فقال صلاح الدين: إن هذا الملعون لم يشرب الماء بإذني فينال أماني، ثم كلم الأمير أرناط وقرّعه بذنوبه وعدّد عليه إساءاته المنكرة وقام إليه بنفسه فضرب رقبته فقتله، وقال: كنت نذرت مرتين أن أقتله إن ظفرت به إحداهما لما أراد المسير إلى مكة والمدينة والثانية لما أخذ القفل غدراً، فلما قتله وسُحب وأُخرج خارج الخيمة ارتعدت فرائص الملك فسكّن جأشه وأمّنه، وأما القومس صاحب طرابلس فإنه لما نجا من المعركة وصل إلى صور ثم قصد طرابلس ولم يلبث إلا أياماً قلائل حتى مات غيظاً على ما جرى للصليبيين ودينهم.

احتلال قلعة طبرية:

بعد أن هزم صلاح الدين الصليبيين في حطين أقام

بقية يومه بمكانه وأصبح اليوم التالي وهو نهار الأحد فسار إلى طبرية ونازلها فأرسلت صاحبتها تطلب الأمان لها ولأولادها وأصحابها ومالها فأجابها إلى ذلك فخرجت بالجميع فوفّى لها فسارت آمنةً، ثم أمر بالملك الأسير الذي معه وبجماعة من أعيان الأسرى فأرسلوا إلى دمشق، وجمع مائتي أسيرٍ من الذين لهم شوكة فأمر بضرب أعناقهم فضُربت فأراح الناس من شرهم، وكتب إلى نائبه بدمشق أن يقتل من دخل البلد منهم أسيراً، ففعل.

فتح عكا:

بعد أن انتهى صلاح الدين من طبرية سار عنها إلى عكا وقد صعد أهلها على سورها يظهرون الامتناع والدفاع فعجب صلاح الدين وعسكره من ذلك لأنهم علموا أن جند عكا من فارسٍ وراجلٍ قد ذهبوا بين قتيلٍ وأسيرٍ وأنه لم يسلم منهم إلا القليل إلا أنه نزل يومه بظاهرها وركب في اليوم التالي وصمّم الزحف على البلد وقتال أهله وبينما هو ينظر من أين يزحف ويقاتل إذ خرج كثير من أهل عكا يضرعون ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم وخيّرهم بين الإقامة والرحيل فاختاروا الرحيل خوفاً من

المسلمين وساروا عنها متفرقين وحملوا ما أمكنهم حمله من أموالهم وتركوا الباقي على حاله ودخل المسلمون إليها يوم الجمعة مستهل شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ، وصلّوا بها الجمعة في جامعٍ كان للمسلمين قديماً ثم جعله الصليبيون كنيسةً فأعاده صلاح الدين جامعاً. وهذه الجمعة أول جمعةٍ أُقيمت بالساحل الشامي بعد أن ملكه الصليبيون بعد اثنتين وتسعين سنةً، وسلّم صلاح الدين البلد إلى ولده نور الدين علي الملك الأفضل، وغنم المسلمون ما بقي مما لم يستطع الصليبيون حمله وكان كثيراً جداً فوُزّع على عسكر المسلمين، وأقام صلاح الدين عدة أيامٍ في عكا لإصلاح حالها وتقرير قواعدها.

ولما انتصر صلاح الدين على الصليبيين أرسل إلى أخيه الملك العادل أبي بكر بمصر يُبشّره بذلك ويأمره بالمسير إلى مناطق الصليبيين من جهة مصر بمن بقي عنده من عسكرٍ فسارع إلى ذلك وسار عن مصر فنازل حصن المجدل[1] ودخله عنوةً وغنم ما فيه، وكتب بذلك إلى صلاح الدين فكان بشارةً كبيرةً.

---

(١) المجدل: بين غزة واسدود وكان آنذاك يُعرف باسم (مجدل يابا).

أثناء إقامة صلاح الدين في عكا انطلق عسكره إلى عدة مدنٍ في مختلف الجهات فساروا إلى حيفا وقيسارية[1] وصفورية[2] ومعليا[3] والشقيف[4] والفولة وغيرها فملكوها وأسروا رجالها وسبوا نساءها وأخذوا الغنائم، كما سيّر صلاح الدين ابن أخيه تقي الدين عمر إلى تبنين[5] ليقطع التموينات عنها وعن صور، وسيّر كذلك حسام الدين عمر بن لاجين في عسكرٍ إلى نابلس فدخلها وحاصر قلعتها واستنزل من فيها بالأمان وتسلّم القلعة، وأقام أهل البلد به وأقرّهم على أملاكهم وأموالهم.

فتح يافا:

بعد أن ملك أبو بكر الملك العادل أخو صلاح الدين المجدل سار إلى مدينة يافا فحاصرها وملكها عنوةً بعد أن قتل وأسر وغنم.

---

(١) قيسارية: مدينة ساحلية بين حيفا ويافا وهي أقرب قليلاً إلى حيفا.

(٢) صفورية: قرب طبرية.

(٣) معليا: قريبة من طبرية.

(٤) الشقيف: حصن قرب صور.

(٥) تبنين: إلى الشرق من صور وعلى بعد خمسين كيلو متراً منها وإلى الجنوب قليلاً، وهي شمال بلدة بنت جبيل.

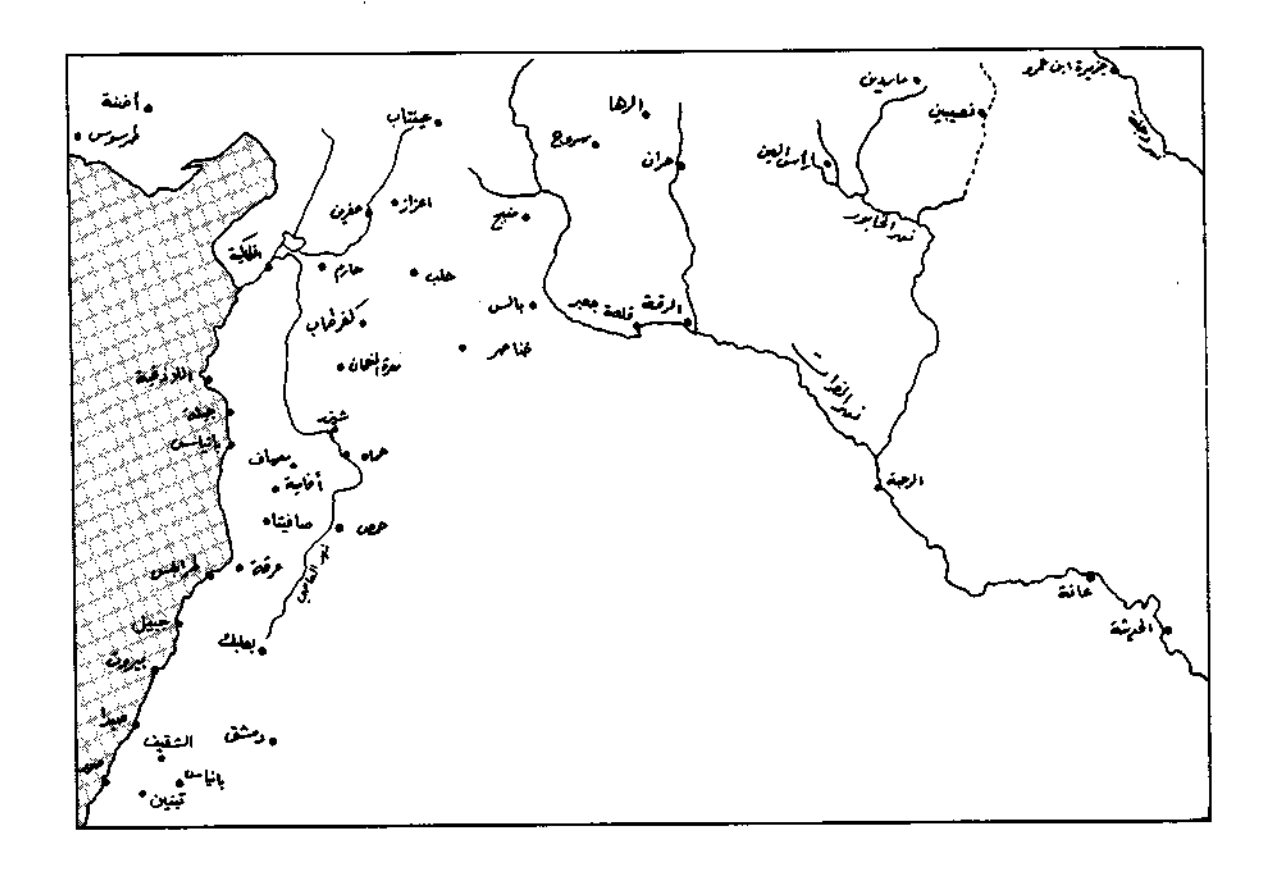
فتح المدن الساحلية:

لما وصل تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين إلى تبنين نازلها وأقام عليها وأراد حصارها غير أنه رأى أن حصارها يحتاج إلى عسكرٍ أكثر وقوةٍ أكبر وهذا يستدعي قدوم عمه صلاح الدين فأرسل إليه يعلمه الوضع ويرجوه القدوم إليه فرحل إليه في الثامن من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ ووصل إليه بعد ثلاثة أيامٍ فألقوا الحصار عليها وضيّقوا على أهلها وزحفوا عليها وهي من القلاع المنيعة على جبلٍ، فلما اشتدّ على أهلها الحصار أطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين وهم يزيدون على مائة رجلٍ فلما دخلوا معسكر المسلمين أحضرهم صلاح الدين وكساهم وأعطاهم نفقةً وسيّرهم إلى أهليهم. وبقي الصليبيون خمسة أيامٍ محصورين ثم أرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم على أنفسهم فسلّموه بلدهم ووفّى لهم وسيّرهم إلى مأمنهم.

سار صلاح الدين إلى صيدا بعد أن انتهى من تبنين فلما سمع صاحبها بمسير صلاح الدين نحوه رحل عنها وتركها من غير مدافعٍ عنها فلما وصل إليها تسلّمها لتسع بقين من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ، ثم تابع صلاح الدين سيره نحو بيروت

ووصل إليها فرأى أهلها قد صعدوا على سورها وأبدوا الاستعداد للقتال والذود عن البلد، وقاتلوا وتقدّم المسلمون نحوهم أكثر من مرةٍ وبينما كان القتال شديداً انهارت معنويات الصليبيين بعد أن سمعوا ضجةً من جهةٍ ثانيةٍ، وقيل لهم: إن المسلمين قد دخلوا بيروت من تلك الجهة، وبعد انهيار المعنويات وضعف المقاومة ما كان أمامهم سوى طلب الأمان فأُجيبوا إلى ما طلبوا بعد حصارٍ دام ثمانيةِ أيامٍ ودخل صلاح الدين بيروت في التاسع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٣هـ.

تابع صلاح الدين سيره إلى جبيل وكان صاحبها من جملة الأسرى الذين سيّروا إلى دمشق مع ملكهم، وتحدّث هناك مع نائب صلاح الدين على تسليم جبيل فأرسله النائب إلى صلاح الدين مُقيّداً وتحت الحراسة فوصل إلى صلاح الدين وهو في بيروت فسلّمه حصن جبيل وأطلق أسرى المسلمين الذين بالحصن، وأطلقه صلاح الدين كما شرط له. وكان هذا صاحب جبيل من أعيان الصليبيين وأصحاب الرأي والمكر، وكان من ألد أعداء الإسلام ومن أكثر الناس حقداً على المسلمين.



أضنة
طرسوس
عينتاب
عفرين
اعزاز
انطاكية
حارم
حلب
منبج
بالس
كفرطاب
خناصر
معرة النعمان
اللاذقية
جبلة
بانياس
شيزر
حماة
مصياف
أفامية
صافيتا
حمص
عرقة
طرابلس
نهر العاصي
جبيل
بيروت
بعلبك
صيدا
الشقيف
دمشق
بانياس
تبنين
الرها
سروج
حران
الرقة
قلعة جعبر
رأس العين
ماردين
نصيبين
جزيرة ابن عمر
نهر الخابور
نهر الفرات
الرحبة
عانة
الحديثة

مدينة صور:

كان القومس صاحب طرابلس قد فرّ من حطّين واتجه إلى صور فأقام بها متحصّناً إذ كانت تُعدّ أكثر الحصون مناعةً، فلما اقترب صلاح الدين من المنطقة مجاهداً وقد دانت له كثير من البلدان غادر القومس صور وسار إلى طرابلس فبقيت صور فارغةً لا مانع لها من المسلمين ولا عاصم فلو بدأ بها صلاح الدين لأخذها غير أنه كان يعرف مناعتها فأحب أن يملك ما حولها لتقوى معنويات عسكره وتضعف معنويات الذين في صور فيسهل عليه دخولها، وعلم قبل ذلك أن صور فارغة، واتفق أن رجلاً من الإفرنج قد قدم عن طريق البحر إلى الشام للتجارة والزيارة وأرسى مراكبه في ميناء عكا ولم يدرِ ماذا جرى ولكنه لم يسمع ضرب نواقيس، وكان صاحب عكا الأمير نور الدين علي الملك الأفضل بن صلاح الدين، فلما علم هذا الإفرنجي بالذي حدث، وأن صور لا تزال بيد الصليبيين وكذا عسقلان سار إلى صور، ويُقال له (المركيش)، فوصل إلى صور وقد اجتمع فيها أعداد كثيرة من الصليبيين لأن صلاح الدين كان كلما فتح مدينةً مثل عكا وبيروت وغيرهما أعطى أهلها الأمان فساروا كلهم إلى صور وكثر الجمع بها إلا أنهم ليس لهم رأس يجمعهم ولا

مُقدّم يُقاتل بهم كما أنهم ليسوا أهل حربٍ بل عزموا على مراسلة صلاح الدين وتسليم البلد إليه إذ رأوه أهل وفاءٍ، وأتاهم المركيش وهم على تلك الحال من العزم فردّهم عنه وقوّى نفوسهم وضمن لهم حفظ المدينة، وكان ذا مالٍ كثيرٍ، فبذل لهم منه وشرط عليهم أن تكون المدينة وأعمالها له دون غيره فأجابوه إلى ذلك فأخذ الأيمان عليهم، وأقام عندهم ودبّر أحوالهم، وشرع في تحصين المدينة فحفر خنادقها وعمل أسوارها وزاد في حصانتها واتفق مع من بها على الحفظ والقتال دونها.

فتح عسقلان[1]:

بعد هذا التقدم وهذا الفتح الذي تمّ للمسلمين ارتفعت معنوياتهم وغدت فكرة إنقاذ بيت المقدس أملهم القريب وفي الوقت نفسه فقد انهارت معنويات الصليبيين وتناقصت قوتهم وانكمشت مساحة ما اغتصبوا من أرضٍ، ونظر صلاح الدين إلى اتساع دولته وزيادة عسكره فرجا ربّه أن يتوّج عمله بإنقاذ بيت المقدس عسى أن يُتقبّل عمله وينال أجراً، ونظر إلى ما بقي

(١) عسقلان: بلد على الساحل بين غزة ويافا وهي إلى غزة أقرب.

أمامه من بلدان بيد الصليبيين فوجد أن مدينة عسقلان هي أكثرها أهميةً له إذ تفصل بين جزئي دولته مصر والشام ومن الأهمية بمكانٍ أن يتصل الجزآن ليسهل انتقال العسكر بينهما فسار من بيروت نحو عسقلان واجتمع بأخيه أبي بكر الملك العادل ومن معه من عساكر مصر ونازلوها يوم الأحد السادس عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ، وكان صلاح الدين قد أحضر إليه من دمشق أسيراه ملك الصليبيين ومقدم فرقة الداوية، وقال لهما: إن سلّمتما إليّ البلد فلكما الأمان فأرسلا إلى الصليبيين بعسقلان يأمرانهم بتسليم البلد فلم يسمعوا أمرهما وردّوا عليهما أقبح ردٍّ وجبهوهما بما يسوءهما فلما رأى صلاح الدين ذلك جدّ في قتال البلد ونصب المنجنيقات وتقدّم النقّابون إلى السور، وملكهم يكرر المراسلات إليهم بالتسليم ويشير عليهم ويعدهم أنه إذا أُطلق من الأسر أضرم البلاد على المسلمين ناراً واستنجد بالإفرنج من البحر وجلب الخيل والرجال من أقاصي بلاد الإفرنج وأدانيها وهم لا يجيبونه إلى ما يقول ولا يسمعون ما يشير به. ولكن رأوا أنهم يزدادون كل يومٍ ضعفاً ووهناً، وإذا قُتل منهم الرجل لا يجدون له عوضاً ولا ينتظرون نجدةً ولا يأملون دعماً فاضطروا إلى مراسلة صلاح الدين على تسليم البلد مقابل شروطٍ

اقترحوها فأجيبوا إلى ذلك وسلّموا المدينة في نهاية شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٣هـ، وكانت مدة الحصار أربعة عشر يوماً، وسيّرهم صلاح الدين ونساءهم وأولادهم وأموالهم إلى بيت المقدس ووفّى لهم بالأمان. وقام صلاح الدين بظاهر عسقلان يبثّ السرايا في البلاد ففتحوا الرملة والخليل وغزة وبيت جبرين[١]، وبيت لحم، والداروم[٢] والنطرون.

فتح بيت المقدس وإنقاذه:

لما فرغ صلاح الدين من عسقلان وما يجاورها من البلدان أرسل إلى مصر يأمر بخروج الأسطول في جمع من المقاتلة ومقدمهم حسام الدين لؤلؤ إلى وسط البحر ليقطعوا الطريق على الإفرنج كلما رأوا لهم مركباً أخذوه وإن كان أسطولاً قطعوا عليه الطريق ونازلوه فلما انطلق أسطول مصر إلى المهمة التي أُمر بها خرج صلاح الدين من عسقلان إلى بيت المقدس وكان به البطريق المعظم عندهم وهو أعظم شأناً من ملكهم، وبه أيضاً صاحب الرملة (باليان بن بيرزان) وكانت مكانته

---

(١) بيت جبرين: بين الخليل والمجدل.

(٢) الداروم: قلعة جنوب غزة بينها وبين البحر سبعة كيلو مترات ولكن يُرى البحر منها.

عندهم تقارب مكانة الملك، وبه أيضاً من نجا من فرسانهم من حطّين وقد جمعوا وحشدوا كما جاء أهل نواحي عسقلان وغيرها فاجتمعت أعداد كثيرة كلهم يرى الموت أيسر عليه من أن يملك المسلمون بيت المقدس ويأخذوه منهم، ويرى أن بذل نفسه وماله وأولاده بعض ما يجب عليه من حفظ بيت المقدس، فحصّنوه بما وجدوا إليه سبيلاً، وصعدوا على أسواره بإمكاناتهم كلها متعاهدين على الدفاع عنه بجهدهم وطاقتهم مظهرين العزم على النضال دونه حسب استطاعتهم ونصبوا المنجنيقات ليمنعوا من يريد الاقتراب منه والنزول عليه، ولما اقترب صلاح الدين منه تقدّم أمير من عسكره في جماعةٍ من أصحابه غير محتاطٍ ولا حذرٍ فلقيه جمع من الصليبيين قد خرجوا من القدس فقاتلوه وقاتلهم فقتلوه وقتلوا جماعةً ممن معه فأهمّ المسلمين قتله وفُجعوا بفقده وساروا حتى نزلوا على القدس في منتصف شهر رجب سنة ٥٨٣هـ فرأوا على السور من الرجال ما هالهم وسمعوا من الضجة من وسط المدينة ما استدلّوا به على كثرة الجمع، وبقي صلاح الدين خمسة أيامٍ يطوف حول المدينة لينظر من أين يُقاتل لأن البلد في غاية الحصانة والامتناع فلم يجد موضع قتال إلا من جهة الشمال نحو باب كنيسة صهيون فانتقل إلى

هذه الجهة في العشرين من شهر رجب ونزلها ونصب تلك الليلة المنجنيقات فأصبح من الغد وقد فرغ من نصبها ورمى بها، ونصب الصليبيون على سور البلد منجنيقاتٍ ورموا بها وقاتلوا أشدّ قتالٍ وكل واحدٍ من الفريقين يرى ذلك ديناً وحتماً واجباً فلا يحتاج فيه إلى باعثٍ سلطانيٍ بل كانوا يُمنعون ولا يمتنعون ويُزجرون ولا ينزجرون، وكانت خيَّالة الصليبيين يخرجون كل يومٍ إلى ظاهر البلد يُقاتلون ويُبارزون، فيُقتل من الفريقين، وكان ممن استشهد من المسلمين الأمير عز الدين عيسى بن مالك، وهو من أكابر الأمراء، وكان أبوه صاحب قلعة جعبر، وكان محبوباً إلى الخاص والعام فلما رأى المسلمون مصرعه عظُم عليهم ذلك وأخذ من قلوبهم فحملوا حملة رجلٍ واحدٍ فأزالوا الصليبيين عن مواقعهم فأدخلوهم البلد، ووصل المسلمون إلى الخندق وتجاوزوه ووصلوا إلى السور فنقبوه وزحف الرماة يحمونهم والمنجنيقات توالي الرمي لتُزيل الصليبيين عن الأسوار ليتمكّن المسلمون من النقب وتمّ النقب، فلما رأى الصليبيون شدّة قتال المسلمين وتحكّم المنجنيقات بالرمي وتمكّن النقّابين من النقب وأنهم قد أشرفوا على الهلاك اجتمع مقدموهم يتشاورون فيما يفعلون فاتفق رأيهم على طلب الأمان وتسليم بيت المقدس إلى

صلاح الدين فأرسلوا جماعةً من كبرائهم وأعيانهم في طلب الأمان فلما ذكروا ذلك لصلاح الدين امتنع عن الاستجابة لهم، وقال: لا أفعل بكم إلا كما فعلتم بأهله حين ملكتموه سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة من القتل والسبي وجزاء السيئة بمثلها. فلما رجع الوفد خاسراً خائباً محروماً أرسل (باليان بن بيرزان) صاحب الرملة وطلب الأمان لنفسه ليحضر عند صلاح الدين في هذا الأمر فأُجيب إلى ذلك وحضر عنده ورغب في الأمان وسأل فيه فلم يجبه إلى ذلك واستعطفه فلم يعطف عليه واسترحمه فلم يرحمه، فلما أيس من ذلك، قال له: أيها السلطان اعلم أننا في هذه المدينة خلق كثير لا يعلمهم إلا الله تعالى وإنما يفترون عن القتال رجاء الأمان ظناً منهم أنك تجيبهم إليه كما أجبت غيرهم، وهم يكرهون الموت ويرغبون في الحياة فإذا رأينا الموت لا بدّ منه فوالله لنقتلن أبناءنا ونساءنا ونحرق أموالنا وأمتعتنا ولا نترككم تغنمون منها ديناراً واحداً ولا درهماً ولا تأسرون رجلاً ولا تسبون امرأةً وإذا فرغنا من ذلك أخربنا الصخرة والمسجد الأقصى وغيرهما من المواضع ثم نقتل من عندنا من أسارى المسلمين وهم خمسة آلاف أسيرٍ، ولا نترك لنا دابةً ولا حيواناً إلا قتلناه ثم خرجنا إليكم كلنا قاتلناكم قتال من

يريد أن يحمي دمه ونفسه وحينئذٍ لا يُقتل الرجل حتى يقتل أمثاله ونموت أعزاء أو نظفر كراماً. فاستشار صلاح الدين أصحابه فأجمعوا على إجابتهم إلى الأمان وأن لا يخرجوا ويُحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الأمر فيه عن أي شيءٍ تنجلي ونحسب أنهم أسارى بأيدينا فنبيعهم نفوسهم بما يستقر بيننا وبينهم، فأجاب حينئذٍ صلاح الدين إلى بذل الأمان للصليبيين فاستقرّ أن يؤخذ من الرجل عشرة دنانير يستوي فيها الغني والفقير، ويُعطى عن الطفل من الذكور والبنات دينارين وعن المرأة خمسة دنانير فمن أدّى ذلك إلى أربعين يوماً فقد نجا ومن انقضت الأربعون يوماً عنه ولم يُؤدّ ما عليه صار مملوكاً. فبذل (باليان بن بيرزان) عن الفقراء ثلاثين ألف دينارٍ فأُجيب إلى ذلك وسُلّمت القدس يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٣هـ، وكان يوماً مشهوداً ورفعت الأعلام الإسلامية على أسوار البلد. وأُخذ ستة عشر ألف آدمي أسيراً ما بين رجلٍ وامرأةٍ وصبيٍّ إذ لم يكن معهم ما يُعطون، وكان بالقدس بعض نساء الملوك من الروم وقد ترهّبت وأقامت ومعها من الحشم والعبيد والجواري الكثير ولها من الأموال والجواهر النفيسة شيء كثير فطلبت الأمان لنفسها ومن معها فأمنها وسيّرها، وأطلق كذلك ملكة

القدس التي أسر زوجها صلاح الدين، وكان قد ملك الصليبيين بسببها ونيابةً عنها كان يقوم بالملك وأطلق مالها وحشمها واستأذنته بالمسير إلى زوجها وكان حينئذٍ مسجوناً بقلعة نابلس فأذن لها فسارت إليه وأقامت عنده، وأتته أيضاً امرأة للأمير أرناط صاحب الكرك وهو الذي قتله صلاح الدين بحطّين فشفعت في ولدٍ لها مأسورٍ فقال لها صلاح الدين: إن سلّمتِ الكرك أطلقته، فسارت إلى الكرك فلم يسمع منها الصليبيون ولم يُسلّموا حصنهم فلم يطلق ولدها ولكن أطلق مالها ومن تبعها، وخرج البطريق الكبير للصليبيين ومعه من أموال البيع ومنها الصخرة والأقصى وغيرها الشيء الكثير وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين فقيل له: خذ ما معه وقوّي به المسلمين، فقال: لا أغدر به ولم يأخذ منه غير عشرة دنانير. وكان صلاح الدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ يُفكّر بحديث رسول الله ﷺ: (ارحموا ثلاثةً عزيز قومٍ ذلّ، وغنيّ قومٍ افتقر، وعالماً بين جهّال)[1]. ولم يصل إلى خزينة الدولة إلا القليل لأسبابٍ عدة.

---

(١) أورده السيوطي في الجامع الكبير في باب (حب الضعفاء) برقم ٢٩٥١/١٠٧. وقال: الحديث عن أنس، وفيه عيسى بن طهمان ضعيف.

سيّر صلاح الدين الجميع ومن يحميهم إلى مدينة صور.

أمر صلاح الدين بتطهير المسجد والصخرة من الأقذار والأنجاس فتمّ ذلك، ولما كان يوم الجمعة في الرابع من شهر شعبان سنة ٥٨٣هـ صلى المسلمون في المسجد ومعهم صلاح الدين وصلى في قبة الصخرة وكان الخطيب والإمام محيي الدين بن الزكي قاضي دمشق، وقد بدأ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [الأنعام: ٤٥].

ثم قال: الحمد لله معزّ الإسلام بنصره، ومذلّ الشرك بقهره، ومصرّف الأمور بأمره، ومزيد النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدّر الأيام دولاً بعدله وجعل العافية للمتقين بفضله، وأفاض على العباد من طلّه وهطله، الذي أظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده فلا يُمانَع، والماهر على خليقته فلا يُنازَع، والآمر بما يشاء فلا يُراجَع، والحاكم بما يريد فلا يُدافَع، أحمده على إظفاره وإظهاره، وإعزازه لأوليائه ونصرة أنصاره، ومُطّهر بيت المقدس من أدناس الشرك وأوضاره، حمد من استشعر الحمد باطن سرّه وظاهر إجهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، ولم

يكن له كفواً أحد، شهادة من طهّر بالتوحيد قلبه وأرضى به ربه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله رافع الشكر وداحض الشرك، ورافض الإفك، الذي أُسري به من المسجد الحرام إلى هذا المسجد الأقصى، وعُرِج به منه إلى السمٰوات العُلى، إلى سدرة المنتهى عندها جنّة المأوى ما زاغ البصر وما طغى، صلى الله عليه وسلم وعلى خليفته الصديق السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان ذي النورين جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك، ومُكسّر الأصنام، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان.

ثم تكلم عما يسّر على أيدي هؤلاء الحضور من فتح بيت المقدس أولى القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تُشدّ الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، وإليه أُسري برسول الله ﷺ من المسجد الحرام، وصلّى فيه بالأنبياء والرسل الكرام، ومنه كان المعراج إلى السمٰوات، ثم عاد إليه ثم سار منه إلى المسجد الحرام على البراق، وهو أرض المحشر والمنشر يوم التلاق، وهو مقرّ الأنبياء ومقصد الأولياء، وقد أُسس على التقوى من أول يوم.

إن أول من أسس المسجد الأقصى يعقوب ﷺ بعد أن بنى الخليل المسجد الحرام بأربعين سنةً، كما جاء في الصحيحين، ثم جدّد بناءه سليمان بن داود، ، وسأل سليمان ﷺ الله بعد فراغه منه خلالاً ثلاثاً: حكماً يصادف حكمه، وملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده، وأنه لا يأتي أحد هذا المسجد لا ينهزه إلا الصلاة فيه إلا خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

ثم دعا للخليفة العباسي الناصر لدين الله، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين.

وبعد الصلاة جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي نجا المصري على كرسي الوعظ ـ بإذن السلطان ـ فوعظ الناس.

واستمرّ القاضي محيي الدين بن الزكي يخطب بالناس أيام الجمع أربعة أسابيع ثم قرّر السلطان للقدس خطيباً مستقراً. وأرسل إلى حلب فاستحضر المنبر الذي كان الملك العادل نور الدين الشهيد قد عمله لبيت المقدس، وقد كان يأمل أن يكون فتحه على يديه، فما كان إلا على يدي بعض أتباعه وهو صلاح الدين وذلك بعد وفاته.

أمر صلاح الدين بمحو ما وُضع من صورٍ في

الأبنية وعلى الجدران، ووضع المصاحف في قبة الصخرة، كما رتّب القراء وأدرّ عليهم الأُعطيات.

وأما الصليبيون في القدس فقد أقاموا وشرعوا في بيع ما لا يمكنهم حمله من أمتعتهم وباعوا ذلك بأرخص الأسعار فاشتراه التجار من أهل العسكر واشتراه النصارى من أهل القدس الذين ليسوا من نصارى أوربا، وقد طلبوا من صلاح الدين أن يمكّنهم من المقام في مساكنهم ويأخذ منهم الجزية فأجابهم إلى ذلك فاستقروا واشتروا حينئذٍ من صليبي أوربا الأمتعة والحاجيات الأخرى، وترك الصليبيون أشياء كثيرةً لم يمكنهم بيعها ثم ساروا من بيت المقدس.

حصار صلاح الدين صور:

بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس أقام بظاهره إلى الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٨٣هـ أي ما يقرب من شهرٍ يُرتّب أمور البلد وأحواله فلما فرغ من ذلك سار إلى مدينة صور وكان قد اجتمع فيها خلق كثير من الصليبيين، وقد صار المركيش صاحبها والحاكم فيها فأحكم أمورها وحصّنها بشكلٍ قويٍ، ومرّ صلاح على مدينة عكا فأقام بها عدة أيامٍ فلما سمع المركيش بوصوله إليها جدّ في زيادة تحصين مدينة صور فعمل سوراً حولها

وزاد في عمق الخندق الذي التفّ حول المدينة من البحر إلى البحر فغدت كالجزيرة وسط الماء يصعب الاقتراب منها والوصول إليها، وارتحل صلاح الدين عن عكا فوصل إلى صور في التاسع من شهر رمضان سنة ٥٨٣هـ فنزل على تلٍ قريبٍ، وقسَّم القتال على العسكر كل فريقٍ له وقت معلوم يقاتلون فيه بحيث يتصل القتال على أهل البلد فلا يجدون الراحة على حين يرتاح عسكر صلاح الدين. وكان أهل صلاح الدين يتناوبون القتال مثل ولده نور الدين علي الملك الأفضل، وولده غازي الملك الظاهر، وأخيه أبي بكر الملك العادل، وابن أخيه تقي الدين عمر الملك المظفّر وسائر الأمراء، وكان للصليبيين مراكب في البحر يركبون فيها ويقفون من جانبي الموضع الذي يقاتل منه المسلمون أهل البلد فيرمون المسلمين من جانبيهم فكثرت الجراحات في المسلمين كما كثر القتل فيهم ولم يتمكنوا من الدنو من البلد، فأرسل صلاح الدين إلى مراكبه التي جاءته من مصر وكانت في عكا فأمر بقدومها إلى صور فجاءته برجالها ومقاتليها وعدتها وهي عشر قطعٍ، فكانت تمنع مراكب أهل صور من رمي المسلمين فتمكّن المسلمون حينئذٍ من الاقتراب من البلد والتقى الفريقان ووقع القتال وعانى الطرفان كثيراً من الشدة، وكاد المسلمون يظفرون، ولكن حدث أن

كانت خمس قطعٍ من مراكب المسلمين باتت مقابل ميناء صور ليمنعوا الخروج منه والدخول إليه فباتوا ليلتهم يحرسون، وكان مقدمهم عبد السلام المغربي الموصوف بالحذق في صناعته وشجاعته، فلما كان وقت السحر أمنوا فناموا فما شعروا إلا بمراكب الصليبيين قد أحاطت بهم وأخذ رجالها بقتالهم وأوقعوا بهم فقتلوا من أرادوا قتله وأخذوا الباقين بمراكبهم وأدخلوهم ميناء صور، والمسلمون في البر ينظرون إليهم، ورمى جماعة من المسلمين أنفسهم من المراكب في البحر فمنهم من سبح فنجا ومنهم من غرق، فأمر صلاح الدين رجال المراكب الباقية بالمسير إلى بيروت لعدم الفائدة منها لقلّتها فتبعتها مراكب الصليبيين، فلما رأى أصحاب مراكب المسلمين المتجهة إلى بيروت الصليبيين مجدّين في طلبهم ألقوا أنفسهم في مراكبهم في البر فنجوا وتركوها فأخذها صلاح الدين ونقضها ورجع إلى قتال مدينة صور في البر، وكان ذلك قليل الجدوى لضيق المجال. وفي بعض الأيام خرج الصليبيون فقاتلوا المسلمين من وراء خنادقهم فاشتدّ القتال بين الفريقين ودام إلى آخر النهار وكان خروجهم قبل العصر، وأُسر منهم فارس كبير، وقُتل بعد أسره، واستمرّ ذلك عدة أيامٍ.

المسير إلى عكا:

رحل صلاح الدين عن صور لما رأى أمرها يطول، ويصعب دخولها لكثرة من فيها من الصليبيين الذين اجتمعوا من عدة مدنٍ، وكان رحيله في آخر شوال سنة ٥٨٣هـ، وانطلق إلى عكا فوصل إليها مع بدء الشتاء إذ كان في اليوم الأول من شهر كانون الأول، وأذن للعساكر بالعودة إلى بلدانهم والاستراحة مدة فصل الشتاء، والرجوع في فصل الربيع، فارتحلت عساكر الموصل والمشرق، وعساكر الشام، وعساكر مصر، وبقي مع جماعته الخاصة في عكا فنزل بقلعتها، وسلّم أمر البلد إلى عز الدين جورديك وهو من أكابر مماليك نور الدين محمود، وكان صاحب دينٍ وشجاعةٍ وسيرةٍ حسنةٍ.

فتح هونين:

عندما فتح صلاح الدين تبنين امتنع أهل هونين[1] من تسليم قلعتهم، وهي قلعة حصينة فأرسل إليهم فرقةً حاصرتها ومنعت وصول التموين إليها، وانطلق صلاح

---

(١) هونين: بلد في جبل عامل جنوبي لبنان اليوم، وقريبة من تبنين.

الدين إلى فتح عسقلان وبيت المقدس، فلما كان يحاصر صور أرسل الذين في قلعة هونين إلى صلاح الدين يطلبون منه الأمان فأمّنهم فنزلوا من قلعتهم وسلّموها له، فوفّى لهم الأمان.

وعندما سار صلاح الدين إلى عسقلان أرسل فرقةً تحاصر قلعة كوكب وهي تشرف على نهر الأردن وبحيرة طبرية وكانت الغاية من هذا الحصار حماية الطريق من أن ينزل إليه الصليبيون ويقتلون من يجتازه ويأخذون ما معه، وكان أمير هذا الفرقة يدعى سيف الدين، وهو أخو جاولي الأسدي، وكان شهماً شجاعاً، صاحب دين، ورجل عبادةٍ، فأقام سيف الدين على قلعة كوكب حتى آخر شهر شوال سنة ٥٨٣هـ، وكان أصحابه يحرسون نوباً مرتبةً، فلما كان آخر ليلةٍ من شهر شوال غفل الذين كانت نوبتهم في الحراسة، وكان سيف الدين قد أقام ليلته في عبادته، وكانت ليلةً كثيرة البرق والرعد والريح والبرد والمطر فلم يشعر المسلمون إلا والصليبيون قد خالطوهم بالسيوف فقتلوهم جميعاً وأخذوا ما كان عندهم من سلاحٍ وطعامٍ وعادوا إلى قلعتهم وقد ارتفعت معنوياتهم وتقوّوا بما أخذوا فاستطاعوا حفظ قلعتهم أكثر من سنةٍ أخرى أي إلى أواخر سنة ٥٨٤هـ ووصل الخبر إلى صلاح الدين بذلك

عند رحيله عن صور فعظم ذلك عليه، فرتّب على قلعة كوكب فرقةً أخرى بإمرة قايماز النجمي فحاصرت هذه الفرقة قلعة كوكب، وكانت مكان الفرقة السابقة التي قُتل أفرادها.

وكان صلاح الدين قد وضع فرقةً تحاصر قلعة صفد في جبال الجليل في شمالي فلسطين اليوم وتقوم بالمهمة التي تقوم بها الفرقة التي تحاصر قلعة كوكب.

حصار قلعة كوكب:

لم يبق بيد الصليبيين من حصون داخل بلاد الشام سوى الكرك وصفد والكوكب أما السواحل فقد بقي لهم من صور إلى اللاذقية فأراد صلاح الدين أن ينتهي من موضوع الداخل حتى لا ينال الرعية ضرر من الصليبيين فعندما انتهى فصل الشتاء سار صلاح الدين بمن بقي معه من عسكر من عكا إلى قلعة كوكب وألقى الحصار عليها غير أنه رآها منيعةً وأن ما معه من عساكرٍ لا يكفي لاحتلالها فرحل عنها وأبقى عليها قايماز النجمي لحصارها، وكان رحيله عنها في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٤هـ، وتوجّه إلى دمشق. فرح الناس بدمشق بقدوم صلاح الدين، وكتب إلى البلاد جميعاً باجتماع العساكر بها.

فتح جبلة:

خرج صلاح الدين من دمشق في منتصف شهر ربيع الأول سنة ٥٨٤هـ، وسار إلى حمص فنزل في الغرب منها وجاءته العساكر فاجتمعت عليه وكثرت عنده فسار حتى نزل تحت حصن الأكراد (قلعة الحصن) من الجانب الشرقي فأقام يومين فسار بقسمٍ من العسكر وترك الأثقال في موضعها فأغار على صافيتا وغيرها من البلدان في تلك الجهات حتى اقترب من طرابلس فعرف البلاد ومن أين يأتيها وأيّ الطرق يسلك إليها ثم عاد إلى معسكره وقد غنم العسكر الكثير من الدواب.

أقام صلاح الدين في معسكره تحت حصن الأكراد إلى آخر شهر ربيع الثاني سنة ٥٨٤هـ وقد جاءه قاضي مدينة جبلة وهو منصور بن ثبيل يستدعيه إليها ليسلّمها له هي والبلدان التي تقع إلى الشمال منها مثل اللاذقية فسار صلاح الدين معه في الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ، فنزل بـ(طرطوس) في اليوم السادس من شهر جمادى الأولى فرأى أن الصليبيين قد أخلوا المدينة وتحصّنوا في قلعتين منيعتين فهدّم المسلمون دورهم وسور البلد وأخذوا ما وجدوه من ذخائر وغيرها غنيمةً لهم. وحاصر صلاح الدين هذين البرجين فنزل إليه الذين في أحد البرجين بأمانٍ وسلّموه

بأمنهم فخرّب صلاح الدين البرج وألقى حجارته في البحر، وامتنع الذين في الحصن الثاني، وجد صلاح الدين أن هذا الحصن لا يُشكل عقبةً وليس هناك من أثرٍ من سكانه على المنطقة لقلّة عددهم فترك طرطوس ورحل عنها إلى مرقية (قرب موقع بانياس) وهي قلعة حصينة وقد أخلاها أهلها ورحلوا عنها إلى قلعة المرقب وهي حصن من حصونهم المنيعة التي لا يفكر أحد باحتلالها لارتفاعها ومناعتها والطريق إليها ضيّق لا يتسع لمرور أكثر من شخصٍ. فاتفق أن ملك جزيرة صقلية من الإفرنج قد بعث نجدةً إلى الصليبيين على ساحل الشام تتألف من ستين مركباً وكانوا بطرابلس فلما بلغهم مسير صلاح الدين إلى الساحل وتوجّهه إلى الشمال جاءت المراكب ورست على الساحل مقابل قلعة المرقية ليمنعوا بسهامهم من يتجاوز من المسلمين نحو الشمال فلما رأى صلاح الدين ذلك جعل حاجزاً بين البحر والطريق الساحلي الضيق وجعل وراءه الرماة فمنعوا الصليبيين من الاقتراب منهم فاجتاز المسلمون ذلك الطريق الضيّق ووصلوا إلى جبلة في الثامن عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ، وتسلّمها وقت وصوله إليها، وكان قاضيها قد سبق إليها ودخلها فلما وصل صلاح الدين رفع أعلامه على سورها وسلّمها إليه

وتحصّن الصليبيون الذين كانوا بها واحتموا بقلعتها فمازال قاضي جبلة يخوّفهم ويرغّبهم حتى استنزلهم بشرط الأمان وأن يأخذ رهائن منهم يكونون عنده إلى أن يطلق الصليبيون الرهائن الذين عندهم من المسلمين من أهل جبلة، وكان ملك الصليبيين فيها وهو (بيمند) قد أخذ رهائن القاضي ومسلمي جبلة وتركهم عنده بأنطاكية، فأخذ القاضي رهائن الصليبيين وجاء رؤساء أهل الجبل إلى صلاح الدين بطاعة أهله وملك المسلمون حصون الجبل، ونظم صلاح الدين أمور جبلة وجعل عليها أميراً هو سابق الدين عثمان بن الداية صاحب شيزر وسار عنها.

فتح اللاذقية:

بعد أن انتهى صلاح الدين من أمر جبلة ارتحل عنها واتجه إلى اللاذقية فوصل إليها في الرابع والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٤هـ فترك الصليبيون المدينة لعجزهم عن الدفاع عنها والتجؤوا إلى حصنين لها على الجبل فامتنعوا بهما فدخل المسلمون المدينة وحاصروا الحصنين اللذين اعتصم بهما الصليبيون وزحفوا إليهما فنقبوا الأسوار واشتدّ القتال وأيقن الصليبيون بالهلاك فطلبوا الأمان فأمنهم

صلاح الدين وذلك بعد ثلاثة أيامٍ من حصارهم.

ولما وصل صلاح الدين إلى اللاذقية وصل أسطول صقلية إليها فوقف مقابل مينائها فلما سلّمها الصليبيون إلى المسلمين عزم رجال الأسطول على أخذ من يخرج منها من أهلها غيظاً إذ سلّموها سريعاً فسمع بذلك أهل اللاذقية فأقاموا بها ودفعوا الجزية وكان ذلك سبب مقامهم، ثم إن مقدم أسطول صقلية طلب الأمان من صلاح الدين ليحضر عنده فأمّنه وحضر وأظهر الخضوع والاحترام، وقال ما معناه: إنك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالصليبيين ما فعلت فذلّوا فاتركهم يكونوا مماليكك وجندك تفتح بهم البلدان والممالك وتردّ عليهم ما أخذت منهم وإلا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به فيعظم عليك الأمر ويشتد بك الحال، فأجابه صلاح الدين بنحوٍ من كلامه من إظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وأنهم إن خرجوا أذاقهم ما أذاق أصحابه من القتل والأسر، وإن المسلمين إنما يطلبون الشهادة في سبيل الله ويكون الحصول عليها بالجهاد في سبيل الله بقتال أعداء الله من الكفار ومن يُواليهم. فانقلب قائد أسطول صقلية على وجهه ورجع إلى أصحابه خائباً خاسراً.

فتح قلعة صهيون:

رحل صلاح الدين عن اللاذقية في السابع والعشرين من شهر جمادى الأولى وقصد قلعة صهيون، وهي قلعة منيعة مرتفعة صعبة المرتقى على قرنة جبلٍ، وتشرف على وادٍ عميقٍ ضيقٍ في بعض المواضع، وقد حُفر لها خندق عميق، وبُني عليها خمسة أسوار منيعة غير أنها من جهة الشمال تتصل بالجبل فنزل صلاح الدين على هذا الجبل، ونصب عليها المنجنيقات ورماها، وطلب من ولده غازي الملك الظاهر أن ينزل على المكان الضيق من الوادي ونصب عليه المنجنيقات أيضاً ورمى القلعة فأصابت الجراحات الكثير من المدافعين عن القلعة، وزحف المسلمون إليهم في الثاني من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٤هـ وتسلّقوا على الصخور حتى وصلوا إلى السور الأول فغنموا الكثير من الأبقار والدواب والذخائر فاحتمى الصليبيون بالقلّة التي للقلعة فقاتلهم المسلمون وشدّوا عليهم فنادوا وطلبوا الأمان فلم يجبهم صلاح الدين إليه، فقرروا على أنفسهم مثل شروط بيت المقدس، فتسلّم القلعة وسلَّمها إلى أميرٍ يقال له: ناصر الدين منكورس صاحب قلعة أبي قبيس فحصّنها، ولما ملك المسلمون قلعة صهيون تفرَّقوا في تلك النواحي

فملكوا حصونها، وقد تطهّرت تلك الجهات مما أصابها من رجسٍ.

وسار صلاح الدين إلى قلعة (برزية) وهي تقابل حصن أفامية وبينهما مياه تتجمّع من نهر العاصي، وكان أهلها كثيري الضرر للمسلمين يقطعون الطريق ويُبالغون بالأذى فلما وصل إليها نزل إلى الشرق منها في يوم الرابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٤هـ ثم ركب من الغد وطاف عليها لينظر موضعاً يقاتل أهلها منه فوجده من جهة الغرب فنصب له هناك خيمةً صغيرةً ونزل فيها ومعه بعض العسكر لضيق المواضع، وهذه القلعة لا يمكن أن تُقاتل من جهة الشمال والجنوب أبداً إذ لا يمكن ارتقاء جبلها من هاتين الناحيتين، وأما جهة الشرق فيمكن الصعود منها لكن لغير المقاتل لارتفاعه وصعوبته. فنزل المسلمون ونصبوا المنجنيقات ونصب أهل القلعة منجنيقاً أبطلها، فلما رأى صلاح الدين أن عمل المنجنيقات لا يفيد عزم على الزحف ومكاثرة أهلها بمجموعة فقسَّم عسكره ثلاثة أقسامٍ يزحف قسم فإذا تعبوا وكلّوا عادوا وزحف القسم الثاني فإذا تعبوا وضجروا رجعوا وزحف القسم الثالث، ثم يدور الدور مرةً أخرى حتى يتعب الصليبيون فإنه لم يكن عندهم من الكثرة ما ينقسمون كذلك فإذا تعبوا وأعيوا سلّموا القلعة

فلما كان الغد وهو السابع والعشرون من جمادى الآخرة تقدّم أحد الأقسام وكان المقدم عليهم عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي وهو صاحب سنجار وقد زحف بعسكره وخرج الصليبيون من حصنهم فقاتلهم ورماهم المسلمون بالسهام ومشوا إليهم حتى اقتربوا من الجبل غير أنهم عجزوا عن الدنو منهم لصعوبة المرتقى وتمكّنِ الصليبيين منهم لعلو موقعهم حيث كانوا يرمونهم بالنشاب والحجارة إذ كانوا يلقون الحجارة الكبيرة فتتدحرج إلى أسفل الجبل فلا يقوم لها شيء فلما تعب هذا القسم من عسكر المسلمين رجعوا وتقدم القسم الثاني وهم جماعة صلاح الدين الخاصة فقاتلوا قتالاً شديداً وكان الوقت وقت حرٌ فاشتدّ الكرب على العسكر وصلاح الدين في سلاحه يطوف عليهم ويحرّضهم، وكان تقي الدين عمر ابن أخيه كذلك فقاتلوهم إلى قريب الظهر ثم تعبوا ورجعوا فلما رآهم صلاح الدين قد عادوا تقدّم إليهم وردّهم، وصاح بالقسم الثالث وهم جلوس ينتظرون نوبتهم فوثبوا ملبين وساعدوا إخوانهم وزحفوا معهم فجاء إلى الصليبيين ما لا قِبل لهم به، وكان أصحاب عماد الدين زنكي قد استراحوا فقاموا أيضاً معهم فحينئذٍ اشتدّ الأمر على الصليبيين وبلغت القلوب الحناجر، كما أن تعبهم قد

اشتدّ فظهر عجزهم عن القتال وبدا ضعفهم عن حمل السلاح لشدّة الحرّ والقتال فخالطهم المسلمون فعاد الصليبيون يدخلون إلى الحصن فدخل المسلمون معهم. وكان جماعة قليلة من عسكر المسلمين في الخيام شرق القلعة فرأوا أن الصليبيين قد أهملوا تلك الجهة لأنهم لم يروا فيها مقاتلين وليكثروا في الجهة التي فيها صلاح الدين فصعدت تلك الجماعة من عسكر المسلمين إلى القلعة فلم يمنعهم مانع فالتقوا مع إخوانهم المسلمين الذين دخلوا وهم في قتالٍ مع الصليبيين فملكوا القلعة عنوةً وقهراً، ودخل الصليبيون القُلّة التي للقلعة وأحاط بها المسلمون وأرادوا نقبها. وكان الصليبيون قد رفعوا أسرى المسلمين الذين عندهم إلى سطح القلّة وأرجلهم بالقيود والخشب المثقوب فلما سمعوا تكبير المسلمين في نواحي القلعة كبّروا في سطح القلّة فظنّ الصليبيون أن المسلمين قد صعدوا إلى السطح فاستسلموا وألقوا بأيديهم إلى الأسر فملك المسلمون القلعة عنوةً وأخذوا ما فيها وأسروا وسبوا من فيها وأخذوا صاحبها وأهله أسرى ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر فأرسل صلاح الدين في الوقت مباشرةً واشتراهم وجمع شملهم بعضهم مع بعضٍ فلما اقترب من أنطاكية أطلق سراحهم وسيّرهم إليها، وكانت امرأة صاحب قلعة برزية

أخت (بيمند) صاحب أنطاكية وكانت ترسل إلى صلاح الدين وتخبره بكثيرٍ من المعلومات فأطلق هؤلاء جميعاً لأجلها عسى أن يكون قد هداها الله.

المسير إلى أنطاكية:

بعد أن تمّ فتح قلعة (برزية) رحل صلاح الدين عنها في اليوم التالي وسار إلى جسر الحديد على نهر العاصي قرب أنطاكية فأقام عليه حتى وافاه من تخلّف عنه من عسكره ثم سار إلى قلعة هناك تعرف باسم (درب ساك) فنزل عليها في الثامن من شهر رجب سنة ٥٨٤هـ ونصب المنجنيقات فتهدّم قليل من سورها فلم يبالِ من فيها فأمر بالزحف عليها وقاتلوا الذين بداخلها فاستنجدوا بصاحب أنطاكية وأخبروه أنهم ينتظرون الجواب إما بدعمهم وإزاحة المسلمين عنهم، وإما بالتخلّي عنهم ليكون لهم العذر بالاستسلام، فلما علموا عجزه عن دعمهم وخافوا هجوم المسلمين طلبوا الأمان فأُجيبوا إليه بشرط ألا يخرج أحد إلا بثيابه التي عليه بغير مالٍ ولا سلاحٍ ولا دابةٍ ولا أثاث بيتٍ، ثم أخرجهم وسيّرهم إلى أنطاكية في التاسع من شهر رجب سنة ٥٨٤هـ.

ثم رحل صلاح الدين عن قلعة (درب ساك) وسار

إلى قلعة (بغراس) قرب أنطاكية، واستشار أصحابه في حصارها فلم يتفقوا على رأيٍ فمنهم من أشار بحصارها ومنهم من أشار بحصار أنطاكية فاستخار صلاح الدين ربه وسار إليها، وجعل أكثر عسكره مقابل أنطاكية يُغيرون على أعمالها، وبقي صلاح الدين وأصحابه على القلعة يقاتل أهلها وقد نصب المنجنيقات فلم تؤثّر لارتفاع القلعة، فغلب على الظنّ تعذّر فتحها، وشقّ على المسلمين قلّة الماء عندهم غير أن صلاح الدين نصب الحياض وأمر بحمل الماء إليها فخفّف الأمر عليهم فبينما هم على هذه الحال إذ فُتح باب القلعة وخرج منه رجل يطلب الأمان فأُجيب إلى ذلك فأذن له بالحضور فحضر وطلب الأمان لمن في الحصن حتى يسلّموه إليه بما فيه على شروط قلعة (درب ساك) فأجابهم صلاح الدين إلى ما طلبوا فعاد الرجل ومعه الأعلام الإسلامية فرفعت على أعلى القلعة، ونزل الذين فيها، وتسلّمها المسلمون. بما فيها من ذخائر وأموال وسلاحٍ.

ولما انتهى صلاح الدين من قلعة (بغراس) عزم التوجّه إلى أنطاكية وفتحها فخاف صاحبها (البيمند) فأرسل إلى صلاح الدين يطلب الهدنة وبذل إطلاق كل أسيرٍ عنده من المسلمين فاستشار صلاح الدين أصحابه

فأشار أكثرهم بإجابته إلى ذلك ليعود العسكر للراحة ويجدّدوا ما يحتاجون إليه فأجاب إلى ذلك واصطلحوا ثمانية أشهرٍ تبدأ من أول تشرين الأول وتنتهي في آخر شهر أيار، وسيّر مبعوثه إلى صاحب أنطاكية يستحلفه ويطلق من عنده من الأسرى المسلمين. وكان صاحب أنطاكية في هذا الوقت أكثر الصليبيين شأناً وأوسعهم مُلكاً إذ كانوا قد سلّموه طرابلس بعد موت صاحبها (القومس) إضافةً إلى ما كان ذلك لأن (القومس) لم يخلّف ولداً، فلما سُلّمت إليه طرابلس جعل ولده الأكبر فيها نائباً عنه.

أما صلاح الدين فقد عاد إلى حلب فدخلها في الثالث من شهر شعبان سنة ٥٨٤هـ وسار منها إلى دمشق وفرّق عساكر المناطق الشرقية ليستريحوا كعماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار والخابور، وعسكر الموصل. ودخل صلاح الدين دمشق في أول شهر رمضان، وأُشير إليه بتفريق العسكر، فقال: إن العمر قصير والأجل غير مأمونٍ، وقد بقي بيد الصليبيين هذه الحصون: كوكب، وصفد، والكرك وغيرها ولا بد من الفراغ منها فإنها في وسط بلاد الإسلام، ولا يؤمن شرّ أهلها إن أغفلناهم وندمنا فيما بعد ـ والله أعلم ـ.

فتح الكرك:

كان صلاح الدين قد رتّب عسكراً على قلعة الكرك لحصارها ومراقبتها بإمرة أخيه الملك العادل أبي بكر، وبعد ما يزيد على السنة كانت قد فنيت أزواد الصليبيين وذخائرهم وأكلوا دوابهم فلم يبق لديهم مجال للصبر فراسلوا الملك العادل يبذلون تسليم القلعة إليه ويطلبون الأمان فأجابهم إلى ذلك وبعث إلى مقدم عسكره فتسلّم القلعة منهم وأمنهم كما تسلّم ما يقاربها من حصون كالشوبك وغيره فارتاحت نفوس المسلمين في تلك الجهات واطمأنت قلوبهم.

فتح صفد:

أقام صلاح الدين في دمشق مدة خمس عشرة يوماً ثم سار منها في منتصف شهر رمضان سنة ٥٨٤هـ إلى صفد فحاصرها وقاتل أهلها ونصب عليها المنجنيقات واستمرّ بالرمي ليلاً نهاراً سهاماً وأحجاراً، وكادت تفنى ذخائر أهلها وأقواتهم من الحصار وجدّ صلاح الدين بقتالهم فخافوا أن يأخذهم عنوةً ويقتلهم فأرسلوا يطلبون الأمان فأمنهم وتسلّمها منهم فخرجوا عنها وساروا إلى مدينة صور.

فتح قلعة كوكب:

لما كان صلاح الدين يحاصر قلعة صفد اجتمع الصليبيون في مدينة صور، وقالوا: إن دخل المسلمون قلعة صفد سقطت قلعة كوكب بعدها لذا يجب دعمها، واتفق رأيهم على إرسال نجدةٍ لها سراً من رجالٍ وسلاحٍ، فأخرجوا مائتي رجلٍ من شجعان الصليبيين وأرسلوهم فكانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً، فاتفق بقدرة الله أن رجلاً من عسكر المسلمين كان قد خرج متصيّداً فلقي رجلاً من رجال تلك النجدة فاستغرب أمره بتلك الأرض فأخذه وضربه ليُعلمه عن وضعه وما الذي أقدمه إلى هناك فأقرّ واعترف بالحال ودلّه على أصحابه، فرجع الجندي المسلم إلى قايماز النجمي مقدم عسكر المسلمين فأعلمه الخبر والعسكري الصليبي معه، فركب الأمير قايماز النجمي بفرقةٍ من العسكر إلى الموضع الذي اختفى فيه الصليبيون فباغتهم وأخذهم وتتبع من هرب منهم في الشعاب والكهوف فلم يفلت منهم أحد فكان معهم مُقدَّمان من الفرسان فحُملوا إلى صلاح الدين، وهو على صفد، فأحضرهما ليقتلهما ثم عفا عنهما وأمر بسجنهما.

ولما دخل صلاح الدين صفد ونظّم أمورها سار عنها إلى قلعة كوكب ونازلها وحاصرها وأرسل إلى من بها من الصليبيين يبذل لهم الأمان إن سلّموا قلعتهم

ويتهدّدهم بالقتل والسبي إن امتنعوا فلم يسمعوا قوله وأصرّوا على الامتناع فجدّ في قتالهم ونصب عليهم المنجنيقات وتابع رمي الأحجار عليهم، وزحف مرةً بعد مرةٍ، وكانت الأمطار كثيرةً لا تنقطع ليلاً ولا نهاراً فلم يتمكّن المسلمون من القتال على الوجه الذي يريدونه، وطال مقامهم عليها، وفي آخر الأمر زحفوا إليها دفعاتٍ متناوبةً في يومٍ واحدٍ ووصلوا إلى القلعة ومعهم النقّابون والرماة يحمونهم بالنشّاب فلم يستطع أحد من الصليبيين أن يُخرج رأسه من أعلى السور، ونقب المسلمون ما استطاعوا نقبه فسقطت أطراف من السور، وتقدّم المسلمون إلى السور الأعلى فلما رأى الصليبيون ذلك أذعنوا بالتسليم وطلبوا الأمان فأمّنهم صلاح الدين وتسلّم القلعة في منتصف شهر ذي القعدة سنة ٥٨٤هـ وسيّرهم إلى مدينة صور فوصلوا إليها، واجتمع فيها شجعان الصليبيين وشياطينهم فقويت شوكتهم وحميت جمرتهم فتابعوا إرسال البعوث إلى صقلية وجزائر البحر المتوسط يستنجدون ويطلبون المدد والدعم فأخذ يتوالى عليهم ذلك.

بعد أن فتح صلاح الدين صفد سار إلى بيت المقدس فقضى عيد الأضحى هناك ثم سار إلى عكا وبقي فيها حتى نهاية سنة ٥٨٤هـ.

حصار الشقيف[1]:

سار صلاح الدين في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٥هـ إلى شقيف أرنوم وهو من الحصون المنيعة ليحاصره فنزل ببلدة (مرجعيون) فنزل صاحب الشقيف ويُسمّى أرناط وهو صاحب صيدا وطلب الأمان من صلاح الدين والإذن له بالدخول فأذن له وحضر عنده واجتمع به فأظهر لصلاح الدين الطاعة والمودة، وقال له: أنا محب لك ومعترف بإحسانك، وأخاف أن يعرف (المركيش)، وهو صاحب صور، ما بيني وبينك فينال أولادي وأهلي منه أذىً فإنهم عنده فأشتهي أن تمهلني حتى أتوصل إلى تخليصهم من عنده وحينئذٍ أحضرهم عندك ونسلّم الحصن إليك وأكون أنا وهم في خدمتك نقنع بما تعطينا من أقطاع فظنّ صلاح الدين صدقه فأجابه إلى ما سأل واتفقا أن يتسلّم صلاح الدين قلعة الشقيف منه في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٥هـ فأقام صلاح الدين بمرجعيون ينتظر الموعد، وهو قلق مفكر لقرب انقضاء مدة الهدنة بينه وبين البيمند

---

(١) الشقيف: كهف في جبل قرب بانياس الجنوب وإلى الغرب منها وعليه قلعة حصينة، ويسمى هذا الكهف بـ(شقيف أرنوم) ويقال لها (أرنون) وأرنوم اسم أحد رجال الرومان. ولا تزال قلعة الشقيف قائمةً في جنوبي لبنان جنوب بلدة النبطية ـ وبانياس هذه غير بانياس التي على الساحل السوري قرب مدينة جبلة ـ.

صاحب أنطاكية فأمر تقي الدين عمر ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره ومن يأتي من بلاد المشرق ويكون مقابل أنطاكية لئلا يُغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء الهدنة، وكان يشغل بال صلاح الدين أيضاً ويزيده همّاً ما بلغه من اجتماع الصليبيين في مدينة صور وما يصل إليهم من أمدادٍ في البحر، وأن ملك الصليبيين الذي كان قد أسره صلاح الدين وأطلقه بعد فتح القدس وسار إلى صور قد تصالح هو والمركيش صاحب صور بعد اختلافٍ كان بينهما وأنهم قد اجتمعوا في أعدادٍ كثيرةٍ وأنهم قد خرجوا من مدينة صور إلى ظاهرها، كما أنه يخشى من ترك الشقيف وراء ظهره والتقدّم إلى صور وفيها الجموع الكثيرة، وينقطع عنه التموين. أما صاحب الشقيف أرناط في مدة الهدنة مع صلاح الدين فكان يشتري الأقوات والسلاح وغير ذلك مما يحصّن به قلعته الشقيف، فلما اقترب موعد انتهاء الهدنة اقترب صلاح الدين من معسكره إلى الشقيف وأحضر عنده أرناط وقد بقي من الهدنة ثلاثة أيامٍ فقال له: سلّم ما وعدت فاعتذر بأهله وأولاده وأن المركيش لم يمكّنهم من المجيء إليه، وطلب تأخير أجل الهدنة مدةً أخرى فعلم صلاح الدين حينئذٍ مكره وخداعه فقبض عليه وسجنه وأمره بتسليم الشقيف فطلب قسيساً ذكره ليحمل

رسالةً إلى أصحابه بالشقيف ليسلموه القلعة فأحضروا القسيس عنده فسارّه بما لم يعلموا فمضى ذلك القسيس إلى قلعة الشقيف فأظهر أهلها العصيان. فسيّر صلاح الدين إلى دمشق أرناط صاحب الشقيف وسجنه، وتقدم هو إلى الشقيف فحاصرها وضيّق على أهلها، وجعل عليها من يحفظها، ويمنع عنها الرجال والذخيرة.

معارك مع الصليبيين على صور:

لما كان صلاح الدين بمرجعيون وعلى قلعة الشقيف جاءته كتب من عسكره الذين كانوا مقابل الصليبيين على صور يخبرونه أن الصليبيين في صور قد عزموا المسير إلى صيدا وحصارها فسار صلاح الدين مع فرقةٍ من شجعان عساكره سوى من أبقاه على قلعة الشقيف فوصل إليهم. ولما ارتحل الصليبيون عن صور باتجاه صيدا فالتقوا مع عسكرٍ للمسلمين على مضيق هناك وجرى بينهم قتال شديد فقُتل من الصليبيين جماعة، وأُسرت جماعة، كما قُتل من المسلمين جماعة ومنهم مملوك لصلاح الدين كان من الشجعان إذ حمل وحده على جماعةٍ من الصليبيين وأخذ يضرب بسيفه يميناً وشمالاً فتكاثروا عليه وقتلوه. ثم عجز الصليبيون

عن الوصول إلى صيدا فرجعوا إلى صور.

لما وصل صلاح الدين إلى مكان المعركة السابقة وجد أن القتال قد انتهى وقد عاد كل من الفريقين إلى موقعه، فأقام عند عسكره في خيمةٍ صغيرةٍ ينتظر عودة الصليبيين لينتقم منهم، وركب في بعض الأيام في جماعةٍ يسيرةٍ ينظر إلى مخيم الصليبيين من الجبل ليعمل بمقتضى ما يشاهده. ظنّ بعض المتطوعة أن صلاح الدين قد سار للقتال فساروا مجدّين وأوغلوا في أرض العدو وخلّفوا السلطان صلاح الدين وراءهم واقتربوا من الصليبيين فأرسل لهم صلاح الدين عدداً من الأمراء يردّونهم ويحمونهم إلى أن يخرجوا فلم يسمعوا ولم يقبلوا، وكان الصليبيون قد ظنّوا أن وراءهم كميناً لذا لم يقدموا عليهم فأرسلوا من يستطلع الأمر فأتاهم الخبر أنهم منقطعون عن المسلمين وليس وراءهم من يُخشى منه فحمل الصليبيون عليهم حملة رجلٍ واحدٍ فلم يلبثوا أن قضوا عليهم ومعهم جماعة من المعروفين، وشقّ على صلاح الدين وعلى المسلمين ما جرى عليهم وكان ذلك في التاسع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٥هـ. ولما رأى صلاح ذلك نزل إليهم من الجبل في عسكره فحملوا على الصليبيين فقتلوا منهم الكثير، وقطعوا عليهم الطريق فألقوا أنفسهم في الماء فغرق مائة دارعٍ

منهم، وعزم صلاح الدين على محاصرتهم فتسامع بذلك فقصدوه واجتمع معه عدد كثير فلما رأى الصليبيون ذلك عادوا إلى مدينة صور، وسار صلاح الدين إلى تبنين ومنها إلى عكا ينظر في أمورها ثم عاد إلى العسكر والمخيم.

لما رجع صلاح الدين إلى عسكره أتاه الخبر بأن الصليبيين يخرجون من مدينة صور للاحتطاب وأخذ الحشائش فكتب إلى العسكر الذين في عكا وواعدهم يوم الاثنين الثامن من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٥هـ ليلاقوهم من الجانبين ورتّب الكمائن في موضع من تلك الأودية والشعاب واختار جماعةً من شجعان عسكره وأمرهم أنهم إذا حمل عليهم الصليبيون قاتلوهم بفتورٍ ثم تراجعوا أمامهم مظهرين العجز عن القتال فإذا تبعهم الصليبيون استجرّوهم إلى أن يجوزوا مواضع الكمين ثم يعطفوا عليهم ويخرج الكمين من خلفهم فخرجوا على هذه العزيمة فلما تراءى الجمعان والتقت الفئتان، وأنف فرسان المسلمين أن تُلصق بهم اسم الهزيمة فثبتوا وقاتلوهم وصبر بعضهم لبعضٍ، واشتدّ القتال وعظُم الأمر واستمرت الحرب وطال على أهل الكمين الانتظار فخافوا على أصحابهم فخرجوا من مكانهم نحوهم مسرعين وإليهم قاصدين فأتوهم وهم في

شدة القتال فازداد الأمر شدةً على شدّةٍ، وكان فيهم أربعة من الأمراء لا يعرفون الأرض ومسالكها فسلكوا طريق الوادي ظناً منهم أنه يخرج بهم إلى أصحابهم وتبعهم آخرون فلما رآهم الصليبيون بالوادي عرفوا أنهم يجهلون المسالك فأتوهم وقاتلوهم ونالوا منهم.

مسير الصليبيين إلى عكا وحصارها:

اجتمع عدد كبير من الصليبيين في مدينة صور ذلك أن صلاح الدين كان إذا أعطى الأمان لمدينةٍ فتحها سيّر أهلها إلى صور فاجتمع فيها ذلك العدد وتلك الأموال الضخمة، ثم إن الرهبان فيهم والقساوسة والمشهورين من فرسانهم لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم، وأخذهم البطرك الذي كان بالقدس ودخل بهم بلاد الإفرنج يطوفها بهم جميعاً يستنجدون أهلها ويحثّونهم على الأخذ بثأر بيت المقدس، وصوّروا المسيح عليه السلام، وجعلوا صورة رجلٍ عربيٍ، والعربي يضربه وقد جعلوا دماءً على صورة المسيح عليه السلام، وقالوا لهم: هذا المسيح يضربه نبيّ المسلمين وقد جرحه وقتله وقد عظم ذلك على الإفرنج فحشروا وحشدوا حتى النساء فإنه كان معهم على عكا عدة نساءٍ يبارزن الأقران، ومن لم يستطع

الخروج استأجر من يخرج عوضاً عنه أو يعطيهم مالاً على قدر حاله فاجتمع لهم من الرجال والأموال العدد العظيم واجتمعوا بمدينة صور يموج بعضهم في بعض، والبحر يمدّهم بعد ذلك بالأقوات والذخائر والعتاد والرجال من بلادهم فضاقت عليهم البلد فأرادوا قصد مدينة صيدا فعادوا واتفقوا على المسير إلى عكا ومحاصرتها فساروا إليها بفارسهم وراجلهم ولزموا طريق الساحل لا يفارقونه في السهل والوعر والضيق والسعة ومراكبهم تسير مقابلهم في البحر فيها سلاحهم وذخائرهم ولتكون عدةً لهم إن جاءهم ما لا قبل لهم به ركبوا فيها وعادوا، وكان رحيلهم من صور في الثامن من شهر رجب سنة ٥٨٥هـ ونزولهم على عكا في منتصفه. وكان صلاح الدين قد جعل مقابل الصليبيين جماعةً من الأمراء يسايرونهم ويناوشونهم القتال ويتخطّفونهم. ولما وصل صلاح الدين إلى عكا وجد الصليبيين قد وصلوا أيضاً فضرب خيمته على تل كيسان ونزلت الأثقال بصفورية[١] وسيّر الكتب إلى الأطراف

---

(١) صفورية: بلدة عربية تقع شمال غربي مدينة الناصرة وعلى سبعة كيلو مترات منها، وتؤدّي إليها طريق تتفرع من يمين طريق الناصرة ـ شفا عمرو. وتعد صفورية إحدى بوابات الجليل الأدنى.

باستدعاء العسكر فأتاه عسكر الموصل وسنجار وديار بكر وغيرها من بلاد الجزيرة وأتاه تقي الدين عمر ابن أخيه، وأتاه مظفر الدين بن زين الدين وهو صاحب حرّان والرها، وكانت إمدادات المسلمين تأتي في البر حيث أصبحت المناطق الداخلية كلها بيد صلاح الدين، بينما تأتي الإمدادات إلى الصليبيين عن طريق البحر حيث حُصروا في أجزاء من الساحل كطرابلس، وصور، وعكا. وكان بين الفريقين حروب كثيرة مدة إقامة الصليبيين في عكا.

لم يستطع صلاح الدين من الوصول إلى الصليبيين وهم في عكا حتى انتهى شهر رجب وتمكّن من قتالهم في غرّة شهر شعبان ولكن لم ينل منهم ما يريد وبات الناس على تعبئتهم فلما كان الغد باكرهم القتال بإمكاناته كلها والتفّ حولهم من سائر الجهات وكان القتال شديداً وصبر الفريقان فلما حان وقت الظهر حمل تقي الدين عمر على الصليبيين حملةً قويةً بالميمنة على من يليه فأزاحهم عن مواقعهم فأخلوا نصف البلد وملك تقي الدين عمر مكانهم، وأخلدوا بها إلى الراحة، ثم عاود المسلمون القتال في اليوم السادس من شهر شعبان غير أن الصليبيين قد لزموا مرابضهم فلم يخرجوا منها وأخذوا حذرهم فلم يستطع المسلمون إلزامهم على

القتال وبقي كل في موقعه فلما رأى المسلمون ذلك رجعوا عنهم.

وبلغ بعض الأعراب أن الصليبيين يخرجون من الناحية الثانية من عكا للاحتطاب فكمنوا لهم في جوانب الوادي في اليوم السادس عشرمن شهر شعبان ٥٨٥هـ فلما خرجت جماعة من الصليبيين على عادتهم حمل عليهم رجال الكمين فقتلوهم عن آخرهم وغنموا ما كان معهم وحملوا الرؤوس إلى صلاح الدين فشجّعهم وكافأهم.

بقي المسلمون حتى العشرين شهر شعبان سنة ٥٨٥هـ يغادون الصليبيين كل يوم للقتال ويراوحونهم والصليبيون لا يخرجون من معسكرهم ولا يفارقونه لا يرغبون قتالاً ولا يفكّرون باستسلام. ثم إن الصليبيين قد اجتمعوا للمشاورة فقالوا: إن عسكر مصر لم يحضروا القتال مع صلاح الدين إلى هذا اليوم والأمر هكذا فكيف يكون إذا حضروا والرأي أن نلقى المسلمين غداً لعلنا نظفر بهم قبل اجتماع العسكر المسلمين ووصول الإمدادات إليهم، وكان كثير من عسكر صلاح الدين غائباً عن ساحة القتال في عكا بعضهم مقابل أنطاكية ليردّوا طمع البيمند صاحب أنطاكية الصليبي في منطقة حلب، وبعضهم في حمص مقابل طرابلس لحفظ ذلك

البلد، وعسكر مقابل صور لحماية تلك المدينة، وعسكر بمصر يكون بثغر دمياط والإسكندرية وغيرهما من الساحل لحماية الثغور عليه.

خرج الصليبيون من معسكرهم في عكا كأنهم الجراد المنتشر يدبّون على وجه الأرض، واتجهوا نحو ميمنة المسلمين وعليها تقي الدين عمر ابن أخي صلاح الدين، فلما رأى الصليبيين متجهين نحوه أخذ الحذر هو وأصحابه فلما اقتربوا منه تأخّر عنهم فلما رأى صلاح الدين ذلك وهو في القلب أمدّ تقي الدين بعسكرٍ من عنده ليتقوّى بهم، فلما رأى الصليبيون قلّة العسكر في القلب وأنّ كثيراً منهم قد سار نحو الميمنة مدداً عطفوا على القلب وحملوا عليه حملة رجلٍ واحدٍ فاندفعت العساكر منهزمين بين أيديهم وثبت بعضهم فنال الشهادة ـ إن شاء الله ـ ولم يبق في القلب بين أيديهم من يردّهم فقصدوا التل الذي عليه خيمة صلاح الدين فقتلوا من وجدوا وانحدروا إلى الجانب الأخر من التل، ومن نعم الله ولطفه بالمسلمين أن الصليبيين لم يزيلوا خيمة صلاح الدين فلو أزالوها لعلم المسلمون من بعيدٍ وصول الصليبيين إلى هذا الموقع وانهزام المسلمين أمامهم، وكان جميعهم قد انهزم.

نظر الصليبيون وراءهم فرأوا إمداداتهم قد انقطعت

عنهم فرجعوا خوفا من انقطاعهم عن أصحابهم، وكان سبب انقطاعهم أن ميمنة المسلمين قد وقفت في وجههم فاضطر بعضهم إلى أن يقف مقابلاً لها، وحملت ميسرة المسلمين على الصليبيين فانصرف المدد إلى قتالها فانصرف عن الاتصال بأصحابهم وعادوا إلى طرف خنادقهم، وحمل ميسرة المسلمين على الصليبيين الذين وصلوا إلى خيمة صلاح الدين فالتقوا بهم وهم عائدون فقاتلوهم. وكان صلاح الدين لما انهزم قلب عسكر المسلمين الذي هو فيهم قد تبعهم يناديهم ويأمرهم بالعودة ومتابعة القتال فاجتمعت حوله جماعة كافية فحمل بهم على الصليبيين من ورائهم وهم مشغولون بقتال ميسرة المسلمين فأخذتهم سيوف المجاهدين من كل جهةٍ فلم يفلت منهم أحد إذ قُتل أكثرهم وأُخذ الباقون أسرى، وكان عدد القتلى يزيد على عشرة آلاف قتيلٍ وكلهم من الفرسان لأن الرجالة لم يلحقوا بهم، وكان من جملة الأسرى ثلاث نسوةٍ من الصليبيين كن يقاتلن على الخيل فلما أُسرن وأُلقي عنهن السلاح عُرفن أنهن نساء. وأما المنهزمون من المسلمين فمنهم من رجع إلى طبرية ومنهم من تجاوز نهر الأردن ومنهم من وصل إلى دمشق، ولولا أن عسكر المسلمين تفرّقت بعد الهزيمة التي مُنوا بها في البداية لكانوا أكثر أثراً في

الصليبيين وقد بذل الباقون جهدهم وصمموا على الدخول إلى معسكر الصليبيين غير أنه قد جاءهم الصريخ بأن أموالهم ورحالهم قد نُهبت فشُغلوا بذلك، وكان هذا النهب من رعاع بعضهم فأمر صلاح الدين بالنداء بإحضار ما أُخذ فأُحضر فردّ الجميع إلى أصحابه وعاد العسكر إلى مهمتهم الأساسية.

انتشر النتن وفسد الجو من رائحة القتلى بعد فساد الجثث وتغيّرت الطباع، وأصاب صلاح الدين مرض القولنج، وكان هذا المرض يعاوده فحضر عنده الأمراء وأشاروا عليه بالانتقال من ذلك الموضع والرحيل عن الصليبيين حتى يُغيرّوا مكان معسكرهم فنعود إليهم، ووافقهم الأطباء فرحلوا إلى (الخرّوبة)[1] في الرابع من شهر رمضان سنة ٤٨٥هـ، وأمر صلاح الدين المسلمين الذين بعكا بحفظ مواقعهم وأخذ الاحتياط اللازم وأعلمهم سبب رحيله، فلما ارتحل مع عسكره أمن الصليبيون وعادوا لحصار عكا من ناحية البر كما أن مراكبهم عادت تحاصرها بحراً، وحفروا خندقاً لها، وبنوا سوراً، وكان المسلمون فيما دخلوه من مدينة عكا

(١) الخرّوبة: نسبةً إلى نبات الخرّوب، والخرّوبة اسم حصنٍ قريبٍ من الساحل يُشرف على عكا.

يخبرون صلاح الدين فيما يقوم به الصليبيون يوماً بيوم، ويحاولون قتالهم غير أنهم كانوا مشغولين بعملهم ولا يخرجون لهم، وصلاح الدين مشغول بمرضه، وأشير عليه بإرسال من معه من عسكرٍ إلى دعم إخوانهم في البلد فلم يرغب بذلك إذا لم يكن معهم وهو عاجز عن ذلك فبقي الأمر حتى عوفي صلاح الدين وكان الصليبيون قد انتهوا من عمل الخندق والسور.

وفي منتصف شهر شوال سنة ٥٨٥هـ وصلت عسكر مصر ثم الأسطول المصري في البحر وكانت العساكر بقيادة أخي صلاح الدين وهو الملك العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب ومعه عسكر كثير وآلات الحصار فارتفعت معنويات عسكر المسلمين الذين في عكا وما حولها، وكان صلاح الدين قد عوفي - بإذن الله - وجمع عسكراً كثيراً من البلاد الشامية، ووصل الأسطول المصري بقيادة الأمير لؤلؤ وما أن وصل إلى خليج عكا حتى وقع على مجموعةٍ من مراكب الصليبيين فغنمها وأخذ منها أموالاً كثيرةً وكمياتٍ كبيرةً من التموينات فأدخلها إلى عكا.

أقام صلاح الدين في الخرّوبة حتى انتهى فصل الشتاء وسمع الصليبيون أنه قد خرج إلى الصيد، ونظروا فوجدوا عسكره قليلاً في عكا وأن نجدتهم صعبة لكثرة

الوحل في مرج عكا فأرادوا أن يغتنموا ذلك ويخرجوا من خنادقهم ومعسكرهم وينقضّوا على عسكر المسلمين في عكا فخرجوا فعلاً عليهم وقت العصر في غرّة شهر صفر سنة ٥٨٦هـ، وهجموا عليهم فقاتلهم المسلمون وحموا أنفسهم بالسهام فاحجم عنهم الصليبيون حتى فنيت سهامهم فحملوا عليهم حينئذٍ حملة رجلٍ واحدٍ فاشتدّ القتال وعظم الخطب ورأى المسلمون أنه لا ينجيهم إلا الصبر والصدق بالقتال فقاتلوا قتال المجاهدين يبغون الشهادة حتى غشيهم الليل ورجع الصليبيون إلى خندقهم وقد قُتل من الفريقين عدد كثير.

رجع صلاح الدين إلى معسكره وسمع خبر المعركة التي وقعت فندب عسكره إلى نصرة إخوانهم، وجاءه الخبر بعودة الصليبيين إلى خندقهم فانتظر حتى يجفّ الوحل ويسهل مسير النجدة فوصلت إليه عساكر المناطق القريبة من دمشق وحمص وحماة وغيرها فتقدم من الخرّوبة نحو عكا ونزل بتل كيسان وكان يقاتل الصليبيين كل يومٍ ليُشغلهم عن عسكر المسلمين الذين بعكا فكانوا يقاتلون الفريقين دون سأمٍ خوفاً على أنفسهم.

كان الصليبيون قد عملوا مدة إقامتهم على عكا ثلاثة أبراجٍ عاليةٍ ويتألف البرج من خمس طبقاتٍ،

وهي من الخشب وقد غشّوها بالجلود والخلّ والطين والأدوية التي تحول دون احتراقها بالنار، وأصلحوا لها الطرق وقدّموها نحو مدينة عكا من ثلاث جهاتٍ وزحفوا بها في العشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٦هـ فأشرفوا على السور وقاتلوا الذين عليه فانكشفوا، وعمل المقاتلون فيها على ردم الخندق وأشرف البلد على السقوط بأيدي الصليبيين القادمين بحراً فوصل الخبر إلى صلاح الدين فركب هو وعسكره وتقدّموا نحو هؤلاء الصليبيين وقاتلوهم من الجهات جميعها قتالاً يشغلهم عن منازلة أهل البلد ومكاثرتهم، فافترق الصليبيون فرقتين فرقة تقاتل صلاح الدين وعسكره وفرقة تقاتل أهل البلد فخفّ الضغط عن أهل عكا واستمرّ القتال ثمانية أيامٍ كان آخرها اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٦هـ.

كان الفريقان قد سئموا القتال وملّوا منه لملازمته ليلاً ونهاراً، وتوقّع المسلمون استيلاء الصليبيين على عكا لما رأوا عجز من فيها عن دفع الأبراج إذ لم يتركوا حيلةً إلا عملوها فلم يفد ذلك ولم يغن عنهم شيئاً، وتابعوا رمي النفط الطيار عليها فلم يؤثّر فيها فأيقنوا بالهلاك، ثم ساق لهم الله رجلاً من أهل دمشق كان بعكا، وكان مولعاً بجمع آلات النفّاطين والحصول

على عقاقير تقوّي عمل النار، وكان يلومه من يعرفه وينكر عليه ذلك، وهو يقول: هذه حالة لم أُباشرها بنفسي وإنما أُحب معرفتها، فلما رأى الأبراج نُصبت على عكا أخذ في عمل ما يعرفه من الوسائل المقوية للنار والتي لا يحول دونها خلّ أو طين وغيرهما فلما فرغ منها حضر عند الأمير قراقوش وهو متولي الأمر بعكا والحاكم فيها وطلب منه أن يأمر أحد رماة المنجنيق وهو المحاذي لبرج من هذه الأبراج أن يرمي ما أعطيه حتى أحرقه، وكان عند قراقوش من الغيظ لخوفه على البلد ومن فيه ما يكاد يقتله فازداد غيظاً من قوله وغضب، وقال له: قد بالغ أهل هذه الصناعة بالرمي بالنفط وغيره فلم يفلحوا، فقال له بعض من حضر: لعل الله قد جعل الفرج على يد هذا الرجل، ولا يضرّنا أن نوافقه على قوله، فأجابه إلى ذلك وأمر رامي المنجنيق بامتثال أمره، فرمى عدة قوارير نفطٍ وأدوية ليس فيها نار، فكان الصليبيون إذا رأوا القارورة لا تحرق شيئاً يصيحون ويرقصون ويلعبون على سطح البرج حتى علم أن الذي ألقاه قد تمكّن من البرج ألقى قارورةً مملوءةً وجعل فيها النار فاشتعل البرج، وألقى ثانيةً وثالثةً فاضطرمت النار في نواحي البرج وأعجلت من في طبقاته الخمس على الهرب والخلاص فاحترق

البرج ومن فيه وكان فيه من السلاح شيء كثير. وكان الصليبيون قد طمعوا بفشل المسلمين بما يلقونه وذلك عندما رأوا أن القوارير الأولى لم تعمل عملها فحملهم طمعهم وفرحهم إلى الطمأنينة وترك السعي إلى الخلاص فلما احترق البرج الأول انتقل الرمي إلى البرج الثاني وقد هرب من فيه لخوفهم فأحرقه وكذلك الثالث وكان يوماً مشهوداً فالمسلمون ينظرون ويفرحون. وحمل الرجل الدمشقي إلى صلاح الدين فبذل له الأموال الجزيلة والأقطاع الكثيرة فلم يقبل شيئاً وقال: إنما عملته لله تعالى ولا أريد الجزاء إلا منه، وسُيّرت الكتب إلى البلاد بالبشائر.

أرسل صلاح الدين إلى البلاد الشرقية يطلب العسكر فأول من أتاه عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي وهو صاحب سنجار وديار الجزيرة ثم أتاه علاء الدين ولد عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي سيّره أبوه مقدماً على عسكره وهو صاحب الموصل، ثم وصل زين الدين يوسف صاحب أربيل وكان إذا وصل أحدهم يتقدم بعسكره إلى الصليبيين وينضمّ إليه غيرهم ويقاتلونهم ثم ينزلون، ووصل الأسطول من مصر فلما سمع الصليبيون باقترابه جهّزوا إلى طريقه أسطولاً ليلقاه ويقاتله.

ركب صلاح الدين في العساكر جميعها وقاتل الصليبيين من الجهات كلها ليُشغلهم بالقتال عن قتال الأسطول المصري ليتمكّن من دخول عكا، غير أن فريقاً منهم قد اتجه إلى الأسطول المصري فكان القتال بين الفريقين براً وبحراً، وأخذ المسلمون من الصليبيين مركباً فيه رجال وسلاح، وأخذ الصليبيون من المسلمين مثل ذلك غير أن القتل في الصليبيين كان أكثر منه في المسلمين، ووصل الأسطول الإسلامي سالماً[1].

الحملة الصليبية الثالثة:

سبق أن ذكرنا أن كثيراً من الصليبيين قد اجتمعوا في مدينة صور حيث كان صلاح الدين كلما فتح مدينةً أو دخل قلعة للصليبيين وأعطى أهلها الأمان سيّرهم إلى مدينة صور فكثر جمعهم هناك ثم إن الرهبان والقساوسة وبعض رجالهم وفرسانهم المعروفين قد لبسوا السواد وأظهروا الحزن على خروج بيت المقدس من أيديهم ثم إن البطريق الذي كان بالقدس أخذهم إلى أوروبا وأخذ يطوف بهم في بلدانها يستنجدون ويحثّونهم على الأخذ بالثأر فالتقت الجموع، وحُشدت الإمكانات، ووجّه

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

البابا غريغوري الثامن كتباً إلى ملوك فرنسا وألمانيا وانكلترا يحثّهم على حرب المسلمين، واستجاب هؤلاء لهذا النداء وحشدوا جموعهم وتحرّكوا نحو ديار الإسلام فكانت الحملة الصليبية الثالثة سنة ٥٨٥هـ.

سارت الحملة الصليبية الثالثة بإمرة ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد، وملك فرنسا فيليب أُغسطس، وامبراطور ألمانيا فريدريك بربروسا، وقد انطلق ملكا انكلترا وفرنسا إلى جزيرة صقلية بحراً، وقضيا فصل الشتاء فيها، وأما امبراطور ألمانيا فسار برّاً عن طريق القسطنطينية رغم خلافه مع الامبراطور البيزنطي إسحاق الثاني، ورغم اضطراره للمرور من أراضي السلاجقة في قونية. فأرسل ملك الروم إلى صلاح الدين يعرفه الخبر ويعده أنه لا يُمكّنه من العبور في بلاده، فلما وصل امبراطور ألمانيا إلى القسطنطينية عجز ملكها عن منعه من العبور لكثرة جموعه لكنه منع عنهم التموين، ولم يُمكّن أحداً من رعيته من حمل ما يريدونه إليهم فقلّت عنهم الأقوات وضاقت بهم الحال فساروا حتى عبروا خليج القسطنطينية، ومشوا نحو بلاد الإسلام فهناك مملكة قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلمش بن سلجوق في قونية فلما وصلوا إلى أوائلها ثار عليهم التركمان فما زالوا يسايرونهم، ويقتلون من انفرد

منهم، ويسرقون ما قدروا عليه، وكان الوقت وقت شتاءٍ فالبرد شديد والثلج متراكم بارتفاع مترٍ فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقلّ عددهم فلما اقتربوا من مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين ملكشاه بن قلج أرسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حجر عليه ولده المذكور وتفرّق أولاده في بلاده وتغلّب كل واحدٍ منهم على ناحيةٍ منها، فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في أثره فنزلوا على قونية وأرادوا قتال أهلها، وأرسلوا إلى قلج أرسلان هديةً، وقالوا له: ما قصدنا بلادك ولا أردناها وإنما قصدنا بيت المقدس، وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوتٍ وغيره فأذن بذلك فأتاهم ما يريدون فشبعوا وتزوّدوا وساروا، ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكفّ عنهم وأن يسلّم إليهم جماعةً من أمرائه رهائن فسلّم إليهم نيفاً وعشرين أميراً كان يكرههم فساروا بهم معهم، ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرّض لهم فقبض ملك الألمان على عددٍ وقيّدهم فمنهم من هلك بالأسر ومنهم من فدى نفسه.

وسار ملك الألمان حتى أتى بلاد الأرمن[1]

(١) كانت لهم إمارة في منطقة كيليكيا.

وملكها اصطفان بن ليون فأمّدهم بالأقوات والعلف وأظهر لهم الطاعة، ثم ساروا نحو أنطاكية وكان نهر العاصي في طريقهم فنزلوا عنده ونزل ملكهم ليغتسل فغرق في مكانٍ فيه، وكان معه ولد له فصار ملكاً بعده وسار إلى أنطاكية فاختلف أصحابه عليه فأحب بعضهم العودة إلى بلاده فتخلّف عنه، ومال بعضهم إلى تمليك أخٍ له فعاد أيضاً، وسار معه الباقون فعرضهم فكانوا نيفاً وأربعين ألفاً، ونزل بهم الوباء وحلّ بهم الموت ووصل من بقي منهم إلى أنطاكية وكأنهم خرجوا من القبور بعد أن نُبش عليهم فتبرّم بهم صاحب أنطاكية وحسّن لهم المسير إلى عكا لدعم إخوانهم الصليبيين هناك فانطلقوا ومرّوا على اللاذقية وجبلة وغيرهما من البلدان التي أنقذها صلاح الدين منهم، وخرج أهل حلب وغيرها إليهم وأخذوا منهم أعداداً وقتلوهم.

ووصل الصليبيون الألمان إلى طرابلس وأقاموا بها أياماً إذ لا تزال بيد إخوانهم ولكن كثر بهم الموت ولم يبق منهم إلا نحو ألف رجلٍ فركبوا البحر إلى إخوانهم الذين على عكا ولما وصلوا ورأوا ما نالهم في طريقهم من مصائب وما أصابهم من خلافٍ عادوا إلى بلادهم فغرقت بهم المراكب ولم ينج منهم أحد.

كان قلج أرسلان ملك قونية السلجوقي يكاتب

صلاح الدين بأخبارهم ويعده أن يمنعهم من المرور في بلاده فلما اجتازوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم لأن أولاده حجروا عليه وتفرّقوا عنه وخرجوا عن طاعته. وأما صلاح الدين فإنه لما بلغه مرور الألمان إلى بلاده استشار أصحابه فأشار كثير منهم عليه بالمسير إلى طريقهم ومحاربتهم قبل أن يصلوا إلى إخوانهم الصليبيين الذين على عكا فقال: بل نقيم حتى يقتربوا منا وحينئذٍ نفعل ذلك لئلا يستسلم عساكرنا الذين هم في عكا لكنه سيّر من عنده من عساكر حلب واللاذقية وجبلة وشيرز ليكونوا على أطراف البلاد يحمونها من تعدّياتهم.

القتال على عكا:

خرج الصليبيون فرساناً ورجالةً من وراء خنادقهم في عكا وتقدّموا نحو المسلمين وذلك في العشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦هـ وقصدوا عسكر مصر وكان قائدهم الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو صلاح الدين وركب المصريون واصطفوا للقاء الصليبيين فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً فانحاز المصريون عنهم فدخل الصليبيون خيامهم فنهبوا أموالهم فعطف المصريون عليهم فقاتلوهم وسط مخيمهم فأخرجوهم منه وتوجّهت فرقة من المصريين نحو خنادق الصليبيين

فقطعوا المدد عن أصحابهم الذين خرجوا فلما انقطعت عنهم الإمدادات ضعفوا وأخذتهم السيوف من كل ناحيةٍ فلم ينجُ منهم إلا الشريد فقتل منهم مقتلة عظيمة حيث زاد عدد القتلى على عشرة آلاف قتيلٍ، وكان عسكر الموصل على مقربةٍ من عسكر مصر، وكان قائدهم علاء الدين خرم شاه بن عز الدين مسعود صاحب الموصل فحملوا أيضاً على الصليبيين فنالوا منهم نيلاً كثيراً. هذا ولم يُباشر القتال من المسلمين حتى الآن القلب الذي يقوده صلاح الدين ولا الميسرة التي بها عماد الدين زنكي بن مودود بن عماد الدين زنكي صاحب سنجار وعسكر أربيل وغيرهم، وبعد هذه الموقعة خمدت جمرة الصليبيين. وأشار المسلمون على صلاح الدين بمباكرتهم القتال ومناجزتهم من الغد وهم على هذه الحال من الهلع والجزع، واتفق أن وصل إليه من الغد كتاب من حلب يخبر فيه بموت ملك الصليبيين الألمان فريدريك بربروسا وما نزل بأصحابه من الموت والقتل والأسر وما صار إليه أمرهم من القلّة والذلّة فاشتغل المسلمون بهذه البشرى والفرح عن قتال من بإزائهم من الصليبيين، وظنّوا أن الصليبيين إذا بلغهم هذا الخبر ازدادوا وهناً على وهنهم وخوفاً على خوفهم.

وصلت إلى الصليبيين بعد يومين إمدادات في

البحر مع ابن أخي ملك فرنسا وابن أخي ملك انكلترا لأمه ومعه أموال كثيرة جداً فبذل الأموال فاطمأنت نفوسهم وارتفعت معنوياتهم وأخبرهم أن الإمدادات متواصلة في البحر يتلو بعضها بعضاً فتماسكت عسكرهم وثبتوا في مواقعهم وأظهروا أنهم يريدون الخروج للقاء المسلمين وقتالهم فانتقل صلاح الدين من مكانه إلى الخرّوبة ليتسع له مجال الحركة كما أن منزله الأول كان قد ملأه نتن جثث القتلى، وكان انتقاله في السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٦هـ. ونصب الصليبيون المنجنيقات والدبابات فخرج من بعكا من المسلمين فأخذوها وقتلوا كثيراً من الصليبيين. ثم عمل الصليبيون تلاً من ترابٍ يستترون خلفه ونصبوا وراءه منجنيقين وجعلوه ستاراً لهم. وقلّ التموين عند المسلمين فأرسل صلاح الدين إلى الإسكندرية يأمرهم بإرسال الأقوات واللحوم وغير ذلك في المراكب إلى عكا فتأخّر إنفاذ ذلك فبعث إلى نائبه في بيروت بذلك فأرسل مركباً كبيراً مليئاً بكل ما يريدونه ودخلت إلى عكا بالحيلة إذ لبس الذين يدخلون بها زيّ الصليبيين ورفعوا عليها الصلبان فلم يشكّ الصليبيون أنها لهم فلم يتعرّضوا لها فانتعش المسلمون في عكا بما وصل إليهم وتبلّغوا بما فيها إلى أن أتتهم الأقوات من الإسكندرية.

وخرجت ملكة من الإفرنج من البحر ومعها نحو ألف مقاتل، فأُخذت بنواحي الإسكندرية وأُخذ جميع من معها.

وصل كتاب من البابا في روما إلى الصليبيين يأمرهم بما هم بصدده ويعلمهم أنه أرسل إلى جميع نصارى أوروبا يأمرهم بالمسير إلى نجدتهم براً وبحراً ويخبرهم بوصول الإمدادات إليهم فقويت نفوسهم واشرأبت أعناقهم فعزموا على الخروج من خنادقهم ومناجزة المسلمين فتركوا على عكا من يحفظها ويقاتل أهلها، وخرجوا في يوم الحادي عشر من شهر شوال سنة ٥٨٦هـ، فلما رأى صلاح الدين ذلك نقل أثقاله إلى موقع (ميمون) وهو على بُعد عشرين كيلو متراً من عكا، وكان قد رجع إليه عسكره الذين بعث بهم إلى الشمال لحماية الأطراف من تعدّيات عسكر فريدريك بربروس امبراطور ألمانيا فلما هلك هذا الإمبراطور وكثير من عسكره لم تعد هناك ضرورة لبقاء عسكر صلاح الدين هناك فعادوا إليه، والتقى صلاح الدين مع الصليبيين وهو على تعبئةٍ حسنةٍ إذ كان أولاده نور الدين علي الملك الأفضل وغازي الملك الظاهر وعثمان الملك العزيز في القلب، وأخوه الملك العادل أبو بكر في الميمنة ومعه عسكر مصر، وعماد الدين زنكي بن

مودود بن عماد الدين زنكي صاحب سنجار وتقي الدين صاحب حماة ومعز الدين سنجر شاه صاحب جزيرة ابن عمرو مع جماعةٍ من أمرائه في الميسرة، واتفق أن أصاب صلاح الدين مغص كان ينتابه فنُصبت له خيمة صغيرة على تلٍّ مشرفٍ على العسكر فنزل فيها ينظر إليهم. خرج الصليبيون من خنادقهم وساروا نحو المسلمين فلما رأوا المسلمين وكثرتهم ارتاعوا وترجعوا وخاصةً بعد أن انهمر عليهم وابل من السهام فلحقت بهم جماعة تقاتلهم فتجمع الصليبيون ولزم بعضهم بعضاً وقد ندموا على خروجهم من خنادقهم فلزموا مكانهم وباتوا ليلتهم تلك فلما كان الغد عادوا نحو عكا ليعتصموا بخنادقهم فلما وصلوا إليها لم يظهروا بعدها فرجع المسلمون إلى خيامهم.

وفي الثالث والعشرين من شهر شوال أيضاً كمن جماعة من المسلمين وتعرّضت جماعة أخرى منهم للصليبيين فخرج لهم أربعمائة فارس، فقاتلهم المسلمون قتالاً فيه شيء من الضعف وتراجعوا أمامهم فلحقهم الصليبيون حتى جاوزوا الكمين فخرجوا عليهم فلم يفلت منهم أحد.

اشتدّ الغلاء على الصليبيين وازداد في فصل الشتاء عند انقطاع مراكبهم بسبب هيجان البحر غير أن بعض

التجار المسلمين كانوا يمدونهم بالحنطة تجارةً إذ كانت تأتيهم من بيروت، وصيدا، وعسقلان بمعرفة أمرائها مثل: الأمير أسامة مستحفظ بيروت، وسيف الدين علي بن أحمد المعروف بالمشطوب من صيدا.

أقبل فصل الشتاء واشتدّ البرد وعصفت الريح وهاج البحر فخاف الصليبيون على مراكبهم في عكا إذ لم تتمكّن من الميناء فسيّروها إلى صور والجزائر ففُتح الطريق إلى عكا بحراً فأرسل أهلها إلى صلاح الدين يشكون الضجر والسآمة والملل، وكان بها الأمير حسام الدين أبو الهيجاء السمين مقدماً على جندها فأمر صلاح الدين بتجهيز البدل وإرساله إليها وإخراج من فيها وأمر أخاه الملك العادل أبا بكر بمباشرة ذلك فانتقل إلى ساحل البحر ونزل في سفح جبل الكرمل على مقربةٍ من مدينة حيفا، وجمع المراكب وكلما جاءه جماعة من العسكر سيّرهم إليها وأخرج عوضاً عنهم فدخل إليها عشرون أميراً وكان بها ستون أميراً فكان الذين دخلوا عكا قليلاً بالنسبة إلى الذين خرجوا منها، وأهمل نواب صلاح الدين تجنيد الرجال وإرسالهم، وانتهى فصل الشتاء وهدأت الريح وعادت مراكب الصليبيين إلى عكا فانقطع طريق البحر عن المسلمين إليها.

وصلت الحملة الصليبية الثالثة والتي انطلقت بحراً

بقيادة ملك فرنسا فيليب أغسطس وملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد، وقد سبق ملك فرنسا صاحبه ووصل إلى عكا في الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٨٧هـ وكان معه ست مراكب كبيرة فقويت معنويات الصليبيين الذين على عكا وألحوا بقتال المسلمين الذين فيها، وكان صلاح الدين بـ(شفا عمرو) فكان كل يومٍ يركب ويقصد الصليبيين ليُشغلهم بالقتال عن الزحف إلى البلد، وأرسل إلى الأمير أسامة مستحفظ بيروت يأمره بتجهيز ما عنده من أسطولٍ وشحنه بالمقاتلة وتسييرها في البحر ليمنع باقي مراكب الصليبيين القادمين مع ملك انكلترا من الوصول إلى عكا ففعل ذلك وسيّر المراكب في البحر فالتقت بخمسة مراكب مملوءة رجالاً من أصحاب ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد وكان قد سيّرهم أمامه وتأخّر هو بجزيرة قبرص ليملكها فكانت معركة بين مراكب المسلمين ومراكب الصليبيين فانتصر المسلمون عليهم وأخذوهم وغنموا ما معهم من قوتٍ ومتاعٍ ومالٍ وأسروا الرجال. وأما الصليبيون الذين ينزلون على عكا فقد لازموا قتال من فيها ونصبوا عليها سبع منجنيقاتٍ في الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٧هـ، فلما رأى صلاح الدين ذلك تحوّل من شفاعمرو ونزل عليهم لئلا يتعب عسكره كل يومٍ في

المجيء إليهم والعودة عنهم فاقترب منهم وكانوا كلما تحرّكوا للقتال ركب إليهم وقاتلهم من وراء خندقهم فكانوا يشتغلون بقتال صلاح الدين فيخفّ القتال عن المسلمين الذين بعكا.

وصل ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد إلى عكا في الثالث عشر من شهر جمادى الأولى سنة ٥٨٧هـ وكان قد استولى في طريقه على جزيرة قبرص وأخذها من الروم فإنه لما وصل إليها غدر بصاحبها وملكها جميعها فكان ذلك زيادةً في ملكه وفائدةً وقوةً للصليبيين الذين في الشام إذ هي في طريق الإمدادات القادمة من أوروبا وقاعدة لهم، فلما فرغ منها سار عنها إلى الصليبيين النازلين على عكا فوصل إليهم في خمسةٍ وعشرين مركباً كبيراً مملوءة رجالاً وأموالاً فاشتدت نكايتهم على المسلمين، وكان هو رجل مكرٍ وصبرٍ، ولقي المسلمون منه بلاءً. ولما وردت الأخبار إلى صلاح الدين بوصوله أمر بتجهيز مركبٍ كبيرٍ مملوءٍ بالرجال والأقوات والعُدّد فتجهّز وسار من بيروت وفيه سبعمائة مقاتلٍ فالتقى به ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد مصادفةً وجرى القتال بين الطرفين وصبر المسلمون على القتال فلما أيسوا من الخلاص نزل مقدم الذين به وهو يعقوب الحلبي فخرقه خرقاً واسعاً

لئلا يظفر به الصليبيون وبمن فيه من رجالٍ وبما فيه من ذخائر وسلاحٍ فغرق جميع ما في المركب، وكان المسلمون في عكا بحاجةٍ إلى رجالٍ، ثم إن الصليبيين عملوا دباباتٍ وزحفوا بها فخرج المسلمون وقاتلوهم بظاهر البلد وأخذوا تلك الدبابات فلجأ الصليبيون إلى عمل تلٍ كبيرٍ من التراب ومازالوا يقرّبونه من البلد ويقاتلون من ورائه ولم يكن للمسلمين حيلة لا بالنار ولا بغيرها فعظمت المصيبة على المسلمين داخل عكا فأرسلوا إلى صلاح الدين يعرفونه حالهم فلم يستطع عمل شيءٍ.

دخول الصليبيين عكا:

دخل الصليبيون إلى عكا يوم الجمعة السابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٨٧هـ بعد أن دخل الوهن على أهلها، وكان أول ذلك الوهن أن الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري المعروف بالمشطوب كان فيها ومعه عدد من الأمراء الآخرين، وكان هو أكبرهم فخرج إلى ملك فرنسا فريدريك أُغسطس أحد قادة الحملة الصليبية الثالثة وبذل له تسليم البلد بما فيه على أن يُطلق المسلمين الذين فيه ويُمكّنهم من اللحاق بسلطانهم فلم يُجبه إلى ذلك فرجع علي بن أحمد

الهكاري وأخبر المسلمين في عكا بما تمّ فضعُفت نفوسهم وتخاذلوا وأهمّتهم أنفسهم. ثم إن الأميرين وهما: عز الدين أرسل الأسدي وابنه جاولي، وسنقر الوشاقي ومعهم غيرهم خرجوا سراً من بين أصحابهم ولحقوا بعسكر المسلمين ليلاً فلما أصبح الصباح وشاع الخبر ازداد الناس وهناً إلى وهنهم وضعفاً إلى ضعفهم وأيقنوا بالعطب، ثم إن الصليبيين أرسلوا إلى صلاح الدين بمعنى تسليم البلد فأجابهم إلى ذلك لما عرف من وهن أهله، والشرط بينهم أن يطلق من أسراهم بعدد من في عكا من المسلمين ليطلقوا هم أهل عكا وأن يسلّم إليهم صليب الصلبوت فلم يقنعوا بما بذل فأرسل إلى المسلمين بعكا يأمرهم أن يخرجوا من بلدهم يداً واحدةً ويتركوا البلد بما فيه، ووعدهم بأن يتقدّم إلى تلك الجهة التي يخرجون منها بعسكره ويقاتل الصليبيين فيها ليلحقوا به فشرعوا في ذلك واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه فما فرغوا من أشغالهم حتى أسفر الفجر فبطل ما عزموا عليه لظهوره فلما عجز الناس عن حفظ البلد زحف عليهم الصليبيون بكل إمكاناتهم فصعد بعض الذين بالبلد على السور يحركون أعلامهم ليراها المسلمون وكانت هي الإشارة إذا احتزبهم أمر فلما رأى المسلمون ذلك ضجّوا بالبكاء وحملوا على الصليبيين

من الجهات جميعها ظنّاً منهم أن الصليبيين يشتغلون بهم ويدعون الذين بعكا وصلاح الدين يُحرّضهم وهو في أولهم، وكان الصليبيون قد خفّوا عن خنادقهم ومالوا إلى جهة البلد فاقترب المسلمون من خنادقهم حتى كادوا يدخلونها ويضعون السيف فيهم فوقع الصوت فعاد الصليبيون ومنعوا المسلمين وتركوا في مقابلة الذين بالبلد من يقاتلهم فلما رأى الأمير سيف الدين علي بن أحمد الهكاري (المشطوب) أن صلاح الدين لا يستطيع على نفع ولا يدفع عنهم ضراً خرج إلى الصليبيين وقرر معهم تسليم البلد وخروج من فيه بأموالهم وأنفسهم وبذل لهم عن ذلك مائتي ألف دينارٍ وخمسمائة أسيرٍ من المعروفين، وإعادة صليب الصلبوت، وأربعة عشر ألف دينارٍ للمركيش صاحب صور فأجابوه إلى ذلك وحلفوا له عليه وأن يكون مدة تحصيل المال وتسليم الأسرى إلى شهرين، فلما حلفوا له سلّم البلد إليهم ودخلوها سلماً فلما ملكوها غدروا وأحاطوا على من فيها من المسلمين وعلى أموالهم وحبسوهم وأظهروا أنهم فعلوا ذلك ليصل إليهم ما بُذل لهم، وراسلوا صلاح الدين في إرسال المال والأسرى والصليب حتى يُطلقوا من عندهم فشرع في جمع المال، وكان هو الأمان له إنما يُخرج ما يحصل عليه من دخل

البلاد أولاً بأول فلما اجتمع عنده من المال مائة ألف دينارٍ جمع الأمراء واستشارهم فأشاروا بأن لا يرسل شيئاً حتى يعاود يستحلفهم على إطلاق أصحابه، فأجابوه: إذا سلمتم إلينا المال والأسرى والصليب فلنا الخيار فيمن عندنا. فعلم صلاح الدين حينئذٍ عزمهم على الغدر فلم يرسل إليهم شيئاً، وأعاد الرسالة إليهم، وقال: نحن نسلم إليكم هذا المال والأسرى والصليب ونعطيكم رهناً على الباقي وتطلقون أصحابنا، فقالوا: لا نحلف إنما ترسل المائة ألف دينارٍ التي حصلت والأسرى والصليب، ونحن نطلق من أصحابهم من نريد ونترك من نريد حتى يجيء باقي المال. فعلم الناس حينئذٍ غدرهم، إنما ينوون إطلاق غلمان العسكر ومن لايُؤبه له ويمسكون عندهم الأمراء وأصحاب الأموال ويطلبون منهم الفداء، فلم يجبهم السلطان إلى ذلك.

فلما كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٨٧هـ ركب الصليبيون وخرجوا إلى ظاهر البلد فرساناً ورجالةً وركب المسلمون إليهم وقصدوهم وحملوا عليهم فانكشفوا عن مواقعهم فإذا أكثر من كان عندهم من المسلمين قتلى قد وضعوا فيهم السيف واستبقوا الأمراء والمقدمين ومن كان له مال وقتلوا من سواهم من سوادهم وأصحابهم ومن لا مال له. فلما

رأى صلاح الدين ذلك تصرّف في المال الذي كان جمعه وسيّر الأسرى والصليب إلى دمشق.

مسير الصليبيين إلى عسقلان:

بعد أن نظّم الصليبيون أمور عكا انطلقوا منها في مستهل شهر شعبان سنة ٥٨٧هـ فساروا على خط ساحل البحر نحو مدينة حيفا لا يفارقون الساحل فلما سمع صلاح الدين بمسيرهم نادى بعسكره بالاستعداد والمسير إلى الصليبيين لمضايقتهم ومحاولة قطع الطريق عليهم وأمر ابنه نور الدين علي الملك الأفضل بقيادة العسكر وكان معه عدد من الأمراء الذين عرفوا بالشجاعة فضايقوا الصليبيين بمسيرهم وأصلوهم بوابلٍ من السهام، وهاجموا ساقة الصليبيين فقتلوا عدداً منهم وأسروا عدداً، وأرسل الملك الأفضل إلى أبيه يستمدّه ويُعرّفه الحال فأمر العساكر بالمسير إليه فاعتذروا بأنهم لم يكونوا على أهبة الحرب وإنما كانوا على عزم المسير لا غير فتعذّر المدد، وعاد ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد إلى ساقة عسكرهم فحماها وجمعهم فساروا حتى أتوا مدينة حيفا فنزلوا بها ونزل بقريةٍ على مقربةٍ منهم تسمى (قيمون)، وأحضر الصليبيون من عكا عوضاً عمن قُتل وأُسر منهم وعوضاً عما هلك من الخيل ثم

ساروا إلى قيسارية، والمسلمون يسايرونهم ويتخطّفون منهم من قدروا عليه فيقتلونه لأن صلاح الدين كان قد أقسم أنه لا يظفر بأحدٍ منهم إلا قتله بمن قتلوا ممن كان بعكا.

لما أشرف الصليبيون على قيسارية[1] اقترب المسلمون منهم وقاتلوهم أشدّ قتالٍ فنالوا منهم نيلاً كثيراً. ونزل الصليبيون بقيسارية وبات المسلمون قريباً منهم، وبعد أن نزلوا خرجت جماعة من الصليبيين من قيسارية وابتعدت عن جماعتهم فأوقع بهم المسلمون فقتلوا منهم وأسروا.

سار الصليبيون من قيسارية إلى أرسوف[2] وكان المسلمون قد سبقوهم إليها إذ لم يمكنهم مسايرتهم لضيق الطريق فلما وصل الصليبيون إليهم حمل المسلمون عليهم حملةً قويةً ألحقوهم بالبحر ودخله بعضهم فلما رأى الصليبيون ذلك اجتمعوا وشدّهم خوف العاقبة فحمل الفرسان منهم حملة رجلٍ واحدٍ على المسلمين فولّوا منهزمين والتجؤوا إلى قلب الجيش وفيه

---

(١) قيسارية: مدينة ساحلية بين حيفا ويافا تبعد عن حيفا ٤٢ كيلو متراً وعن يافا ٥٥ كيلو متراً.

(٢) أرسوف: بلدة ساحلية شمال يافا تبعد عنها ١٢ كيلو متراً.

صلاح الدين، وظنّ الصليبيون أنها مكيدة إذ دخلوا غيضةً كثيرة الشجر لذا لم يتبعوهم وعادوا عنهم، ولو علموا أنها هزيمة ولحقوا بهم لهلك المسلمون ـ والله أعلم ـ فلما عادوا عنهم زال عن المسلمين ما كانوا به من ضيقٍ، وكان قد قتل طاغية من طواغيت الصليبيين كما قتل مملوك من مماليك صلاح الدين يُسمّى إياز الطويل وقد عُرف بالشجاعة ووُصف بالشهامة.

تابع الصليبيون سيرهم إلى يافا فنزلوها ولم يكن بها أحد من المسلمين فملكوها، وأما صلاح الدين فإنه سار عنهم لما حلّ به من هزيمةٍ في بلدة أرسوف واتجه إلى مدينة الرملة كما حمل أثقاله إليها، وجمع أمراءه واستشارهم فيما يفعل فأشاروا عليه بالمسير مجدّين إلى عسقلان وسبق الصليبيين إليها وتخريبها قبل أن يملكها الصليبيون ففعل ذلك في التاسع عشر من شهر شعبان سنة ٥٨٧هـ، فلما سمع الصليبيون بذلك أقاموا مكانهم ولم يسيروا إليها، ورجع صلاح الدين بعسكره إلى الرملة في الثاني من شهر رمضان سنة ٥٨٧هـ، فخرّب فيها حصناً وهدم كنيسة اللد، وعاد إلى المخيم في الثامن من شهر رمضان.

لما رأى صلاح الدين أن الصليبيين قد أقاموا بمدينة يافا وأخذوا في عمرانها رحل إلى اللطرون في

الثالث عشر من شهر رمضان سنة ٥٨٧هـ وأقام مخيمه هناك فراسله ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد يطلب الهدنة وذلك عندما سمع ملك انكلترا باضطراب الأمور في بلاده، وكانت الرسل تتردد إلى الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب وهو أخو صلاح الدين في محاولةٍ لإغرائه بالزواج من أخت ملك انكلترا غير أن المحاولة فشلت.

أظهر الصليبيون أنهم عازمون على المسير إلى بيت المقدس فسار صلاح الدين إلى الرملة وترك أثقاله باللطرون واقترب من الصليبيين وبقي عشرين يوماً ينتظرهم فلم يبرحوا مكانهم وكانت تقع صدامات بين الفريقين وكان المسلمون يحرزون النصر فيها كلها، وعاد صلاح الدين إلى اللطرون وسار الصليبيون من يافا إلى الرملة في الثالث من شهر ذي القعدة سنة ٥٨٧هـ على عزم بقصد القدس فاقتربوا بذلك من المسلمين فعظم الخطب واشتدّ الحذر ولكن أقبل فصل الشتاء وحالت الأمطار والأوحال بينهما.

مسير صلاح الدين إلى القدس:

رأى صلاح الدين أن عسكره قد أصابهم التعب من لبس السلاح الدائم والسهر المستمر واشتاقوا إلى

الأهل وقد طال الوقت وبعُد العهد وحلّ بهم الضنك من شدة البرد وتوالي الأمطار فأذن لهم بالعودة إلى ديارهم للاستراحة وسار هو إلى بيت المقدس فيمن بقي معه من العسكر فنزلوا جميعاً داخل المدينة وقدم إليه عسكر مصر وقائدهم الأمير أبو الهيجاء السمين فارتاحت نفوسهم بالقدس. وسار الصليبيون من الرملة إلى اللطرون في اليوم الثالث من شهر ذي الحجة سنة ٥٨٧هـ على نيّة قصد القدس. وعمل صلاح الدين على تحصين القدس فجدّد السور وحفر خنادق، وكان ينقل الحجارة بنفسه على دابته، وسلّم كل برجٍ إلى أميرٍ يتولّى عمله.

وفي العشرين من شهر ذي الحجة سنة ٥٨٧هـ رجع الصليبيون إلى الرملة ليكونوا أقرب إلى الساحل لتأمين المؤونة فإن ابتعادهم قد أثّر على ذلك، كما أن ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد طلب من أحد نصارى الشام أن يصوّر له القدس ففعل، فنظر إليها فوجد من الصعوبة بمكانٍ المسير إليها وصلاح الدين فيها فذكر ذلك لأصحابه فرأوا صدق تحليله فأشاروا عليه بالعودة إلى الرملة فعادوا خائبين.

سار الصليبيون نحو عسقلان في شهر المحرم سنة ٥٨٨هـ، وكان صلاح الدين بالقدس، فبعث ملك انكلترا

ريتشارد قلب الأسد فرقةً من عسقلان إلى معسكرٍ للمسلمين وجرى قتال بين الفريقين ونال كل من خصمه، وفي الوقت نفسه كانت سرايا صلاح الدين تُغير على تجمّعات الصليبيين وتتعرّض لقوافلهم ومنها سرية كان قائدها فارس الدين ميمون القصري وهو من مقدمي المماليك الصلاحية خرج على قافلةٍ كبيرةٍ للصليبيين فأخذها وغنم ما فيها.

وقُتل المركيش صاحب صور الصليبي في شهر صفر سنة ٥٨٨هـ.

عاد الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين ومعه تقي الدين عمر ابن أخيه فيمن معهما من عساكر ولحقتهم عساكر الموصل وديار بكر وسنجار وعساكر المشرق كافةً واجتمعت العساكر جميعها بدمشق وأيقن الصليبيون أنهم لا طاقة لهم بها إذا فارقوا البحر فعادوا إلى عكا ويظهرون العزيمة على المسير إلى بيروت واحتلالها فأمر صلاح الدين ولده الأفضل أن يسير إليها في عسكره والعساكر الشرقية جميعها معارضاً للصليبيين في مسيرهم نحوها فسار إلى مرجعيون واجتمعت العسكر معه فأقام هناك ينتظر مسير الصليبيين فلما بلغهم ذلك أقاموا بعكا ولم يفارقوها.

مسير صلاح الدين إلى يافا:

اجتمعت عسكر حلب عند صلاح الدين بالقدس فلما سار الصليبيون إلى عكا انطلق صلاح الدين بمن معه من عسكرٍ إلى مدينة يافا وكانت بيد الصليبيين فوصل إليها وقاتل من بها من صليبيين فملكها بالسيف عنوةً في العشرين من شهر رجب سنة ٥٨٨هـ وقد قتل كثيراً من الصليبيين وأسر كثيراً وغنم ما فيها، واتجه نحو قلعتها وكادت تسقط بيده آخر النهار فطلب حماتها الأمان ويسلّموا القلعة صباح غدٍ حيث أدركهم الليل فلما أصبح الصباح طالبهم صلاح الدين بالنزول والتسليم فامتنعوا حيث كانت قد وصلت إليهم ليلاً نجدة من عكا وأدركهم ملك انكلترا ريتشارد قلب الأسد فأخرج المسلمين من يافا ووصل إليه دعم عكا وخرج إلى ظاهر المدينة واعترض المسلمين بعسكره وحمل عليهم فلم يتقدّم إليه أحد ووقف بين الصفين متحدياً فأمر صلاح الدين عسكره الحملة عليهم ثم عاد ينتظر قدوم العسكر إليه فجاء ابنه الأفضل وأخوه العادل وعسكر الشرق فدخل بهم مدينة الرملة منتظراً ولزم الصليبيون مدينة يافا ولم يبرحوا منها.

الهدنة بين المسلمين والصليبيين:

وصلت أخبار إلى ملك انكلترا ريتشارد قلب

الأسد عن اضطراب الأمن في بلاده، بعد أن طالت غيبته عنها، ورأى اجتماع جند المسلمين لذا لا يمكنه مغادرة ساحل البحر، وليس للمسلمين على الساحل بلد يطمع بها فأرسل إلى صلاح الدين في الصلح فلم يجبه إلى ما طلب بل ظنّ ذلك خديعةً ومكراً فأرسل يطلب المصاف والحرب فأعاد قلب الأسد مرةً بعد مرةٍ.
وراسل الملك العادل أخي صلاح الدين يطلب تحديد قواعد الصلح، فأشار الملك العادل هو وجماعة الأمراء على أخيه بالإجابة إلى الصلح وأعلموه ما عند العسكر من ضجرٍ وملل، وما قد هلك من دوابهم، ونفد من نفقاتهم، وفسد وذهب من أسلحتهم، وقالوا: إن هذا الصليبي إنما طلب الصلح ليركب البحر ويعود إلى بلاده فإن تأخرت إجابته إلى أن يأتي الشتاء وينقطع الركوب في البحر نبقى هنا سنةً أخرى ينالنا من شرّه، ويزيد ضجر وملل عسكرنا وقد يتأخرون عن العودة وربما...
وأكثروا له من القول في هذا المعنى فأجاب حينئذٍ إلى الصلح، وتمت الهدنة في العشرين من شهر شعبان سنة ٥٨٨هـ لمدة ثلاث سنواتٍ وثمانية أشهرٍ بدءاً من هذا التاريخ، وعُرفت باسم معاهدة الرملة، وكان من جملة رسل الصليبيين الذين حضروا عند صلاح الدين هو (باليان بن بارزان) الذي كان صاحب الرملة ونابلس،

فلما حلف صلاح الدين، قال له: ما عمل أحد في الإسلام ما عملت ولا هلك من الصليبيين مثل ما هلك منهم هذه المدة فإننا أحصينا من خرج إلينا في البحر من المقاتلة فكانوا ستمائة ألف رجل، ما عاد منهم إلى بلادهم من كل عشرةٍ واحد بعضهم قتلتهم أنت وبعضهم مات وبعضهم غرق.

ولما تمّ أمر الهدنة أذن صلاح الدين للصليبيين بزيارة بيت المقدس وزاروه وتفرّقوا وعادت كل جماعةٍ إلى بلادهم. وهكذا انتهت الحملة الصليبية الثالثة بالفشل ولم تحقّق هدفها الصليبي الإجرامي.

وقام (الكندهري) ملكاً على الصليبيين الذين بقوا يملكون الساحل الشامي وتزوج بالملكة التي كانت ملكةً على الصليبيين قبل أن يطردهم صلاح الدين وينتزع منهم ما اعتدوا عليه من أراضي المسلمين. وأما صلاح الدين فإنه بعد تمام الهدنة قد سار إلى بيت المقدس وأمر بإحكام سوره وعمل المدرسة والرباط والمشفى وغير ذلك من مصالح المسلمين وأوقف عليها الأوقاف، وصام رمضان بالقدس وعزم على الحج فلم يمكنه ذلك، فسار نحو دمشق في الخامس من شهر شوال سنة ٥٨٨هـ واستناب على بيت المقدس أميراً اسمه (جورديك) وهو من مماليك نور الدين محمود، ومرّ

أثناء طريقه إلى دمشق على نابلس وطبرية وصفد وتبنين وبيروت وتعهد هذه البلدان وأمر بإحكامها، وأتاه في بيروت صاحب أنطاكية (بيمند) واجتمع به وعاد إلى أنطاكية فلما عاد سار صلاح الدين إلى دمشق فدخلها في الخامس والعشرين من شهر شوال سنة ٥٨٨هـ ففرح الناس بقدومه لجهاده وطول غيبته وذهاب العدو عن بلاد الإسلام.

وفاة صلاح الدين:

توفي صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب في دمشق فجر يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر صفر سنة ٥٨٩هـ عن عمرٍ يقارب السابعة والخمسين[١]. وكان قد خرج يستقبل الحجاج فأصابه المرض، وبقي في مرضه ثمانية أيامٍ ثم جاءه الأجل.

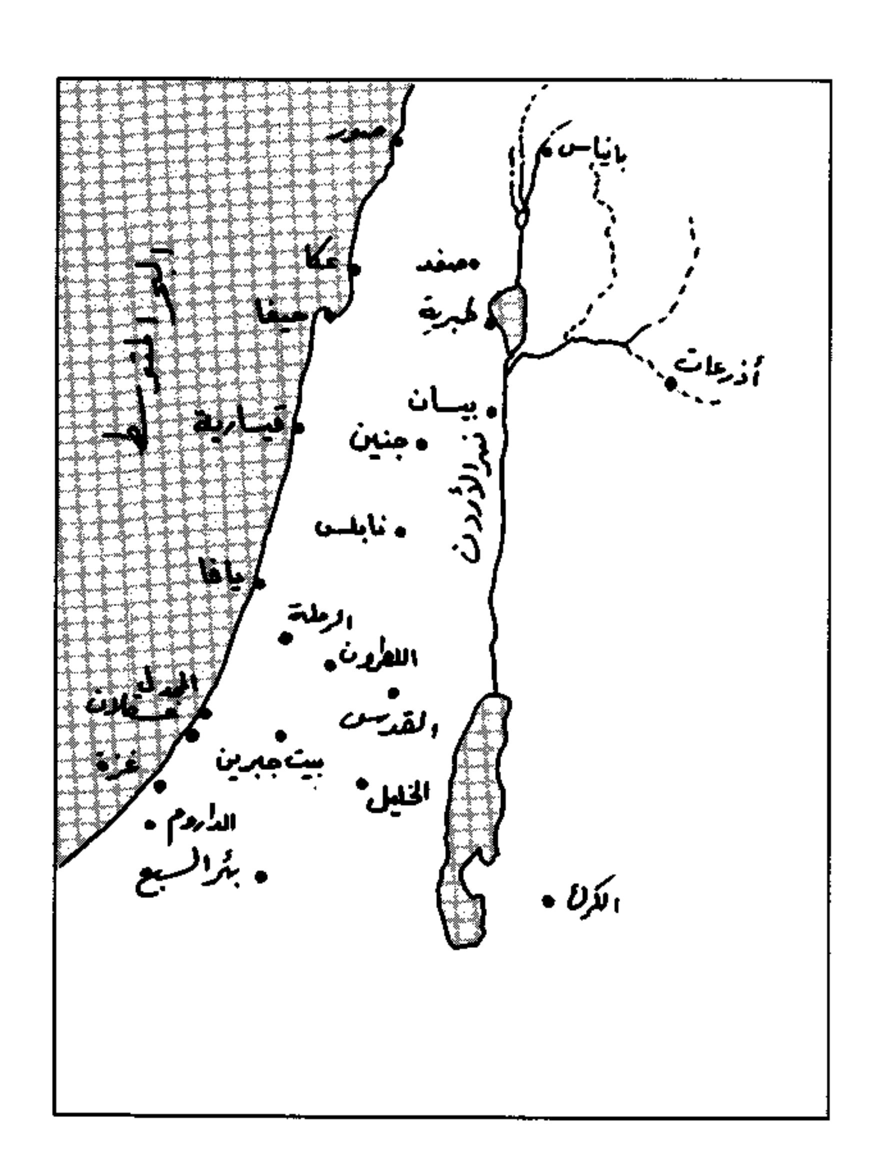
أحضر قبل مرضه ولده الأفضل نور الدين علي وأخاه الملك العادل أبا بكر، واستشارهما فيما يفعل، وقال: قد تفرغنا من الصليبيين وليس لنا في هذه البلاد شاغل فأيّ جهةٍ نقصد، فأشار عليه أخوه العادل بقصد

---

(١) ولد في مدينة تكريت بالعراق سنة ٥٣٢هـ.

مدينة (خلاط)[1] لأنه كان قد وعده إذا أخذها أن يسلّمها له. وأشار ولده الأفضل نور الدين عليّ بقصد البلاد التي بيد أولاد قلج أرسلان وهي قونية وما يتبعها، وقال: هي أكثر بلاداً وعسكراً ومالاً وأسرع مأخذاً وهي أيضاً طريق الفرنج إذا قدموا على البر فإذا ملكناها منعناهم من العبور فيها. فقال: كلاكما مقصر ناقص الهمة بل أنا أقصد بلاد الروم. وقال لأخيه: تأخذ أنت بعض أولادي وبعض العسكر وتقصد خلاط فإذا فرغت أنا من بلاد الروم جئت إليكم وندخل منها أذربيجان ونتصل ببلاد العجم فما فيها ما يمنع عنها، ثم أذن لأخيه العادل بالمضي إلى حصن الكرك، وهو للعادل، وقال له: تجهّز واحضر لتسير. فلما سار العادل إلى الكرك مرض صلاح الدين وتوفي قبل عودته.

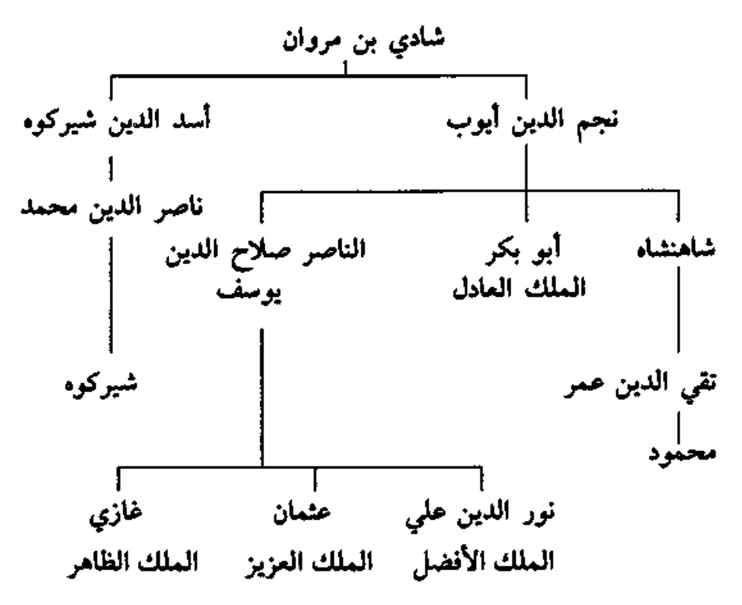
(١) خلاط: بلدة في شرقي تركيا اليوم.


صور
بانياس
عكا
صفد
حيفا
طبرية
أذرعات
بيسان
قيسارية
جنين
البحر المتوسط
نهر الأردن
نابلس
يافا
الرملة
اللطرون
القدس
عسقلان
غزة
بيت جبرين
الخليل
الداروم
بئر السبع
الكرك

آل أيوب بعد صلاح الدين:

لما مات صلاح الدين بدمشق كان معه ولده الأكبر نور الدين علي الملك الأفضل فملك دمشق والساحل وبيت المقدس وبعلبك وصلخد وبصرى وبانياس (الجنوب). وكان ولده عثمان الملك العزيز بمصر فاستولى عليها واستقرّ ملكه بها. وكان ولده غازي الملك الظاهر بحلب فاستولى عليها وعلى جميع أعمالها مثل حارم، واعزاز، ومنبج، وكان بحماة محمود بن تقي الدين عمر فأطاعه وصار معه، وكان بحمص شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه فأطاع الملك الأفضل صاحب دمشق. وكان الملك العادل أبو بكر أخو صلاح الدين بالكرك فامتنع فيه، ولم يحضر عند أحدٍ من أولاد أخيه فأرسل إليه الملك الأفضل يستدعيه ليحضر عنده فوعده ولم يفعل فأعاد مراسلته وخوّفه من الملك العزيز عثمان صاحب مصر ومن عز الدين صاحب الموصل فإنه كان قد سار إلى بلاد العادل الواقعة في الجزيرة الفراتية، وقال له: إن حضرت جهّزت العساكر وسرت إلى بلادك حفظتها، وإن أقمت قصدك أخي الملك العزيز عثمان صاحب مصر لما بينكما من العداوة، وإذا ملك عز الدين

بلادك في الجزيرة الفراتية فليس له دون الشام مانع، وقال لرسوله: إن حضر معك فأهلاً وإلا فقل له: قد أمرني إن سرتَ إليه بدمشق عدتُ معك وإن لم تفعل أسير إلى الملك العزيز عثمان أُحالفه على ما يختار، فلما حضر الرسول عنده وعده بالمجيء فلما رأى أن ليس معه منه شيء غير الوعد أبلغه ما قيل له في معنى موافاة العزيز فحينئذٍ سار إلى دمشق، وجهّز الملك الأفضل معه عسكر من عنده وأرسل إلى صاحب حمص وصاحب حماة وإلى أخيه الملك الظاهر بحلب يحثّهم على إنفاذ العساكر مع عمه الملك العادل إلى بلاد الجزيرة الفراتية ليمنعها من صاحب الموصل ويخوّفهم إن هم لم يفعلوا، ومما قاله لأخيه الملك الظاهر: قد عرفت صحبة أهل الشام لبيت نور الدين محمود فوالله لئن ملك عز الدين حران ليفركنّ أهل حلب عليك ولتخرجنّ منها وأنت لا تعقل، وكذلك يفعل بأهل دمشق، فاتفقت كلمتهم على تسيير العسكر معه فجهّزوا عساكرهم وسيّروها إلى الملك العادل وقد عبر نهر الفرات فعسكر عساكرهم بنواحي الرها بمرج الريحان.



وكان عز الدين مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكي صاحب الموصل عندما بلغه وفاة صلاح الدين قد جمع أهل الرأي من أصحابه وفيهم مجاهد الدين قايماز كبير دولته والمقدم على كل من فيها وهو نائبه فيهم واستشارهم فيما يفعل فسكتوا، فقال له بعضهم ـ وهو مجد الدين أبو السعادات المبارك[1] ـ: أنا أرى أن تُخرج مسرعاً فرقةً فيمن خفّ من أصحابك وخاصةً رجالك وتأمر الباقين باللحاق بك، وتُعطي من هو محتاج إلى شيء مما

(١) مجد الدين أبو السعادات: هو أخو ابن الأثير صاحب الكامل في التاريخ.

يتجهّز به ويلحق بك إلى نصيبين، وتكاتب أصحاب الأطراف مثل مظفر الدين بن زين الدين صاحب أربيل، وابن أخيك سنجرشاه صاحب جزيرة ابن عمرو، وأخاك عماد الدين صاحب سنجار ونصيبين تعرّفهم أنك قد سرت وتطلب منهم المساعدة وتبذل لهم اليمين على ما يلتمسونه فمتى رأوك قد سرتَ خافوك، وإن أجابك أخوك صاحب سنجار ونصيبين إلى الموافقة وإلا بدأت بنصيبين أخذتها وتركت فيها من يحفظها، ثم سرتَ نحو الخابور وهو أيضاً له فأقطعه، وتركت عسكراً مقابل أخيك يمنعه من الحركة إن أرادها، ثم تقصد الرقة فليس فيها من يمنعها، وتأتي حرّان والرها فليس فيهما من يحفظهما لا صاحب ولا عسكر ولا ذخيرة فإن الملك العادل أخذهما من محمود بن تقي الدين عمر، ولم يقم فيهما ليصلح حالهما، وكان القوم يتكلمون عن قوتهم فلم يحسبوا لهذا الحادث حساباً، فإذا فرغت من ذلك عدت إلى من امتنع عن طاعتك فقاتلته وليس وراءك ما تخاف عليه فإن بلدك عظيم لا يبالي بكل من وراءك. فقال مجاهد الدين قايماز: المصلحة أن نكاتب أصحاب الأطراف ونأخذ رأيهم بالحركة ونستميلهم، فقال له مجد الدين أبو السعادات: إن أشاروا بترك الحركة تقبلون منهم؟ قال: لا، قال: فإنهم لا يشيرون إلا بتركها لأنهم لا يرون أن يقوى هذا

السلطان خوفاً منه، وكأني بهم يغالطونكم مهما كانت البلاد الجزرية فارغة من صاحبٍ وعسكرٍ فإذا جاء إليها من يحفظها جاهروكم بالعداوة. ولم يمكنه أكثر من هذا خوفاً من مجاهد الدين قايماز حيث رأى ميله إلى ما تكلم به. فانفصلوا على أن يكاتبوا أصحاب الأطراف، فكاتبوهم فكل أشار بترك الحركة إلى أن يُنظر ما يكون من أولاد صلاح الدين وعمهم الملك العادل. ثم إن مجاهد الدين قايماز كرّر المراسلات إلى عماد الدين صاحب سنجار يعده ويستميله فبينما هم على ذلك إذ جاءهم كتاب الملك العادل يذكر فيه موت أخيه وأن البلاد قد استقرت لولده الملك الأفضل نور الدين عليّ، والناس متفقون على طاعته وأنه هو المدبّر لدولة الملك الأفضل وقد سيّره في عسكرٍ جمٍّ كثير العدد لقصد مدينة ماردين لما بلغه أن صاحبها قد تعرّض إلى بعض القرى التي له ففتروا عن الحركة ثم جاءتهم الأخبار بأنه في ظاهر مدينة حران مقيم في نحو مائتي خيمةٍ لا غير فعادوا وتحرّكوا وحتى تمّ التفاهم مع صاحب سنجار عماد الدين، وأقبلت العساكر الشامية التي سيّرها الملك الأفضل وغيره إلى عمه الملك العادل فامتنع بها.

سار عز الدين مسعود عن الموصل إلى نصيبين

واجتمع هو وأخوه عماد الدين بها وساروا على سنجار نحو الرها وكان الملك العادل قد عسكر قريباً منها بمرج الريحان فخافهم خوفاً عظيماً، فلما وصل عز الدين مسعود إلى (تل موزن) أصابه المرض وحلّ به إسهال فأقام عدة أيامٍ فضعفت منه الحركة وكثر نزول الدم مع البراز فخاف الهلاك فترك العساكر مع أخيه عماد الدين ورجع في مائتي فارسٍ ومعه مجاهد الدين قايماز ومجد الدين أبو السعادات فلما سار مسافةً استولى الضعف فأحضر مجد الدين أبا السعادات وكتب وصيةً ثم تابع السير فدخل الموصل وهو مريض وذلك في أول شهر رجب سنة ٥٨٩هـ، وبقي في مرضه حتى توفي في التاسع والعشرين من شهر شعبان في السنة نفسها.

مسير الملك العزيز عثمان إلى دمشق:

سار صاحب مصر الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين إلى دمشق سنة ٥٩٠هـ وبها أخوه الأكبر الملك الأفضل نور الدين عليّ، ونزل عثمان بنواحي الميدان فأرسل الملك الأفضل إلى عمه الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب صاحب الجزيرة الفراتية يستنجده وكان الملك الأفضل غاية الواثق به والمعتمد

عليه فسار الملك العادل إلى دمشق هو والملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب وناصر الدين بن محمود بن تقي الدين عمر صاحب حماة وشيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص وعسكر الموصل وغيرها، فاجتمع هؤلاء جميعاً بدمشق واتفقوا على حفظها علماً منهم أن الملك العزيز عثمان إن ملكها أخذ بلادهم، فلما علم الملك العزيز اجتماعهم علم أنه لا قدرة له على البلد فترددت الرسل بين الطرفين بالصلح واستقرت الأمور على أن يكون بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين للعزيز وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها للأفضل على ما كانت عليه، ويعطي الأفضل أخاه الظاهر جبلة واللاذقية، وأن يكون للعادل بمصر أقطاعه الأول واتفقوا على ذلك، ورجع العزيز إلى مصر وعاد كل واحدٍ من الملوك إلى بلده.

وعاد الملك العزيز عثمان صاحب مصر فخرج في السنة التالية (٥٩١هـ) إلى دمشق يريد قتال أخيه الملك الأفضل وانتزاعها منه وذلك أنه عندما سار إليها في العام الفائت ورجع خائباً أخذ المماليك الذين عنده من مماليك أبيه والمعروفون بالصلاحية (فخر الدين جركس) و(سرانقر) و(قراجا) وغيرهم، وقد كانوا منحرفين عن الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين لأنه أخرج

بعضهم من عنده مثل: ميمون القصري، وسنقر الكبير، وأيبك وغيرهم فكانوا يُخوّفون العزيز من أخيه الأفضل ويقولون له: إن المماليك الأسدية وغيرهم من عسكر مصر يريدون أخاك ونخاف أن يستميلهم إليه ويخرجوك من البلاد والمصلحة تقتضي أن تأخذ دمشق فخرج في العام الماضي ورجع خائباً، وتجهّز هذه السنة وأراد المسير فوصل الخبر إلى الأفضل بدمشق فسار إلى عمه الملك العادل أبي بكر فاجتمع به في قلعة جعبر ودعاه إلى نصرته، وسار من عنده إلى أخيه الملك الظاهر غازي بحلب فاستنجد به، وسار الملك العادل من قلعة جعبر إلى دمشق فسبق الأفضل إليها ودخلها، وكان الأفضل لثقته به قد أمر نوابه بإدخاله إلى القلعة، ثم عاد الأفضل من حلب إلى دمشق، فأرسل مقدم الأسدية وهو سيف الدين أيازكوش وغيره من الأسدية ومن الأكراد أبو الهيجاء السمين وغيره إلى الأفضل والعادل بالانحياز إليهما ويكونون معهما فيأمراهم بالاتفاق مع العزيز والخروج إلى دمشق ليسلّموه إليهما. وكان سبب الانحراف عن العزيز وميلهم إلى الأفضل أن العزيز لما ملك مصر مال إلى المماليك الناصرية وقدّمهم ووثق بهم ولم يلتفت إلى هؤلاء الأمراء فأنفوا من ذلك ومالوا إلى أخيه وأرسلوا إلى الأفضل والعادل فاتفقا على

ذلك. وتمّ الاتفاق بحضور رسل الأمراء إلى دمشق واجتماعهم مع العادل والأفضل على أن يملك الأفضل الديار المصرية ويُسلّم دمشق إلى عمه الملك العادل.

خرج العادل والأفضل من دمشق للقاء العزيز وانحاز إليهما من ذكرنا من أمراء العزيز فلم يمكنه بعد ذلك المقام فعاد منهزماً خائباً يطوي المراحل بسرعةٍ خوف الطلب ولا يصدق النجاة وتخلّى عنه بعض أصحابه بالطريق حتى وصل إلى مصر. وأما العادل والأفضل فقد أرسلا إلى القدس وفيها نائب العزيز فسلّمها إليهما، وسارا فيمن معهما إلى مصر فرأى العادل التحاق العساكر بالأفضل واجتماعهم عليه فخاف أن يأخذ مصر ولا يسلّمه دمشق فأرسل سراً إلى العزيز يأمره بالثبات وأن يجعل بمدينة بلبيس من يحفظها وتكفّل بأن يمنع الأفضل وغيره من مقاتلة من بها، فجعل العزيز بها الناصرية ومقدمهم فخر الدين جركس ومعهم غيرهم.

وصل العادل والأفضل إلى مدينة بلبيس فأراد الأفضل مناجزتهم أو تركهم بها والرحيل إلى القاهرة فمنعه العادل من الأمرين، وقال له: هذه عساكر الإسلام فإذا اقتتلوا في الحرب فمن يردّ العدو الكافر، وما بنا إلى هذا حاجة فإن البلاد لك وبحكمك ومتى

قصدت القاهرة وأخذتها قهراً زالت هيبة البلاد وطمع فيها الأعداء وليس فيها من يمنعك عنها، وطالت الأيام وأرسل إلى العزيز سرّاً يأمره بإرسال القاضي وكان مطاعاً عند البيت الصلاحي لعلو منزلته عند صلاح الدين فحضر عندها وأجرى ذكر الصلح واستقرّ الأمر بعد نقاشٍ أن تكون مدينة القدس للأفضل وكذا جميع البلدان في طبرية والغور إضافةً إلى ما بيده، ويكون للعادل أقطاعه الذي كان قديماً ويكون مقيماً بمصر عند الملك العزيز عثمان، وقد اختار ذلك لأن الأسدية والأكراد لا يريدون العزيز فهم يجتمعون معه فلا يقدر العزيز على منعه عما يريد، فلما استقرّ الأمر على ذلك وتعاهدوا عاد الأفضل إلى دمشق وبقي العادل بمصر عند العزيز.

استيلاء الملك العادل على دمشق:

كان نور الدين علي الملك الأفضل بن صلاح الدين كثير الثقة بعمه الملك العادل أبي بكر بن نجم الدين أيوب حتى تضايق أخوه الظاهر غازي صاحب حلب فأرسل إليه: أخرج عمنا من بيننا فإنه لا يأتي علينا منه خير، ونحن ندخل لك كل ما تريد، وأنا أعرف به منك وأقرب إليه فإنه عمي مثل ما هو عمك،

وأنا زوج ابنته، ولو علمت أنه يريد لنا خيراً لكنت أنا أولى به منك، فقال له الأفضل: أنت سيء الظنّ في كل واحدٍ، أيّ مصلحةٍ لعمنا في أن يؤذينا، ونحن إذا اجتمعت كلمتنا وسيّرنا معه العساكر من عندنا كلنا ملك من البلاد أكثر من بلادنا ونربح حسن الذكر.

لما أقام الملك العادل بمصر عند الملك العزيز عثمان ابن أخيه استماله وقرّر معه أن يخرج معه إلى دمشق ويأخذها من أخيه ويُسلّمها له، فسار معه من مصر إلى دمشق وحاصروها واستمالوا أميراً من أمراء الملك الأفضل يقال له: العزيز بن أبي غالب الحمصي، وكان الأفضل كثير الإحسان إليه والاعتماد عليه والثقة به فسلّم إليه الباب الشرقي بدمشق ليحفظه فمال إلى العزيز والعادل ووعدهما أن يفتح لهما الباب ويُدخل العسكر منه إلى البلد غفلةً ففتحه اليوم السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٩٢هـ وقت العصر وأدخل الملك العادل منه ومعه جماعة من أصحابه فلم يشعر الأفضل إلا وعمه معه في دمشق. وركب الملك العزيز عثمان بالميدان الأخضر غربي دمشق (بين نهر بردى وفرعه نهر بانياس) فلما رأى الأفضل أن البلد قد مُلك خرج إلى أخيه وقت المغرب واجتمع به، ودخلا معاً البلد، واجتمعا بعمهما الملك العادل وقد نزل بدار

أسد الدين شيركوه وتحادثوا فاتفق العادل والعزيز أن أوهما الأفضل أنهما يُبقيان عليه دمشق وذلك خوفاً منه إذ ربما جمع من عنده من العسكر وثار بهما ومعه العامة فأخرجهم من البلد لأن العادل لم يكن في كثرةٍ من العسكر. وعاد الأفضل إلى القلعة، وبات العادل في دار شيركوه، وخرج العزيز إلى المخيم فبات فيه. وخرج العادل من الغد إلى مخيمٍ خاصٍ به فأقام به وعساكره في البلد. وكان الأفضل يخرج إليهما في كل يومٍ ويجتمع بهما فبقوا كذلك أياماً، ثم أرسلا إليه وطلبا منه مغادرة القلعة وتسليم البلد على أساس أن تُعطى له قلعة صلخد، ويُسلّم أعمال دمشق جميعها، فخرج الأفضل ونزل في مخيمٍ خارج البلد غربي دمشق، وتسلّم العزيز القلعة ودخلها وأقام بها أياماً، ثم إن العزيز سلّم دمشق للعادل وخرج منها وعاد إلى مصر، وسار الأفضل إلى صلخد.

العادل يأخذ يافا من الصليبيين:

انتهت هدنة الرملة التي كانت بين صلاح الدين والصليبيين سنة ٥٨٨هـ فجددها الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٩٣هـ وزاد في مدتها، وكان الأمير أسامة صاحب بيروت يرسل المراكب البحرية فتقطع

الطريق على الصليبيين فاشتكى الصليبيون من ذلك أكثر من مرةٍ إلى الملك العادل بدمشق وإلى الملك العزيز بمصر فلم يمنعا الأمير أسامة من ذلك فأرسلوا إلى ملوكهم فيما وراء البحر يشتكون إليهم فيما يفعل بهم المسلمون ويقولون إن لم تُنجدونا أخذ المسلمون البلاد فأمدهم الإفرنج بالعساكر الكثيرة وكان أكثرهم من ملك الألمان، فلما سمع الملك العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب العسكر، وأرسل إلى ديار الجزيرة الفراتية والموصل يطلب العسكر أيضاً فجاءه الأمراء واجتمعوا على عين جالوت على مقربةٍ من بيسان فأقاموا شهر رمضان وأياماً من شهر شوال ثم ساروا إلى يافا وملكوا المدينة وامتنع من بها بالقلعة التي لها فحاصر المسلمون القلعة وملكوها عنوةً وقهراً بالسيف في يوم الجمعة وهو اليوم نفسه الذي دخلوا فيه المدينة وأخذوا كل ما بها غنيمةً وأسراً وسبياً، وجاء الصليبيون من عكا ليمنعوا المسلمين عن يافا فلما وصلوا إلى بلدة قيسارية جاءهم الخبر بدخول المسلمين يافا فعادوا وكان سبب تأخرهم أن ملكهم الكندهري سقط من موضعٍ عالٍ بعكا فمات فاختلفت أحوالهم فتأخّروا لذلك، ورجع المسلمون إلى عين جالوت.

دخول الصليبيين بيروت:

بعد أن ملك المسلمون مدينة يافا عزم الصليبيون على المسير إلى بيروت فانطلق الملك العادل مع العسكر في شهر ذي القعدة سنة ٥٩٣هـ إلى مرجعيون وسيّر فرقةً إلى بيروت فوصلوا إليها وهدموا سورها في اليوم السابع من شهر ذي الحجة وعملوا على هدم القلعة فمنعهم الأمير أسامة من ذلك وتكفّل بحفظ المدينة. وسار الصليبيون من عكا إلى صيدا، وسار عسكر المسلمين من بيروت نحو صيدا فالتقوا بالصليبيين واقتتلوا وقُتل عدد من الطرفين وحجز بينهم الليل، وتابع الصليبيون المسير نحو بيروت في التاسع من شهر ذي الحجة سنة ٥٩٣هـ فوصلوا إليها فلما اقتربوا منها هرب منها أميرها أسامة ومن معه من المسلمين فملكها الصليبيون من غير قتالٍ، وسيّر الملك العادل فرقةً من المسلمين نحو صيدا فعملت على إزالة آثار الصليبيين منها، ثم تابعت سيرها نحو صور للهدف نفسه، فلما سمع الصليبيون بذلك رحلوا عن بيروت واتجهوا إلى صور وأقاموا عليها، ونزل المسلمون عند قلعة هونين في جبل عامل جنوبي لبنان اليوم.

أذن الملك العادل لعسكر المسلمين الشرقية بالعودة إلى بلدانهم ظنّاً منه أن الصليبيين يقيمون

بمواقعهم، وأراد أن يسمح لعسكر مصر بالعودة أيضاً فأتاه الخبر في منتصف شهر المحرم سنة ٥٩٤هـ أن الصليبيين يستعدون للمسير إلى حصن تبنين فبعث العادل إليه عسكراً يحفظونه ويحمونه. وسار الصليبيون من صور إلى تبنين في أول شهر صفر سنة ٥٩٤هـ وقاتلوا الذين به من المسلمين ونقبوا الحصن، فلما علم الملك العادل بذلك أرسل إلى العزيز بمصر يطلب منه أن يحضر هو بنفسه ويقول له: إن حضرت يمكننا العمل ـ إن شاء الله ـ وإن لم تحضر فلا يمكن حفظ هذا الثغر، فسار العزيز مجداً فيمن بقي معه من العسكر.

أما المسلمون الذين تحصّنوا في تبنين فإنهم قد رأوا أن النقب قد خرب القلعة ولم يبق إلا أن يملكها الصليبيون بالسيف فنزل عندها بعضهم إلى الصليبيين يطلب الأمان على أنفسهم وأموالهم ليُسلّموا القلعة وكان الطلب من القسيس (الخنصلير) مقدم الألمان، فقال بعض الصليبيين المحلّيين لهؤلاء المسلمين الذي جاءوا يطلبون الأمان: إن سلّمتم الحصن لهذا القسيس أسركم وقتلكم فاحفظوا نفوسكم فعادوا كأنهم يشاورون أصحابهم الذين في الحصن على الاستسلام، فلما صعدوا إلى الحصن أصرّوا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمي نفسه فحموا حصنهم إلى أن وصل الملك

العزيز صاحب مصر إلى عسقلان في شهر ربيع الأول فلما سمع الصليبيون بقدومه واجتماع المسلمين، وأن الصليبيين ليس لهم ملك يجمعهم بعد وفاة الكندهري وأن أمرهم إلى امرأةٍ وهي الملكة امرأة الكندهري فاتفقوا وأرسلوا إلى ملك جزيرة قبرص واسمه (هيمري) وهو أخو الملك الذي أُسر يوم حطّين فزوّجوه بالملكة زوجة الكندهري، فلما ملكهم لم ير الزحف إلى تبنين ولا القتال، واتفق وصول الملك العزيز صاحب مصر في أول شهر ربيع الثاني سنة ٥٩٤هـ فرحل هو والعسكر إلى جبل عامل فأقاموا أياماً والأمطار تنهمر فبقي إلى الثالث عشر من شهر ربيع الثاني ثم سار واقترب من الصليبيين فأمر رماة النشّاب فرموهم وعادوا فرتّب العسكر ليزحف على الصليبيين ويجدّ في قتالهم فانسحبوا ليلاً إلى مدينة صور في الخامس عشر من الشهر المذكور ثم انطلقوا إلى عكا فسار المسلمون إلى اللجون فنزلوا هناك على بعد خمسةٍ وستين كيلو متراً إلى الشرق من طبرية وتراسلوا بالصلح وطال الأمر فعاد الملك العزيز إلى مصر لما سمع من تدبيرِ أمرٍ للانتهاء منه ومن فخر الدين جركس مدبّر دولته، وبقي العادل وترددت الرسل بينه وبين الصليبيين بالصلح في شهر شعبان سنة ٥٩٤هـ، وتمّ الصلح فسار العادل إلى دمشق

ومنها إلى ماردين في أرض الجزيرة الفراتية.

وفاة صاحب اليمن طغتكين:

توفي في شهر شوال سنة ٥٩٣هـ صاحب اليمن سيف الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب أخو صلاح الدين وهو في مدينة زبيد باليمن، وهو صاحبها، وملك اليمن بعده ولده إسماعيل وكان أهوج ادّعى أنه قرشي من بني أمية وخطب لنفسه بالخلافة وتلقّب بالهادي فلما سمع عمه الملك العادل بذلك ساءه وأهمّه، وكتب إليه يلومه ويوبّخه ويأمره بالعودة إلى نسبه الصحيح، فلم يلتفت إلى كلام عمه، وكان سيء السيرة مع جنده وأمرائه فوثبوا عليه وقتلوه وجعلوا ملكاً بعده أميراً من مماليك أبيه.

وفاة صاحب مصر الملك العزيز عثمان:

خرج العزيز إلى الصيد فوصل إلى الفيوم فرأى ذئباً فأسرع فرسه في طلبه فعثر الفرس فسقط عنه على الأرض فأصابته الحمى فعاد إلى القاهرة مريضاً ثم توفي في العشرين من شهر المحرم سنة ٥٩٥هـ، وكان الحاكم في بلده والغالب على أمره أحد مماليك أبيه صلاح الدين وهو فخر الدين جركس فأحضر أحد أصحاب

الملك العادل وكان في مصر فأراه العزيز ميتاً وسيّره إلى الشام إلى الملك العادل وهو يحاصر مدينة ماردين يستدعيه ليملك مصراً، غير أن القاصد قد رأى بالشام أحد أصحاب الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين، فقال له: قل لصاحبك الأفضل إن أخاه العزيز قد توفي وليس في البلاد من يمنعها فليسر إليها فليس دونها مانع، وكان الأفضل محبوباً للناس يريدونه فلم يلتفت إلى هذا القول، وإذ قد وصل إليه رسل الأمراء من مصر يدعونه إلى مصر ليُملّكوه. كان الأمير سيف الدين مقدّم الفرقة الأسدية وفرقته والأكراد يريدونه ويميلون إليه، وكان المماليك الناصرية مماليك أبيه الناصر صلاح الدين يكرهونه فاجتمع سيف الدين مقدم الأسدية وفخر الدين مقدم الناصرية ليتفقوا على من يولّونه مصراً. فقال فخر الدين: نولّي ابن الملك العزيز، فقال سيف الدين: إنه طفل وهذه البلاد ثغر الإسلام فلا بُدّ من قيّم بالملك يجمع العسكر ويقاتل بها، والرأي أن نجعل الملك في هذا الطفل الصغير ونجعل معه بعض أولاد صلاح الدين يتعهد الأمر إلى أن يكبر فإن العساكر لا تطيع غيرهم ولا تنقاد لأميرٍ سواهم فاتفقا على هذا، فقال فخر الدين جركس: فمن يتولّى هذا؟ فأشار سيف الدين: هو بعيد عنا إذ هو

بصلخد، فقال سيف الدين: نرسل إليه من يطلبه مجدّاً في سيره، فأخذ فخر الدين يغالطه، فقال سيف الدين: نمضي إلى القاضي الفاضل ونأخذ رأيه، فاتفقا على ذلك، وأرسل سيف الدين يعرفه ذلك ويشير عليه بتمليك الأفضل، فلما اجتمعا عنده وعرّفاه واقع الحال أشار بالأفضل، فأرسل سيف الدين مباشرةً وراءه الطلب فلبّى الأفضل الدعوة وخرج من صلخد لليلتين بقيتا من شهر صفر سنة ٥٩٥هـ مُتنكّراً في تسعة عشر نفراً لأن البلاد كانت لعمه الملك العادل ويضبط نوابه الطرق لئلا يسير إلى مصر حتى يأتي العادل ويملكها، فلما اقترب الأفضل من القدس وقد عدل عن الطريق المؤدّية إليها لقيه فارسان أُرسلا إليه من القدس فأخبراه أن أهل القدس قد صاروا في طاعته، وجدّ الأفضل بالسير فوصل إلى بلبيس في الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ، ولقيه إخوته وجماعة الأمراء المصريين والأعيان فاتفق أن أخاه الملك المؤيد مسعوداً صنع له طعاماً وصنع له فخر الدين جركس مملوك أبيه طعاماً فابتدأ بطعام أخيه ليمينٍ حلفها أخوه أن يبدأ من عنده بالطعام فظنّ فخر الدين أنه فعل هذا ابتعاداً عنه وسوء نيّةٍ فيه فتغيّر رأيه وعزم على الهرب، فحضر عند الأفضل وقال له: إن جماعتين من العرب قد اقتتلوا

ولئن لم نمض نصلح بينهما يُؤدّي ذلك إلى فسادٍ، فأذن له الأفضل بالمسير إليهم، ففارقه وسار مجدّاً إلى بيت المقدس ودخله وتغلّب عليه ولحقه جماعة من المماليك الناصرية منهم: قراجة الزرمكشي، وسراسنقر وغيرهما، وأحضروا عندهم ميموناً القصري صاحب نابلس وهو من المماليك الناصرية فقويت شوكتهم به، واجتمعت كلمتهم على خلاف الأفضل، وأرسلوا إلى الملك العادل وهو على ماردين يطلبونه إليهم ليدخلوا معه مصراً فيملكوها فلم يسر إليهم لأن عزيمته قد قويت في أخذ ماردين وقد عجز من بها عن حفظها وأنه يأخذها ولا يفوته ما يريدون. وأما الأفضل فإنه دخل إلى القاهرة في السابع من ربيع الأول سنة ٥٩٥هـ، وسمع بهرب فخر الدين جركس فأهمّه ذلك وتردّدت الرسل بينه وبين أولئك الهاربين ليعودوا إليه فلم يزدادوا إلا بُعداً وتعنّتاً ولحقهم جماعة آخرين من المماليك الناصرية فاستوحش الأفضل من الباقين فقبض عليهم، وهم: شقيرة، وأيبك فطيس، وألبكي الفارس وكل واحدٍ من هؤلاء بكل مشهور ومقدّم مذكور. وأقام الأفضل بالقاهرة وأصلح الأمور، وكان المرجع في الأمور كلها سيف الدين يازكج مقدم الفرقة الأسدية.

حصار الأفضل دمشق:

بعد أن ملك الأفضل مصر ومعه الطفل (الملك المنصور) ابن أخيه الملك العزيز واجتمعت الكلمة على الأفضل وصل إليه رسول أخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب ورسول ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص يحثّانه على الخروج إلى دمشق واغتنام فرصة غياب عمه الملك العادل عنها في ماردين وبذلا له المساعدة بالمال والرجال فخرج من مصر في منتصف شهر جمادى الأولى سنة ٥٩٥هـ على عزيمة المسير إلى دمشق وأقام بظاهر القاهرة إلى اليوم الثالث من شهر رجب ثم تحرّك بمسيرٍ فيه بطء ولو تعجّل لملك دمشق ـ والله أعلم ـ لكنه تأخّر فوصل إلى دمشق في الثالث عشر من شهر شعبان فنزل قبلها بعشرة كيلو مترات، وكان العادل قد أرسل إليه نائبه بدمشق يعلمه قصد الأفضل.

سار الملك العادل عن ماردين وخلّف عليها ولده محمداً (الملك الكامل) وجدّ في السير مع الفرقة العسكرية التي معه فسبق الأفضل ودخل دمشق قبله بيومين. وأما الأفضل فإنه تقدم إلى دمشق من الغد وهو اليوم الرابع عشر من شهر شعبان ودخل في ذلك اليوم نفسه جماعة يسيرة أفرادها من بلدة عسقلان إلى دمشق

من باب السلام وسبب دخولهم من ذلك الباب رغم أنه في الجهة الشمالية من البلد أن جماعةً من جنده بيوتهم تجاور ذلك الباب فاجتمعوا بالأمير مجد الدين أخي الفقيه عيسى الهكاري وتحدّثوا معه في أن يقصد هو والعسكر باب السلام ليفتحوه لهم فأراد مجد الدين أن يختص وحده بفتح الباب، فلم يعلم الأفضل ولم يأخذ معه أحداً من الأمراء بل سار وحده ومعه نحو خمسين فارساً من أصحابه ففتح له الباب فدخله هو ومن معه فلما رآهم عامة أهل البلد نادوا بشعار الأفضل، واستسلم من هناك من الجند ونزلوا عن الأسوار، ووصل الخبر إلى الملك العادل فكاد يستسلم ولكنه تماسك، ووصل الأفضل ومن معه إلى البريد، فلما رأى عسكر العادل قلة الداخلين وانقطاع عددهم وثبوا بهم وأخرجوهم من حيث دخلوا، وكان الأفضل قد نصب خيمةً بالميدان الأخضر غربي البلد بين نهر بردى وفرعه نهر بانياس واقترب عسكره من باب الحديد وهو من أبواب القلعة من ناحية الغرب.

تأخّر الأفضل وعسكره عن مواقعهم في العشرين من شهر شعبان سنة ٥٩٥هـ، ووصل أسد الدين شيركوه ابن محمد من حمص إلى الأفضل في الخامس والعشرين من شهر شعبان، ووصل بعد ذلك الملك

الظاهر غازي صاحب حلب في الثاني عشر من شهر رمضان وأرادوا الزحف إلى دمشق فمنعهم الملك الظاهر مكراً بأخيه الملك الأفضل وحسداً له، ولم يشعر الملك الأفضل بذلك. وأما الملك العادل فإنه لما رأى كثرة العساكر القادمة وتوالي الإمدادات إلى الأفضل عظم عليه الخطب فأرسل إلى المماليك الناصرية في بيت المقدس. يستدعيهم إليه فساروا في نهاية شهر شعبان فوصل خبرهم إلى الملك الأفضل فسيّر إليهم صاحب حمص أسد الدين ومعه جماعة من الأمراء فساروا إلى طريقهم ليمنعوهم من القدوم ولكنهم سلكوا طريقاً غير طريقهم فجاء المماليك الناصرية ودخلوا دمشق في الخامس من شهر رمضان فقوي بهم الملك العادل وأيس الملك الأفضل من دمشق، وخرج عسكر دمشق فباغتوا العسكر المصري غير أنهم قد وجدوهم باتوا مستعدين وعلى حذرٍ لذا لم يستطيعوا فعل شيء فرجعوا عنهم خائبين وأقام عسكر الأفضل على دمشق مترددين بين قوةٍ وضعفٍ وتقدّمٍ وتخاذلٍ.

أرسل الملك العادل خلف ولده الملك الكامل محمد وكان قد رحل عن ماردين وأقام بحران فاستدعاه إليه بعسكره فأسرع بالسير إليه فدخل دمشق في الثاني عشر من شهر صفر سنة ٥٩٦هـ، فرحل عسكر الأفضل

عن دمشق في السابع عشر من شهر صفر من السنة نفسها ونزلوا في سفح جبل الكسوة ورأوا أن يقيموا بحوران إلى نهاية فصل الشتاء، ولشدة البرد تغيّر الرأي واتفقوا أنه يعود كل منهم إلى بلده فعاد الملك الظاهر صاحب حلب ورجع أسد الدين صاحب حمص إلى بلدهما كما رجع الملك الأفضل إلى مصر.

تملك العادل ديار مصر:

بعد أن رجع الملك الأفضل من الشام إلى مصر وأقام بـ (بلبيس) وصلت إليه الأخبار أن عمه الملك العادل قد سار من دمشق قاصداً مصر ومعه المماليك الناصرية وقد حلف لهم أن يكون ولد الملك العزيز هو صاحب مصر وأن يكون الملك العادل هو المدبّر للدولة إلى أن يكبر ولد الملك العزيز وعلى هذا الاتفاق ساروا، وكان عسكر ولد العزيز قد تفرّق عن الأفضل. وسار كل أميرٍ إلى أقطاعه ليرعوا دوابهم من الأعشاب، وأراد الأفضل جمعهم من أطراف البلاد فأعجله الأمر عن ذلك ولم يجتمع منهم إلا عدد يسير ممن قرب أقطاعه. ووصل الملك العادل فأشار بعض الناس على الأفضل أن يخرب سور بلبيس وأن يقيم بالقاهرة، وأشار بعضهم عليه أن يسير إلى طرف البلاد ففعل ذلك

فسار عن بلبيس والتقى مع عمه الملك العادل في السابع من شهر ربيع الثاني سنة ٥٩٦هـ. فانهزم الأفضل ودخل القاهرة ليلاً، وسار العادل فنزل على القاهرة وحاصرها فجمع الأفضل من عنده من الأمراء واستشارهم فرأى منهم تخاذلاً فأرسل رسولاً إلى عمه بالصلح وتسليم البلاد إليه وأخذ العوض عنها، وطلب دمشق فلم يجبه فنزل عنها إلى حران والرها فلم يجبه فنزل إلى ميافارقين فأجابه إلى ذلك وتحالفوا عليه وخرج الأفضل من مصر يوم السبت الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥٩٦هـ. ولما وصل الأفضل إلى صلخد أرسل من يتسلّم ميافارقين وما اتُفق عليه فامتنع نجم الدين أيوب من تسليم ميافارقين وسلّم ما عداها، فترددت الرسل بين الأفضل والعادل في ذلك، ويقول العادل: إن ابنه قد عصاه، فأمسك الفاضل عن المراسلة في ذلك لقناعته أن هذا تمّ بأمر العادل.

ولما ثبتت قدم العادل بمصر قطع خطبة الملك المنصور بن الملك العزيز عثمان في شهر شوال سنة ٥٩٦هـ، وخطب لنفسه، ولكن ذلك لم يرض به الأمراء المصريون فتغيّرت نياتهم نحوه ورأيهم في طاعته فراسلوا ابني أخويه الأفضل بصلخد والظاهر بحلب وتكررت المراسلات والمكاتبات بينهم يدعونهما إلى

قصد دمشق وحصارها ليخرج الملك العادل إليهم فإذا خرج إليهم من مصر أسلموه وصاروا معهما فتملّكا البلاد، وكثر الكلام بذلك حتى فشا الخبر ووصل إلى الملك العادل، وأُضيف إلى ذلك أن نهر النيل لم تصل الزيادة فيه إلى المستوى المطلوب حتى تُروى الأرض ويزرع الناس لذا زاد الغلاء وضعفت قوة الجند.

كان الأمير فخر الدين جركس قد ارتحل من مصر إلى الشام هو وجماعة من المماليك الناصرية لحصار بانياس ليأخذها فخر الدين لنفسه ويتولّى أمرها وذلك بأمرٍ من الملك العادل، وكانت لأميرٍ تركي اسمه بشارة اتهمه الملك العادل ببعض الأمور فأمر فخر الدين جركس بذلك، وكان أمير من أمراء العادل يعرف بـ (عز الدين أسامة) وقد حجّ في هذه السنة (٥٩٦هـ) فلما عاد من الحج وقارب صلخد نزل الملك الأفضل فلقيه وأكرمه ودعاه إلى نفسه فأجابه وحلف له وعرّفه الأفضل جلية الحال، وكان أسامة من بطانة العادل وإنما أظهر الأفضل لأسامة ما أظهر لينكشف له الأمر، فلما فارق الأفضل أرسل إلى العادل وهو بمصر يعرفه الخبر جميعه فأرسل العادل إلى ولده الذي بدمشق يأمره بحصر الأفضل في صلخد، وكتب إلى إياس جركس وميمون القصري وغيرهما من المماليك الناصرية يأمرهم

بالاجتماع مع ولده على حصار الأفضل، ووصل الخبر إلى الأفضل فسار إلى أخيه الملك الظاهر غازي بحلب في مستهل شهر جمادى الأولى سنة ٥٩٧هـ، فوصل إليه في العاشر من الشهر. وكان الظاهر غازي قد أرسل أميراً كبيراً من أمرائه إلى عمه الملك العادل فمنعه العادل من الوصول إليه وأمره بأن يكتب رسالته فلم يفعل وعاد لوقته فتحرك الظاهر لذلك وجمع عسكره وقصد مدينة منبج فملكها في السادس والعشرين من شهر رجب سنة ٥٩٧هـ، وسار إلى قلعة نجم وحاصرها فتسلّمها في نهاية شهر رجب. وأما الملك المعظم عيسى بن الملك العادل المقيم بدمشق فإنه سار إلى بصرى، وأرسل إلى فخر الدين جركس ومن معه وهم على مدينة بانياس الجنوب يحاصرونها يدعوهم إليه فلم يجيبوه إلى ذلك بل غالطوه، فلما طال مقامه على بصرى عاد إلى دمشق. وأرسل الأمير أسامة يدعوهم إلى مساعدته فاتفق أنه جرى بينه وبين ألبكي الفارس من المماليك الناصرية منافرة أغلظ له ألبكي القول وتعدّى إلى الفعل باليد وثار العسكر جميعهم على أسامة فاستقدم بميمون فأمنه وأعاده إلى دمشق، واجتمعوا كلهم عند الملك الظافر خضر بن صلاح الدين وأنزلوه من صلخد وأرسلوا إلى الملك الظاهر والملك الأفضل

يحثّونهما على الوصول إليهم، والملك الظاهر يتوانى ويتأخّر فوصل من منبج إلى حماة في عشرين يوماً وأقام عليها يحاصرها وبها صاحبها ناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر وبقي على حماة محاصراً إلى التاسع عشر من شهر رمضان سنة ٥٩٧هـ ثم اصطلحا وحمل له ناصر الدين ثلاثين ألف دينارٍ صوريةً، وساروا إلى حمص ومنها إلى دمشق على طريق بعلبك فنزلوا على دمشق عند مسجد القدم فأتاهم المماليك الناصرية مع الملك الظافر خضر بن صلاح الدين، وكان الاتفاق قد تمّ بين الظاهر وأخيه الأفضل أنهم إذا ملكوا دمشق تكون بيد الأفضل ويسيرون إلى مصر فإذا ملكوها تسلّم الظاهر دمشق وتبقى الشام جميعها له وتبقى مصر للأفضل. وسلم الأفضل صلخد إلى زين الدين قراجة مملوك والده ليحضر في خدمته، وأنزل والدته وأهله منها وسيّرهم إلى حمص فأقاموا عند صاحبها أسد الدين شيركوه.

سار الملك العادل من مصر إلى الشام فنزل على مدينة نابلس وسيّر جمعاً من العسكر إلى دمشق ليحفظها فوصلوا إليها قبل وصول الأفضل والظاهر، وحضر فخر الدين جركس وغيره من المماليك الناصرية فوصلوا قبل وصول الأفضل والظاهر وزحفوا إلى دمشق وقاتلوا من بها في الرابع عشر من شهر ذي القعدة سنة ٥٩٧هـ

ولكن حدث خلاف بين الأفضل وأخيه الظاهر إلى من تكون دمشق، ولم يكن التفاهم، فقال الأفضل للعساكر الذين جاءوا إليهم: إن كنتم جئتم إليّ فقد أذنت لكم بالعودة وإن كنتم جئتم إلى أخي الملك الظاهر فأنتم وهو أخبر، فقالوا: ما نريد سواك، والعادل أحب إلينا من أخيك فأذن لهم بالعودة فمنهم من دخل دمشق ومنهم من عاد إلى أقطاعه وهرب فخر الدين جركس وزين الدين قراجة الذي أعطاه الأفضل صلخد.

انفسخ أمر الاتفاق بينهم فعادوا إلى تجديد الصلح مع الملك العادل وترددت الرسل بينهم وتمّ الصلح على أن يكون للظاهر منبج وأفامية وكفر طاب وقرى معينة من المعرة.

ويكون للأفضل سميساط وسروج ورأس العين.

ورحلوا عن دمشق في أول شهر المحرم سنة ٥٩٨هـ فقصد الأفضل حمص فأقام بها، وسار الظاهر إلى حلب، ووصل العادل إلى دمشق في التاسع من شهر المحرم، وسار الأفضل إليه من حمص فاجتمع به بظاهر دمشق، وعاد من عنده إلى حمص وسار منها ليتسلّم ما تقرر له، وهي سميساط، وسروج، ورأس العين.

المنافسة على البلدان:

أخذ الملك العادل من ابن أخيه الملك الأفضل بلدة سروج ورأس العين وبقي بيده سميساط وقلعة نجم فأرسل الملك الظاهر غازي يطلب من أخيه الملك الأفضل نور الدين علي قلعة نجم وضمن له في أن يشفع إلى عمه الملك العادل في إعادة ما أخذ منه، فلم يُعطه القلعة فتهدّده في أن يكون إلباً عليه، ولم تزل الرسل تتردّد بينهما حتى سلّمها إليه في شهر شعبان سنة ٥٩٩هـ، وطلب منه أن يُعوّضه عنها قرىً أو مالاً فلم يفعل.

الصراع في الجزيرة الفراتية:

كانت هناك وحشة بين نور الدين أرسلان شاه وبين ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي صاحب سنجار ثم زالت واتفقا وسارا معاً إلى ميافارقين سنة ٥٩٥هـ غير أن الملك العادل أبا بكر بن نجم الدين أيوب صاحب مصر والشام وبلاد الجزيرة الفراتية استطاع أن يستميل قطب الدين محمد إليه فمال إليه وخطب له فلما سمع نور الدين أرسلان شاه ذلك سار إلى مدينة نصيبين في نهاية شهر شعبان وهي لقطب الدين محمد فحاصرها ثم ملك المدينة وبقيت القلعة

فحاصرها عدة أيامٍ وبينما هو عليها وقد أشرف على دخولها أتاه الخبر أن مظفر الدين بوكبري بن زين الدين علي صاحب أربيل قد قصد أعمال الموصل فنهب نينوى وأحرق غلالها فلما بلغه ذلك من نائبه بالموصل ترك نصيبين وسار إلى الموصل على نيّة التوجّه إلى أربيل وإعطاء العسكر الحرية في نهب أربيل والفساد فيها جزاءً بما فعل صاحبها ببلده، غير أن مظفر الدين قد رجع إلى بلده أربيل، وتحقّق نور الدين أن الذي بلغه وقع فيه زيادة فتوجّه إلى بلد تل أعفر وهي لصاحب سنجار قطب الدين محمد فحاصرها وأخذها ورتّب أمورها وأقام عليها سبعة عشر يوماً.

كان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل بن نجم الدين أيوب قد سار من مدينة حران إلى رأس العين نجدة لقطب الدين محمد صاحب سنجار ونصيبين وقد اتفق هو ومظفر الدين صاحب أربيل وصاحب الحصن وآمد وصاحب جزيرة ابن عمرو وغيرهم على ذلك وعلى منع نور الدين من أخذ شيءٍ من بلاده فكلهم خائف منه ولم يمكنهم الاجتماع وهو على نصيبين فلما فارقها نور الدين سار الملك الأشرف موسى إليها وأتاه أخوه نجم الدين أيوب صاحب ميافارقين وصاحب الحصن وصاحب جزيرة ابن عمرو

وصاحب دارا وساروا عن نصيبين نحو بلدة البقعاء[1] وسار نور الدين من تل أعفر[2] إلى كفرزمّار[3] وعزم على المطاولة ليتفرّقوا فأتاه كتاب من بعض مماليكه ويدعى (جرديك) وقد أرسله يتجسّس أخبارهم فيقلّلهم في عينه ويطمعه فيهم، ويقول: إن أذنت لي لقيتهم بمفردي. فسار حينئذٍ نور الدين إلى بلدة (بوشرى) فوصل إليها من الغد ظهراً وقد تعب أصحابه ودوابه ولقوا عناءً من شدة الحرّ فنزل بالقرب منهم أقلّ من ساعةٍ، وأتاه الخبر أن عساكر الخصم قد ركبوا فركب هو وأصحابه وساروا نحوهم فلم يجدوا لهم أثراً فعاد إلى خيامه ونزل هو وعسكره وتفرّق كثير منهم في القرى لتأمين العلف وما يحتاجون إليه فجاءه من أخبره بحركة الخصم وقصده فركب نور الدين وعساكره وتقدّموا إليهم وبينهم نحو خمسة عشر كيلاً فوصلوا إليهم وقد زاد

---

(١) البقعاء: كورة كبيرة بين الموصل ونصيبين، وهي من أرض الموصل، وقاعدتها بلدة برقعيد، وهناك بقعاء العيس وهي من كورة منبج، وبقعاء ربيعة وهي من كور منبج أيضاً. وهناك مواقع أخرى تحمل الاسم نفسه في جزيرة العرب في الحجاز وفي اليمامة.

(٢) تل أعفر: قلعة بين الموصل وسنجار، على تلٍّ وسط وادٍ فيه نهر جارٍ.

(٣) كفر زمّار: بلدة بين الموصل وسنجار.

تعبهم، والخصم مستريح، فالتقوا واقتتلوا ولم تطل الجولة إذ انهزم عسكر نور الدين، وانهزم هو أيضاً يطلب الموصل فوصل إليها في أربعة فرسان وتلاحق العسكر، وأتى الملك الأشرف موسى ومن معه فنزلوا في كفر زمّار فجالوا في البلدان محاربين، وطال المقام وترددت الرسل بالصلح فوقف الأمر على إعادة تل أعفر ويكون الصلح على الاتفاق الأول، وتوقّف نور الدين في إعادة تل أعفر فلما طال الأمر سلّمها إليهم وتصالحوا في أوائل سنة ٦٠١هـ وتفرّقت العساكر.

الغارة على حلب:

توالت الغارة على ولاية حلب من قبل ابن ليون الأرمني في سنة ٦٠٢هـ فنهب وحرق وأسر وسبى، فجمع صاحب حلب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي عسكره واستنجد بغيره من الملوك وسار نحو ابن ليون الذي نزل في طرف بلاده وليس إليه طريق إلا في جبالٍ وعرةٍ وعبر مضائق صعبةٍ فنزل على بُعد خمسةٍ وثلاثين كيلاً من حلب وجعل على مقدمته جماعةً من عسكره مع الأمير ميمون القصري[1] أحد مماليك

---

(١) القصري: نسبة إلى قصر الحكام العبيديين في مصر، وقد أخذ أبو ميمون القصر منهم، فنُسب إليه.

أبيه صلاح الدين، وأرسل الملك الظاهر سلاحاً وتموينا
إلى حصنٍ له هناك يقع على أطراف منطقة ابن ليون
الأرمني ويعرف هذا الحصن باسم (دربساك)، وطلب
من الأمير ميمون أن يبعث مع السلاح والتموين قوةً
لحمايتها فسيّر جماعةً كثيرةً من عسكره وبقي في قلّةٍ
فوصل الخبر إلى ابن ليون الأرمني فجدّ السير إليه
فوافاه في عسكرٍ قليلٍ فقاتله واشتدّ القتال بينهما وبعث
الأمير ميمون إلى الملك الظاهر يعرفه بواقع الحال،
ولكن كان بعيداً عنه، فطالت الحرب بينهم واستطاع
الأمير ميمون أن يحمي نفسه وأثقاله رغم قلّة عسكره
وكثرة خصمه الأرمن، وكان القتلى كثيرين من الجانبين،
وظفر الأرمن بأثقال المسلمين فغنموها وساروا بها
فالتقى بيهم المسلمون الذين كانوا قد ساروا مع الذخائر
إلى حصن دربساك فوقع القتال بين الطرفين فانهزم
المسلمون، ورجع الأرمن إلى بلادهم بما غنموا
واعتصموا بجبالهم وحصونهم.

نجم الدين بن الملك العادل يملك مدينة خلاط:

كان نجم الدين أيوب بن الملك العادل نائباً عن
أبيه على مدينة ميافارقين فاعتدى (بلبان) أمير خلاط
على مُلك نجم الدين فسار إليه نجم الدين واحتلّ عدة

مدنٍ وتابع سيره نحو خلاط فاعترض سبيله وقاتله وهزمه فرجع نجم الدين إلى بلده ميافارقين وجمع ما استطاع من العسكر وأمدّه أبوه الملك العادل بجيشٍ فقصد خلاط وسار إليهم بلبان فالتقيا في معركةٍ هُزم فيها بلبان فتراجع إلى خلاط واعتصم بها وأرسل رسولاً إلى مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرضروم يستنجده على نجم الدين فحضر بنفسه ومعه عسكره فاجتمعا وهزما نجم الدين، ثم غدر ابن قلج أرسلان بصاحب خلاط وقتله طمعاً في بلاده، فلما قتله سار مغيث الدين إلى خلاط فمنعه أهلها عنها فسار إلى ملازكرد فردّه أهلها أيضاً وامتنعوا عليه فلما لم يجد مطمعاً في البلاد رجع إلى بلده أرضروم.

أرسل أهل خلاط إلى نجم الدين أيوب يستدعونه إليهم ليملّكوه فحضر عندهم وملك خلاط وأعمالها سوى اليسير منها وكره الملوك المجاورون له ملكه لخلاط خوفاً من أبيه، وكذلك خافه الكرج وكرهوه فتابعوا الغارات على أعمال خلاط وبلادها ونجم الدين أيوب مقيم بخلاط لا يقدر على مفارقتها، فلقي المسلمون من ذلك أذىً شديداً، واعتزل جماعة من عسكر خلاط واستولوا على حصن (وان) وهو من أعظم الحصون وأمنعها على بحيرة (وان) وعصوا على نجم

الدين أيوب واجتمع إليهم جمع كثير وملكوا مدينة (أزجيش) وهي قرب خلاط وسكانها نصارى أرمن.

بعث نجم الدين أيوب إلى أبيه الملك العادل يُعرّفه الحال ويطلب منه نجدةً وأن يمدّه بعسكر، فأرسل إليه أخاه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل فاجتمعا في عسكرٍ كثير وحاصرا قلعة (وان) وبها عسكر خلاط الذين تمرّدوا، وجدّوا في قتالهم فضُعف من بها فسلّموها صلحاً وخرجوا منها وتسلّمها نجم الدين واستقرّ ملكه بمدينة خلاط وأعمالها وعاد أخوه الملك الأشرف موسى إلى بلده حران والرها.

غارات الصليبيين بالشام:

كثرت غارات الصليبيين في طرابلس وقلعة الحصن على مدينة حمص وأعمالها سنة ٦٠٤هـ، ولم يكن صاحب حمص أسد الدين شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه له بهم قوة ولا يقدر على دفعهم ومنعهم فاستنجد بصاحب حلب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين وغيره من ملوك الشام فلم ينجده أحد إلا الملك الظاهر فإنه سيّر له عسكراً أقاموا عنده ومنعوا الصليبيين عن حمص.

وخرج الملك العادل من مصر بالعساكر الكثيرة

وقصد مدينة عكا فاضطر صاحبها إلى الصلح وإطلاق أسرى من المسلمين، ثم سار الملك العادل إلى حمص ونزل على بحيرة قَدس (قطينة) وجاءته عساكر الشرق والجزيرة الفراتية فسار بها ودخل منطقة طرابلس، وحاصر موضعاً يسمى القلعيات وأخذه صلحاً وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من سلاحٍ ودواب وخرّبه وتقدّم إلى طرابلس فحصل على غنائم ورجع إلى بحيرة قَدس، وتردّدت الرسل بينه وبين الصليبيين في الصلح فلم يتمّ الاتفاق، ودخل فصل الشتاء، وطلبت عساكر المناطق الشرقية العودة إلى بلادهم قبل قدوم البرد فنزل جماعة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد هو إلى دمشق فأمضى فصل الشتاء بها، وعادت عساكر الجزيرة الفراتية إلى أماكنها.

وكان سبب خروج الملك العادل من مصر بالعسكر أن الصليبيين في قبرص أخذوا عدة قطعٍ من أسطول مصر، وأسروا من فيها فأرسل الملك العادل إلى صاحب عكا في ردّ ما أخذوا، ويقول: نحن في مرحلة صلحٍ، فلِمَ غدرتم بأصحابنا؟ فاعتذر صاحب عكا بأن أهل قبرص ليس لي عليهم حكم، وأن مرجعهم إلى الصليبيين الذين بالقسطنطينية، ثم إن أهل قبرص من الصليبيين ساروا إلى القسطنطينية بسبب غلاءٍ

كان عندهم تعذّرت عليهم الأقوات. وعاد حكم قبرص إلى صاحب عكا، وأعاد الملك العادل مراسلته فلم يجب، فخرج الملك العادل بالعساكر إلى عكا مهدّداً فأجابه حينئذٍ صاحبها إلى ما طلب وأرسل الأسرى.

الفتنة في مدينة خلاط:

بعد أن ملك نجم الدين أيوب الملك الأوحد بن الملك العادل مدينة خلاط سار عنها إلى ملازكرد لينظم أمورها فلما فارق خلاط وثبت أهلها على من بها من عسكر نجم الدين أيوب فأخرجوهم وأعلنوا العصيان وحاصروا القلعة وفيها عسكر لنجم الدين ونادوا بشعار (شاه أرمن) رغم أنه ميت لكنه إعلان هدف، فلما وصل الخبر إلى نجم الدين أيوب عاد إليهم وجاءه عسكر من جزيرة ابن عمرو فقوي بهم وحاصر مدينة خلاط فاختلف أهلها فيما بينهم ومال إليه بعضهم نكايةً بالآخرين فملك البلد فقتل من أهلها جماعةً وأسر عدداً من الأعيان وأرسلهم إلى مدينة ميافارقين، وكان يرسل إليهم كل يومٍ من يدعوهم إلى الإسلام فلم يُسلم منهم إلا القليل.

وفي سنة ٦٠٥هـ سار الكرج إلى ولاية خلاط وقصدوا مدينة أزجيش فحاصروها واحتلّوها عنوةً ونهبوا

جميع ما فيها من الأموال والأمتعة، وسبوا، وأحرقوا، وخرّبوها كلها، ولم يبق أحد من أهلها فأصبحت خاويةً على عروشها كأن لم تغن بالأمس وكان نجم الدين أيوب بن الملك العادل بمدينة خلاط وعنده كثير من العسكر غير أن الكرج أكثر، وعند أهل مدينة خلاط حقد فيخشى أن يخرج إلى الكرج فيثور أهل خلاط ويقع بين نارين ولا يستطيع العودة إلى مدينة خلاط، ورجع الكرج إلى بلاهم سالمين.

توسّع نفوذ الملك العادل:

كان بين نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل وبين ابن عمه قطب الدين محمد بن زنكي بن مودود صاحب سنجار عداوة مستحكمة. وتمت مصاهرة بين الملك العادل ونور الدين سنة ٦٠٥هـ. وذلك أن ولد الملك العادل تزوّج بابنةٍ لنور الدين، وكان لنور الدين وزراء يحبون أن يشتغل عنهم فحسّنوا له مراسلة الملك العادل والاتفاق معه على أن يقتسما البلاد التي لقطب الدين محمد وولاية جزيرة ابن عصرو التي لولد سنجر شاه بن غازي بن مودود فتكون بلاد قطب الدين محمد للملك العادل وتكون جزيرة ابن عمرو لنور الدين فوافق هذا

القول هوى في نفس نور الدين فأرسل إلى الملك العادل في المعنى فأجابه متبشراً وجاءه ما لم يكن يرجوه لأنه علم أنه متى ملك هذه البلاد ملك الموصل وغيرها وأطمع نور الدين أرسلان شاه أيضاً في أن يُعطي الملك العادل هذه البلاد إذا ملكها لولده الذي هو زوج ابنة نور الدين ويكون مقامه في خدمته بالموصل، وتمّ الاتفاق على ذلك وتحالفا على هذا، فبادر الملك العادل بالمسير في عسكره من دمشق وقصد منطقة الخابور وأخذها فلما سمع نور الدين بذلك ظهر عليه الخوف فأحضر من يرجع إلى رأيهم وقولهم، وأخبرهم بوصول الملك العادل واستشارهم فيما يفعل، فأما من أشار عليه سابقاً فقد سكتوا، وكان فيهم من لم يعلم ما سبق الاتفاق عليه لذا عظم الأمر عليه فأشار بالاستعداد للحصار وجمع الرجال وتأمين الذخائر وما يحتاج إليه من تموينٍ، فقال نور الدين: نحن فعلنا ذلك وخبّرهم بما كان، فقيل له: بأيّ رأيٍ تجيء إلى عدوٍّ لك هو أقوى وأكثر جمعاً وهو بعيد منك متى تحرّك لقصدك تعلم به فلا يصل إليك إلا وقد فرغت من جميع ما تريده، تسعى حتى يصير قريباً منك ويزداد قوةً إلى قوته، ثم إن الذي استقر بينكما أنه له يملكه بغير تعبٍ ولا مشقةٍ وتبقى أنت لا يمكنك أن تفارق

الموصل إلى جزيرة ابن عمرو وتحصرها والملك العادل هنا، هذا إن وفى لك بما تمّ الاتفاق عليه لا يصح أن تغادر الموصل وإن عاد إلى الشام لأنه قد ملك خلاط وبعض ديار بكر والجزيرة الفراتية جميعها وكل ذلك بيد أولاده فمتى سرت عن الموصل أمكنهم أن يحولوا بينك وبينها فما زدت على أن آذيت نفسك وابن عمك وقويت عدوك وجعلته شعارك، وقد فات الأمر ولا يصحّ إلا أن تقف معه على ما اتفقتما عليه لئلا يجعل ذلك حجةً ويبتدئ بك. وقد أخذ الملك العادل الخابور ونصيبين وسار إلى سنجار فحاصرها وكانت نيّة صاحبها قطب الدين محمد أن يُسلّمها إلى الملك العادل بعوض يأخذه عنها فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن يرنقش مملوك أبيه زنكي وقام بحفظ المدينة والدفاع عنها، وجهّز نور الدين عسكراً مع ولده الملك القاهر ليسيروا إلى الملك العادل فبينما هم على ذلك إذ جاءهم أمر لم يكن لهم في حساب وهو أن مظفر الدين كوكبري صاحب أربيل أرسل وزيره إلى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع الملك العادل عن سنجار وأن الاتفاق معه على ما يريده فوصل الرسول ليلاً وأبلغه الرسالة فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة وحلف له على ذلك وعاد الوزير من ليلته،

فسار مظفر الدين واجتمع مع نور الدين ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل. وكان سبب ما فعله أن يستشفع به إلى الملك العادل ليبقي سنجار، وكان مظفر الدين يظنّ أنه لو شفع في نصف دولة الملك العادل لشفّعه لأثره الجميل في خدمته وقيامه بالدفاع عن ملكه أكثر من مرةٍ فشفع إليه فلم يشفّعه الملك العادل ظنّاً منه أنه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالي بمظفر الدين، فلما ردّه الملك العادل في شفاعته راسل نور الدين في الموافقة عليه، ولما وصل إلى الموصل واجتمع بنور الدين أرسلا إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين وهو صاحب حلب وإلى كيخسرو بن قلج أرسلان صاحب قونية في الأناضول بالاتفاق معهما فكلاهما أجاب إلى ذلك وتدعوا على الحركة والمسير إلى بلاد الملك العادل إن امتنع من الصلح والإبقاء على صاحب سنجار، وأرسلا أيضاً إلى الخليفة الناصر لدين الله العباسي ليرسل رسولاً إلى الملك العادل بالصلح أيضاً فقويت حينئذٍ نفس صاحب سنجار قطب الدين محمد على الامتناع، ووصل رسولا الخليفة وهما: هبة الله بن المبارك بن الضحاك أستاذ الدار والأمير (آق باش) وهو من خاصة مماليك الخليفة وكبارهم فوصلا إلى الموصل، وسارا منها إلى الملك العادل وهو يحاصر

سنجار، وكان الذين معه لا يناصحونه في القتال ولا سيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة، فلما وصل رسولا الخليفة إلى الملك العادل أجاب في البداية على الرحيل عن سنجار ثم امتنع عن ذلك وغالط وأطال الأمر لعلّه يبلغ من سنجار غرضه فلم ينل منها ما أمله وأجاب إلى الصلح على أن له ما أخذه وتبقى سنجار لصاحبها قطب الدين محمد، واستقر الاتفاق على ذلك، وتحالف كلهم على هذا وعلى أن يكونوا يداً واحدةً على الناكث منهم، ورحل الملك العادل عن سنجار إلى حرّان وعاد مظفر الدين كوكبري إلى أربيل، وبقي كل واحدٍ من الملوك في بلده، وعند إقامة مظفر الدين كوكبري بالموصل زوّج ابنتين له بولدين لنور الدين، وهما: عز الدين مسعود وعماد الدين زنكي.

وتوفي نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل في أواخر شهر رجب سنة ٦٠٧هـ، وحكم بعده الموصل ولده الملك القاهر عز الدين مسعود، وعمره عشر سنوات.

وفاة الملك الظاهر غازي:

توفي صاحب حلب الملك الظاهر غازي بن

صلاح الدين الأيوبي سنة ٦١٣هـ وذلك في شهر جمادى الآخرة، وكان لما اشتدّ عليه مرضه عهد بالملك من بعده لولدٍ له صغيرٍ اسمه محمد ولقبه الملك العزيز غياث الدين وعمره ثلاث سنواتٍ، وعدل عن ولدٍ كبيرٍ لأن الصغير كانت أمه ابنة الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب مصر والشام فعهد بالملك له ليُبقي عمه البلاد عليه، وجعل مربيه خادماً رومياً اسمه (طغربل) ولقبه شهاب الدين ويبدو عليه الصلاح.

الحملة الصليبية الخامسة:

دعا البابا أنوسنت الثالث إلى تعبئة حملةٍ صليبيةٍ جديدةٍ تتجه مباشرةً إلى بلاد الشام.

سارت الحملة الصليبية بعد أن اجتمعت بقيادة دوق النمسا ليوبولد، وملك هنغاريا أندريه الثاني، ثم لحق بهما ملك قبرص بهمايو، ووصلت هذه الحملة الصليبية الخامسة إلى بلاد الشام سنة ٦١٥هـ واجتمعت جموعها في عكا. وكان الملك العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب بمصر فسار منها إلى الشام فوصل إلى الرملة ومنها إلى اللد، وخرج الصليبيون من عكا ليسيروا إليه، فسار الملك العادل نحوهم فوصل إلى نابلس عازماً على أن يسبقهم إلى أطراف عكا ليحمي ما

يليها منهم فساروا هم نحوه فسبقوه فنزلوا على بيسان وتقدم الصليبيون إليه في شهر شعبان عازمين على قتاله لعلمهم أنه في قلّةٍ من العسكر إذ أن عسكره كانت متفرقة في البلد، فلما رأى الملك العادل قربهم منه لم يرَ أن يلقاهم في الجماعة التي معه خوفاً من هزيمةٍ تكون عليه ففارق بيسان نحو دمشق ليقيم بالقرب منها ويرسل إلى البلاد فيجمع العسكر، فوصل إلى مرج الصُّفَّر فنزل فيه. وكان أهل ولاية بيسان لما رأوا الملك العادل عندهم لم يفارقوا بلدانهم ظناً منهم أن الصليبيين لا يُقدمون عليه خوفاً منه، فلما تقدّم الصليبيون صار تقدّمهم على غفلةٍ من الناس فلم يستطع النجاة إلا القليل فأخذ الصليبيون ما في بيسان من ذخائر جُمعت وكانت كثيرةً وأخذوا شيئاً كثيراً إذ نهبوا البلاد من بيسان إلى بانياس وبثّوا السرايا في القرى فوصلت إلى بلدتي نوى[1] وخسفين[2] وإلى أطراف سواد دمشق، ونازلوا مدينة بانياس الجنوب وأقاموا عليها ثلاثة أيامٍ ثم رجعوا عنها إلى مرج عكا ومعهم من الأسلاب

---

(١) نوى: بلدة الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ تقع إلى الجنوب من دمشق إلى الغرب قليلاً وتبعد عنها خمسةً وسبعين كيلو متراً.

(٢) خسفين: بلدة من أعمال حوران بعد بلدة نوى وإلى الجنوب قليلاً.

والسبي والأسرى كثيراً إضافةً إلى ما قتلوا وأحرقوا وأفسدوا.

أقام الصليبيون أياماً في مرج عكا ثم ساروا إلى مدينة صور وقصدوا الشقيف ونزلوا في موضعٍ بينهم وبين مدينة بانياس أربعة عشر كيلاً فنهبوا صيدا والشقيف ورجعوا إلى عكا وكان هذا من منتصف شهر رمضان إلى نهاية سنة ٦١٤هـ.

وكان الملك العادل أبو بكر عندما نزل في مرج الصُّفَّر سيّر ولده عيسى الملك المعظم وهو صاحب دمشق في فرقةٍ من العسكر إلى نابلس ليمنع الصليبيين عن بيت المقدس.

ولما نزل الصليبيون بمرج عكا تجّهزوا واستعدّوا وأخذوا معهم آلات الحصار من مجانيق وغيرها وقصدوا قلعة الطور، وهي قلعة منيعة على قمة تلٍّ بالقرب من عكا كان الملك العادل أبو بكر قد بناها فتقدّموا إليها وحاصروها وزحفوا نحوها وصعدوا على التلّ حتى وصلوا إلى سورها وكادوا يملكونها فاتفق أن بعض المسلمين الذين فيها قد تمكّن من قتل بعض ملوكهم فوقع الرعب في نفوسهم فرجعوا عنها إلى عكا وكانت مدة إقامتهم على قلعة الطور سبعة عشر يوماً.

احتلال الصليبيين مدينة دمياط:

بعد أن رجع الصليبيون من حصار قلعة الطور أقاموا بمدينة عكا مدةً ثم نزلوا إلى مراكبهم في البحر وساروا إلى مصر في السادس والعشرين من شهر المحرم سنة ٦١٥هـ، فنزلوا في ثغر دمياط عند مصب أحد فروع نهر النيل في البحر المتوسط وذلك في غرّة شهر صفر سنة ٦١٥هـ. وقد بُني في نهر النيل برج كبير منيع من الخشب، وجُعل فيه سلاسل من حديدٍ مُدّت في النهر إلى سور دمياط لتمنع المراكب القادمة بحراً من دخول النهر إلى مصر، ونزل الصليبيون وبنوا حولهم سوراً وخندقاً يحول بينهم وبين من يقصدهم وشرعوا في قتال من بدمياط، وعملوا على احتلال البرج الذي بالنهر وهو مشحون بالمقاتلين، وقد نزل الملك الكامل محمد بن الملك العادل وهو صاحب مصر بمنزل قرب دمياط يعرف بالعادلية وعسكره متصلة من مكان نزوله إلى دمياط ليمنع الصليبيين من الوصول إلى هدفهم.

استمرّ الصليبيون في قتال رجال البرج النهري فلم يظفروا بشيءٍ بل كُسرت آلياتهم فبقوا أربعة أشهرٍ دون نتيجةٍ وبعد هذه الأشهر تمكّنوا من أخذه فقطعوا السلاسل التي تصله بسور دمياط حتى تدخل مراكبهم مياه النهر غير أن الملك الكامل قد جعل جسراً حال

دون هدفهم فرجعوا إلى قتال العسكر الذين حوله حتى قُطع، فأغرق الملك الكامل مراكب كبيرةً مليئةً في النهر فحالت دون هدف الصليبيين، ولكنهم لجؤوا إلى وسائل أخرى وقاتلوا الملك الكامل غير أنهم لم يظفروا بطائل. إذ وقف أهل دمياط موقفاً مشرّفاً.

وتوفي الملك العادل في شهر جمادى الآخرى سنة ٦١٥هـ فضعفت نفوس الناس لأنه هو السلطان حقيقةً وأولاده بحكمه وتابعون لأمره، واتفق موته مع قتال الصليبيين، وكان من جملة الأمراء بمصر عماد الدين أحمد بن علي ويعرف بـ (ابن المشطوب)، ويُعدّ أكبر أميرٍ بمصر، وله لفيف كثير، والأمراء جميعاً يطيعونه وينقادون إليه، فاتفق هذا الأمير مع غيره من الأمراء، وأرادوا أن يخلعوا الملك الكامل من المُلك وهو ولد الملك العادل المتوفّىٰ ويُملّكوا أخاه الملك الفائز بن الملك العادل ليصير الحكم عليه إليهم والأمر في البلاد بيدهم، وبلغ الخبر الملك الكامل ففارق مخيمه ليلاً وسار مع فرقةٍ يسيرةٍ من عسكره ونزل عند قريةٍ قريبةٍ وأسفر الفجر على عسكره وقد فقدوا سلطانهم فسار كل حسب هواه لا يُفكّر بسواه ولم يأخذ من أثقاله إلا اليسير، وتركوا الكثير من الخيام والدواب والسلاح ولحقوا بالملك الكامل محمد بن الملك العادل.

وأصبح الصليبيون من الغد فلم يروا أحداً من المسلمين على شاطئ نهر النيل فلم يعرفوا ما الخبر حتى أتاهم النبأ على حقيقته فعبروا حينئذٍ نهر النيل إلى دمياط دون خوفٍ ومن غير ممانعٍ، وكان وصولهم إلى دمياط في العشرين من شهر ذي القعدة سنة ٦١٥هـ وأخذوا ما كان في معسكر المسلمين وهو كثير جداً أخذوه من غير تعبٍ ولا مشقّةٍ، ولم يثق الملك الكامل بعد هذا بأحدٍ من عسكره، وكان من لطف الله به أن أخاه الملك المعظم عيسى بن الملك العادل قد وصل إليه بعد هذه الحركة بيومين والناس في أمرٍ مريجٍ فقوي به قلبه واشتدّ ظهره، وأقام بالمكان الذي نزل به مرتاحاً وأخرج الأمير عماد الدين أحمد بن علي (ابن المشطوب) إلى الشام فاتصل هناك بالملك الأشرف موسى بن الملك العادل وصار من جنده، وله مكانته إذ هو صاحب منزلةٍ منذ أيام الملك العادل.

بعد أن عبر الصليبيون نهر النيل إلى دمياط اجتمعت الأعراب على اختلاف قبائلها ونهبوا البلاد المجاورة وقطعوا الطريق وأفسدوا بالأرض وبالغوا في الفساد، إذ لم يكن هناك من يمنعهم.

بعد أن وصل الصليبيون إلى دمياط أحاطوا بها وقاتلوا أهلها من كل ناحيةٍ، وحفروا خندقاً حولهم

يمنعهم ممن يريدهم من المسلمين، واستمروا بالقتال واشتدّ الأمر على أهلها وتعذّرت عليهم الأقوات وغيرها وسئموا من القتال وملازمته لأن الصليبيين كانوا يتناوبون القتال عليهم لكثرتهم وليس بدمياط من الكثرة ما يسمح لهم بجعل القتال بينهم مناوبةً ومع ذلك فقد صبروا وكثر بهم القتل والموت والجراح والأمراض ودام الحصار عليهم إلى السابع والعشرين من شهر شعبان سنة ٦١٦هـ، أي تسعة أشهرٍ وسبعة أيامٍ فعجز من بقي من أهلها على الحفاظ على البلد لقلّتهم كما فُقدت الأقوات فاضطروا إلى تسليم البلاد إلى الصليبيين في هذا التاريخ بشرط الأمان فخرجت جماعة منهم لقوةٍ بهم وأقام آخرون لعجزهم عن الحركة فتفرّقوا في البلاد.

عودة المسلمين إلى دمياط:

لما ملك الصليبيون دمياط أقاموا بها وبثّوا سراياهم في كل ما جاورها من البلاد ينهبون ويقتلون ويفسدون فجلا أهلها عنها. وأما الملك الكامل فقد أقام بالقرب يحمي بلاده ويمنع الأعداء من الاقتراب منها.

ولما سمع الفرنجة في أوربا بدخول إخوانهم الصليبيين دمياط أقبلوا يهرعون نحوها وغدت دار

ارتحالهم، وخاف المسلمون إذ أقبل الصليبيون نحوهم من الغرب واندفع المغول عليهم من الشرق حتى فكّر الملك المعظم عيسى بن الملك العادل بتخريب بيت المقدس عسى أن تنقطع الفكرة عند الفرنجة بالارتحال إليه للزيارة. وأراد أهل مصر الجلاء عن بلادهم خوفاً من عدوّهم وقد أحاط بهم من كل جانبٍ ولو مكّنهم الملك الكامل من ذلك لتركوا البلاد خاويةً وإنما منعهم فثبتوا، وتابع الملك الكامل محمد الكتب إلى أخويه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الأشرف موسى صاحب أرمينية والجزيرة الفراتية وغيرهما يستنجدهما ويحثّهما على الحضور بنفسيهما فإن لم يكن فيرسلان العساكر إليه، فسار الملك المعظم صاحب دمشق بنفسه إلى أخيه الملك الأشرف فرآه مشغولاً عن إنجاده بما دهمه من اختلاف الكلمة عليه وزوال الطاعة عن كثيرٍ ممن كان يطيعه، ثم استقام أمر الملك الأشرف موسى إذ زال الخلاف من بلاده ورجع الأمراء الخارجون عن طاعته إليه واستقامت له الأمور إلى سنة ٦١٨هـ، وأخوه الملك الكامل محمد مقابل الصليبيين وعلم بزوال موانع أخيه الملك الأشرف عن إنجاده، فأرسل إليه يستنجده وأخاه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق الذي صار يستحث أخاه الأشرف ففعل

وسار إلى دمشق فيمن معه من العساكر، وسار الجميع من دمشق إلى مصر، وكان الصليبيون قد ساروا من دمياط بجموعهم نحو الملك الكامل وصاروا مقابلين له وأخذوا يرمونه وعسكره بالمنجنيق وتوقّع الناس أن يملك الصليبيون الديار المصرية، وسار الملك الأشرف حتى وصل إلى مصر فلما سمع أخوه الملك الكامل بقربه منهم توجّه إليه فلقيه واستبشر هو والمسلمون كافةً باجتماعهما عسى أن يتمّ على يديهما النصر، وأما الملك المعظم صاحب دمشق فإنه سار أيضاً إلى ديار مصر وقصد دمياط إذ توقّع أن أخويه قد قصداها وقيل: بل أُخبر بالطريق أن الصليبيين قد توجّهوا إلى دمياط فسابقهم إليها ليلقاهم من الأمام وأخواه خلفهم.

بعد أن اجتمع الملك الكامل محمد بأخيه الملك الأشرف موسى اتفقا على التقدّم نحو الصليبيين فتقدّموا والتقوا بهم ووقع القتال، والتقت مراكب المسلمين بمراكب الصليبيين، فأخذ المسلمون ثلاثة مراكب للصليبيين بمن فيها من الرجال وما فيها من السلاح والأموال ففرح المسلمون بذلك واستبشروا وتفاءلوا وقويت نفوسهم واستطالوا على عدوهم، وتردّدت الرسل بينهم للصلح فتشدّد الصليبيون في شروطهم وطالبوا بكل ما أخذه صلاح الدين منهم وأصرّوا على الكرك ومبلغ

ثلاثمائة ألف دينارٍ لإصلاح ما خُرب من بيت المقدس وذلك مقابل تسليم دمياط للمسلمين فبينما الأمر في هذا والصليبيون يتمنّعون ويتشدّدون حيث لحظوا في المسلمين ضعفاً ـ حسب تقريرهم ـ فاضطر المسلمون حينئذٍ إلى القتال ولم يستصحب الصليبيون كامل قوتهم لظنّهم الكفاية والقدرة في نفوسهم ولظنّهم أن العساكر الإسلامية لا تقوم لهم ولا تقوى عليهم، وأن القرى والسواد سيبقى جميعه بأيديهم فيأخذون منه ما يشاءون من التموين والحاجيات، ولأمرٍ يريده الله وسارت فرقة من المسلمين إلى الأرض التي عليها الصليبيون وكسرت ضفاف نهر النيل فتدفّقت المياه إلى الأراضي المجاورة وملأت أكثرها ولم يبق للصليبيين جهة يسلكون منها غير جهةٍ واحدةٍ فيها ضيق وصعوبة في الاجتياز فنصب الملك الكامل محمد على النيل الجسور ومرّت العساكر عليها فسيطر على الطريق الذي يسلكه الصليبيون إن أرادوا العودة إلى مدينة دمياط، واتفق في تلك الحال أن وصل للصليبيين مركب كبير من أعظم المراكب ويُسمّى (مرمه) وحوله عدة حرّاقاتٍ تحميه وجميعها مملوءة بالسلاح والتموين وما يحتاجون إليه فوقعت عليها مراكب المسلمين وظفرت بها وأخذها المسلمون وندم الصليبيون على خروجهم من دمياط إلى أرضٍ

يجهلون مسالكها وطبيعتها، وأحاط بهم عسكر المسلمين يرمونهم بالنشّاب ويحملون على أطرافهم، فلما اشتدّ الأمر على الصليبيين أحرقوا خيامهم ومجانيقهم وأثقالهم وأرادوا الزحف إلى المسلمين وقتالهم عسى أن يتمكّنوا من العودة إلى دمياط، فرأوا أن ما أملوه بعيداً لكثرة المياه والوحل وسيطرة المسلمين على طريق دمياط، فلما أيقنوا أنهم قد أُحيط بهم، وتعذّر وصول التموين إليهم وضعفت نفوس عسكرهم وأصابهم الخوف راسلوا الملك الكامل محمد وأخاه الملك الأشرف موسى يطلبون الأمان ليسلّموا دمياط دون عوض، وبينما كانت الرسل تتردّد بين الطرفين إذ أقبل جيش كبير له وقع شديد وجلبة عظيمة جاء من جهة دمياط فظنّ المسلمون أن نجدةً جاءت للصليبيين فتحسّسوا الأخبار وإذ هو الملك المعظم عيسى صاحب دمشق أخو الكامل والأشرف قد وصل إليهم وكان قد جعل طريقه على دمياط فزادت قوة المسلمين، وساد الصليبيين الوهن والخذلان فأتمّوا الصلح على تسليم دمياط وكان ذلك في السابع من شهر رجب سنة ٦١٨هـ، وسلّم الصليبيون رهائن لذلك وهم عشرون ملكاً من ملوكهم، وأرسلوا إلى رهبانهم وقساوستهم إلى دمياط لتسليمها فلم يمتنع من بها

وسلّموها إلى المسلمين في التاسع من شهر رجب سنة ٦١٨هـ، وكان يوماً مشهوداً، ومن العجب أن المسلمين لما تسلّموا مدينة دمياط وصلت للصليبيين نجدة في البحر فلو سبق وصول هذه النجدة وصول الملك المعظم عيسى إلى دمياط لامتنع الصليبيون من تسليمها ولكن المسلمين سبقوا ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، ولم يبق من أهلها إلا آحاداً حيث تفرّقوا فبعضهم ارتحل عنها باختياره وبعضهم مات وبعضهم أخذه الصليبيون.

ولما دخل المسلمون مدينة دمياط رأوها حصينةً قد حصّنها الصليبيون تحصيناً عظيماً يصعب الوصول إليها.

وفاة الملك العادل أبي بكر[١]:

توفي الملك العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب

---

(١) الملك العادل أبو بكر بن نجم الدين أيوب، أخو صلاح الدين الأيوبي: ولد في شهر المحرم سنة ٥٤٠هـ، فهو أصغر من أخيه صلاح الدين بثماني سنوات. وكان عمره يوم وفاته خمساً وسبعين سنةً. ملك دمشق سنة ٥٩٢هـ في شهر شعبان من الملك الأفضل ابن أخيه صلاح الدين، وملك مصراً في شهر ربيع الثاني سنة ٥٩٦هـ من الأفضل أيضاً، وكان حسن السيرة وذا عقل، وكان أخوه صلاح الدين يعتمد عليه ويثق به.

في السابع من شهر جمادى الآخر سنة ٦١٥هـ وكان في حياته الأخيرة قد قسّم دولته بين أولاده: فأعطى الملك الكامل محمداً مصراً، وأعطى الملك المعظم عيسى دمشق والقدس وطبرية والكرك، وأعطى ميافارقين وخلاط وبعض ديار الجزيرة الفراتية لابنه الملك الأشرف موسى، وأعطى شهاب الدين غازي الرها، وأعطى الحافظ أرسلان شاه قلعة جعبر فلما توفي ثبت كل منهم في المملكة التي أعطاه إياها أبوه، واتفقوا اتفاقاً حسناً ولم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة أنه يجري بين أبناء الملوك بعد آبائهم بل كان كل واحدٍ منهم يثق بأخيه.

الإغارة على حلب:

سار ملك قونية عزّ الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان إلى حلب ومعه الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين الأيوبي بقصد أخذها بعد أن أطمعه فيها بعض أهل الشرّ فيها، ذلك أنه لما توفي صاحب حلب الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي سنة ٦١٣هـ ولي الأمر بعده ولده شهاب الدين طغرل فأبعد كبار أهل الشرّ فسار اثنان منهما إلى قونية وشجّعا صاحبها بالمسير إلى بلدهما حلب فأحضر

الملك الأفضل إليه من مدينة سميساط بعد إغراءٍ وأكرمه وحمل إليه شيئاً كثيراً من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك وتمّ الاتفاق بينهما على أن يسيرا إلى حلب وأن يكون ما يأخذاه منها ومن أعمالها للأفضل وهو في طاعة كيكاوس والخطبة له، ثم يقصدان ديار الجزيرة الفراتية فما يأخذانه مما بيد الملك الأشرف بن الملك العادل مثل حرّان والرها تكون لـ (كيكاوس) وجرت الأيمان على ذلك وجمعوا العساكر وساروا فملكوا قلعة رعبان[1] فتسلّمها الأفضل فمال الناس إليهما، وتابعوا السير إلى قلعة تل باشر[2] فحاصروا صاحبها فيها وضيّقوا عليه فملكوها منه عنوةً فأخذها كيكاوس لنفسه ولم يسلّمها إلى الأفضل حسب الاتفاق الذي جرى بينهما وانتبه الأفضل لنفسه، وقال: هذا أول الغدر وخاف أن يفعل ذلك إن استولى على حلب، فيكون هو كالذي خرب بيته لمصلحة غيره ففترت همّته وتغيّرت نيّته وأعرض عما كان يفعله، وكذلك أهل البلاد حيث كانوا

---

(١) قلعة رَعبان: من قلاع الثغور بين حلب وسميساط، وكان فتحها في صدر الإسلام على يد عياض بن غَنْم، ﷺ، بأمرٍ من أبي عبيدة بن الجراح، ﷺ.

(٢) تل باشر: قلعة حصينة وكورة واسعة شمال حلب، بينهما يومان، وأهلها نصارى أرمن.

يرغبون حكم الملك الأفضل، وأما شهاب الدين ولد الظاهر صاحب حلب فإنه ملازم القلعة لا يفارقها ولا ينزل منها أبداً، وكانت هذه عادته مذ مات والده وذلك خوفاً من عاصٍ يخرج عن طاعته، فلما وقع هذا الأمر خاف أن يلقوا الحصار عليه وربما سلّم أهل البلد والجند المدينة إلى عمه الأفضل لميلهم إليه فأرسل إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل صاحب خلاط والجزيرة الفراتية يستدعيه لتكون طاعتهم له ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ويأخذ من أعمالٍ ما يختار ولأن ولد الظاهر هو ابن أخته فأجاب إلى ذلك وسار إليه في عسكره الذين عنده وأرسل إلى الباقين يطلبهم إليه وسرّه ذلك للمصلحة العامة، وأحضر الأعراب من قبيلة طيءٍ وغيرها ونزل بظاهر حلب. ولما أخذ كيكاوس قلعة تل باشر كان الملك الأفضل يشير بمعاجلة حلب قبل اجتماع العسكر بها وقبل أن يحتاطوا للأمر ويتجهّزوا فرجع عند ذلك وصار يقول: الرأي أن نقصد منبج وغيرها حتى لا يكون لهم وراء ظهورنا قوة وهدفه مرور الزمن، فتوجّهوا من تل باشر إلى منبج وتقدم الملك الأشرف نحوهم وسارت الأعراب في مقدمته، وكانت فرقة من عسكر كيكاوس تُقدّر بألف فارسٍ قد سبقت مقدمته فالتقوا بمقدمة الملك الأشرف ووقع القتال بين

الفريقين فانهزم عسكر كيكاوس ورجعوا إليه مدحورين وقد تركوا عدداً كبيراً منهم أسرى بيد عسكر الملك الأشرف، وما أن وصل عسكره إليه مهزومين حتى ولّى على أدباره خائفاً نحو بلاده يسرع الخطو ويقطع المراحل فلما وصل إلى أطراف دولته نزل هناك حتى لا يدخل قاعدته مدينة قونية وهو خائف يترقّب.

سار الملك الأشرف إلى قلعة رَعَبان فملكها، فانطلق إلى قلعة تل باشر وبها حشد من عسكر كيكاوس فقاتلوه فانتصر عليهم فأخذ القلعة منهم وأطلقهم فساروا إلى كيكاوس فلما وصلوا عاقبهم فجعلهم في دارٍ وأحرقها عليهم فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافةً، وسلّم الملك الأشرف قلعة تل باشر إلى صاحب حلب شهاب الدين، وكان في نيّة الملك الأشرف متابعة كيكاوس إلى مدينة قونية فأتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل فاقتضت المصلحة العودة إلى حلب فعاد إليها.

كان كيكاوس قد اتفق مع ناصر الدين صاحب آمد ومظفر الدين صاحب أربيل على أن تكون الخطبة لـ (كيكاوس) وأن تضرب السكة باسمه في بلادهم ويقاتلوا الملك الأشرف وبدر الدين صاحب الموصل، فجمع كيكاوس عسكره وحشد ما أمكنه حشده وسار إلى ملاطية ليمنع الملك الأشرف من المسير إلى

الموصل لنجدة صاحبها بدر الدين عسى أن ينال صاحب أربيل مظفر الدين غرضه من الموصل فلما وصل كيكاوس إلى ملاطية اشتدّ عليه مرضه وهو السلّ فرجع من ملاطية وتوفي، وكان أبناؤه صبيةً صغاراً لا يصلحون للملك فأخرج الجند أخاه كيقباذ وملكوه، وقد كان في سجن أخيه كيكاوس.

مسير الملك الأشرف إلى مصر:

أقطع الملك الأشرف موسى بن الملك العادل أخاه شهاب الدين غازي مدينة خلاط وجميع أعمال أرمينية ومدينة ميافارقين وأخذ منه مدينة الرها ومدينة سروج من أعمال الجزيرة الفراتية وسيّره إلى مدينة خلاط في أول سنة ٦١٨هـ، وسبب ذلك أن الكرج لما قصد المغول بلادهم وهزموهم وقتلوا ونهبوا الكثير أرسل الكرج إلى أوزبك صاحب أذربيجان وأران يطلبون منه المهادنة والموافقة على دفع المغول، وأرسلوا إلى الملك الأشرف في المعنى نفسه وقالوا للجميع: إن لم توافقونا على قتال هؤلاء القوم من المغول ودفعهم عن بلادنا وتأتوا بأنفسكم وعسكركم لهذا الأمر المهم صالحناهم عليكم.

وصلت رسل الكرج إلى الملك الأشرف وهو

يتجهّز للمسير إلى الديار المصرية لقتال الصليبيين هناك إذ كانوا قد احتلّوا دمياط وأشرفوا على أن يحتلّوا مصر، وقد استنجد به أخوه صاحب مصر الملك الكامل محمد وما كان له إلا التلبية للنداء، فلما وصل إليه رسل الكرج أجابهم يعتذر بالمسير إلى مصر لدفع الصليبيين، ويقول لهم: إنني قد أقطعت ولاية خلاط لأخي شهاب الدين غازي وسيّرته إليها ليكون بالقرب منكم وتركت عنده العساكر فمتى احتاج الأمر إلى نجدته حضر لدفع المغول. وسار الأشرف إلى مصر.

القتال بين شهاب الدين غازي والكرج:

كان شهاب الدين غازي بن الملك العادل صاحب ولاية خلاط وتتبعه قلعة سرماري إذ هي من أعمال أرمينية الخاضعة لخلاط، فسار صاحب قلعة سرماري إلى خلاط في شهر شعبان سنة ٦٢٠هـ واستخلف أميراً من أمرائه على القلعة فجمع هذا الأمير العسكر وسار إلى بلاد الكرج، وسمع الكرج بالخبر فجمع صاحب (دوين) واسمه (شلوة) وهو من أكابر أمراء الكرج عسكره وسار إلى قلعة سرماري فحاصرها أياماً ونهب البلد وسوادها ورجع إلى قاعدته، وسمع صاحب سرماري بالخبر وهو عند شهاب الدين غازي بن الملك

العادل في خلاط فاستأذن ورجع إلى قلعته سرماري فوصل إليها في اليوم الذي رحل الكرج عنها فأخذ عسكره وتبعهم فأوقع بساقتهم فقتل منهم وغنم واستنقذ من أسلاب بلاده. ثم إن صاحب دوين جمع عسكره وسار إلى سرماري ليحاصرها فوصل الخبر إلى صاحبها بذلك فحصّنها وجمع الذخائر وما يحتاج إليه فأتاه من أخبره أن الكرج بوادٍ بين دوين وسرماري وهو وادٍ ضيّق فسار بعسكره جميعهم وجدّ السير ليكبس الكرج فوصل إلى الوادي الذي هم فيه وقت السحر فقسم عسكره فرقتين، فرقة تأتي من أعلى الوادي وفرقة تأتي من أسفله وحملوا عليهم وهم غافلون ووضعوا السيف فيهم فقتلوا وأسروا كثيراً فكان من جملة الأسرى (شلوة) أمير دوين في جماعةٍ كثيرةٍ من مقدميهم، ومن سلم من الكرج عاد إلى بلاده على حالٍ سيئةٍ ثم إن ملك الكرج أرسل إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل صاحب ديار الجزيرة الفراتية وهو الذي أعطى خلاط وأعمالها إلى أخيه شهاب الدين غازي، يقول له: كنا نظنّ أننا على صلحٍ والآن فقد عمل صاحب سرماري هذا العمل فإن كنا على الصلح فنريد إطلاق أصحابنا من الأسر، وإن كان الصلح قد انفسخ بيننا فنحبّ أن تعرّفنا حتى نُدبّر أمرنا. فأرسل الملك الأشرف موسى

إلى صاحب سرماري يأمره بإطلاق الأسرى وتجديد الصلح مع الكرج ففعل ذلك.

عصيان شهاب الدين غازي على أخيه الأشرف:

كان الملك الأشرف موسى بن الملك العادل قد أقطع أخاه شهاب الدين مدينة خلاط وأعمال أرمينية جميعها وأضاف إليها ميافارقين وبعض الكور الأخرى ولم يقنع بذلك حتى جعله ولي عهده في البلاد التي له جميعها وحلف له النواب والعساكر في البلاد فلما سلّم إليه أرمينية سار إليها وأقام بها حتى آخر سنة ٦٢٠هـ فأظهر مغاضبة أخيه الملك الأشرف والعصيان والخروج عن طاعته فراسله أخوه الأشرف يستميله ويعاتبه على ما فعل فلم يرعوِ ولا ترك ما هو عليه بل أصرّ على ذلك واتفق هو وأخوه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، ومظفر الدين بن زين الدين عليّ صاحب أربيل على الخلاف للأشرف والاجتماع على قتاله وأظهروا ذلك، وعلم الملك الأشرف فأرسل إلى الملك الكامل محمد بمصر يُعرّفه ذلك وكانا متفقين وطلب منه نجدةً فجهّز العساكر وأرسل إلى أخيه صاحب دمشق يقول له: إن تحركت من بلدك سرتُ إليك وكان قد سار نحو ديار الجزيرة الفراتية حسب الموعد مع حلفائه فلما وصلت

إليه رسالة أخيه وسمع بتجهيز العسكر عاد إلى دمشق، وأما الأشرف فإنه لما علم عصيان أخيه شهاب الدين غازي جمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة الفراتية وسار إلى خلاط فلما اقترب منها خافه أخوه غازي ولم يكن له قوة على أن يلقاه محارباً ففرّق عسكره في البلاد ليحميها وانتظر مسير صاحب أربيل إلى ما يجاوره من الموصل وسنجار ومسير أخيه صاحب دمشق إلى بلاد الأشرف إلى الرقة والرها فيضطر عندئذٍ الأشرف أن يرجع عن خلاط، ولكن الأشرف سار إليه وقصد خلاط وكان أهلها يريدونه ويختارون دولته لحسن سيرته فلما حاصرها سلّمها أهلها إليه يوم الاثنين في الثاني عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢١هـ، وبقي شهاب الدين غازي في القلعة ممتنعاً حتى إذا جنّ عليه الليل نزل إلى أخيه معتذراً ومتنصّلاً فعاتبه الأشرف وأبقى عليه ولم يعاقبه على فعله ولكن أخذ البلاد منه وأبقى عليه ميافارقين.

وأما صاحب أربيل فقد سار إلى الموصل وألقى الحصار عليها يوم الثلاثاء الثالث عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٦٢١هـ وكان صاحبها بدر الدين لؤلؤ قد أحكم أمورها فأقام عليها صاحب أربيل عشرة أيامٍ ثم رحل عنها يوم الجمعة لسبعٍ بقين من شهر جمادى

الآخرة بعد أن وصلت إليه أخبار صاحب دمشق وعودته وصاحب خلاط وأخذها منه.

وفاة الملك الأفضل نور الدين علي بن صلاح الدين:

توفي الملك الأفضل[1] في شهر صفر سنة ٦٢٢هـ فجأةً بقلعة سميساط وكان عمره سبعاً وخمسين سنةً. كان فاضلاً خيّراً عادلاً كريماً حليماً.

٦" الموحدون:

توفي عبد المؤمن بن علي سنة ٥٥٨هـ، وتولّى أمر الموحدين بعده ولده أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وسار سنة ٥٧٦هـ، إلى إفريقية وذلك أن صاحب قفصة علي بن المعزّ بن المعتز قد خلع طاعة أبي يعقوب يوسف وأظهر العصيان ووافقه أهل قفصة فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين أصحاب أبي يعقوب وذلك في شهر شوال سنة ٥٧٢هـ فأرسل والي بجاية إلى أبي

---

(١) الملك الأفضل: ولد بمصر سنة ٥٦٦هـ، استقل بولاية دمشق بعد وفاة أبيه سنة ٥٨٩هـ وأخذها منه أخوه العزيز وعمه العادل سنة ٥٩٢هـ، وأعطياه صلخد، ثم دُعي إلى مصر بعد وفاة صاحبها أخيه العزيز وولاية ابنه الصغير محمد فتولى الأفضل مصراً سنة ٥٩٥هـ ثم أخرجه منها عمه العادل سنة ٥٩٦هـ وأعطاه سميساط فبقي فيها حتى توفي سنة ٦٢٢هـ.

يعقوب يوسف بن عبد المؤمن يخبره باضطراب البلاد واجتماع كثيرٍ من العرب إلى قراقوش التركي الذي دخل إلى إفريقية، وما جرى في قفصة من قتل الموحدين ومساعدة أهل قفصة صاحبهم على ذلك فشرع أبو يعقوب يوسف في سدّ الثغور التي يخافها بعد مسيره فلما فرغ من جميع ذلك جهّز العسكر وسار إلى إفريقية سنة ٥٧٥هـ ونزل على مدينة قفصة وحاصرها ثلاثة أشهرٍ وهي بلد حصينة وأهلها أصحاب نجدة، وقطع شجرها فلما اشتدّ الأمر على صاحبها وأهلها خرج منها مستخفياً لم يشعر به أحد من أهل قفصة ولا من عسكره وسار إلى خيمة يوسف وعرف حاجبه أنه قد حضر إلى أمير المسلمين يوسف فدخل الحاجب وأعلم يوسف بوصول صاحب قفصة إلى باب خيمته فعجب منه كيف أقدم على الحضور من غير عهدٍ، وأمر بإدخاله عليه فدخل وقبّل يده وقال: قد حضرت أطلب عفو أمير المسلمين عني وعن أهل بلدي وأن يفعل ما هو أهله، واعتذر فرقّ له يوسف فعفا عنه وعن أهل البلد وتسلّم المدينة أول سنة ٥٧٦هـ، وسيّر عليّ بن المعزّ صاحب قفصة إلى بلاد المغرب فكان فيها مكرماً عزيزاً وأقطعه ولايةً كبيرةً، ورتّب يوسف أبو يعقوب لقفصة جماعةً من أصحابه الموحدين، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب عند يوسف أبي

يعقوب فعفا عنه وسيّره إلى مراكش، وسار يوسف إلى المهدية فأتاه بها رسول صاحب صقلية يلتمس منه الصلح فهادنه عشر سنواتٍ، وكانت بلاد إفريقية مجدبةً فتعذّر على العسكر القوت وعلف الدواب فعاد إلى المغرب مسرعاً.

وفاة يوسف بن عبد المؤمن:

سار أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠هـ إلى بلاد الأندلس وجاز البحر إليها في جمعٍ عظيمٍ من عساكر المغرب وقصد غربي الأندلس فحاصر مدينة شنترين[١] مدة شهرٍ وهي للنصارى فأصابه بها مرض فمات منه في شهر ربيع الأول وحُمل في تابوت إلى مدينة إشبيلية، وكانت مدة ملكه اثنتين وعشرين سنةً وشهراً. ومات من غير وصيةٍ بالملك لأحدٍ من أولاده فاتفق رأي قادة الموحدين وأولاد عبد المؤمن على تمليك ولده أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فملكوه من الوقت الذي مات فيه أبوه لئلا يكونوا من غير ملكٍ يجمع كلمتهم وذلك لقربهم من

---

(١) شنترين: مدينة تقع على نهر تاجه في غربي الأندلس شمال شرقي مدينة لشبونة عاصمة البرتغال وعلى بُعد ستين كيلاً منها.

العدوّ فقام في ذلك أحسن قيامٍ ورفع راية الجهاد وأحسن السيرة بالناس فاستقامت له الدولة وانقادت إليه بأسرها فرتّب ثغور الأندلس وشحنها بالرجال ورتّب المقاتلين في سائر بلادها وأصلح أحوالها وعاد إلى مراكش.

حركة ابن غانية[1]:

خرج علي بن إسحاق المعروف باسم (ابن

---

(١) ابن غانية: علي بن إسحاق بن محمد بن غانية: تولى حكم الجزيرة مستقلاً بعد وفاة أبيه سنة ٥٧٩هـ بعهدٍ منه، انتهز فرصة اشتغال الموحدين في الأندلس بوفاة أميرهم أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي وأخذ البيعة لابنه يعقوب بن يوسف فخرج ابن غانية بأسطوله ونزل على العدوة الإفريقية بساحل (بجاية) بالجزائر فقاتله بعض أهلها فاستولى عليها سنة ٥٨١هـ، فالتفّ حوله من لم يخضع للموحدين من عرب بني هلال، والترك المصريين وعلى رأسهم شرف الدين قراقوش، وتلقّب ابن غانية بأمير المسلمين وهو لقب المرابطين الذين زالت دولتهم على يد الموحدين، وخطب على منابر مدينة بجاية لبني العباس، وبعد أن نظّم أمور بجاية قصد قلعة بني حماد فملكها، وتقدّم فحاصر مدينة قسنطينة، وزحف يعقوب بن يوسف على بجاية فاستعادها، وجرت وقائع بين يعقوب وبين ابن غانية كان الظفر في آخرها ليعقوب، وأصيب ابن غانية بسهمٍ فتفرّق جمعه ونجا بنفسه ودخل خيمة عجوز فمات فيها.

غانية) في شهر شعبان سنة ٥٨٠هـ، وهو أمير جزيرة ميورقة إحدى جزر البالثار شرق بلاد الأندلس بل هي أكبر تلك الجزر فلما سمع بوفاة أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن جهّز أسطوله فكان عشرين مركباً وسار في جموعه فأرسى مراكبه في ساحل مدينة بجاية بالجزائر وخرجت رجاله وخيله من المراكب فكانوا نحو مائتي فارسٍ من قبائل الملثّمين وأربعة آلاف راجلٍ فدخل مدينة بجاية بغير قتالٍ إذ اتفق أن واليها قد سار عنها قبل ذلك بأيامٍ إلى مراكش ولم يترك فيها جيشاً ولا محامياً لعدم وجود عدوٍّ يحفظها منه حسب تقديرهم فجاء ابن غانية ولم يكن في حسابهم أنه يحدّث نفسه بذلك فأرسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بني حماد وصاروا معه فكثر جمعه بهم وقويت نفسه، وسمع خبره والي مدينة بجاية فعاد من طريقه الذي كان إلى مراكش، ومعه من الموحدين ثلاثمائة فارسٍ فجمع من العرب والقبائل الذين في تلك الجهات نحو ألف فارسٍ فسمع بهم ابن غانية وباقترابهم منه فخرج إليهم وقد صار معه نحو ألف فارسٍ والتقى الجمعان فالتحقت الجموع التي كانت مع والي بجاية بجموع ابن غانية فانهزم والي بجاية ومن معه من الموحدين وساروا

عائدين نحو مراكش، وعاد ابن غانية إلى بجاية فجمع جيشه وخرج إلى أعمال بجاية فأطاعته جميعها إلا قسنطينة فحاصرها إلى أن جاء جيش من الموحدين في شهر صفر سنة ٥٨٢هـ إلى بجاية براً وبحراً وكان بها يحيى وعبد الله أخوا ابن غانية فخرجا منها هاربين ولحقا بأخيهما فرحل عن قسنطينة وسار إلى إفريقية (تونس). وكان سبب إرسال الجيش من مراكش أن والي بجاية وصل إلى يعقوب بن يوسف أمير الموحدين صاحب المغرب وعرّفه ما جرى ببجاية واستيلاء ابن غانية عليها وخوّفه عاقبة التواني في الأمر فجهّز العسكر في البر عشرين ألف فارس، وجهّز الأسطول في البحر مع عسكرٍ كثيرٍ فاستعادوا بجاية.

لما سار ابن غانية إلى إفريقية (تونس) اجتمع حوله بعض العرب والترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش قائد صلاح الدين الأيوبي وممن دخل معه مملوك لابن أخي صلاح الدين تقي الدين عمر واسمه (بوزابه) فكثر جمعهم وقويت شوكتهم وكلهم كاره لدولة الموحدين والتحقوا بابن غانية لأنه من بيت المملكة والرياسة السابقة (المرابطون) وانقادوا له وأعطوه لقب أمير

المسلمين اللقب كان يحمله أمراء المرابطين، وقصدوا إفريقية (تونس) فملكوها جميعاً شرقاً وغرباً إلا مدينتين هما: تونس والمهدية فإن الموحّدين أقاموا بهما وحفظوهما على خوفٍ وضيقٍ وشدةٍ، والتحق بابن غانية أيضاً الذين يريدون الفساد في الأرض فأفسدوا ما شاء لهم هواهم أن يفسدوا، وكان والي الموحّدين على إفريقية آنذاك عبد الواحد بن عبد الله الهنتاني وهو بمدينة تونس فأرسل إلى ملك الموحدين يعقوب بن يوسف وهو بمراكش يعلمه الحال.

لما استولى ابن غانية على إفريقية (تونس) قطع الخطبة للموحدين وخطب للخليفة العباسي الناصر لدين الله، وأرسل إليه يطلب الأعلام السود وهدايا الخليفة (الخلع) وقصد سنة ٥٨٢هـ مدينة قفصة ولما وصل إليها ألقى الحصار عليها فأخرج أهلها الموحّدين من عساكر ولد عبد المؤمن بن علي وسلّموها لابن غانية فرتّب فيها جنداً من قبائل الملثّمين ومن الأتراك وحصّنها بالرجال مع حصانتها في البناء. وأما يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فإنه لما وصل إليه الخبر اختار من عساكره عشرين ألف فارسٍ من الموحدين وقصد قلّة العسكر لقلّة

الأقوات في البلاد ولما جرى فيها من الخراب والأذى، وسار في شهر صفر سنة ٥٨٣هـ فوصل إلى مدينة تونس وأرسل ستة آلاف فارسٍ مع ابن أخيه فساروا إلى ابن غانية ليقاتلوه وكان بمدينة قفصة فوافوه وكان مع الموحدين جماعة من الترك فمالوا عنهم إلى خصمهم فانهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدميهم وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٥٨٣هـ فلما بلغ يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى منتصف شهر رجب من السنة نفسها ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب ابن غانية والأتراك فوصل إليهم فالتقوا بالقرب من مدينة قابس ودار القتال بينهما فانهزم ابن غانية ومن معه، وأكثر الموحدون القتل فيهم حتى كادوا يفنونهم فلم ينجُ منهم إلا القليل فقصدوا البراري ورجع يعقوب إلى مدينة قابس من يومه فدخلها وأخذ منها أهل قراقوش وأولاده وبعث بهم إلى مدينة مراكش وتوجّه إلى مدينة قفصة فحاصرها ثلاثة أشهرٍ وخرّب ما حولها فأرسل إليه الأتراك الذين فيها يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد فأجابهم إلى ذلك وخرج الأتراك سالمين فسيّرهم إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم ونكايتهم في العدوّ، وتسلّم يعقوب البلد فخرّب أسوارها ونظّم أمورها ولما فرغ من

أمرها واستقام وضع إفريقية (تونس) عاد إلى مراكش فوصل إليها سنة ٥٨٤هـ.

الجهاد في الأندلس:

سار أبو يوسف يعقوب بن يوسف من مراكش إلى الأندلس سنة ٥٨٥هـ وأغار على مدينة أشبونة وحصل على غنائم كثيرةٍ، وطلب الفونس أمير نصارى الأندلس من يعقوب هدنةً لمدة خمس سنواتٍ، فأجابه يعقوب إلى طلبه، غير أن الفونس شعر بقوته بعد مدةٍ وغرّته نفسه فنقض العهد وأرسل إلى يعقوب كتاباً فيه تهديد فلما وصل الكتاب إلى يعقوب أعاده إلى مرسله بعد أن كتب على ظهره ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل: ٣٧] وجمع الجنود وسار إلى الأندلس فلما اقترب من حصن الأرك[1] قسم جيشه إلى قسمين: الأول يقوده أبو يحيى بن أبي حفص الهنتاني وهو في المقدمة والثاني يقوده يعقوب بن يوسف، والتقى أبو يحيى مع جيش النصارى فانتصروا عليه واستشهد أبو يحيى ثم جاء

---

(١) الأرك: حصن من أعمال مدينة شنتمرية التي تقع إلى الشرق من مدينة مدريد وعلى بُعد ١٨٣ كيلاً منها.

يعقوب بقوته وطوّق جيش النصارى من الخلف وعمل فيهم قتلاً فلم ينجُ منهم سوى الفونس وثلاثين فارساً من حرسه الخاص وذلك في ٣ من شهر شعبان سنة ٥٩١هـ ودخل يعقوب حصن الأرك.

عاد الفونس فجمع حشوده وسار إلى قتال يعقوب الذي كان قد طلب نجدةً من المغرب والتقى الفريقان، وانتصر المسلمون وغنموا كثيراً وذلك عام ٥٩٢هـ. وفي العام نفسه أغار يعقوب على طليطلة وما جاورها ورجع بعدها إلى إشبيلية، وصالح بعض أمراء النصارى الذين طلبوا تجديد مدة الهدنة معه، ورجع بعدها إلى المغرب.

في الوقت الذي كان فيه أبو يوسف يعقوب مجاهداً في الأندلس مشغولاً بقتال الفونس ومؤدباً له لغدره، قصد ابن غانية المغرب وعاث الفساد في شمالي إفريقية فسار إليه أبو يوسف يعقوب بعد أن هادنه النصارى فانتصر عليه.

صلاح الدين الأيوبي ويعقوب بن يوسف الموحدي:

بعد أن هزم صلاح الدين الأيوبي الصليبيين في الشام واستنقذ بيت المقدس من أيديهم جاءت حملة صليبية كبيرة إلى الشام فما كان من صلاح الدين يوسف

الناصر إلا أن أرسل هديةً وكتاباً إلى يعقوب المنصور بن يوسف يطلب منه الدعم لردّ الصليبيين عن بلاد المسلمين غير أن المنصور يعقوب لم يكن بوسعه ذلك إذ لم تكن الحرب الصليبية بالأندلس بأقل مما هي بالشام ومع ذلك فقد أرسل إليه مائة وثمانين سفينةً لتكون عوناً لأسطول المسلمين في المشرق ضد الأسطول الصليبي.

وفاة المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن:

توفي المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي في الثامن عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٥٩٥هـ بمدينة (سلا) شمال مدينة الرباط وعلى بُعد خمسة أكيالٍ منها وكان قد سار إليها من مراكش، وكان قد بنى مدينةً شمال سلا وعلى بُعد خمسةٍ وعشرين كيلاً منها، وهي حسنة البناء والجوّ حولها لطيف، وقد سمّاها المهدية فسار إليها ليراها فتوفي، ودُفن في تينمال، وكانت ولايته خمس عشرة سنةً، وخلفه ابنه محمد ولُقّب الناصر لدين الله.

عودة ابن غانية على الساحة:

عاد ابن غانية فاستولى على مدينة المهدية وسار نحو

تونس فانتصر على الموحدين فيها، ووصل محمد الناصر بن يعقوب إلى إفريقية (تونس) فهزم ابن غانية واستنقذ منه مدن شمالي إفريقية الواحدة تلو الأخرى ففرّ ابن غانية من إفريقية ورجع إلى جزر البالثار وذلك سنة ٦٠٢هـ، وولّى الناصر محمد بن يعقوب على تونس الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاني.

الجهاد في الأندلس:

أغار الفونس كبير نصارى الإسبان على ثغور المسلمين في الأندلس فسار إليه الناصر محمد بن المنصور يعقوب وقد جمع جيشاً كبيراً وانتقل إلى الأندلس سنة ٦٠٧هـ، ووصل إلى إشبيلية، وقسّم جيشه إلى خمس فرقٍ، وأمر كل فرقةٍ أن تنزل في ناحيةٍ من الأندلس لإضعاف معنويات النصارى الإسبان بإظهار كثرة حشود المسلمين، ووقع الرعب في نفوس النصارى وطلب أمير (بنبلونة) الصلح من الناصر محمد، وسار الناصر إلى حصن (سلبطرة) فحاصره مدة ثمانية أشهرٍ فضعف أمر المسلمين لما أصابهم من تعبٍ وما لحقهم من نصبٍ وما نالهم من أذىً لقلّة التموين، وشعر الفونس بما حلّ بجنود المسلمين نتيجة حصارهم للحصن فسار إليهم

واحتّل قلعة (رباح) من الموحدين فاقتحم الناصر حينئذٍ الحصن وسار نحو الفونس والتقيا في حصن العقاب فانتصر النصارى عليه في المعركة التي دارت بين الفريقين في منتصف شهر صفر سنة ٦٠٩هـ، وكانت هذه الهزيمة ضربةً شديدةً أصابت المسلمين.

توفي الناصر محمد عام ٦١٠هـ وتولّى مكانه ابنه يوسف أبو يعقوب، وقد عُرف باسم يوسف الثاني، وكان في السادسة عشرة من عمره، فطمع بعض أفراد أسرته بالحكم لصغره، وأصبح المتسلّطون من الأمراء وغيرهم من الوزراء يُولّون الصغار ليبقى لهم نفوذهم، وولي بعد يوسف الثاني عمّ أبيه عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وكان رجلاً كبيراً فلم يلبث أن خُلع لأنه لم يقوَ على القيام بأعباء الحكم، ونُصّب عبد الله بن المنصور يعقوب ولُقّب بالعادل، غير أنه عُزل وبعد عزله بثلاثة عشر يوماً مات مخنوقاً، ونُصّب أخوه الآخر وهو إدريس ولُقّب بالمأمون، ثم نكثوا ببيعته سنة ٦٢٤هـ، وبايعوا يحيى أبا زكريا بن محمد الناصر.

(١) عبد المؤمن بن علي
٥٢٤ ـ ٥٥٨هـ.

(٢) محمد ٥٥٨ ـ ٥٥٨هـ

(٣) يوسف ٥٥٨ ـ ٥٨٠هـ.

عمر.

إسحاق

(٤) يعقوب
٥٨٠ ـ ٥٩٥هـ.

(٧) عبد الواحد
٦٢٠ ـ ٦٢٤هـ.

محمد

(١٣) عمر المرتضى
٦٤٦ ـ ٦٦٥هـ.

(١٤) إدريس
٦٦٥ ـ ٦٦٧هـ.

(٩) إدريس
٦٢٤ ـ ٦٢٩هـ.

(٨) عبد الله
٦٢٤ ـ ٦٢٤هـ.

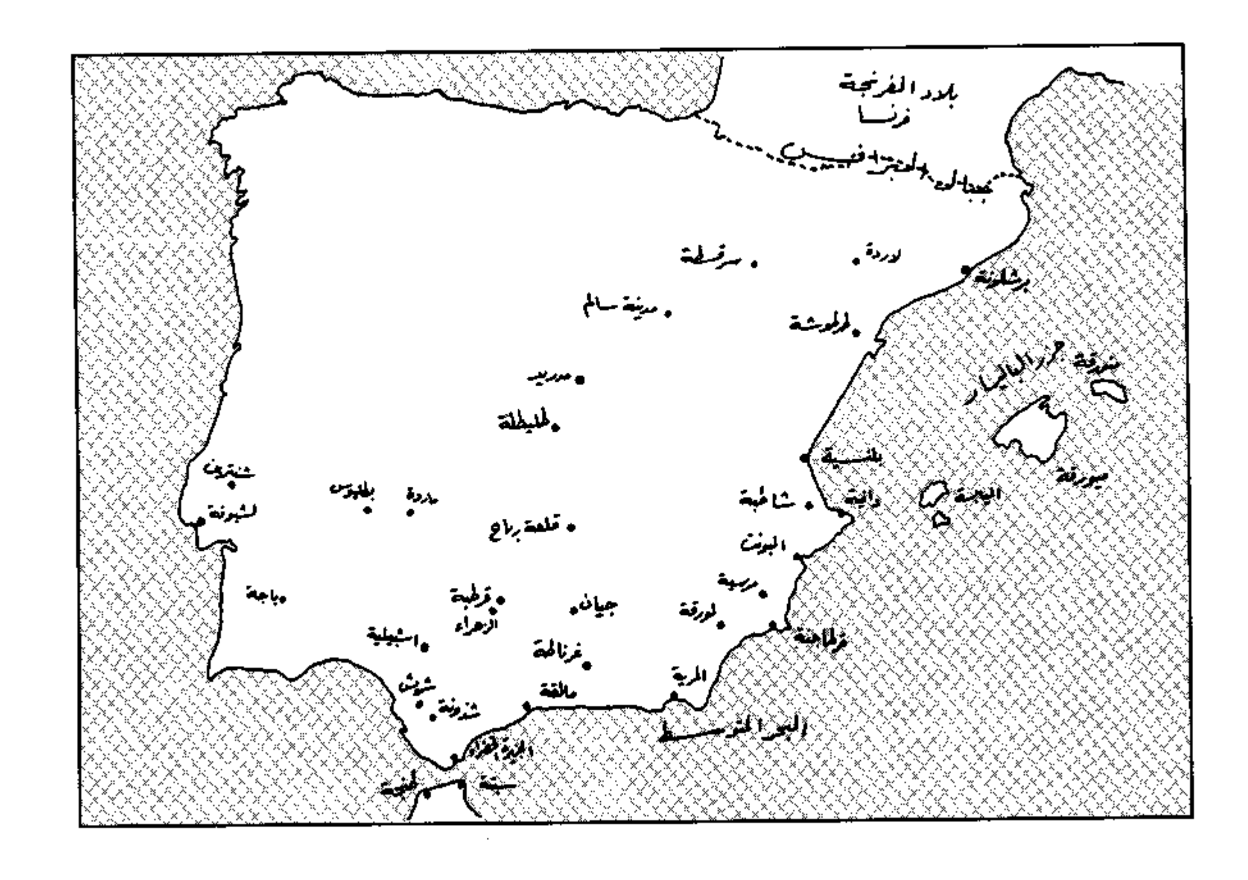
(٥) محمد
٥٩٥ ـ ٦١٠هـ.

(١١) عبد الواحد
٦٢٩ ـ ٦٤٠هـ

(١٢) علي
٦٤٠ ـ ٦٤٦هـ

(٦) يوسف الثاني.
٦١٠ ـ ٦٢٠هـ

(١٠) يحيى
٦٢٤ ـ ٦٣٣هـ.



بلاد الفرنجة
فرنسا
لاردة
سرقسطة
برشلونة
مدينة سالم
طرطوشة
مدريد
طليطلة
جزر البليار
منورقة
ميورقة
بلنسية
شاطبة
دانية
اليابسة
شنترين
الأشبونة
بطليوس
ماردة
قلعة رباح
لقنت
مرسية
باجة
قرطبة
الزهراء
جيان
لورقة
قرطاجنة
اشبيلية
غرناطة
المرية
شريش
شذونة
مالقة
البحر المتوسط
الجزيرة الخضراء
سبتة
طنجة

المغول

تنتشر في أقاصي شمالي الصين في فيافي ما يُعرف بصحراء منغوليا شعوب وقبائل تنتقل كالجراد تسعى وراء المياه وترتحل خلف مواطن الأعشاب لترعى قطعانها وتتغذّى بما ترعاه، يعرف أكبرها والمتحكّم فيها يومذاك باسم المغول تقود شعوب تلك الجهات في الارتحال وفي غاراتها على الجوار وتسيطر عليها في الإقامة والاستقرار، وبين تلك القبائل قبيلة كبيرة أيضاً لها مكانتها لكثرتها ولها منزلتها لأعدادها تُشارك إخوانها المغول بالقتال وتخالفهم بالارتحال وتلك هي قبيلة التتار، والمغول والتتار قبيلتان إخوة كعبس وذبيان عند العرب.

وبلاد المغول فيافي واسعة قليلة المياه نادرة الأشجار، فعندما يُغير أصحابها على من يجاورهم ويرون المياه المتدفّقة يعشقون تلك البقاع وتصبح أحلامهم في حياةٍ على جنبات الأنهار وفي ظلال الأشجار يرعون في أعشابٍ دائمة الاخضرار، ويقطفون من مختلف الثمار، وتدرّ عليهم الأرض من مختلف المنتجات فغذاؤهم قريب المنال بما يريدون من كمياتٍ.

زادت الرغبة عند تلك الشعوب والقبائل لغزو الجوار والإغارة على البلدان للوصول إلى أراضي الأحلام وتحقيق الآمال فتحركت الجموع كالجراد لا تلي على شيءٍ وأخذت بالانتشار في البراري والسهول لا تبالي بمن يذهب من أعدادها قتلى فالعدد كبير لا يوتره النقص والآمال عريضة يلزمها الضحايا واقتربت الجموع من ديار الإسلام فهابها السكان للأعداد الوفيرة والوثنية التي تعتنقها والهمجية التي تتبعها فلا بد لملاقتها من جهادٍ ولمنازلتها من اتحادٍ، ومع الأسف فالمسلمون متفرقون، ديارهم مجزأة، وأمصارهم مقسّمة، وقلوبهم شتى وتوجّهاتهم متباينة.

في هذا الوقت الذي أخذ فيه المغول يتحرّكون في شرق ديار الإسلام بقوةٍ وحيويةٍ كان المدّ الصليبي في الشام يضعف وينحسر عن مناطق سبق له أن سيطر عليها، ويرحل بعض الصليبيين عن جهاتٍ كانوا قد سطوا عليها وذلك لما أصابهم من يأسٍ في الاستقرار، ولما حلّ بهم من هزائم، وقبل أن يرحل الصليبيون عن إماراتهم ألقوا بوحشيتهم عليها وأذاقوا همجيتهم لسكانها قبل الرحيل الأخير.

لقد خشي الصليبيون أن يدخل المغول بالإسلام بعد احتكاكهم بأهله ومعرفتهم الاستقامة ورؤيتهم الحق

بوضوح ومشاهدتهم النور على وجوه الذين يعتنقون الإسلام كما حدث لأبناء عمومتهم من السلاجقة والغُزّ وغيرهم، وإذا ما حدث هذا فإن المسلمين يزدادون قوةً إلى قوتهم ولا يخشى على الصليبيين في الشام فقط بل وعلى أوروبا، لذا يجب أن يكون عمل الصليبيين بالدرجة الأولى الحيلولة دون حدوث ذلك، ثم العمل لجعل المغول يقاتلون المسلمين الذين يقعون عندئذٍ بين نارين: نار المغول في المشرق ونار الصليبيين في الغرب، ومن هذا المنطلق فقد أرسل الصليبيون الرسل إلى المغول وحسّنوا لهم ديار الإسلام وغلّاتها، ومنتجاتها، وخيراتها، وإمكاناتها، وجمالها، وأهميتها وإمكانية الإفادة منها، وحرّضوهم على غزوها وامتلاكها هذا وبالإضافة إلى الرسل كانت النساء النصرانيات التي دخلت بيوتات المغول على شكل حليلاتٍ أو خليلاتٍ تعمل عمل الرسل بشكلٍ مستمرٍ ضمن مخططٍ مرسومٍ. وهذا ما أوجد الفكرة عند المغول للانطلاق نحو الغرب والاستيلاء على ديار الإسلام بعد أن رأوا فيها ما يحقّق آمالهم التي يحلمون بها حسب وصف الصليبيين لها.

والمغول شعب بدوي يعيش على أطراف صحراء (غوبي) بأطراف بلاد الصين، وهم سكان قفارٍ مشهورون بالشرّ والغدر، يطيعون رؤساءهم طاعةً كبيرةً يحبون

الإغارة على الجوار من أجل النهب والسلب، يعبدون الكواكب، ويسجدون للشمس أثناء شروقها، يأكلون لحوم الحيوانات جميعها حتى الكلاب، وتنتشر بينهم الإباحية، وتعرف ديانتهم القديمة بـ (الشامانية)، ويُقدّمون الأضاحي لبعض الحيوانات الشريرة، ويُقدّسون أرواح الأجداد.

كانت قبيلة المغول هي المسيطرة على تلك الشعوب والقبائل أيام جنكيزخان لذا فقد عمّ اسمها على الجميع. وقد جمع جنكيزخان (تيموجين) قبائل المنطقة حوله وانطلق نحو الشمال الشرقي في بلاد الصين وأخذ يضمّ البلاد إليه وعندها بدأ تحريض الصليبيين للمغول على غزو ديار الإسلام، وعندها ترك جنكيزخان اتجاهه الأول نحو الشمال الشرقي واتجه نحو الغرب يقصد ديار الإسلام.

ظهرت جماعة من المغول في بلاد فرغانة حوالي سنة ٦٠٦هـ فخرّب خوارزمشاه محمد تكش تلك الجهات خوفاً من أن يستولي عليها المغول، وبدأ القضاء على أفراد هذه الجماعة تدريجياً وبأساليب متباينةٍ، واستمرّ ذلك حتى سنة ٦١٥هـ.

سار جنكيزخان بعسكره إلى نواحي تركستان، وسيّر جماعةً من التجار ومعهم الكثير من الأموال إلى

بلاد ما وراء النهر (سمرقند وبخارى و. . . .) ليشتروا ثياباً للكسوة فوصلوا إلى بداية مملكة خوارزمشاه، وكان له نائب هناك فلما وصلت إليه جماعة أولئك التجار من المغول أرسل إلى خوارزمشاه يعلمه بوصولهم ويذكر كثرة ما معهم من الأموال فبعث إليه خوارزمشاه يأمره بقتلهم وأخذ ما معهم من الأموال وإنفاذه إليه، فقتلهم وسيّر إليه ما معهم وكان شيئاً كثيراً فلما وصل المال إلى خوارزمشاه وزّعه على تجار بخارى وسمرقند وأخذ ثمنه منهم، وذلك لأن خوارزمشاه بعد أن ملك بلاد ما وراء النهر من جماعة الخطا قطع الطريق بينه وبين بلاد تركستان ليحول دون هجوم الخطا على بلاده وليقطع عنهم البضائع والحاجيات. كما أن جماعةً من المغول كانوا قد دخلوا بلاد ما وراء النهر عندما كانت تحت حكم الخطا، فلما استولى خوارزمشاه على بلاد ما وراء النهر وأخذها من الخطا قتل من كان فيها من المغول.
فلما استولى المغول على بلاد تركستان أخذوا يُغيرون على بلاد ما وراء النهر للحصول على حاجاتهم ورغبةً في السلب والنهب وصاروا يحاربون عسكر خوارزمشاه فقطع عنهم التموين لذا فإنه لما علم بوصول تجارهم إلى بلاده أمر بقتلهم، وأرسل عيونه إلى تركستان ليعرف أخبار المغول فجاءته الأخبار بكثرة أعداد المغول وأنهم

يخرجون عن الإحصاء، وأن قدرتهم القتالية كبيرة وأنهم من أكثر خلق الله صبراً على القتال فلا يعرفون هزيمةً، وأنهم يعملون ما يحتاجون إليه من سلاحٍ بأيديهم فندم على ما فعل حيث شعر أنه فتح على نفسه باب الحرب مع هؤلاء القوم فاستشار أهل الرأي، فقيل له: إن عساكرك كثيرة وتكاتب الأطراف وتجمع العساكر ويكون النفير عاماً، ويجب على المسلمين كافةً مساعدتك بالمال والنفس، وبعد النفير العام نذهب بالعساكر جميعاً إلى جانب نهر سيحون فنكون هناك فإذا جاء العدوّ وقد سار مسافةً بعيدةً لقيناه ونحن مستريحون وهو وعساكره قد مسّهم النصب والتعب، فجمع خوارزمشاه أمراءه ومن عنده من أصحاب المشورة فاستشارهم فلم يوافقوه على رأيه بل قالوا: نتركهم يعبرون نهر سيحون إلينا ويسلكون هذه الجبال والمضائق فإنهم جاهلون بالطرق ونحن عارفون بها فنقوى حينئذٍ عليهم ونهلكهم فلا ينجو منهم أحد، فبينما خوارزمشاه وأمراؤه كذلك إذ ورد عليهم رسول من جنكيزخان معه جماعة يتهدد خوارزمشاه ويقول: تقتلون أصحابي وتأخذون أموالهم، استعدوا للحرب فإني واصل إليكم بجمعٍ لا قبل لكم به.

لما سمع خوارزمشاه رسالة جنكيزخان أمر بقتل مبعوثه، فقُتل، وأمر بحلق لحى الجماعة الذين كانوا

معه وأعادهم إلى صاحبهم جنكزخان يخبرونه بما فُعل بهم وبمبعوثه، ويقولون له: إن خوارزمشاه يقول لك أنا سائر إليك ولو أنك في آخر الدنيا حتى أنتقم وأفعل بك كما فعلت بأصحابك.

تجهّز خوارزمشاه وسار بعد سير وفد جنكيزخان مبادراً ليسبق خبره ويكبسهم، فجدّ السير ومضى فوصل إلى بيوتهم فلم يجد فيها سوى النساء والصبيان والأطفال فأوقع بهم وسبى الجميع، وكان سبب غياب المغول عن بيوتهم أنهم ساروا إلى محاربة ملكٍ من ملوك الترك فالتقوا به وقاتلوه وهزموه وغنموا أمواله وعادوا وفي طريق عودتهم بلغهم خبر ما فعله خوارزمشاه بديارهم فجدّوا السير فأدركوه قبل أن يغادر بيوتاتهم فاقتتلوا قتالاً شديداً استمرّ ثلاثة أيامٍ مع لياليها وصبر الطرفان وقُتل من الجانبين عدد كبير ولم ينهزم أحد منهما، فقُتل عشرون ألفاً من المسلمين ولم يُحص ما قُتل من المغول ولم يكن بأقل من قتلى المسلمين إن لم يزد على ذلك، فلما كانت الليلة الرابعة من القتال افترقوا ونزل بعضهم مقابل بعضٍ فلما أرخى الليل سدله أوقد المغول نيرانهم وتركوها على حالها وساروا وكذلك فعل عسكر خوارزمشاه حيث سئم كل منهما القتال، ورجع المغول إلى كبيرهم جنكيزخان إذا كان

ولده قائد القتال الذي جرى، وعاد خوارزمشاه إلى بخارى وأخذ يستعدّ للحصار لعلمه بضعفه إذ أن جماعةً من عسكر جنكيزخان لم يستطع خوارزمشاه أن يظفر بهم فكيف إذا أتوا جميعاً مع ملكهم لذا فإنه أمر أهل بخارى وسمرقند بالاستعداد للحصار وجمع الذخائر، وجعل في مدينة بخارى عشرين ألف فارسٍ من العسكر يحمونها، وفي سمرقند خمسين ألفاً، وقال لهم: احفظوا البلد حتى أعود إلى خوارزم وخراسان وأجمع العساكر وأستنجد بالمسلمين وأعود إليكم، فلما فرغ من ذلك سار إلى خراسان فعبر نهر جيحون ونزل بالقرب من بلْخ فعسكر هناك، وأما المغول فإنهم رحلوا بعد أن استعدوا فقصدوا بلاد ما وراء النهر فوصلوا إلى مدينة بخارى بعد خمسة أشهرٍ من وصول خوارزمشاه إليها وألقوا الحصار عليها، وقاتلوا من فيها ثلاثة أيامٍ قتالاً شديداً فلم يكن للعسكر الخوارزمي بهم طاقة ففارقوا البلد تحت جنح الظلام هاربين إلى خراسان فلما أصبح أهل البلد وليس عندهم أحد من العسكر ضعفت نفوسهم فأرسلوا إلى بدر الدين قاضي السلطان ليطلب الأمان للسكان فأعطوهم الأمان، وكان قد بقي جماعة من العسكر لم يمكنهم الهرب، مع أصحابهم فاعتصموا بالقلعة فلما أجابهم جنكيزخان إلى الأمان فتحت المدينة

أبوابها يوم الثلاثاء الرابع من شهر ذي الحجة سنة ٦١٦هـ فدخل المغول المدينة ولم يتعرضوا إلى أحدٍ بل قالوا: كل ما عندكم للسلطان من ذخيرةٍ وغيرها أخرجوه لنا وساعدونا على قتال الذين بالقلعة، وأظهر المغول حسن الخلق، ودخل جنكيزخان بنفسه وأحاط بالقلعة، ونادى في أهل البلاد بأن لا يتخلّف أحد، ومن تخلّف قُتل، فحضروا جميعاً فأمرهم بردم الخندق فردموه بالأخشاب والتراب وغير ذلك، ثم تابعوا الزحف إلى القلعة وفيها نحو أربعمائة فارسٍ فبذلوا جهدهم ومنعوا القلعة اثني عشر يوماً يقاتلون جموع المغول وأهل البلد فقُتل بعضهم ولم يزالوا كذلك حتى زحفوا إليهم ووصل النقّابون إلى سور القلعة فنقبوه واشتدّ حينئذٍ القتال، والفرسان الذين داخل القلعة يرمون بكل ما يجدون من حجارةٍ ونارٍ وسهامٍ، فغضب جنكيزخان وردّ أصحابه عن القتال ذلك اليوم وباكرهم من الغد فجدّوا بالقتال، وقد تعب الذين بالقلعة وجاءهم ما لا قبل لهم به فقهرهم المغول ودخلوا القلعة وقاتلهم الفرسان الذين فيها حتى قُتلوا عن آخرهم. فلما فرغ جنكيزخان من القلعة أمر أهل البلد بالخروج من بلدهم مجردين من كل شيءٍ سوى الثياب التي عليهم، ودخل المغول بخارى فنهبوها وقتلوا من وجدوا فيها،

وأحاط عسكر جنكيزخان بسكان بخارى وأمر جنكيزخان أصحابه باقتسام السكان وكان يوماً شديداً على الناس لما ارتكب فيه المغول من منكرات ومن المسلمين من أبى ذلك واختار الموت فقاتل حتى قُتل.

رحل المغول بعد ذلك عن بخارى باتجاه سمرقند، وقد تأكّدوا عجز خوارزمشاه عنهم، وهو في مكانه بين بلْخ وترمذ، وصحب المغول معهم من سلم من أهل بخارى أسارى وساروا بهم مشاةً على أقبح صورةٍ وكل من أعياه التعب وعجز عن المشي قُتل، فلما اقترب المغول من سمرقند قدّموا الخيالة وتركوا الرجالة والأسارى والأثقال وراءهم، وتقدّموا ببطءٍ حتى يكون ذلك أكثر رعباً في قلوب المسلمين، فلما رأى أهل البلد سوادهم استعظموه فلما كان اليوم الثاني وصل الرجالة والأسارى والأثقال، ومع كل عشرةٍ من الأسارى علم فظنّ أهل سمرقند أن الجميع عساكر مقاتلة وأحاطوا بالمدينة وفيها خمسون ألف مقاتلٍ من عسكر الخوارزمية، وأما عامة أهل البلد فكثيرون جداً، فخرج إلى الغزاة المغول شجعان أهل سمرقند وأصحاب القوة والجَلد، ولم يخرج معهم أحد من عسكر الخوارزمية لما في قلوبهم من خوفٍ من المغول، فقاتلهم أهل سمرقند بظاهر البلد، ومازال

المغول يتراجعون وأهل سمرقند يتبعونهم ويطمعون فيهم، وكان المغول قد نصبوا لهم كميناً، فلما جاوزوا الكمين خرج عليهم رجاله وحالوا بينهم وبين البلد، ورجع المغول المقاتلون عليهم فأصبح أهل سمرقند بين نارين وأخذهم السيف من كل جانبٍ فلم يسلم منهم أحد إذ قتلوا جميعهم وكانوا سبعين ألفاً، فلما رأى ذلك الباقون من الجند والعامة ضعفت نفوسهم وأيقنوا بالهلاك فطلب الجند الأمان فأُجيبوا إلى ذلك ففتحوا أبواب البلد ولم يستطع العامة منعهم فخرج أهل سمرقند بأهليهم وأموالهم إلى المغول، فقال لهم المغول، قدّموا إلينا سلاحكم وأموالكم ودوابكم ونحن نُسيّركم إلى مأمنكم ففعلوا ذلك، فلما أخذوا أسلحتهم ودوابهم وضعوا السيف فيهم وقتلوهم عن آخرهم وأخذوا أموالهم ونساءهم، فلما كان اليوم الرابع نادوا في البلد أن يخرج الأهالي جميعاً ومن تأخّر قُتل، فخرجوا جميعهم ففعلوا بهم كما فعلوا مع أهل بخارى من النهب والقتل والسبي والفساد ودخلوا البلد فنهبوا ما فيه وأحرقوا الجامع، وكان ذلك في شهر المحرم سنة ٦١٧هـ. وكان خوارزمشاه في معكسره بين بلْخ وترمذ يعمل على جمع العسكر وكلما اجتمع لديه عدد سيّره إلى سمرقند فيرجعون دون الوصول إليها خوفاً

وتخاذلاً فقد سيّر مرة عشرة آلافٍ فعادوا، وسيّر عشرين ألفاً فعادوا أيضاً.

بعد أن ملك المغول مدينة سمرقند سيّر جنكيزخان عشرين ألف فارسٍ، وقال لهم: اطلبوا خوارزمشاه أين كان ولو تعلّق بالسماء حتى تدركوه وتأخذوه، فانطلقوا يتبعونه وعبروا نهر جيحون فانهزم المسلمون أمامهم وتفرّقوا حيث كان الخوف من المغول يملأ القلوب لما يفعلونه وما يرتكبون. ورحل خوارزمشاه لا يلوي على شيء في نفرٍ من خاصته وقصدوا نيسابور فلما دخلها اجتمع حوله بعض العسكر فلم يستقر حتى وصل إليها المغول إذ كانوا يجدّون السير في طلبه ولا يتعرّضون أثناء مسيرهم لشيءٍ من قتلٍ أو نهبٍ، فلما سمع خوارزمشاه بوصولهم رحل إلى مازندران وهي مما يتبعه من بلادٍ فكان المغول في أثره ولم يعرجوا على نيسابور، وكان كلما رحل عن موضعٍ نزلوه حتى وصل إلى ساحل بحر الخزر، وكان قلعة على جزيرةٍ في ذلك البحر فنزل هو وأصحابه في السفن لينتقلوا إليها فلما تحرّكت المراكب وصل المغول إلى المرسى فيئسوا من اللحاق به فرجعوا وقصدوا الريّ. وتوفي خوارزمشاه في هذه القلعة التي هي في البحر.

توفي خوارزمشاه علاء الدين محمد بن علاء الدين

تكش سنة ٦١٧هـ وقد ملك إحدى وعشرين سنةً وعدة شهورٍ، وكان يتبعه مابين العراق وتركستان ويُذكر بالخير.

الاستيلاء على مازندران:

لما أيس المغول من اللحاق بخوارزمشاه رجعوا فقصدوا بلاد مازندران فاستولوا عليها بسهولةٍ رغم حصانتها وصعوبة دخولها وامتناع قلاعها، ولما دخلوا مدينة مازندران قتلوا وسبوا ونهبوا وأحرقوا، ولما فرغوا من مازندران قصدوا الريّ فرأوا في الطريق والدة خوارزمشاه ونساءه وأموالهم وذخائرهم الكثيرة، وذلك أن والدة خوارزمشاه لما سمعت بما جرى لولدها خافت ففارقت خوارزم واتجهت نحو الريّ في طريقها إلى بلاد الجبل لتحمي نفسها بها فالتقى المغول بها فأخذوها ومن معها وسيّروا الجميع إلى جنكيزخان في سمرقند.

الاستيلاء على الريّ:

وصل المغول إلى الريّ سنة ٦١٧هـ في طلب خوارزمشاه علاء الدين محمد حيث بلغهم أنه مضى منهزماً إلى الريّ فجدّوا السير في أثره وقد سار معهم كثير من العساكر الذين يريدون النهب والشرّ فوصلوا إلى الريّ على حين غفلةٍ من أهلها فاستولوا عليها

ونهبوا وسبوا وأفسدوا وارتكبوا المنكرات ولم يقيموا ومضوا مسرعين في طلب خوارزمشاه وما مرّوا على بلدةٍ إلا وأفسدوا ما شاء لهم هواهم من الفساد، ووصلوا إلى همدان، وكان قد وصل إليها خوارزمشاه في نفرٍ من أصحابه وفارقوها.

ولما اقترب المغول من همدان خرج إليهم رئيس القوم فيها يحمل لهم الأموال ويطلب منهم الأمان لأهلها فأمّنوهم ثم فارقوها وساروا إلى زنجان فارتكبوا الفساد وانطلقوا منها باتجاه قزوين فاعتصم أهلها منهم بمدينتهم فقاتلوهم وجدّوا في قتالهم فدخلوها عنوةً بالسيف فاشتبكوا مع أهل البلد في داخله حتى صاروا يقتتلون بالسكاكين فقُتل كثير من الفريقين، ثم فارق المغول قزوين وأحصى أهل البلد قتلاهم فزاد العدد على أربعين ألف قتيل.

الاستيلاء على أذربيجان:

أقبل فصل الشتاء والمغول في بلاد الجبل فاشتدّ عليهم البرد فارتحلوا مغادرين بلاد الجبل واتجهوا نحو أذربيجان فألحقوا بالقرى التي مرّوا عليها مختلف أنواع الفساد فوصلوا إلى تبريز وبها صاحب أذربيجان أوزبك بن البهلوان فلم يخرج إليهم وإنما أرسل إليهم

وصالحهم على شيءٍ معين من المال والثياب والدواب وحمله لهم فساروا نحو ساحل البحر طلباً للدفء وتطرّفوا قليلاً فدخلوا بلاد الكرج فأسرع إليهم نحو عشرة آلاف مقاتلٍ من الكرج فالتقوا بهم فهُزم الكرج وقُتل أكثرهم، فأرسل الكرج إلى أوزبك صاحب أذربيجان يطلبون منه الصلح والاتفاق على الوقوف في وجه المغول لدفعهم عن البلاد فاصطلحوا ليجتمعوا إذا انقضى فصل الشتاء، وكذلك أرسلوا إلى صاحب خلاط والجزيرة الفراتية الملك الأشرف موسى بن الملك العادل يطلبون منه الاجتماع والوقوف أمام المغول وظنّ جميعهم أن المغول يصبرون حتى ينقضي برد الشتاء ويأتي فصل الربيع غير أن المغول تحرّكوا وساروا نحو بلاد الكرج وانضمّ إليهم مملوك من مماليك أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان يُسمّى (آقوش) إذ جمع أهل تلك الجبال فاجتمع معه خلق كثير وراسل المغول بالانضمام إليهم فأجابوه إلى ذلك فاجتمعوا وساروا في مقدمة المغول إلى بلاد الكرج فاستولوا على حصنٍ من حصونهم وخرّبوه، ونهبوا البلاد وقتلوا أهلها وأخذوا أموالهم حتى اقتربوا من مدينة تفليس قاعدة الكرج وعاصمتهم، فاجتمع الكرج وخرجوا بحدّهم وحديدهم لملاقاة الغزاة فلقيهم (آقوش) مع من اجتمع إليه فاقتتلوا

قتالاً شديداً صبر فيه الطرفان فقُتل من أصحاب آقوش خلق كثير، وأدركهم المغول وقد تعب الكرج من القتال وقُتل منهم أيضاً خلق كثير فلم يثبتوا أمام المغول، وهُزموا أقبح هزيمةٍ، ووُضع فيهم السيف من كل جانبٍ فقُتل منهم الكثير الكثير، وكانت هذه الوقعة في شهر ذي القعدة سنة ٦١٧هـ.

الاستيلاء على مراغة:

بعد قتال المغول للكرج وجدوا أن في أيديهم شوكةً قويةً مزعجةً ومضائق تحتاج إلى قتالٍ ونزالٍ لذا عدلوا عن بلاد الكرج، وكانت هذه عادة المغول إذا قصدوا مدينةً ورأوا عندها امتناعاً عدلوا عنها، فساروا إلى تبريز فصانعهم صاحبها بمالٍ وثيابٍ ودواب فساروا عنه إلى مدينة (مراغة) فحاصروها وليس لها صاحب يمنعها لأن صاحبها كانت امرأةً، وهي مقيمة بقلعة، فلما حاصر المغول مدينة مراغة قاتلهم أهلها فنصبوا عليها المجانيق وزحفوا إليها، وكان من عادة المغول إذا قاتلوا مدينةً قدّموا من معهم من أسارى المسلمين بين أيديهم يزحفون ويقاتلون فإن عادوا سالمين قُتلوا، فكانوا يقاتلون كرهاً، والمغول كانوا يقاتلون وراء المسلمين الأسارى فيكون القتل في المسلمين وهم في منجىً.

أقام المغول على مدينة مراغة عدة أيام، ثم دخلوها عنوةً وقهراً في الرابع من شهر صفر سنة ٦١٨هـ. ووضعوا السيف في أهلها فقتلوا أكثرهم ونهبوا ما يصلح لهم وما لا يصلح أحرقوه، وكانوا يأخذون الأسارى ويقولون لهم: نادوا في الدروب أن المغول قد رحلوا فيخرج من كان قد اختفى فيؤخذ ويُقتل.

رحل المغول عن المراغة بعد أن ملكوها واتجهوا نحو مدينة أربيل فكتب مظفر الدين صاحب أربيل إلى بدر الدين صاحب الموصل يطلب منه نجدةً من العساكر فسيّر إليه جمعاً من عسكره، وأراد أن يمضي إلى طرف بلاده من جهة المغول ويحفظ المضائق لئلا يجتازها أحد فإنها جميعها جبال وعرة ومضائق لا يمكن أن يجتازها إلا الفارس بعد الفارس ويمنعهم من الجواز إليه. ووصلت رسل الخليفة وكتبه إلى الموصل وإلى أربيل يأمر الجميع بالاجتماع مع عساكره بمدينة دقوقا بين بغداد وأربيل وذلك ليمنعوا المغول فإنهم ربما عدلوا عن جبال أربيل لصعوبتها وطرقوا ناحية العراق، فسار مظفر الدين من أربيل في شهر صفر سنة ٦١٨هـ، وسار إليهم جمع من عسكر الموصل وتبعهم كثير من المتطوعة، وأرسل الخليفة إلى الملك الأشرف موسى بن الملك العادل يأمره بالحضور بنفسه في عسكره ليجتمع

الجميع على قصد المغول وقتالهم فاتفق أن الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وهو ابن الملك العادل وصل من دمشق إلى أخيه الملك الأشرف وهو بحران يستنجده على الصليبيين الذين بمصر وطلب منه أن يحضر بنفسه ليسيروا كلهم إلى مصر ليستنقذوا دمياط من الصليبيين فاعتذر حينئذٍ الملك الأشرف إلى الخليفة بأخيه وقوة الصليبيين وإن لم يتداركها خرجت هي وغيرها من أيدي المسلمين، وشرع يتجهّز للمسير إلى الشام ليدخل مصر.

اجتمع مظفر الدين صاحب أربيل والعساكر بمدينة دقوقا وسيّر إليهم الخليفة مملوكه (قشتمر) وهو أكبر أمير بالعراق ومعه غيره من الأمراء في ثمانمائة فارس، فاجتمعوا هناك ليتصل بهم باقي عسكر الخليفة، وكان المقدم على الجميع صاحب أربيل مظفر الدين فلما رأى قلّة العسكر لم يقدم على قصد المغول، فلما أرسل إليه الخليفة قال له: إن العدوّ قوي وليس لي من العسكر ما ألقاه به فإن اجتمع معي عشرة آلاف فارس، استنقذت ما أخذ من البلاد. فأمره الخليفة بالمسير ووعده بوصول العسكر إليه، فلما سار لم يصل إليه غير عددٍ لم يبلغوا الثمانمائة، فأقام مظفر الدين ولم ير المخاطرة بنفسه وبالمسلمين.

لما سمع المغول باجتماع العسكر لقتالهم رجعوا

القهقرى ظناً منهم أن العسكر يتبعهم فلما لم يروا أحداً يطلبهم أقاموا وأقام العسكر الإسلامي عند دقوقا فلما لم يروا أن العدو يطلبهم ولا المدد يأتيهم تفرقوا وعادوا إلى بلدانهم.

الاستيلاء على همدان:

لما تفرّق العسكر الإسلامي في دقوقا رجع المغول إلى همدان فنزلوا بالقرب منها وكان من فيها يصانعهم ويُقدّم لهم المال، ولهم فيها معتمد، فلما رجعوا طالبوا بالأموال فعجز أهل همدان عن الدفع ولم ير الفقيه بينهم سوى الامتناع عن الدفع والخروج على المغول وقتالهم فوثب العامة على معتمد المغول وقتلوه وامتنعوا في بلادهم فتقدّم إليهم المغول وحاصروهم، وكانت الأقوات قليلةً لخراب البلاد، ومقتل الكثير من أهلها، وأهل البلد أشدّ حاجةً إلى القوت من المغول لأن المغول يأكلون لحوم الحيوانات الوحشية كالكلاب وغيرها.

لما حاصر المغول همدان قاتلهم أهلها وفي مقدمتهم الرئيس فيهم والفقيه وكان القتال شديداً وقد قُتل الكثير من المغول، ورغم العناء فقد قرر أهل همدان الاستماتة في قتالهم والدفاع عن أنفسهم وبلدهم، فأقاموا في البلد ولم يخرجوا منه كما أن المغول قد عزموا على

الرحيل لكثرة من قُتل منهم ولكنهم لما لم يروا أحداً خرج إليهم من البلد طمعوا بهم واستدلّوا على ضعفهم فزحفوا عليهم وقاتلوهم وذلك في شهر رجب سنة ٦١٨هـ ودخلوا المدينة بالسيف وقاتلهم الناس بالدروب وصعب استعمال السلاح للضيق والازدحام واقتتلوا بالسكاكين فقُتل من الفريقين أعداد كثيرة يصعب تعدادها وقوي المغول على المسلمين فأفنوهم قتلاً، ولم ينجُ منهم إلا من كان عنده نفق فاختفى فيه، وبقي القتل بالمسلمين عدة أيامٍ، ثم أحرق المغول البلد ورحلوا عنها إلى مدينة أردبيل في إقليم أذربيجان.

الاستيلاء على أذربيجان:

لما فرغ المغول من مدينة همدان ساروا إلى أذربيجان فوصلوا إلى مدينة أردبيل فملكوها وأعملوا بأهلها القتل وبيبوتها الخراب، ثم ساروا إلى مدينة تبريز وكان قد فارقها صاحبها أوزبك بن البهلوان فقام بأمرها شمس الدين الطغرائي وجمع كلمة أهلها وحذّرهم عاقبة التخاذل والتواني، وحصّن البلد بجهده وطاقته فلما اقترب المغول من تبريز وسمعوا ما هم عليه أهل البلد من اجتماع الكلمة والاستعداد للقاء أيّ معتدٍ وأنهم قد حصّنوا المدينة وأصلحوا أسوارها وخندقها فأرسل

المغول إلى أهل تبريز يطلبون منهم مالاً وثياباً فاستقر الأمر بينهم على قدرٍ معلومٍ من ذلك وبعثوا إليهم فأخذوه ورحلوا عنهم فاتجهوا إلى مدينة (سراو) فنهبوها، وقتلوا كل من كان فيها ورحلوا عنها إلى مدينة (بيلقان) فنهبوا كل ما مرّوا عليه من القرى والبلدان، وقتلوا من ظفروا به من السكان، وخرّبوا الكثير فلما وصلوا إلى بيلقان ألقوا الحصار عليها فاستدعى أهلها منهم مبعوثاً يقررون معه الصلح فأرسلوا إليهم مبعوثاً من أكابرهم ومقدميهم فقتله أهل البلد فزحف المغول إليهم وقاتلوهم، ودخلوا البلد عنوةً في شهر رمضان سنة ٦١٨هـ ووضعوا السيف فيهم فلم يُبقوا على صغيرٍ ولا كبيرٍ ولا امرأةٍ منهم، وحتى كانوا يشقّون بطون الحبالى ويقتلون الأجنّة إضافةً إلى ما ارتكبوا من منكراتٍ فلما انتهوا من مدينة بيلقان ساروا إلى مدينة (كنجة) وهي قاعدة بلاد أران فعلموا بشجاعتهم وكثرة خبرتهم بالقتال وحصانتها فلم يقُدموا عليها بل أرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب فبعثوا إليهم ما طلبوا فرحلوا عنهم.

وصول المغول إلى بلاد الكرج:

بعد أن فرغ المغول من بلاد أذربيجان بعضها بالسيطرة وبعضها بالصلح ساروا إلى بلاد الكرج

(جورجيا)، وكان الكرج قد أعدّوا لهم واستعدّوا وسيّروا جيشاً كبيراً إلى أطراف بلادهم ليمنعوا المغول عنها، فلما التقوا لم يثبت الكرج بل ولّوا منهزمين فأخذهم السيف فلم ينجُ منهم إلا الشريد، وقد قُدّر عدد القتلى بثلاثين ألفاً ونُهبت بلادهم وخُرّبت، ووصل المنهزمون إلى قاعدتهم تفليس.

كان ملك الكرج في عاصمته تفليس قد جمع جموعاً أخرى وسيّرها إلى المغول ليمنعوهم من التقدّم في بلادهم فرأوا أن المغول قد دخلوا البلاد ولم يمنعهم جبل ولا مضيق ولا حاجز ولا وادٍ فلما رأوا ذلك عادوا إلى تفليس فأخلوا البلاد ففعل فيها المغول ما أرادوا من سلبٍ ونهبٍ وقتلٍ وتخريبٍ. أما المغول فقد رأوا بلاداً كثيرة المضائق فلم يتجاسروا على التوغّل فيها فعادوا عنها. وداخل الكرج منهم خوف عظيم.

وصول المغول إلى داغستان:

لما رجع المغول من بلاد الكرج قصدوا بلاد داغستان فاتجهوا إلى دربند (باب الأبواب) فحاصروا مدينة شماخي في بلاد شروان وقاتلوا أهلها فصبروا على الحصار، ثم إن المغول صعدوا سورها بالسلالم فأشرفوا على المدينة وقاتلوا ثلاثة أيامٍ قتالاً شديداً وكاد السكان

أن يستسلموا ثم رأوا أن السيف لا بُدّ منه فقالوا: الصبر أولى وأن نموت كراماً خير من أن نموت أذلاء فصبروا، وعاد المغول إلى الزحف على المدينة بوحشيةٍ فأصاب السكان الضعف والتعب وملك المغول البلد واستباحوها وأرادوا عبور بعض المضائق للتوغّل إلى داخل البلاد فصعُب عليهم ذلك فأرسلوا مبعوثاً إلى ملك شروان يطلبون منه أن يرسل لهم رسولاً يسعى بينهم في الصلح فأرسل لهم عشرة رجالٍ من أعيان أصحابه فأخذوا أحدهم فقتلوه ثم قالوا للباقين: إن أنتم عرفتمونا طريقاً نعبر فيه فلكم الأمان وإن لم تفعلوا قتلناكم كما قتلنا هذا، فقالوا لهم: إن هذا المضيق ليس فيه طريق أبداً ولكن فيه موضع هو أسهل الطرق فيه فساروا معهم إلى ذلك الطريق فسلكوه وتجاوزوا إلى داخل البلاد.

وصول المغول إلى بلاد الشراكسة:

بعد أن اجتاز المغول دربند (باب الأبواب) انطلقوا إلى داخل بلاد القفقاس فوصلوا إلى بلاد (اللان)، وكان اللان قد استعدّوا للقادمين وجمعوا المقاتلين ووصل إليهم المغول ووقع القتال واشتدت الحرب ولم يظفر فريق بالآخر فعمل المغول على إيقاع الفرقة بين شعوب تلك الجهات كي يكسبوا النصر

عليهم، ووقعت الفرقة وحدث الخلل فانتصر المغول على اللان فقتلوا ونهبوا وسبوا وأفسدوا ثم ساروا نحو الآخرين ومنهم الشراكسة وهم آمنون متفرقون لما استقرّ من صلحٍ بينهم فما سمعوا إلا والمغول يداهمون بلادهم بوحشيةٍ ففرّ من كان بعيد الدار والتجأ بعضهم إلى الجبال ممتنعاً، واحتمى بعضهم بالغياض مختفياً، ووصل بعض من فرّ إلى بلاد الروس، وأقام المغول ببلاد الشراكسة فهي بلاد مراعٍ وخيراتٍ.

وصول المغول إلى روسيا:

لما استولى المغول على بلاد القفقاس فرّت جماعة من الشراكسة إلى بلاد روسيا واجتمعت الكلمة هناك على قتال المغول إن قصدوهم، وقد أقام المغول مدةً في قفقاسيا.

سار المغول إلى بلاد روسيا سنة ٦٢٠هـ فسمع الروس ومن عندهم من أهل قفقاسيا بخبرهم وكانوا مستعدين للمنازلة فساروا إلى طريق المغول ليلقوهم قبل أن يصلوا إلى بلادهم ليمنعوهم عنها فبلغ مسيرهم المغول فعادوا على أعقابهم راجعين فطمع الروس فيهم وظنوا أنهم عادوا خوفاً وعجزاً عن قتالهم فجدّوا في اتّباعهم، ولم يزل المغول راجعين وأولئك يقتفون أثرهم

اثني عشر يوماً ثم إن المغول عطفوا على الروس فلم يشعروا بهم إلا وقد التقوا بهم على غرّةٍ منهم لأنهم كانوا قد أمنوهم واستشعروا القدرة عليهم فلم يجتمعوا للقتال إلا وقد نال منهم المغول واشتدّ القتال بينهما وصبر الطرفان ودام القتال عدة أيامٍ وانتهى بانتصار المغول وهزيمة الروس ومن معهم ولم ينجُ منهم إلا القليل وربح المغول كل ما كان مع خصمهم وخرّبوا في البلاد ونهبوها.

قصد المغول بُلغار (قازان) في أواخر سنة ٦٢٠هـ فلما سمع أهل بُلغار بقرب المغول منهم كمنوا لهم في عدة مواضع وخرجوا إليهم فلقوهم واستجرّوهم إلى أن جاوزوا موضع الكمائن فخرجوا عليهم من وراء ظهورهم فبقوا في الوسط فأخذهم السيف من كل ناحيةٍ فقُتل أكثرهم ولم ينجُ إلا القليل منهم، فاجتمع من سلم وعادوا إلى ملكهم جنكيزخان في سمرقند.

الاستيلاء على ما وراء النهر:

بعد أن سيّر جنكيزخان جيوشه إلى خوارزم وهي التي وصلت إلى بلاد الروس قسّم من بقي عنده من عساكر في جيوشٍ فسيّر أحدها إلى بلاد فرغانة وسيّر آخر إلى ترمذ وسيّر ثالثاً إلى قلعةٍ على نهر جيحون،

واحتلّ كل جيش ما سار إليه وفعل بأهله الأفاعيل ورجع إلى ملكه جنكيزخان في سمرقند.

الاستيلاء على خراسان:

جهّز جنكيزخان جيشاً عظيماً بقيادة أحد أبنائه وسيّره إلى خوارزم وجهّز جيشاً آخر وسيّره إلى خراسان.

قصد الجيش المعدّ إلى خراسان مدينة بلْخ فطلب أهلها الأمان فأمنوهم وتسلّموا البلاد ولم يتعرّضوا إلى قتلٍ أو سلبٍ بل جعلوا فيه معتمداً لهم وذلك سنة ٦١٧هـ، وساروا بعد ذلك إلى بلدانٍ أخرى فملكوها وجعلوا فيها ولاةً لهم ولم يتعرّضوا بسوءٍ ولا أذىً لأهلها سوى أنهم كانوا يأخذون الرجال ليقاتلوا بهم من يمتنع عليهم حتى وصلوا إلى الطالقان وهي قاعدة ولاية تشمل عدة بلدانٍ، وفيها قلعة حصينة وفيها حماة أشداء فحاصروها مدة ستة أشهرٍ يقاتلون أهلها ليلاً نهاراً فلم يظفروا منها بشيءٍ فأرسلوا إلى ملكهم جنكيزخان يُعرّفونه عجزهم عن الاستيلاء على هذه القلعة لكثرة من فيها من المقاتلة ولامتناعها بحصانتها فسار بنفسه وبمن عنده من عسكرٍ وقصدهم وألقى الحصار عليها، ومعه كثير من أسرى المسلمين فأمرهم بمباشرة القتال وإلا قتلهم فقاتلوا معه وأقام عليها أربعة أشهرٍ أخرى فقُتل

عليها من المغول خلق كثير فلما رأى جنكيزخان ذلك أمر أن يجمع له من الحطب والأخشاب ما أمكن جمعه ففعلوا ذلك، وصاروا يعملون صفاً من خشبٍ وفوقه طبقةً من ترابٍ، فلم يزالوا كذلك حتى صار تلاًّ عالياً يوازي القلعة، فاجتمع من بها، وفتحوا بابها، وخرجوا منها، وحملوا حملة رجلٍ واحدٍ فسلم الخيالة منهم ونجوا وسلكوا تلك الجبال والشعاب وأما الرجالة فقُتلوا، ودخل المغول القلعة ونهبوا الأموال والأمتعة، وسبوا النساء والأطفال.

جمع جنكيزخان أهل البلاد التي أعطاهم الأمان ببلْخ وغيرها وسيّرهم مع بعض أولاده إلى مدينة مرو فدخلوا إليها وقد اجتمع بها من العرب والأتراك وغيرهم ممن نجا من المسلمين ما يزيد على مائتي ألف رجلٍ وهم معسكرون بظاهر مدينة مرو وعازمون على لقاء المغول ويحدّثون أنفسهم بالنصر فلما وصل المغول إليهم التقوا واقتتلوا فصبر المسلمون ولكن لما رأوا صبر المغول وإقدامهم ولّوا منهزمين فقتل المغول منهم الكثير وأسروا الكثير ولم ينجُ إلا القليل ونهبت أموالهم وأسلحتهم ودوابهم. وأرسل المغول إلى ما حولهم يجمعون الرجال لحصار مدينة مرو فلما اجتمع لهم ما أرادوا تقدّموا إلى مرو وحاصروها وجدّوا في حصارها

ولازموا القتال وكان أهل البلد قد ضعفوا بعد انهزام ذلك العسكر وكثرة القتل والأسر فيهم فلما كان اليوم الخامس من نزولهم أرسل المغول إلى الأمير الذي كان مقدماً على من فيها يقولون له: لا تهلك نفسك وأهل البلاد معك واخرج إلينا فنحن نجعلك أمير هذه البلدة ونرحل عنك. فأرسل يطلب الأمان لنفسه ولأهل البلد فأعطوه ما طلب، فخرج إليهم فخلع عليه ابن جنكيز خان واحترمه، وقال له: أريد أن تعرض علي أصحابك حتى ننظر من يصلح لخدمتنا استخدمناه وأعطيناه أقطاعاً ويكون معنا، فلما حضروا عنده وتمكّن منهم قبض عليهم وعلى أميرهم، وقيّدوهم، فلما فرغ منهم، قال لهم: اكتبوا إلى تجار البلاد ورؤسائه وأصحاب الأموال على رقعةٍ، واكتبوا إلى أصحاب الصناعات والحرف على رقعةٍ أخرى واعرضوا ذلك علينا، ففعلوا ما أمرهم، فلما وقف على النسخ أمر أن يخرج أهل البلد منه بأهليهم فخرجوا جميعاً ولم يبق فيه أحد، فجلس على كرسيٍ وأمر أنه يحضر أولئك الأجناد الذين قبض عليهم فأُحضروا وضُربت رقابهم صبراً والناس ينظرون إليهم ويبكون، وأخذوا العامة سبياً، وأحضروا أصحاب الأموال فضربوهم وعذّبوهم بأنواع العقوبات في طلب المال وربما مات أحدهم من شدة الضرب، ثم أحرق

المغول البلد، فبقوا كذلك ثلاثة أيامٍ فلما كان اليوم الرابع أمر بقتل أهل البلد كافةً، وقال: هؤلاء عصوا علينا، فقتلوهم جميعاً. ثم أمر بإحصاء القتلى فكانوا نحو سبعمائة ألف قتيلٍ[1].

وسار المغول بعد ذلك إلى نيسابور فحاصروها خمسة أيامٍ وبها قوة من عسكر المسلمين غير أنهم ليس لهم إمكانية بالمغول فملك المغول المدينة وأخرجوا أهلها إلى الصحراء فقتلوهم وسبوا نساءهم وأقاموا فيها خمسة عشر يوماً يخربون ويفتشون المنازل عن الأموال. وكانوا لما قتلوا أهل مرو، قيل لهم: إن قتلاهم سلم منهم كثير، وقاموا من بين القتلى، وكانوا قد ظنوا أنهم موتى، ونجوا إلى بلاد الإسلام، لذا أمروا أن تُقطع رؤوس أهل نيسابور لئلا يسلم من القتل أحد.

سارت فرقة من عسكر المغول إلى مدينة طوس ففعلت بأهل البلاد كما فُعل بأهل مرو حتى غدت طوس خراباً.

وسارت فرقة إلى مدينة هراة، وهي من أحصن البلاد فحاصروها عشرة أيامٍ فملكوها وأمّنوا أهلها، وقتلوا بعضهم، وعيّنوا معتمداً لهم على من بقي من

---

(١) الكامل في التاريخ: ابن الأثير.

السكان، ورحلوا عنها، وساروا إلى غزنة فلقيهم جلال الدين بن خوارزمشاه فقاتلهم وهزمهم، فوثب أهل هراة على معتمد المغول عندهم فقتلوه، فلما رجع المنهزمون إليهم دخلوا البلاد عنوةً وقهراً وقتلوا كل من فيه ونهبوا الأموال، وسبوا النساء، وخربوا المدينة وأحرقوها، ونهبوا ضواحيها وعادوا إلى ملكهم جنكيزخان وهو بمدينة الطالقان يرسل السرايا إلى بلدان خراسان كلها فيفعلون بها كذلك ولم يسلم من شرهم وفسادهم شيء من خراسان وذلك كله سنة ٦١٧هـ.

الاستيلاء على خُوارزم:

كانت القوة العسكرية التي بعث بها جنكيزخان إلى خوارزم أكبر الفرق كلها وقد سارت حتى وصلت إلى خوارزم، وفي مدينة خُوارزم (خيوه) عسكر كثير أيضاً، كما أن أهل البلد لديهم خبرة بالقتال وأصحاب شجاعةٍ فقاتلوهم أشدّ قتالٍ، ودام حصار المغول للمدينة خمسة أشهرٍ، وكان عدد القتلى من الفريقين كبيراً غير أنه كان من المغول أكثر لأن أهل البلد يقاتلون من خلف السور، فأرسل المغول إلى ملكهم جنكيزخان يطلبون منه المدد فأمدّهم بقوةٍ كبيرةٍ فلما وصل هذا المدد إلى أصحابهم زحفوا إلى المدينة

فملكوا طرفاً منها، واستمرّ القتال، وكان المغول يحتلّون جزءاً بعد جزءٍ حتى ملكوا البلد كله فقتلوا كل من فيه ونهبوا كل ما فيه ثم أغرقوا البلد بماء نهر جيحون بعد أن كسروا السدّ الذي يمنع ماء النهر عن البلد فتهدّمت الأبنية ولم يسلم أحد من أهل البلد، فإن غيره من البلاد قد يسلم بعض أهله، منهم من يهرب، ومنهم من يختفي، ومنهم من يخرج، ومنهم من يلقي نفسه بين القتلى فينجو أما في خوارزم فإن من اختفى عن المغول قد مات غرقاً أو قتله الهدم.

الاستيلاء على غزنة وبلاد الغور:

لما انتهى المغول من خراسان رجعوا إلى ملكهم جنكيزخان فجهّز جيشاً ضخماً وسيّره إلى غزنة وكان بها جلال الدين بن خوارزمشاه مالكاً لها، وكان قد وصل إليه من سلم من عسكر أبيه، فلما وصل المغول إلى أعمال غزنة التقوا مع جيش جلال الدين فاقتتلوا قتالاً شديداً وبقي القتال ثلاثة أيامٍ وانتهت بهزيمة المغول وقتل المسلمون منهم عدداً كبيراً، ومن سلم منهم رجع إلى جنكيزخان بمدينة الطالقان، فجهّز جنكيزخان جيشاً كبيراً مع بعض أبنائه وسيّره إلى جلال الدين فوصل إلى مدينة كابل فالتقى هناك مع جيش جلال الدين فدارت

معركة حامية بين الفريقين أسفرت عن هزيمة المغول وقتل عددٍ كبيرٍ منهم وغنم المسلمون ما معهم وكان شيئاً كثيراً، وكان مع المغول عدد كبير من الأسرى المسلمين فاستنقذوهم منهم، ولكن اختلف المسلمون فيما بينهم من أجل الغنائم فغضب أحد الأمراء وكان أشجعهم ويقال له سيف الدين بغراق ففارق العسكر وسار إلى الهند، وكان خلافه مع صاحب هراة ويدعى ملكخان وجرى قتال بين الفريقين وقتل فيه أخو سيف الدين بغراق، وحاول جلال الدين استرضاء سيف الدين بالوسائل كلها وسار إليه بنفسه وذكّره بالجهاد وخوّفه من الله سبحانه وتعالى وبكى بين يديه فلم يُفلح. ولما فارق سيف الدين العسكر تبعه ثلاثون ألفاً كلهم يريدونه فضعف بذلك أمر المسلمين فبينما هم كذلك إذا ورد الخبر أن جنكيزخان قد وصل في جموعه وجيوشه إليهم، فلما رأى جلال الدين ضعف المسلمين بسبب من فارقهم من العسكر لم يستطع المقام فسار نحو بلاد الهند أيضاً ووصل إلى نهر السند ولم يجد مراكب يعبر النهر وكان جنكيزخان يقتفي أثره مسرعاً فلم يتمكن المسلمون من العبور حتى أدركهم جنكيزخان فاضطر المسلمون حينئذٍ إلى القتال والصبر، ودارت المعركة بين الطرفين وكانت حامية الوطيس واستمرت ثلاثة أيام

وكان عدد القتلى كبيراً وهو بين المغول أكثر والجراح أعظم فرجع المغول عنهم وابتعدوا ونزلوا، ورأى المسلمون أنه لا مدد لهم، وزاد ضعفهم بمن قُتل منهم وجرح، ولم يعلموا ما أصاب المغول لذا لم يتبعوهم بل طلبوا مراكب ليعبروا النهر وجاءتهم وعبروا. فلما كان الغد عاد المغول إلى غزنة وقد قويت نفوسهم بعبور المسلمين إلى جهة الهند وبُعدهم، فلما وصل المغول إلى غزنة ملكوها مباشرةً لخلوها من العسكر والحماة فقتلوا أهلها وسبوا النساء ونهبوا الأموال وخرّبوها وأحرقوها وكذا فعلوا بضواحيها.

عودة المغول إلى الريّ وهمدان:

في مطلع سنة ٦٢١هـ بعث جنكيزخان بفرقةٍ من العسكر إلى الريّ وذلك أن من سلم من أهلها في غزوة المغول الأولى سنة ٦١٧هـ قد رجع إليها وعمروها فلم يشعروا إلا والمغول قد وصلوا إليهم فلم يمتنعوا عنهم فوضعوا السيف فيهم فقتلوهم ونهبوا البلد وخربوه، وسار المغول بعد ذلك إلى بلدة ساوة ففعلوا بأهلها مثل سابقتها، ثم إلى (قُم) و(قاشان) وكانتا قد سلمتا من المغول أولاً. فلما جاءوهما الآن ملكوهما وقتلوا أهلهما وخربوهما وألحقوهما بغيرهما من البلاد الخراب. ثم

انطلقوا في البلاد يخربون ويقتلون وينهبون ثم قصدوا مدينة همدان وكان قد اجتمع فيها كثير ممن سلم من أهلها فأبادوهم قتلاً وأسراً ونهباً وخربوا البلد.

وكان المغول لما وصلوا إلى الريّ رأوا بها عسكراً كثيراً من الخوارزمية فكبسوهم وقتلوا منهم ما استطاعوا قتله وانهزم الباقون إلى أذربيجان فنزلوا بأطرافها فلم يشعروا إلا والمغول أيضاً قد كبسوهم ووضعوا فيهم السيف فولوا منهزمين فوصلت جماعة منهم إلى تبريز، وجاء إثرهم جماعة من المغول فأرسلوا إلى أوزبك بن البهلوان صاحب تبريز يقولون له: إن كنت موافقاً لنا فسلّم إلينا من عندك من الخوارزمية وإن لم تفعل عرفنا أنك غير موافقٍ لنا ولا أنت في طاعتنا فعمد إلى من عنده من الخوارزمية فقتل بعضهم وأسر بعضهم وحمل الأسرى والرؤوس إلى المغول وأرسل معها من الأموال والثياب والدواب شيئاً كثيراً فعادوا عن بلاده نحو خراسان، فعلوا هذا ولم يكونوا في كثرةٍ بل كانوا نحو ثلاثة آلاف فارسٍ، وكان الخوارزمية الذين انهزموا منهم نحو ستة آلاف فارسٍ، وكان عسكر أوزبك بن البهلوان أكثر من الجميع ومع ذلك فلم يُحدّث نفسه ولا الخوارزمية بالامتناع منهم واللقاء معهم.

وهلك جنكيزخان سنة ٦٢٤هـ.

الفصل الثالث

٥٣ - المُستنصِر بالله

٦٢٣ - ٦٤٠هـ

المستنصر بالله هو الخليفة أبو جعفر منصور بن محمد الظاهر بأمر الله بن أحمد الناصر لدين الله بن الحسن المستضيء بأمر الله بن يوسف المستنجد بالله بن محمد المقتضي لأمر الله بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، عمّ رسول الله ﷺ.

(٥٠) المستضيء بأمر الله.

|

(٥١) الناصر لدين الله.

|

(٥٢) الظاهر بأمر الله.

|

(٥٣) المستنصر بالله.

ولد المستنصر بالله في شهر صفر سنة ٥٨٨هـ، وأمه أم ولد جارية تركية.

بويع بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رجب سنة ٦٢٣هـ، وكان عمره خمساً وثلاثين سنةً. فنشر العدل بين الرعية، وبذل الإنصاف في القضايا، وقرّب أهل الدين والعلم، وبنى المدارس والمساجد والمشافي. بنى المدرسة المستنصرية على الجانب الشرقي من نهر دجلة، وجعل لها الأوقاف، وعمل فيها مشفىً، وكان فيها مدرسون على المذاهب الأربعة، وجهّز البيوت وما تحتاج إليه للفقهاء، ورتّب الرواتب الحسنة لأهل العلم.

وجهّز العساكر، وكان ذا شجاعةٍ وإقدامٍ، وقصد المغول ديار الخلافة فلقيتهم عساكر المستنصر وهزمتهم. وكان له أخ يقال له الخفاجي وفيه شهامة، وكان يقول: لئن وُلّيت لأعبرنّ بالعسكر نهر جيحون وآخذ البلاد من أيدي المغول واستأصلهم.

وتوفي المستنصر يوم الجمعة العاشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ، وكان عمره اثنتين وخمسين سنةً وأربعة أشهرٍ، وكانت خلافته ما يقرب من سبع عشرة سنةً.

كان أمر المسلمين ضعيفاً فالخلافة ذات سلطانٍ محدودٍ لسيطرة الإمارات على معظم الأمصار، والإمارات متعددة ومتنافسة تُحركها الأطماع، ويختلف فيها الإخوة والأبناء، وكل يريد توسعة سلطانه ومدّ نفوذه، وراية الجهاد لا ترتفع لتُخيف الأعداء وتقطع سبيل الأطماع وتزيل مجال تسرّب الأهواء ومطالب الشهوات، والأعداء في الشرق والغرب يتربّصون الدوائر بالمسلمين يكيدون ويمكرون ويُدبّرون الوسائل الساقطة التي لا يعرفها المتمسّكون بعقيدتهم الملتزمون بسنّة نبيهم فالصليبيون في الغرب والمغول في الشرق.

وفي وسط ديار الخلافة تعيش فئة من أولئك الذين أسلموا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم، وقد بقيت تعاليم عقيدتهم الوثنية القديمة راسخةً في نفوسهم وتُحرّكهم العصبية لدولتهم الجاهلية الماضية ويُغطّون ذلك بغطاءٍ كثيفٍ من إظهار الإسلام فيشدّون إليهم بعض المغفّلين، ويجذبون إليهم بعض أصحاب العاطفة، ويُهدّمون بالطعن بأولئك الأوائل من الصحابة الذين حملوا لواء الإسلام مع رسول الله ﷺ وكانوا من البناة الأوائل ورفعوا راية الجهاد فقضوا على الدولة الكبرى الوثنية في تلك المرحلة وذلك الطعن للهدم بالأُسس الثابتة وللتعمية عن حقيقتهم فقد أثنوا وأشادوا

بأفرادٍ هم أيضاً من منزلة أولئك الذين أخذوا يطعنون بهم، ولما رأوا أن سلاحهم قد فُلّ وباءوا بالفشل وأصابهم اليأس مدّوا يدهم إلى عدوّ الشرق وهم المغول فكانوا عيوناً لهم على المسلمين وعوناً لهم في دخول بغداد.

كما ادّعت جماعة الانتماء إلى تلك الفئة مع أن جذورها الحقيقية ترجع إلى أشدّ الناس عداوةً للمسلمين، وانتشرت هذه الجماعة في مناطق كثيرةٍ ولكن كان أفرادها يضيعون في المجتمع الإسلامي لقلتهم كلما يمكنهم الاختفاء وكانت مهمتهم قتل القادة ورجال الإسلام الذين يظهرون على الساحة إضافةً إلى ما يثيرون من فتنٍ وما يشيعون من شائعات وما يدّعون من افتراءات وأولئك الذين يسمون أنفسهم الإسماعيلية كذباً وزوراً.

الإمارات

كانت الإمارات في ديار الخلافة الإسلامية ضعيفةً والخلافات بينها قائمةً، وفي الإمارة الواحدة منافسة ونزاعات وقتال وصراعات وهذا ما زاد في الضعف.

"١" الأيوبيون:

لما توفي الملك العادل سيف الدين محمد أبو بكر بن نجم الدين أيوب سنة ٦١٥هـ اتفق أولاده الملوك بعده اتفاقاً حسناً، وهم: الملك الكامل محمد صاحب مصر، والملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبيت المقدس، والملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة الفراتية وخلاط اتفقوا واجتمعت كلمتهم على دفع الصليبيين عن الديار المصرية، ولما رحل الملك الكامل عن مدينة دمياط عندما كان الصليبيون يحاصرونها التقى به أخوه الملك المعظم قادماً إليه فقويت نفسه وثبتت قدمه وأخذ في مواجهة الصليبيين.

ثم رجع الملك المعظم عيسى عن مصر وسار إلى أخيه الملك الأشرف موسى بديار الجزيرة الفراتية يستنجده على الصليبيين ويحثّه على مساعدة أخيه الكامل، ولم يزل به حتى أخذه إلى مصر وأزالوا الصليبيين عن الديار المصرية فكان اتفاقهم حفظاً لديار الإسلام. فلما فارق الصليبيون مصر وعاد كل من الملوك أولاد الملك العادل إلى بلده، وبقوا كذلك مدةً يسيرةً ثم سار الأشرف إلى أخيه الكامل بمصر فاجتاز بأخيه الملك المعظم بدمشق فلم يستصحبه معه، وأطال الملك الأشرف المقام بمصر، فسار الملك المعظم إلى

مدينة حماة وحاصرها فأرسل إليه أخواه من مصر ورحلاه عنها كارهاً فازداد نفوراً منهما وخاصةً بعد أن بلغه أنهما اتفقا عليه، وأُضيف إلى ذلك أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد استوحش من الملك الكامل لما فعله ولده صاحب اليمن بمكة من الاستهانة بأمير الحج العراقي فأعرض عنه وعن أخيه الملك الأشرف لاتفاقهما، وراسل مظفر الدين كوكبري بن زين الدين علي صاحب أربيل لعلمه باختلافه مع الملك الأشرف، واستماله إليه، واتفقا على مراسلة الملك المعظم عيسى صاحب دمشق، وتعظيم الأمر عليه فمال إليهما وانحرف عن أخويه، ثم اتفق ظهور جلال الدين خوارزمشاه واتساع ملكه فاشتدّ الأمر على الأشرف بمجاورة جلال الدين خوارزمشاه ولاية خلاط، ولأن الملك المعظم بدمشق يمنع عنه عساكر مصر أن تصل إليه وكذلك عساكر حلب وغيرها من الشام فرأى الأشرف أن يسير إلى أخيه الملك المعظم بدمشق فسار إليه في شهر شوال سنة ٦٢٣هـ واستماله وأصلح الأمر معه فلما سمع الملك الكامل في مصر بذلك عظم عليه الموضوع وظنّ أن اتفاقهما عليه ثم إنهما راسلاه وأعلماه بنزول جلال الدين خوارزمشاه على خلاط، وعظّما الأمر عليه وأعلماه أن هذه تقتضي الاتفاق لبناء البيت العادلي.

بعد أن ظهر المغول في شرقي ديار الإسلام واشتدّ خطرهم قويت نفوس الإسماعيلية وزاد شرّهم على المسلمين وقد قتلوا نائب جلال الدين خوارزمشاه على (كنجه) من أعمال أذربيجان فسار إليهم خوارزمشاه وأخذ ثأره منهم في نواحي قلعة (ألموت). ولما فرغ جلال الدين من الإسماعيلية بلغه أن قوةً من المغول قد دخلت بلاده وغدت على مقربةٍ من مدينة الريّ فسار إليهم وحاربهم واشتدّ القتال بينهما وانتصر عليهم فانهزموا فتبع المنهزمين عدة أيامٍ يقتل ويأسر منهم، ثم أقام بنواحي الريّ يخشى قدوم قوةٍ جديدةٍ منهم.

كان نائب الملك الأشرف على خلاط والمقدم على عساكرها هو الحاجب عليّ حسام الدين فسار فيمن عنده من العسكر إلى أذربيجان التي كانت تتبع خوارزمشاه جلال الدين، وذلك أن سياسة الحكم في أذربيجان لم تكن حسنةً مع الرعية، إذ أن زوجة جلال الدين خوارزمشاه هي ابنة السلطان السلجوقي طغرل وكانت من قبل زوجة أوزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان يومذاك وكانت تحكم في البلاد وليس لزوجها أوزبك ولا لغيره معها حكم، فلما أخذ جلال الدين البلاد وتزوجها أيضاً أهملها ولم يلتفت إليها فخافته مع حقدها عليه لحرمانها من الحكم والأمر والنهي فأرسلت هي وأهل (خُوَيّ) إلى

الحاجب علي حسام الدين يستدعونه ليُسلّموه البلاد فسار إليهم في شهر شعبان سنة ٦٢٤هـ ودخل البلاد بلاد أذربيجان فملك مدينة خُوَيّ وما يجاورها من الحصون التي بيد امرأة جلال الدين وعادوا إلى خلاط واستصحبوا معهم زوجة جلال الدين ابنة السلطان السلجوقي طغرل.

توفي صاحب دمشق الملك المعظم عيسى بن الملك العادل يوم الجمعة آخر شهر ذي القعدة سنة ٦٢٤هـ، وولي بعده ابنه داود ويُلقّب بالملك الناصر، وكان عمره قد قارب العشرين سنةً.

خرج الملك الكامل محمد صاحب مصر إلى الشام في شهر شوال سنة ٦٢٥هـ فوصل إلى بيت المقدس ثم سار إلى نابلس وجعل عليها نواباً له وكانت من أعمال دمشق فخاف الملك الناصر داود صاحب دمشق أن يقصده ويأخذ دمشق منه فأرسل إلى عمه الملك الأشرف موسى يستنجده ويرجوه أن يحضر إلى دمشق فسار إليه بقوةٍ فدخل دمشق فلما سمع الملك الكامل بذلك لم يتقدّم إليه لأن البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه، وأرسل إليه الملك الأشرف يستعطفه ويُعرّفه أنه ما جاء إلى دمشق إلا طاعةً له وموافقةً لأغراضه والاتفاق معه على منع الصليبيين عن البلاد، فأعاد الملك الكامل الجواب يقول: إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب

الصليبيين فإنه لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه وقد أقاموا بصيدا وقيسارية ولم يُمنعوا وأنت تعلم أن عمّنا صلاح الدين فتح بيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على انقضاء العصور وممرّ الأيام فإن أخذه الصليبيون حصل لنا من سوء الذكر وقُبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا وأيّ وجهٍ يبقى لنا عند الناس وعند الله تعالى، ثم إنهم ما يقنعون عندئذٍ بما أخذوه ويتعدّون إلى غيره وحيث أنك قد حضرت أنت فأنا أعود إلى مصر، واحفظ أنت البلاد ولست بالذي يقال عني أني قاتلت أخي أو حصرته ـ حاشا لله تعالى ـ، وتأخّر عن نابلس نحو مصر فخاف الأشرف والناس قاطبةً بالشام، وعلموا أنه إن عاد استولى الصليبيون على بيت المقدس وغيره مما يجاوره لا مانع دونه، وترددت الرسل، وسار الأشرف بنفسه إلى أخيه الكامل فحضر عنده وكان وصوله ليلة عيد الأضحى ومنعه من العودة إلى مصر فأقاما بمكانهما في (تل العجول) حيث كان قد نزل الكامل.

تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين:

جاءت أعداد كبيرة من الصليبيين في أوروبا إلى بلاد الشام ونزلوا في عكا وصور حيث يسيطر عليها من

سبقهم من الصليبيين ولكن لم يستطيعوا الحركة إذ كان الملك المعظم صاحب دمشق شهماً شجاعاً مقداماً، ثم جاءت أعداد أخرى من الصليبيين من أوروبا بإمرة ملك الألمان ولقبه (انبرور) وتعني ملك الأمراء. وكانت عساكره قد سبقته ونزلوا بالساحل وأفسدوا فيما يجاورهم من بلاد المسلمين. وجاء إليهم جماعة من سكان الجبال الذين يقطعون الطرق ويغيرون على القرى وانضّموا إليهم وأطاعوهم وصاروا معهم فقوي طمع الصليبيين بالحركة ثم وصل إليهم مقدمهم ملك الألمان انبرور ونزل في عكا فارتفعت معنوياتهم، وبلغهم موت الملك المعظم صاحب دمشق فعزموا على الحركة.

كان الملك الكامل صاحب مصر قد خرج من الديار المصرية يريد الشام بعد وفاة أخيه المعظم وهو نازل بـ(تل العجول) يريد أن يملك دمشق من صلاح الدين الملك الناصر داود بن الملك المعظم وهو صاحبها يومئذٍ، وكان الملك الناصر داود لما سمع بمسير عمه الملك الكامل إليه قد أرسل إلى عمه الملك الأشرف صاحب ديار الجزيرة الفراتية يستنجده ويطلب منه المساعدة على دفع عمه الملك الكامل عنه فسار إلى دمشق فترددت الرسل بينه وبين أخيه الملك الكامل في الصلح فتصالحا واتفقا، وسار الملك الأشرف إلى

الملك الكامل واجتمع به، فلما اجتمعا تردّدت الرسل بينهما وبين ملك الألمان الصليبي مراتٍ كثيرةً وتمّ الاتفاق على أن يسلّموا إليه بيت المقدس ومعه مواضع يسيرة مما حوله وتكون باقي البلدان مثل الخليل ونابلس وطبرية بيد المسلمين، ولا يُسلّم إلى الصليبيين إلا بيت المقدس والمواضع التي استقرت عليها الآراء، وكان سور بيت المقدس خراباً خرّبه الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وقتها، واستعظم المسلمون ذلك التسليم ووجدوا له من الوهن والتألّم ما لا يمكن وصفه، وكان ذلك في أول شهر ربيع الثاني سنة ٦٢٦هـ.

الملك الأشرف يملك دمشق:

أخذ الملك الأشرف دمشق يوم الاثنين الثاني من شهر شعبان سنة ٦٢٦هـ من ابن أخيه وهو صلاح الدين داود الملك الناصر بن الملك المعظم وذلك أن الملك الناصر أرسل إلى عمه الملك الأشرف يستنجد به ويستعين به على دفع عمه الكامل فسار إليه من ديار الجزيرة الفراتية ودخل دمشق وفرح به صاحبها وأهل البلد وكانوا قد أخذوا الاحتياط وهم يتجهّزون للحصار فأمر بإزالة ذلك وترك ما عزموا عليه من الاحتياط، وحلف لابن أخيه صاحب دمشق على المساعدة والحفظ

له ولبلاده عليه، وراسل أخاه الملك الكامل وتصالحا وظنّ صاحب دمشق أنه معهما في الصلح. وسار الأشرف إلى أخيه الكامل واجتمعا يوم عيد الأضحى سنة ٦٢٥هـ. وسار صاحب دمشق إلى بلدة بيسان وأقام بها. وعاد الأشرف من عند أخيه الكامل واجتمع هو وصاحب دمشق الملك الناصر داود، ولم يكن الأشرف في كثرةٍ من العسكر، فبينما هما جالسان في خيمةٍ لهما وإذ دخل عزّ الدين أيبك مملوك الملك المعظم وهو أكبر أميرٍ مع ولده الملك الناصر داود، فقال لصاحبه داود: قم اخرج وإلا قُبضت الساعة، فأخرجه ولم يمكن للأشرف منعه لأن عز الدين أيبك كان قد أركب العسكر الذي له جميعهم وكانوا أكثر من العسكر الذين مع الأشرف، فخرج الملك الناصر داود وسار هو وعسكره إلى دمشق، وكان سبب ذلك أن عز الدين أيبك قيل له: إن الأشرف يريد القبض على صاحبه الملك الناصر داود وأخذ دمشق منه، لذا فعل ذلك. فلما عادوا وصلت العساكر من الكامل إلي أخيه الأشرف فسار بها إلى دمشق فحاصرها وبقي محاصراً لها حتى وصل إليه أخوه الكامل فحينئذٍ اشتدّ الحصار وعظم الخطب على أهل البلد وبلغت القلوب الحناجر، وكان من أشدّ الأمور على صاحبها أن المال عنده قليل

لأن أمواله بالكرك ولثقته بعمه لم يحضر منها شيئاً فاضطر أن يبيع حاجاته المنزلية وما يخصّ نساءه. وضاقت الأمور عليه فخرج إلى عمه الملك الكامل وبذل له تسليم دمشق على أن يُبقي له الكرك، والشوبك، والغور، ونابلس، وأن يُبقي لعز الدين أيبك قلعة صلخد وأعمالها. وتسلّم الملك الكامل دمشق وجعل نائباً له بالقلعة إلى أن سلّم إليه أخوه الملك الأشرف: حران، والرها، والرقة، وسروج، ورأس العين من الجزيرة الفراتية، فلما تسلّم ذلك سلّم قلعة دمشق إلى أخيه الملك الأشرف فدخلها وأقام بها، وسار الملك الكامل إلى الجزيرة الفراتية فأقام بالرقة إلى أن استدعى أخاه الملك الأشرف بسبب حصار جلال الدين خوارزمشاه مدينة خلاط، فلما حضر عنده بالرقة عاد الملك الكامل إلى مصر، وتولّى الملك الأشرف قتال خوارزمشاه.

مقتل متولّي مدينة خلاط:

أرسل الملك الأشرف سنة ٦٢٦هـ مملوكه عزّ الدين أيبك وهو أمير كبير في دولته إلى مدينة خلاط وأمره بالقبض على الحاجب حسام الدين عليّ بن حماد وهو المتولّي لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الملك الأشرف

في الوقت الذي كان مُشفقاً عليه ناصحاً له حافظاً لبلاده حسن السيرة مع الرعية، ولقد وقف هذه المدة الطويلة في وجه خوارزمشاه جلال الدين، وحفظ خلاط حفظاً يعجز غيره عنه، وكان مهتماً بحفظ بلاده ومُدافعاً عنها، كما سار إلى بلاد خوارزمشاه جلال الدين واستولى على بعضها، وهذا يدلّ على همّةٍ عاليةٍ وشجاعةٍ بيّنةٍ، وصار لصاحبه به منزلة عظيمة فإن الناس يقولون: بعض غلمان الملك الأشرف يقاوم خوارزمشاه. وكان كثير الخير والإحسان لا يمكّن أحداً من ظلمٍ، وعمل كثيراً من أعمال البر في الطرق والمساجد، وبنى مشفىً في مدينة خلاط وجامعاً، وشقّ كثيراً من الطرق وأصلحها.

لما وصل عز الدين أيبك إلى مدينة خلاط قبض عليه ثم قتله غيلةً لأنه كان عدوّه، ولما قُتل ظهر أثر كفايته. ثم إن جلال الدين خوارزمشاه احتلّ خلاط وأخذ عزّ الدين أيبك أسيراً، ثم تصالح جلال الدين خوارزمشاه والملك الأشرف فأطلق كلاهما ما لديه من أسرى للطرف الثاني. وكان مملوك للحاجب حسام الدين علي بن حماد قد هرب إلى خوارزمشاه جلال الدين، فلما أُسر عز الدين أيبك طلب ذلك المملوك من جلال الدين أن يسلّمه أيبك ليقتله بصاحبه الحاجب حسام الدين عليّ فسلّمه إليه فقتله.

سيطرة الملك الكامل على مدينة حماة:

توفي صاحب حماة الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن نجم الدين أيوب، ولما حضرته الوفاة حلف الجند وأكابر البلد لولده الأكبر الملك المظفر محمود، وكان قد سيّره أبوه إلى الملك الكامل محمد صاحب مصر لأنه كان قد تزوج بابنته، وكان للملك المنصور محمد ولد آخر اسمه قلج أرسلان ولقبه صلاح الدين وهو بدمشق فحضر إلى مدينة حماة فسُلّمت إليه واستولى على المدينة وعلى قلعتها فأرسل إليه الملك الكامل يأمره أن يُسلّم البلد إلى أخيه الأكبر فإن أباه قد أوصى له بها، فلم يفعل وتردّدت الرسل في ذلك إلى الملك المعظم عيسى فلم تقع الإجابة، فلما توفي الملك المعظم عيسى وخرج الملك الكامل إلى الشام وملك دمشق سيّر جيشاً إلى حماة فحاصرها في الثالث من شهر رمضان سنة ٦٢٦هـ، وكان المقدم على هذا الجيش أسد الدين شيركوه صاحب حمص وأمير آخر من عسكره اسمه فخر الدين عثمان ومعهما ولد محمد بن تقي الدين عمر وهو المظفر محمود الذي كان عند الملك الكامل بمصر، وبقي الحصار على مدينة حماة عدة أيامٍ، وكان الملك الكامل قد سار عن دمشق ونزل على سلمية يريد الوصول إلى حران وغيرها من بلاد الجزيرة الفراتية فلما نازلها قصده صاحب حماة صلاح الدين قلج

أرسلان ونزل إليه من قلعته، وكان قد قال لأصحابه: أريد النزول للملك الكامل، فقالوا له: ليس بالشام أكثر من قلعتك حصانةً وقد حوت الكثير من الذخائر، فلأيّ شيءٍ تنزل إليه؟ ليس هذا برأيٍ، فأصرّ على النزول، وأصرّوا على منعه، فقال في آخر الأمر: اتركوني أنزل وإلا ألقيت نفسي من القلعة فسكتوا عنه حينئذٍ فنزل في نفرٍ يسيرٍ وسار إلى الكامل ووصل إليه فاعتقله الكامل إلى أن سلّم مدينة حماة وقلعتها إلى أخيه الأكبر الملك المظفر محمود.

سيطرة خوارزمشاه على خلاط:

كانت خلاط للملك الأشرف موسى بن الملك العادل فسار إليها في أوائل شهر شوال سنة ٦٢٦هـ جلال الدين خوارزمشاه وألقى الحصار عليها فامتنع من بها من عسكر الملك الأشرف وأعانهم أهل البلد خوفاً من جلال الدين لسوء سيرته فأقام عليها فصل الشتاء كله محاصراً وفرّق كثيراً من عساكره في القرى والبلدان القريبة من شدّة البرد وكثرة الثلج، وصبر جلال الدين ونصب على خلاط المنجنيقات ولم يزل يرميها بالحجارة حتى خرّب بعض سورها فأعاد أهل البلد عمارته ولم يزل ملازماً للحصار حتى آخر شهر جمادى الأولى من سنة ٦٢٧هـ فزحف عليها زحفاً متتابعاً حتى ملكها عنوةً وقهراً يوم الأحد الثامن

والعشرين من شهر جمادى الأولى سنة ٦٢٧هـ، سلّمها إليه بعض الأمراء غدراً. فلما ملك جلال الدين البلد صعد من فيه من الأمراء إلى القلعة التي لها وامتنعوا بها وهو يقاتلهم ووضع السيف في أهل البلد وقتل من وجد في البلد من أهلها، وكان عددهم قد قلّ إذ فارقه بعضهم خوفاً، وخرج بعضهم من شدة الجوع، ومات بعضهم جوعاً. ولم يملك جلال الدين خوارزمشاه من منطقة خلاطٍ سوى قاعدتها مدينة خلاط ،وأكثر عسكره القتل فيها، ومن سلم منها هرب في البلاد، وخرّبوا المدينة وسبوا النساء واسترقّوا الأطفال وباعوا الجميع.

هزيمة جلال الدين خوارزمشاه:

كان صاحب أرضروم قد أطاع جلال الدين خوارزمشاه، وكان بين صاحب أرضروم وبين ابن عمه صاحب قونية وسيواس وملاطية علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان عداوة مستحكمة. وحضر صاحب أرضروم عند جلال الدين خوارزمشاه على خلاط وأعانه على حصارها فخافهما علاء الدين فأرسل إلى الملك الكامل وهو حينئذٍ في مدينة حران يطلب منه أن يُحضر أخاه الملك الأشرف من دمشق فإنه كان مقيماً بها بعد أن ملكها وتابع علاء الدين الرسل بذلك

خوفاً من جلال الدين فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين إليهما متتابعة يحثّ الملك الأشرف على المجيء إليه والاجتماع به، فجمع الملك الأشرف عساكر الشام والجزيرة وسار إلى علاء الدين فاجتمعا بـ(سيواس)، وسارا نحو خلاط فسمع جلال الدين بهما فسار إليهما مجداً في السير فوصل إليهما في موقع من أعمال أرزنجان فالتقوا هناك، وكان مع علاء الدين خلق كثير يقدر بعشرين ألف فارسٍ، وكان مع الملك الأشرف نحو خمسة آلافٍ من الفرسان الشجعان وكان المقدم عليهم أمير من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن عليّ وهو من الأكراد الهكّارية فلما التقوا شعر جلال الدين بالرعب لما رأى من كثرة العسكر ومن سلاحهم واستعدادهم.

أنشب عز الدين عمر بن علي القتال ومعه عسكر حلب فلم يقوَ لهم جلال الدين ولم يستطع الصبر ومضى منهزماً هو وعسكره لا يلوي الأخ على أخيه وتفرّق أصحابه وعادوا إلى خلاط فاستصحبوا معهم من فيها من أصحابهم وساروا إلى أذربيجان فنزلوا عند مدينة (خُوَيّ) ولم يكونوا قد استولوا على شيءٍ من

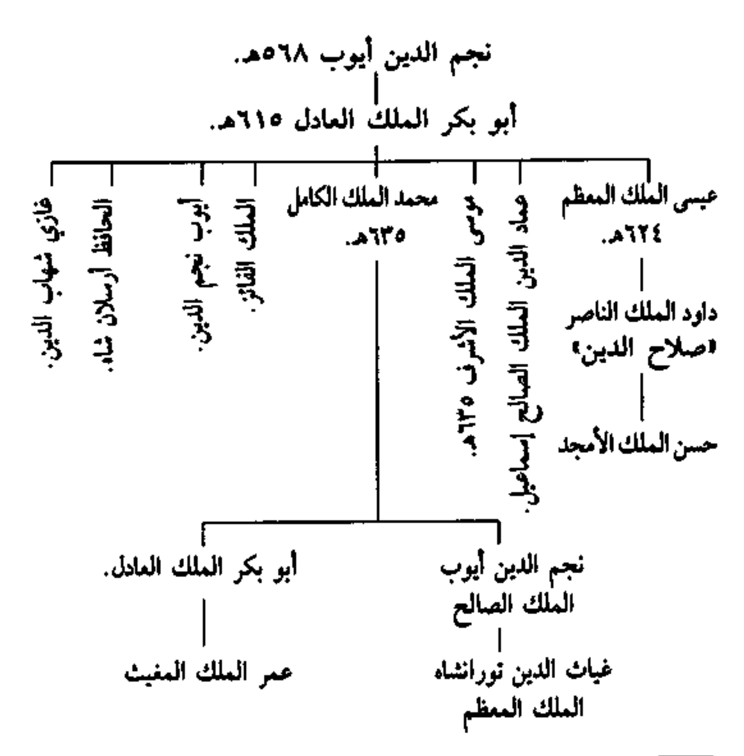
أعمال خلاط سوى مدينة خلاط، ووصل الملك الأشرف إلى مدينة خلاط فرآها خاويةً من الأهل والسكان.

استيلاء علاء الدين على أرضروم:

كان صاحب أرضروم مع جلال الدين خوارزمشاه على خلاط ولم يزل معه وشهد معه الوقعة ضد الملك الأشرف فلما هُزم جلال الدين أُخذ صاحب أرضروم أسيراً فأُحضر عند علاء الدين كيقباذ ابن عمه فأخذه وقصد أرضروم فسلّمها صاحبها إليه هي وما يتبعها من القلاع والخزائن وغيرها وبقي أسيراً عنده.

الصلح بين الملك الأشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين:

لما عاد الملك الأشرف إلى خلاط ومضى جلال الدين خوارزمشاه منهزماً إلى (خويّ) في أذربيجان تردّدت الرسل بينهما فتمّ الصلح والاتفاق بينهما على أن يحتفظ كل منهما على ما بيده فلما استقرّ الصلح جرت الأيمان وعاد الملك الأشرف إلى سنجار ومنها إلى دمشق، وأقام جلال الدين في أذربيجان حتى داهمه المغول.



"٢" الموحدون:

بويع أميراً للموحدين إدريس بن أبي يوسف يعقوب المنصور سنة ٦٢٤هـ ولُقّب بـ(المأمون) وهو الأمير الموحدي التاسع، ثم نكثوا ببيعته وبايعوا ابن أخيه محمد الناصر لدين الله وهو يحيى أبو زكريا، فخرج عليه عمه المأمون سنة ٦٢٦هـ، وهُزم يحيى، ودخل المأمون مدينة مراكش، وخرج المأمون من مراكش في بعض حروبه، فاقتحم يحيى أبو زكريا مدينة

مراكش ودخلها ثانيةً سنة ٦٢٩هـ، وهلك المأمون في وادي العبيد، وبويع ابنه عبد الواحد ولُقِّب بـ(الرشيد)، وهاجم مراكش، وهزم يحيى سنة ٦٣٠هـ، وفرّ إلى الصحراء، ودخل الرشيد مراكش، وبعد مدةٍ عاد يحيى بجيشٍ من البربر ودخل مراكش سنة ٦٣٢هـ، وفرّ الرشيد إلى سجلماسة فجمع جيشاً ودخل مراكش سنة ٦٣٣هـ، وهرب يحيى منها، ولكنه لم يلبث أن اغتيل، أما الرشيد فقد بقي حتى توفي سنة ٦٤٠هـ، وفي أيامه دخل نصارى الأندلس مدينة قرطبة سنة ٦٣٦هـ.

وتولّى أمر الموحدين سنة ٦٤٠هـ علي أبو الحسن بن إدريس المأمون السعيد ولُقّب بـ(المعتضد) وذلك بعد وفاة أخيه الرشيد، وحارب بني مرين الذين قوي أمرهم، وقد وصل إلى تلمسان فتصدى له أميرها يغمراسن بن زيان من بني عبد الواد، وقد قتل المعتضد في المعركة سنة ٦٤٦هـ.

وتولّى بعد المعتضد عمر بن إسحاق بن يوسف بن عبد المؤمن، وتلقّب بـ(المرتضى) وفي أيامه استولى النصارى الإسبان على إشبيلية، كما حاصر بنو مرين مراكش سنة ٦٥٥هـ، ثم ثار عليه ابن عمه الواثق بالله إدريس أبو العلاء الذي تحالف مع بني مرين واحتلّ

مراكش، فاختفى المرتضى فأرسل إليه الواثق من قتله سنة ٦٦٥هـ.

وتولّى إدريس بن محمد بن عمر بن عبد المؤمن أمر مراكش، وقوي أمر الخارجين عليه، وقتله بنو مرين سنة ٦٦٧هـ فانقضى أمر الموحدين بموته بعد أن حكموا ١٥٢ سنة (٥١٥ ـ ٦٦٧هـ).

المغول

أرسل مقدم فرقة الإسماعيلية إلى المغول يُعرّفهم ضعف المسلمين عامةً وخلافهم فيما بينهم، ويخصّ فيهم جلال الدين خوارزمشاه بعد أن لحقت به الهزيمة أمام الملك الأشرف وعلاء الدين كيقباذ، وأخذ يحثّهم على السير إليه، ويضمن لهم الظفر، فلما وصلت كتب مقدم الإسماعيلية إلى المغول يستدعيهم إلى قصد جلال الدين فخرجت فرقة منهم من بلاد ما وراء النهر في أول سنة ٦٢٨هـ فدخلت بلاد خوارزمشاه فاستولت على الريّ وهمدان وما بينهما من البلاد، ثم قصدت أذربيجان فخرّب عساكرها ونهبوا وقتلوا من ظفروا به من أهلها، وجلال الدين لا يقدم ليلقاهم ولا يقدر على منعهم عن البلاد وقد مُلئ رعباً وخوفاً، وزيادةً على ذلك فإن عساكره قد اختلفوا عليه وخرج وزيره عن طاعته مع جماعةٍ كثيرةٍ من العسكر ثم إنه راسل ذلك الوزير وخدعه إلى أن حضر عنده فبقي عنده أياماً ثم قضى عليه وانتهى منه.

استيلاء المغول على مدينة مراغة:

سار المغول إلى مدينة مراغة في أذربيجان وألقوا الحصار عليها فامتنع أهلها على الغزاة ثم ضعفوا وطلبوا الأمان فبُذل لهم وتسلّم المغول البلد وقتلوا بعض أهله وإن لم يكثروا القتل، وجعلوا معتمداً لهم في البلد، وعظم شأن المغول واشتدّ خوف الناس منهم بأذربيجان وخاصةً أن راية الجهاد لم تُرفع وأكثر الناس منصرفون إلى دنياهم.

هرب خوارزمشاه إلى آمد (ديار بكر):

لما رأى خوارزمشاه جلال الدين ما يفعله المغول في أذربيجان من قتلٍ ونهبٍ وتخريبٍ في الأرياف وأنهم يحبون الأموال وعازمون على السير إليه وملاحقته، ورأى ما هو عليه من الضعف والوهن ففارق أذربيجان واتجه إلى خلاط وأرسل إلى نائب الملك الأشرف فيها يقول له: ما جئنا للحرب ولا للأذى وإنما خوف هذا العدوّ حملنا على قصد بلادكم، وكان عازماً على قصد ديار بكر وبلاد الجزيرة الفراتية، ثم قصد باب الخليفة يستنجده ويستنجد الملوك جميعاً على المغول ويطلب منهم المساعدة على دفعهم، ويُحذّرهم عاقبة أعمالهم فوصل إلى خلاط فبلغه أن المغول

يطلبونه وهم مجدّون في أثره فوصلت فرقة منهم إليه فأوقعوا به ليلاً وهو بظاهر مدينة آمد (ديار بكر) فمضى منهزماً وتفرّق العسكر الذين معه في كل ناحيةٍ وقصدت جماعة من عسكره مدينة حران فأوقع بهم الأمير صواب مقدم الملك الكامل بحران ومعه العسكر فأخذوا ما معهم من مالٍ وسلاحٍ ودواب وقصد آخرون نصيبين والموصل وسنجار وأربيل وغير ذلك من البلاد فتخطّفهم الملوك والرعايا وطمع فيهم كل صاحب أطماعٍ وهوىً فازداد جلال الدين ضعفاً على ضعفٍ بمن تفرّق من عسكره وبما أصابهم، ومضى منهزماً من المغول ودخلوا ديار بكر في طلبه لأنهم لم يعلموا أين قصد وأي طريق سلك!!

دخول المغول ديار بكر والجزيرة الفراتية:

لما انهزم خوارزمشاه من المغول إلى آمد نهب المغول سواد آمد وميافارقين وغيرهما من البلدان وقصدوا بعض المدن فامتنع أهلها عنهم وقاتلوهم فبذل لهم المغول الأمان فوثقوا بهم واستسلموا لهم فلما تمكّن منهم المغول أعملوا فيهم السيف حتى كادوا يأتون عليهم فلم يَسلم منهم إلا من اختفى وقليل ما هم، وفعلوا في عددٍ من البلدان مثل ذلك، وسار

المغول في البلاد لا يمنعهم مانع ولا يقف بين أيديهم مقاتل فوصلوا إلى ماردين فنهبوا ما وجدوا من أريافها واحتمى صاحب ماردين بالقلعة مع من جاورها، ثم وصلوا إلى نصيبين فأقاموا عليها بعض النهار ونهبوا سوادها وقتلوا من ظفروا به، وأغلق أهلها أبوابها دونهم فعادوا عنها، ومضوا إلى سنجار فنهبوا أعمالها، ودخلوا إلى الخابور فوصلوا إلى عربان[1] فنهبوا وقتلوا وعادوا، ومضت فرقة منهم على طريق الموصل فوصلوا إلى قرية تسمى (المؤنسة) وهي على مرحلةٍ من نصيبين بينها وبين الموصل فنهبوها، واحتمى أهلها وغيرهم بخانٍ فيها فقتلوا كل من فيه، وسارت فرقة منهم إلى نصيبين فنهبوها وقتلوا من ظفروا به ثم عادوا إلى آمد ثم إلى بدليس[2] فتحصّن أهلها بالقلعة وبالجبال فقتلوا قليلاً منهم وأحرقوا المدينة، ثم ساروا من بدليس إلى خلاط فحاصروا مدينة من أعمال خلاط يقال لها (باكري) وهي من أكثر البلدان تحصّناً فملكوها عنوةً وقتلوا كل من بها، وقصدوا مدينةً أخرى من أعمال

(١) عربان: بلدة بالخابور في بلاد الجزيرة الفراتية.

(٢) بدليس: بلدة من نواحي أرمينية قرب خلاط ذات بساتين كثيرة، وتشتهر بالتفاح.

خلاط وهي (أرجيش)[1] ففعلوا كذلك وكان هذا في شهر ذي الحجة سنة ٦٢٨هـ، ووقع رعب شديد في نفوس الناس من المغول لهول ما ارتكبوا وسوء ما أقدموا عليه.

ووصلت فرقة من المغول في شهر ذي الحجة سنة ٦٢٨هـ إلى جهات أربيل فقتلوا في طريقهم الكثير من التركمان والأكراد إلى أن وصلوا إلى أربيل فنهبوا القرى، وقتلوا من ظفروا به، وارتكبوا الأعمال المنكرة، وبرز لهم مظفر الدين صاحب أربيل في عساكره واستمدّ عسكر الموصل فساروا إليه فبلغه عودة المغول إلى أذربيجان فأقام في بلده ولم يتبعهم.

خضع أهل أذربيجان من بداية سنة ٦٢٨هـ إلى المغول وحملوا إليهم الأموال والثياب وغير ذلك وسبب هذه الطاعة أن خوارزمشاه جلال الدين لما انهزم إلى آمد من المغول وتفرّقت عساكره وتمزقوا كل ممزّق، وتخطفهم الناس، وفعل المغول بديار بكر والجزيرة وأربيل وخلاط ما فعلوا لم يمنعهم أحد ولا وقف في وجههم فارس، وملوك الإسلام متنافسون على دنياهم

---

(١) أرجيش: مدينة قديمة من نواحي أرمينية الكبرى قرب خلاط وسكانها نصارى.

أو في قصورهم محتجزون وإضافةً إلى ذلك فقد انقطعت أخبار جلال الدين خوارزمشاه إذ لم يظهر له خبر ولا يُعلم له حال فأذعنوا للمغول بالطاعة وحملوا إليهم ما طلبوا منهم من الأموال والثياب. ونزل ملك المغول في عساكره بالقرب من مدينة تبريز وأرسل إلى أهلها يدعوهم إلى طاعته ويتهددهم إن امتنعوا عليه فأرسلوا إليه المال والثياب وبذلوا له الطاعة فقرر عليهم من المال كل سنةٍ شيئاً كثيراً وكذا من الثياب، وترددت رسلهم إلى ديوان الخلافة وإلى جماعةٍ من الملوك يطلبون منهم أن لا ينصروا خوارزمشاه.

وانفرد خوارزمشاه فلقيه فلاح من قريةٍ بأرض ميافارقين فأنكره لما عليه من أثر النعمة، فقال له: من أنت؟ فقال: أنا ملك الخوارزمية ـ وكان الخوارزمية قد قتلوا للفلاح أخاً ـ فأنزله وأظهر إكرامه، فلما نام قتله بفأسٍ كانت عنده، فبلغ الخبر إلى شهاب الدين غازي بن الملك العادل صاحب ميافارقين فاستدعى الفلاح فأخذ منه ما أخذه من خوارزمشاه الذي قتله. وكان الملك الأشرف يقول: هو سدّ ما بيننا وبين المغول.

سارت فرقة من المغول سنة ٦٢٩هـ فوصلت إلى شهرزور فندب الخليفة المستنصر لقتالهم صاحب أربيل

مظفر الدين بن زين الدين كوكبري وأمدّه بعسكرٍ من عنده فساروا نحوهم فهرب منهم المغول وأقاموا في مواجهتهم عدة شهورٍ، ثم مرض مظفر الدين وعاد إلى أربيل ورجع المغول إلى بلاد ما وراء النهر.

تحرّكت العساكر المستنصرية من بغداد إلى مدينة أربيل وأعمالها وذلك لمرض صاحبها مظفر الدين وليس له من بعده من يخلفه، وعندما وصل الجيش المستنصري إلى أربيل منعه أهل البلد فحاصرها حتى افتتحها عنوةً في السابع عشر من شهر شوال سنة ٦٣٠هـ.

قدم المغول إلى مدينة أربيل سنة ٦٣٤هـ وحاصروها بالمجانيق ونقبوا الأسوار ودخلوها عنوةً فقتلوا أهلهم وسبوا ذراريهم، وامتنعت عليهم القلعة مدةً وكان فيها النائب من جهة الخليفة المستنصر، وأقبل فصل الشتاء فأقلع المغول عن أربيل وعادوا إلى بلادهم.

الفصل الرابع

٥٤ - المُستعصِم بالله

٦٤٠-٦٥٦هـ

المستعصم بالله هو الخليفة أبو أحمد عبد الله بن منصور المستنصر بالله بن محمد الظاهر بأمر الله بن أحمد الناصر لدين الله بن الحسن المستضيء بأمر الله بن يوسف المستنجد بالله بن محمد المقتفي لأمر الله بن أحمد المستظهر بالله بن عبد الله المقتدي بأمر الله بن محمد بن عبد الله القائم بأمر الله بن أحمد القادر بالله بن إسحاق بن جعفر المقتدر بالله بن أحمد المعتضد بالله بن طلحة الموفق بالله بن جعفر المتوكل على الله بن محمد المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله العباس، عمّ رسول الله ﷺ.

(٥٠) المستضيء بأمر الله.
|
(٥١) الناصر لدين الله.
|
(٥٢) الظاهر بأمر الله.
|
(٥٣) المستنصر بالله.
|
(٥٤) المستعصم بالله.

ولد المستعصم سنة ٦٠٩هـ، وأمه أم ولد اسمها هاجر، واستُخلف سنة ٦٤٠هـ يوم وفاة أبيه صباح يوم الجمعة في العاشر من شهر جمادى الآخرة، وكان عمر المستعصم ثلاثين سنةً.

استدعي المستعصم من التاج بعد صلاة الجمعة فبويع بالخلافة، ولُقّب بالمستعصم، وكان القائم بهذه البيعة شرف الدين أبو الفضائل إقبال المستنصري، فبايعه أولاً بنو عمه وأهله من بني العباس، ثم أعيان الدولة من الأمراء والوزراء والقضاة والعلماء والفقهاء ومن بعدهم من أولي الحلّ والعقد والعامة، وجاءت البيعة من سائر الجهات والبلدان والأمصار، وخُطب له في سائر البلدان والأقاليم.

كان للمستعصم أخ شقيق هو الأمير أبو القاسم عبد العزيز، وله أخت من أمٍ أخرى.

أتقن المستعصم في شبيبته تلاوة القرآن حفظاً وتجويداً، وأتقن العربية والخط الحسن على يد الشيخ شمس الدين أبي المظفر عليّ بن محمد بن النيار أحد أئمة الشافعية في زمانه، وقد أكرمه وأحسن إليه في خلافته. وكان المستعصم على ما ذُكر كثير التلاوة حسن الأداء طيّب الصوت، يظهر عليه خشوع وإنابة،

وقد نظر في شيءٍ من التفسير. وأجاز له على يد ابن النجار المؤيّدُ الطوسيّ وأبو روح الهروي وجماعة وروى عنه بالإجازة جماعة منهم: النجم البادرائي، والشرف الدمياطي، وخرّج له الدمياطي أربعين حديثاً. وكان كريماً، حليماً، سليم الباطن حسن الديانة.

قال الشيخ قطب الدين: كان متديناً، متمسّكاً بالسنة كأبيه وجده، ولكن لم يكن مثلهما في التيقّظ والحزم وعلو الهمة. وكان للمستعصم عمّ يُعرف بالخفاجي فيه شجاعة وشهامة، وكان يقول: إن ملّكني الله الأمر لأعبرنّ بالجيوش نهر جيحون، وأنتزع البلاد من المغول واستأصلهم، فلما توفي المستنصر لم يرَ أستاذ الدار والشرابي والكبار تقليد الأمر للخفاجي، وخافوا منه، وآثروا المستعصم للينه وانقياده، ليكون لهم الأمر فأقاموه.

الخلافة:

عمّت الفوضى ديار الخلافة عامةً فإمارات متنافرة وممالك متناحرة فالإمارات التي كانت متماسكةً غدت منقسمةً بين أبنائها كل في صراعٍ مع الآخر يسعى لمدّ سلطانه واتساع نفوذه ويتحالف مع خصم أخيه ليُحقّق بعض أهدافه. والممالك ضاقت أمصارها وقلّت

أقاليمها وانحصرت في مدينةٍ وأفضلها مثلاً ملوك الطوائف في الأندلس. وأما دار الخلافة في بغداد فقد ضعُف أمر الخليفة إذ قلّ سلطانه حيث سيطر عليه وتحكّم فيه رجال الخلافة وأصحاب النفوذ من رجال الدولة حتى غدوا يكتمون عنه الأخبار ويخبرون بها الأعداء، ولا يصدقونه حديثاً، وربما يتصل بعضهم بمن تبدو قوتهم وتُتوقّع سيطرتهم كالمغول مثلاً.

وتعيش في بغداد وما حولها عدة فئاتٍ ليست على وئامٍ تتباين بالعقيدة وتختلف بالأهداف وقد يتعصّب بعضها لماضٍ جاهليٍّ أو انتماءٍ لعصبيةٍ وربما تحقد على من قضى على سلطان أجدادها ومحا ما كانوا يؤمنون به من وثنياتٍ، ولكن لا يبدو هذا ولا يظهر فالجميع يرفعون شعار الإسلام ويُعلنون الالتزام به والجهاد في سبيل الله والدفاع عما يؤمنون غير أن هذا باللسان ولكن ما تحويه القلوب غير ذلك وما تضمره النفوس يخالفه القول حيث أسلم بعض أجدادهم بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم وبقي سرّاً يتوارثونه، ولهم أهداف يسعون إليها يخططون لها وينكرون وبهذا المكر يكسبون بعض عواطف العامة فيقفون إلى جانبهم وهم لا يدرون ويدافعون بحماسةٍ ولا يعلمون سوى العاطفة ويتشرّبون بعض السموم ولا يشعرون ولكن تصبح مع

الزمن شبه عقيدةٍ وهنا يكمن الخطر في تغيير سلامة ما أمر الله به وما دعا إليه رسوله الكريم.

رأى أولئك الذين يُخفون حقيقتهم بشعار الإسلام ويضعون أنفسهم تحت ذلك الغطاء ويكسبون تأييد بعض العامة وأصحاب العواطف التي لا تحوي شيئاً رأى المخططون أنهم لا يمكنهم الوصول إلى أهدافهم ما داموا أقليةً وأن وسيلتهم الوحيدة هي الاتصال بأعداء الإسلام للقضاء على الإسلام فإذا قضوا عليه أمكنهم إعادة ماضي دولتهم وسالف عقيدتهم الوثنية، وقد رأينا مراسلة فرقة الإسماعيلية للمغول وتشجيعهم لدخول ديار الإسلام ودلالتهم على نقاط الضعف ووعدهم بالمساعدة والدعم. وبعد مدةٍ باطن ابن العلقمي[1] المغول، وناصحهم، وأطمعهم في المجيء إلى العراق، وأخذِ بغداد والقضاء على الدولة العباسية وإظهار الرغبة في تعيين خليفةٍ ممن يدّعي العمل لهم، ويستتر بظلّهم،

---

(١) ابن العلقمي: محمد بن محمد بن أحمد بن علي، أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي: ولد سنة ٥٩٣هـ، اشتغل في أول صباه بالأدب، ورقي إلى رتبة الوزارة سنة ٦٤٢هـ، ووليها أربعة عشر عاماً، ووثق به المستعصم فألقى إليه زمام أموره، وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك، كاتباً فصيح الإنشاء، ولي الوزارة مدةً قصيرةً لهولاكو، ومات سنة ٦٥٦هـ.

ويتستر بغطائهم ليحصل على تأييدٍ، والله يشهد إنه لمن الكاذبين. وصار ابن العلقمي إذا جاء خبر من المغول كتمه عن الخليفة ولكنه يُطلع المغول على أخبار الخليفة كاملةً ويزوّدهم بكل نبأ.

الافتراق والصراعات:

تحرّك الخوارزميون بقيادة مقدمهم بركات خان نحو الغرب وانضمّ إليهم صاحب ميافارقين شهاب الدين غازي بن الملك العادل، والتقوا مع أهل حلب في معركةٍ حاميةٍ فانتصر الحلبيون وغنموا من أموال الخوارزميين شيئاً كثيراً، ونُهبت نصيبين، وعاد شهاب الدين غازي إلى ميافارقين، وتسلّم مدينة خلاط. وتفرّقت الخوارزمية في البلاد تُفسد فيها.

عزم صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب على دخول الشام، وأخذ في جمع العسكر لذلك وترددت الرسل بينه وبين عمه صاحب دمشق الملك الصالح عماد الدين إسماعيل على أن يردّ إليه ولده المغيث عمر المعتقل في قلعة دمشق، وتبقى دمشق بيد الملك الصالح إسماعيل، فوقع الصلح على ذلك، وخطب للملك الصالح نجم الدين أيوب بدمشق، فخاف الوزير أمين الدولة أبو الحسن غزال المسلماني

وزير الملك الصالح عماد الدين إسماعيل من نتيجة ذلك الصلح فقال لسيّده صاحب دمشق: لا تردّ هذا الغلام لأبيه فتخرج البلاد من يدك، هذا خاتم سليمان بيدك للبلاد، فعند ذلك أبطل ما كان من صلحٍ وردّ الغلام إلى القلعة، وقطعت الخطبة للملك الصالح نجم الدين أيوب، ووقعت الوحشة بين الملكين.

أرسل صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الخوارزمية يستحضرهم لحصار دمشق، وكانت الخوارزمية قد دخلت مدينة قونية وأخذتها من ملكها ابن علاء الدين الذي كان قد مات.

نزلت الخوارزمية على غزة وهم الذين استقدمهم صاحب مصر يستنجد بهم على عمّه صاحب دمشق فأرسل إليهم صاحب مصر الملك الصالح أيوب الخلع والأموال والثياب والعساكر، واتفق صاحب دمشق الملك الصالح إسماعيل مع صاحب الكرك داوِد الملك الناصر صلاح الدين وهو ابن أخيه الملك المعظم عيسى، ومع صاحب حمص الملك المنصور، ومع الصليبيين واقتتلوا مع الخوارزمية بين غزة وعسقلان قتالاً شديداً واستطاعت الخوارزمية أن تحصد من الصليبيين أعداداً كبيرةً إذ زاد عدد القتلى في يومٍ واحدٍ على الثلاثين ألفاً، وأسرت جماعةً من ملوكهم

وقساوستهم وأساقفتهم وعدداً من أمراء الشاميين وبعثت بالأسارى إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب بمصر وكان عدد هؤلاء الأسرى ثمانمائة أسيرٍ. وأرسل الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى دمشق ليحاصرها فحصّنها الملك الصالح إسماعيل وخرّب ما حولها، وكسر جسر باب توما فسُدّ النهر وتراجع الماء حتى صار بحيرة من باب توما إلى باب السلام وغرق العمران بينهما، وافتقر كثير من الناس. وكان الملك المغيث عمر بن الملك الصالح نجم الدين أيوب محبوساً في قلعة دمشق منذ سنة ٦٣٨هـ، وقد حاول أبوه بكل الوسائل لخلاصه فلم يستطع، فلما كانت ليلة الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الثاني سنة ٦٤٢هـ أصبح ميتاً في سجنه هماً وحزناً، ويقال: إنه قُتل بعد هزيمة الشاميين وحلفائهم أمام الخوارزمين وحلفائهم بين غزة وعسقلان.

بعد أن انتصر الخوارزميون على الشاميين عاثوا الفساد في بلاد الشام. وكان صاحب حمص الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه يقول: قد علمت أنا لما وقفنا تحت صلبان الفرنج أنا لا نفلح.

كان ابن العلقمي أستاذ دار الخلافة، فلما مات الوزير نصر الدين محمد بن الناقد سنة ٦٤٢هـ، استوزر المستعصم ابن العلقمي، وجعل مكانه أستاذ دار

الخلافة محيي الدين يوسف بن أبي الفرج بن الجوزي[1].

لما أرسل صاحب مصر الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد الخوارزمية لحصار عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بدمشق أرسل مع الخوارزمية معين الدين بن الشيخ، وتمّ الحصار، واستمر حتى شهر جمادى الأولى سنة ٦٤٣هـ وقد أُحرقت مساجد كثيرة، وكذلك حيّ العقيبة، وقطعت الأنهار، وارتفعت الأسعار، وأُخيفت الطرق، ثم كانت رسل بين معين الدين وبين أمين الدولة وزير صاحب دمشق، ثم صار الوزير إلى معين الدين واجتمع به بعد العشاء طويلاً ثم عاد، ثم التقيا مرةً أخرى وتمّ الاتفاق بينهما على أن يخرج الصالح إسماعيل إلى بعلبك ويُسلّم دمشق إلى الصالح أيوب فاستبشر الناس بذلك،

---

(١) ابن الجوزي: يوسف بن عبد الرحمن بن علي بن الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي، محيي الدين، أبو المحاسن: أستاذ دار الخلافة المستعصمية، وسفيرها من أهل بغداد، ولد سنة ٥٨٠هـ، وتوفي والده وعمره سبع عشرة سنةً فكفلته والدة الخليفة الناصر لدين الله. تفقّه على والده وغيره، وكان كاتب رسائل الديوان، قتله المغول هو وأولاده الثلاثة يوم دخولهم بغداد سنة ٦٥٦هـ.

وأصبح الصالح إسماعيل خارجاً إلى بعلبك، ودخل معين الدين دمشق فنزل في دار أسامة فولّى وعزل، ووصل وقطع، وأرسل إلى الديار المصرية أمين الدولة غزال بن المسلماني تحت الحراسة.

لم يكن الخوارزمية قد حضروا الصلح فلما علموا به غضبوا وساروا نحو داريا فنهبوها، وراسلوا الصالح إسماعيل فحالفوه على ابن أخيه الصالح أيوب، ففرح بذلك ونقض الصلح الذي وقع منه، وعادت الخوارزمية فحاصروا دمشق، وجاء إليهم الصالح إسماعيل من بعلبك فضاقت الحال على أهل دمشق إذ قلّت الأموال، وارتفعت الأسعار، وزاد الأموات في الطرقات، وكان العجز عن التغسيل والتكفين والدفن، وصار إلقاء الموتى في الآبار، فعمت روائح النتن وضجر الناس.

لما بلغ صاحب مصر الصالح أيوب أن الخوارزمية قد مالؤوا عليه وصالحوا عمه الصالح إسماعيل كاتب الملك المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص فاستماله إليه وقوي جانب نائب دمشق معين الدين حسين ابن الشيخ. ولما رجع المنصور صاحب حمص عن موالاة الصالح إسماعيل شرع في جمع الجيوش من الحلبيين والتركمان والأعراب لاستنقاذ دمشق من الخوارزمية، وحصارهم

إياها فبلغ ذلك الخوارزمية فخافوا النتائج ورأوا قتال صاحب حمص المنصور عند بلده فساروا إلى بحيرة حمص، وأرسل الناصر داود صاحب الكرك جيشه إلى الصالح إسماعيل وسار الجميع فالتقوا مع الخوارزمية عند بحيرة حمص فقُتل عامة الخوارزمية وقُتل ملكهم بركات خان، وتفرّق شملهم، وسار الملك المنصور صاحب حمص إلى بعلبك فملكها وجاء إلى دمشق خدمةً للملك الصالح أيوب وعزم على أخذها غير أن المرض قد أصابه وتوفي سنة ٦٤٤هـ، ونُقل إلى حمص فكانت مدة ملكه بعد أبيه عشر سنواتٍ، وقام من بعده في حمص ابنه الملك الأشرف مدة سنتين.

تسلّم نواب الملك الصالح أيوب بعلبك وبصرى ولم يبق بيد الملك الصالح إسماعيل بلد يأوي إليه ولا أهل ولا ولد ولا مال بل أُخذت أمواله جميعها، ونُقلت عياله تحت الحراسة إلى الديار المصرية وسار هو إلى صاحب حلب الملك الناصر بن الملك العزيز محمد غياث الدين بن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي فآوه وأكرمه واحترمه.

وسار الخوارزمية إلى ناحية الكرك فأكرمهم صاحبها داود الملك الناصر صلاح الدين، وأحسن إليهم وصاهرهم وأنزلهم بمدينة السلط فأخذوا معها

مدينة نابلس فأرسل إليهم الملك الصالح أيوب صاحب مصر جيشاً مع فخر الدين ابن الشيخ فهزمهم عند السلط وأجلاهم عن تلك البلاد، وحاصر الملك الناصر صلاح الدين بالكرك وأهانه غاية الإهانة.

قدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من الديار المصرية فدخل مدينة دمشق في أبهةٍ عظيمةٍ، وأحسن إلى أهلها، وتصدّق على الفقراء والمساكين، وسار منها إلى بعلبك، وإلى بصرى، وإلى صلخد فتسلّمها من صاحبها عز الدين أيبك وهو أحد مماليك أبيه الملك المعظم عيسى وعوّضه عنها، ثم عاد إلى مصر مؤيّداً منصوراً.

وجاءت فرقة من المغول إلى مدينة بعقوبا على نهر ديالي إلى الشمال الشرقي من بغداد وعلى بُعد ستين كيلاً منها فالتقى بهم جيش الخليفة فهزمهم هزيمةً منكرةً وفرّق شملهم غير أن عسكر الخليفة لم يلحقوا بهم خوفاً من مكرٍ قد يكون مُدبَّراً لهم.

وجاء رسولان من المغول والتقيا بالوزير ابن العلقمي وعُمّيت الأخبار.

لما قدم الملك الصالح نجم الدين أيوب من مصر إلى دمشق وجهّز الجيوش والمجانيق إلى حمص لأن

صاحبها الملك الأشرف بن موسى بن المنصور بن أسد الدين كان قد قايض بها على تل باشر لصاحب حلب الملك الناصر بن العزيز غياث الدين بن الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين الأيوبي. ولما علم أهل حلب بخروج أهل دمشق خرجوا أيضاً في جيشٍ عظيمٍ ليمنعوا حمص منهم، ولكن جاءت رسالة من بغداد أصلحت بين الفريقين ورجعت كل جماعةٍ إلى مقرّها.

نهاية الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد:

في الرابع من شهر المحرم يوم الاثنين سنة ٦٤٧هـ توجّه الملك الصالح من دمشق إلى مصر. وفي العاشر من شهر صفر سنة ٦٤٧هـ دخل إلى دمشق نائبها الأمير جمال الدين بن يغمور من جهة الملك الصالح أيوب.

تسلّم الملك الصالح نجم الدين أيوب حصن الكرك من الملك الأمجد حسن بن الملك الناصر داود الذي كان والده الناصر داود قد توجّه إلى حلب. وأمر الملك الصالح بإخراج من كان في الكرك من بيت الملك المعظم عيسى والد الناصر داود، واستحواذ حواصلهم وأموالهم وكانت مبالغ ضخمةً، وأقطع الملك الصالح للأمجد إقطاعاً جيداً.

هاجم الصليبيون دمياط فهرب من كان فيها من الجند والعامة وملك الصليبيون ثغر دمياط وقتلوا خلقاً كثيراً من المسلمين وذلك في شهر ربيع الأول سنة ٦٤٧هـ، فنصب السلطان الملك الصالح المخيم مقابل العدوّ بالجيش كله، وشنق عدداً ممن هرب من مواجهة الصليبيين ولامهم على ترك المصابرة ليُرهبوا عدوّ الله وعدوّهم.

اشتدّ المرض بالملك الصالح فلما كانت ليلة النصف من شعبان سنة ٦٤٧هـ توفي بمدينة المنصورة فأخفت جاريته أم خليل المدعوة (شجرة الدرّ) موته، وأظهرت أنه مريض مُتعب لا يوصل إليه، وبقيت تعلم عنه بعلامته سواء. وأعلمت أعيان الأمراء فأرسلوا إلى ابنه الملك المعظم توران شاه، وهو بحصن (كيفا) فاستقدموه إليهم سريعاً وذلك بإشارة أكابر الأمراء منهم فخر الدين ابن الشيخ، فلما قدم ملكوه عليهم وبايعوه جميعاً فركب في عساكر الملك وقاتل الصليبيين فهزمهم وقتل منهم ثلاثين ألفاً وذلك في الثالث من شهر المحرم سنة ٦٤٨هـ. ثم قُتل بعد شهرين بيد من ملكه، ضربه عز الدين أيبك التركماني ضربةً في يده فقطع بعض أصابعه فهرب إلى قصرٍ من خشبٍ في المخيم فحاصروه فيه وأحرقوه عليه فخرج من بابه مستجيراً برسول الخليفة

فلم يقبلوا منه فهرب إلى نهر النيل فانغمر فيه ثم خرج فقُتل سريعاً شرّ قتلةٍ وداسوه بأرجلهم ودُفن كالجيفة، وكان فيمن ضربه البندقداري ضربه على كتفه فخرج السيف من تحت إبطه الآخر وهو يستغيث فلا يُغاث، وكان قتله يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر المحرم سنة ٦٤٨هـ.

المماليك:

كان الملك الصالح نجم الدين أيوب الملك الأيوبي السابع قد استكثر من المماليك الذين نُسبوا إليه كالعادة ـ المماليك الصالحية ـ وذلك خوفاً من اجتماع الملوك الأيوبيين عليه وخاصةً عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وقد أعطى هذا الملك نجم الدين أيوب الحرية لمماليكه هؤلاء حتى ضجّ منهم الناس فاضطر أن يُبعدهم عن الأهالي فبنى لهم قلعةً خاصةً على جزيرة الروضة بنهر النيل سنة ٦٣٨هـ، واتخذ من هذه القلعة مقراً لحكمه، وقد عُرف هؤلاء المماليك بالبحرية إضافةً إلى الصالحية، وإن كانت هذه النسبة ليست خاصةً بهم إذ أُطلقت على كثيرين غيرهم ممن جُلبوا مما وراء البحار وخاصةً الصقالبة الذين جيء بهم عن طريق البحر.

توفي الملك الصالح نجم الدين أيوب وهو يقاتل الصليبيين، وكتمت زوجته شجرة الدرّ (جاريته أم خليل) خبر وفاته حتى وصل إلى مصر ولده تورانشاه الذي استدعته حيث قاد بنفسه قتال الصليبيين على حين كانت هي تدير أمور المملكة وشؤون القتال باسم زوجها المتوفى ولا يعلم أحد خبر وفاته، ووصل الصليبيون إلى مدينة المنصورة، وجيوش المسلمين تتراجع، فجمع الأمير بيبرس البندقداري جماعةً من المسلمين وقادهم فتمكّن من إبادة الصليبيين الغزاة كما قاد الأمير فارس الدين أقطاي المملوكي المماليك وهاجم الصليبيين وانتصر عليهم حتى أيقنوا بعدم إمكانية البقاء في مواقعهم التي دخلوها فانسحبوا إلى دمياط.

كان تورانشاه قد وصل من بلاد الشام إلى مصر وقاد الجيوش بنفسه واضطر لويس التاسع ملك فرنسا إلى طلب المهادنة والصلح بعد أن وقع أسيراً بيد المسلمين، وانتهت الحملة الصليبية السابعة حيث انسحب الملك لويس التاسع إلى عكا، ودفع جزيةً كبيرةً وفداءً له ولأخيه الذي وقع أسيراً معه.

اختلف الملك المعظم غياث الدين توارنشاه مع المماليك فقتله الأميران فارس الدين أقطاي وبيبرس البندقداري في نهاية شهر المحرم سنة ٦٤٨هـ، كما كان

قد اختلف مع زوجة أبيه شجرة الدرّ التي عادت إليها السلطة بعد مقتل ابن زوجها فعيّنت عز الدين أيبك ثم تنازلت له بعد أن تزوجت به. وفي هذه الأثناء انسحب الصليبيون من دمياط.

بعد مقتل غياث الدين تورانشاه استدعى المماليك من بينهم الأمير عز الدين أيبك التركماني فملّكوه عليهم وبايعوه ولقّبوه الملك المعزّ وركبوا إلى القاهرة.

غضب الأيوبيون من سيطرة المملوك عز الدين أيبك وسار صاحب حلب الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازي بن الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي إلى دمشق فدخلها وزحف نحو مصر غير أن عزّ الدين أيبك قد تمكّن من ردّه وتحالف مع الصليبيين في عكا بقيادة ملك فرنسا لويس التاسع خوفاً من مداهمة الأيوبيين لمصر.

أعلن المماليك عن قيام فتىً من بني أيوب وهو الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الناصر يوسف بن المسعود بن الكامل وعمره دون العاشرة، أعطوه اسم الملك وجعلوا الأمير عز الدين أيبك مربيه ومتولّي شؤونه، وكانت الخطبة والسكة بينهما ـ كان جده المسعود صاحب اليمن، وهو المعروف بـ(اقسيس) ـ

وكاتبوا أمراء الشام بذلك، فما تمّ لهم الأمر بالشام، بل خرج عن أيديهم ولم تستقر لهم المملكة إلا على الديار المصرية، غير أن هذا الفتى لم يلبث أن توفي. ولكن هذه الطريقة لم تنطلِ على الأيوبيين فاستمرّت معارضتهم، فأعلن عزّ الدين أيبك ارتباط مصر بالخلافة العباسية في بغداد وأنه يحكمها نيابةً عن الخليفة العباسي المستعصم الذي بدأ يخطب له. وكانت الخطبة والسكة لشجرة الدرّ قبل أن تتزوج الأمير عز الدين أيبك، ويُدعى لها على المنابر أيام الجمع في مصر وأعمالها باسم أم خليل، والعلامة على المنشورات والتواقيع بخطها واسمها وذلك مدة ثلاثة أشهرٍ قبل الملك المعزّ عز الدين أيبك.

لما قتل المماليك تورانشاه بن الصالح أيوب ركب أهل حلب ومعهم الناصر يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازي بن الناصر يوسف صلاح الدين فاتح بيت المقدس ومن كان عندهم من ملوك بني أيوب ومنهم الصالح إسماعيل بن الملك العادل وكان أحق الموجودين بالملك من حيث السنّ والرياسة، ومنهم الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، والملك الأشرف موسى بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين شيركوه الذي كان صاحب حمص وغيرهم فجاءوا إلى دمشق

فحاصروها فملكوها سريعاً ونُهبت دار ابن يغمور، وحُبس في القلعة، وتسلّموا بعلبك، وصلخد، وبصرى، والسلط، وامتنعت عليهم الكرك والشوبك بالملك المغيث عمر بن الملك العادل بن الملك الكامل بن الملك العادل بن نجم الدين أيوب. كان قد تغلب عليهما في هذه الفتنة حين قُتل ابن عمه الملك المعظم تورانشاه فطلبه المصريون ليملكوه عليهم فخاف مما حلّ بابن عمه فلم يذهب إليهم. ولما استقر أهل حلب بدمشق وما حولها جلس الناصر يوسف في القلعة وطيّب قلوب الناس ثم ركبوا إلى غزة ليتسلّموا مصر فبرز إليهم الجيش المصري فاقتتلوا أشدّ قتالٍ عند بلدة العباسة فانتصر عسكر الناصر يوسف في أول الأمر حتى خُطب للناصر يوسف في مصر ولكنهم هُزموا في الجولة الثانية إذ انضم جزء من مماليكه إلى مماليك مصر، وفرّ الأيوبيون من الميدان.

كان الملك الناصر يوسف قد عرض على ملك فرنسا لويس التاسع المقيم في عكا مساعدته مقابل تسليمه بيت المقدس غير أن الملك المعزّ عزّ الدين أيبك قد هدّد لويس التاسع بقتل الأسرى الصليبيين في مصر جميعهم إن اتفق مع الناصر يوسف، وفي الوقت نفسه عرض عليه التحالف معه مقابل أن يتنازل

له عن نصف الفدية المقررة عليه، فرأى بعدئذٍ لويس التاسع أن يقف على الحياد بين الطرفين مستفيداً من خصومتهما بعضهما لبعضٍ أو عملٍ على التحريض بينهما.

ولما انهزم الملك الناصر يوسف في مصر في الجولة الثانية ورأى الملك المعز عز الدين أيبك ملاحقة الناصر يوسف وعسكره فعرض على لويس التاسع ملك فرنسا الصليبي المقيم في عكا دعمه مقابل تسليمه بيت المقدس إن أخذها، ورأى لويس التاسع الصليبي رجحان جانب المماليك فانضمّ إليهم إذ لم يرغب أن تفوته هذه الفرصة فاحتلّ مدينة يافا بينما سار المماليك بإمرة فارس الدين أقطاي إلى غزة، وكذا سار الملك الناصر يوسف نحو غزة، ولكن لم تحدث لقاءات وذلك لأن الخليفة المستعصم بالله قد أصلح بينهما على أن تكون مصر وجنوبي فلسطين بما فيها غزة وبيت المقدس للمماليك وتكون بقية بلاد الشام للأيوبيين وذلك سنة ٦٥١هـ. فلما خاب أمل لويس التاسع في الإفادة من النزاعات القائمة في بلاد المسلمين عاد إلى فرنسا سنة ٦٥٢هـ، وقد اضطر إلى ذلك إذ توفيت والدته التي كانت تحكم له فرنسا وباسمه.

حركة في صعيد مصر:

قامت حركة ضد المماليك في صعيد مصر وقد تزعّمها شريف يُدعى حصن الدين إلا أن عز الدين أيبك قد وجّه للصعيد قوةً بقيادة فارس الدين أقطاي استطاعت أن تقمع الحركة وأن تُعيد الأمن والاستقرار إلى منطقة الصعيد.

حركة في اليمن:

وصل كتاب إلى الخليفة المستعصم بالله من صاحب اليمن صلاح الدين بن يوسف بن عمر بن رسول يذكر فيه أن رجلاً باليمن قد خرج معلناً العصيان، وادّعى الخلافة، وأنه أنفذ إليه عساكر فهزموه وقتلوا كثيراً من أصحابه، وأخذوا منه مدينة صنعاء فهرب هو بنفسه مع نفرٍ من أصحابه ممن بقي معه.

الخلاف بين المماليك:

أصبح الأمير فارس الدين أقطاي أكبر الأمراء وأكثرهم شهرةً، وينافس الملك معز الدين أيبك، ويحمل على بعض تصرفاته مثل تعهده للملك لويس التاسع الصليبي تسليمه بيت المقدس، وتلقّب فارس الدين أقطاي باسم الملك الجواد، وتزوّج إحدى

الأميرات الأيوبيات وهي ابنة الملك المظفر تقي الدين محمود صاحب مدينة حماة، لكن الملك المعزّ عزّ الدين أيبك استدعى فارس الدين أقطاي لاستشارته في بعض الموضوعات فسار إليه مع مجموعةٍ من مماليكه فلما وصل إلى القلعة دخلها إلا أن الباب قد أُغلق دون مماليكه، وانهال عليه مماليك عز الدين أيبك بالضرب، وعلى رأسهم سيف الدين قُطُز وقتلوه، وأسرع أصحاب أقطاي لإنقاذه عندما علموا بالخبر وعلى رأسهم الظاهر بيبرس البندقداري وقلاوون الإلفي ظنّاً منهم أنه لم يُقتل بعد، لكنهم لم يلبثوا أن أُخبروا أن أمره قد انتهى، وهكذا فقد انقسم المماليك إلى:

١" ـ مماليك مُعزّية وهم مماليك الملك المعزّ عز الدين أيبك.

٢" ـ مماليك صالحية أو بحرية وهم مماليك الملك الصالح نجم الدين أيوب.

بدأ بعض المماليك الصالحية يفرّون إلى ملوك بني أيوب في الشام وخاصةً إلى الملك الناصر يوسف الذي كان الخصم الأيوبي الأول لعزّ الدين أيبك والذي يعقد معه صلحاً حالياً لذا فإن الناصر يوسف طلب من الملك المعزّ أيبك أن يعطي هؤلاء المماليك جنوبي الشام

فيكون قد أبعدهم خوفاً من شرّهم وفي الوقت نفسه يكون قد أرضاهم فأسكتهم فلا تتفتت قوة المسلمين أمام أعدائهم من مغولٍ وصليبيين وغيرهم غير أن هذا الطلب من الملك الناصر يوسف قد أخاف الملك المعزّ عزّ الدين أيبك فاعتقد أنه دعم لهؤلاء المماليك الصالحية واتفاقه معهم على أمرٍ لذا فقد استعدّ وأقام بالعباسة استعداداً لأيّ طارئٍ، وبقي على حال استعداده أو استنفاره مدة ثلاث سنواتٍ وعاد بعدها إلى القاهرة بعد أن تمّ الصلح حيث أرسل الخليفة العباسي المستعصم بالله رسولاً هو نجم الدين البدراني فأصلح بينهما على أن يكون للملك المعز عز الدين أيبك مصر وساحل بلاد الشام. ولجأ المماليك البحرية بعد هذا الصلح الذي حُرّرت بنوده بين الملك المعزّ عز الدين أيبك المملوكي والملك الناصر يوسف الأيوبي لجؤوا إلى الملك الأيوبي المغيث عمر بن الملك العادل بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل سيف الدين محمد بن نجم الدين أيوب صاحب الكرك الذي كان يطمع أيضاً ببلاد مصر.

أراد الملك المعزّ عز الدين أيبك أن يحصر الملك الأيوبي المغيث عمر فراسل صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ، وخطب ابنته فوقعت الغيرة في نفس

شجرة الدرّ زوجة أيبك فعملت على التخلّص من زوجها فراسلت الملك الأيوبي الناصر يوسف تحرّضه على غزو مصر، وتتعهد له بدعمه للتخلّص من أيبك، ولكن لم تجد عنده تلك الحماسة، فعملت مع المماليك واستطاعت قتله سنة ٦٥٥هـ.

اختلف المماليك بعضهم مع بعض. فالصالحية منهم يناصرون شجرة الدرّ والمعزّية يعارضونها. وأصبح الأمير علم الدين سنجر الحلبي مقدّم المماليك الصالحية غير أن المماليك المعزّية قد قبضوا عليه وسجنوه وتغلبوا على الأمر، وبدأت المماليك الصالحية تفرّ إلى ملوك الأيوبيين في بلاد الشام وخاصةً إلى المغيث عمر صاحب الكرك وتحرّضه على أخذ مصر، وقد حاول مرتين في سنتي ٦٥٥هـ، و٦٥٦هـ غير أنه فشل في كلتا المحاولتين بجهود سيف الدين قطز. أما المماليك المعزية فقد قدموا عليهم نور الدين علي بن عز الدين أيبك الذي غدا سلطاناً لمصر أما الذي يقوم بالنيابة عنه فهو الأمير سيف الدين قطز، ولكن لم يلبث قطز أن عزل نور الدين علي وتسلّم السلطنة بنفسه بحجة أن الأول كان ضعيفاً وظروف البلاد تقتضي رجلاً قوياً فالأيوبيون لا يزالون يطمعون في مصر، والخطر الخارجي على ديار الإسلام يتمثّل في عدوّين شرسين هما: المغول والصليبيون.

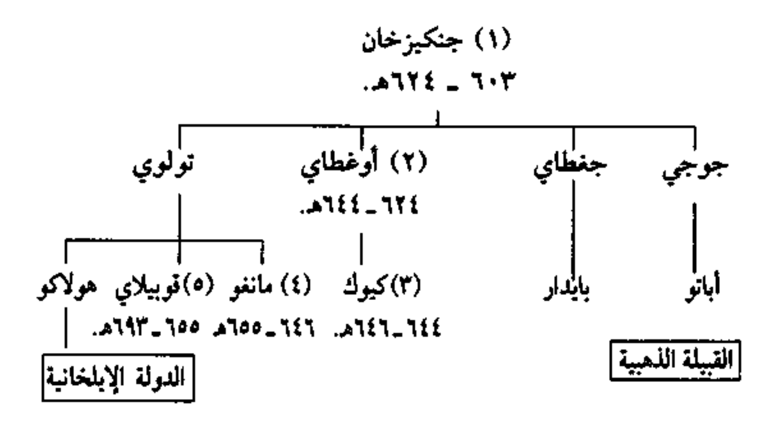
المغول

هلك طاغية المغول سنة ٦٢٤هـ، وخلفه ابنه الثالث أوغطاي بعهدٍ منه فتأثّر بذلك الولد الأكبر منه وهو جغطاي إذ هو الولد الثاني وكان هذا التأثّر لمخالفة ذلك العهد لتقاليد المغول التي تقضي بتعيين الولد الأكبر. وقد ذبح أوغطاي أربعين فتاةً جميلةً على روح أبيه وكثيراً من الخيل، وبقي في عاصمة المغول (قره قورم) في منغوليا.

اتجه أوغطاي فقضى على امبراطورية شمالي الصين (كين) بمساعدة امبراطورية جنوبي الصين (سونغ)، ثم التفت إلى الغرب فأرسل جيشاً قوامه خمسين ومائة ألف مقاتلٍ وأمره بالتحرك نحو مملكة خُوارزم، وكان خوارزمشاه جلال الدين قد اختلف مع أخيه غياث الدين الذي التجأ إلى الإسماعيلية فحموه.

وصل المغول من جديدٍ إلى جهات الريّ لقتال خوارزمشاه جلال الدين وقد آلمهم توسّعه الجديد بعد رجوعه من الهند، وسار إليهم جلال الدين وجرت

حروب كثيرة بين الفريقين كانت الدائرة في أغلبها تدور على خُوارزم، وكان النصر في آخرها لجلال الدين، ثم هُزم فرجع إلى أصفهان، وقاتل المغول من جديدٍ، وفارقه قبل المعركة أخوه غياث الدين مع فرقةٍ من الجيش، وظنّ المغول أن ذلك خديعة فانهزموا، وكذلك كان ظنّه فانهزم، وشعر المغول بما كان فرجعوا يحاصرون أصفهان، وجاء إليها جلال الدين وهزم المغول وتبعهم إلى الريّ ثم سار إلى أرمينيا ونهبها، وجاء جيش آخر من المغول ففرّ خوارزمشاه من وجهه، وهام على وجهه فقتله أحد الفلاحين سنة ٦٢٩هـ في إحدى القرى الكردية.



وجاء المغول إلى أذربيجان سنة ٦٢٨هـ فملكوها واتجهوا إلى ديار بكر والجزيرة الفراتية، ووصلت

جماعة من المغول إلى أربيل سنة ٦٣٤هـ وألقوا الحصار عليها فأرسل الخليفة نجدةً إلى أهلها فانشمر المغول راجعين عنها. وقد ارتكب المغول أبشع الجرائم، وأفسدوا أعظم الفساد حتى خافهم الناس، وقتلوا الكثير من الأكراد والتركمان، فكان الناس يفرّون من وجههم.

أرسل أوغطاي بن جنكيزخان سنة ٦٣٧هـ ثلاثة جيوشٍ: أحدها إلى كوريا، والثاني إلى امبراطورية (سونغ) في جنوبي الصين التي ساعدته بالأمس ضد امبراطورية شمالي الصين (كين)، والثالث إلى شرقي أوروبا وجعل قائد هذا الجيش الثالث أباتو بن أخيه جوجي، وجوجي هو أكبر أبناء جنكيزخان، وكان قد توفي قبل أبيه بمدةٍ يسيرةٍ. وقبل أن يموت الأب قسّم ما أخضع من بلدانٍ بين أولاده الأربعة:

أعطى ابنه الكبير جوجي بلاد داغستان وبلاد الجراكسة وخوارزم وما يُؤخذ في تلك الجهات. ولما كان جوجي قد مات قبل أبيه فإن نصيبه كان لابنه أباتو بن جوجي.

وأعطى ابنه الثاني جغطاي بلاد الأويغور وتركستان وبلاد ما وراء النهر، وكان هذا الولد أكثر

إخوته محافظةً على تعاليم أبيه المبينة فيما عرف باسم (الياساق).

وأعطى ابنه الثالث أوغطاي بلاد المغول، والصين، والخُطا إلى منتهى المعمورة من ناحية المشرق، وجعله الخان الأعظم من بعده، ويرجع إليه المغول جميعاً وأولاده البقية في أمورهم كافةً، ويُقدّمون إليه بعض ما يحصلون عليه من أسلاب ومغانم.

وأعطى ابنه الرابع تولوي بلاد خراسان وفارس وما يؤمل أخذه من ديار بكر والعراقيين وما يتبع تلك الجهات.

لم تنقاد أسرة مغول الشمال لحكم الخان الأعظم أوغطاي بعد وفاة جنكيزخان إذ لم يكن أباتو بن جوجي راضياً عن تسلّم عمه (أوغطاي) مركز الخان الأعظم، وفي الوقت نفسه كان أباتو مميزاً بين أبناء عمومته إذ كان على المغول أن يرسلوا إلى بيته ثلث ما يحصلون عليه من مغانم في حروبهم شأنه في ذلك شأن الخان الأعظم، وذلك بسبب أن منصب الخان الأعظم كان يجب أن يكون حسب تعاليم المغول من حق أبيه (جوجي) وهو من بعد أبيه أيضاً، وكذلك كان لأباتو

مركز بين المغول جميعاً إذ كان على خلافٍ مع الخان الأعظم وينافسه.

وجّه الخان الأعظم أوغطاي سنة ٦٣٣هـ جيشاً قوامه ثلاثون ألفاً إلى شرقي أوروبا بقيادة أباتو بن جوجي ويعمل تحت إمرته أبناء عمومته الثلاثة كيوك بن أوغطاي، ومانغو بن تولوي، وبايدار بن جغطاي، فقضى أباتو على دولة الخزر، ودخل بُلغار (قازان)، ثم احتلّ موسكو، واتجه بعدها إلى مدينة كييف وكانت آنذاك أكبر مدن الروس فأبادها المغول، وانقسم جيش أباتو بعدها إلى قسمين: قسم سار بإمرته إلى بلاد المجر فانتصر عليهم وذبح أفراد جيشهم كاملاً، وسار الثاني بإمرة بايدار بن جغطاي نحو بولندا وقد أحرق ما استطاع من المدن.

كتب خان المغول الأعظم أوغطاي سنة ٦٣٨هـ إلى ملوك المسلمين يدعوهم فيها إلى الطاعة حيث توقّع أن يستجيب أكثرهم لذلك بسبب الخوف الذي نزل في نفوس الناس من قسوة المغول وجرائمهم التي ارتكبوها في كل أرضٍ دخلوها فعرف ذلك الناس جميعاً.

توفي خان المغول الأعظم أوغطاي سنة ٦٤٤هـ فاستدعي أباتو ابن أخيه جوجي للرجوع إلى بلاد

المغول، وعُيّن كيوك بن أوغطاي خاناً أعظم، وما كانت دعوة أباتو للرجوع إلا خوفاً منه أو من تصرفاتٍ يمكن أن يقوم بها وهو بين أتباعه وعساكره ومركز قوته.

وتوفي خان المغول الأعظم كيوك بن أوغطاي سنة ٦٤٦هـ بعد حكم سنتين، وخلفه ابن عمه مانغو بن تولوي بعد اضطرابات حول الملك في عاصمة المغول (قره قورم)[1]. فوجّه أخاه الأول قوبيلاي إلى الصين فاتخذ مدينة بكين عاصمةً له بعد أن أخضع الصين، وبذا أصبحت بكين حاضرة المغول بدلاً من قره قورم، ووجّه أخاه الآخر هولاكو إلى جهة الغرب نحو بغداد.

توفي خان المغول الأعظم مانغو سنة ٦٥٥هـ فخلفه أخوه قوبيلاي وهذا ما زاد من كراهية أباتو بن جوجي على أعمامه وأبنائهم، وأسس أسرةً خاصةً عُرفت باسم (مغول الشمال) أو (القبيلة الذهبية)، وحكمت المنطقة التي كانت من نصيب والده جوجي في تركة جده جنكيزخان. واستقرّ المغول الذين مع أباتو في تلك المنطقة من شرقي أوروبا القليلة السكان،

---

(١) قره قورم: يقوم مكانها اليوم مدينة (أولان باتور) عاصمة منغوليا الخارجية.

واتخذوا من مدينة سراي[١] على نهر الفولغا قاعدةً لهم على مجرى النهر الأوسط، وقد أكمل بناءها بركة خان سنة ٦٥٣هـ عندما تسلّم أمر الخانية، وهو الخان الثالث لمغول الشمال، وكان قد بدئ في بنائها سنة ٦٤٠هـ.

وتُعدّ قبيلة مغول الشمال (القبيلة الذهبية) أول قبائل المغول في اعتناق الإسلام، وقد كان أباتو بن جوجي يعطف على المسلمين، ويكره ابن عمه الخان الأعظم كيوك بن أوغطاي الذي تنصّر تحت تأثير النساء الصليبيات اللاتي بعث بهن الصليبيون للتأثير على المغول الوثنيين في سبيل حثّهم لغزو ديار الإسلام لتخريبها والقضاء على الإسلام، ولمحاولة جرّهم إلى النصرانية ليكونوا يداً واحدةً على الإسلام.

توفي أباتو بن جوجي سنة ٦٥٠هـ فخلفه ابنه (صرتق) في منصب خان مغول الشمال، ولكن صرتق لم يلبث أن توفي فخلفه عمه بركة خان بن جوجي[٢] الذي قد أسلم حوالي سنة ٦٥٠هـ، وعندما تسلّم منصبه أظهر تضامنه مع المسلمين فراسل المماليك في مصر وتحالف معهم ضد ابن عمه هولاكو بن تولوي بن

---

(١) سراي: يقوم مكانها اليوم مدينة ساراتوف.

(٢) أبو المعالي ناصر الدين بركة خان.

جنكيزخان الذي يقود المغول في قتال المسلمين ويتجه إلى بغداد، وقد تمكّن من الانتصار على هولاكو في بعض المعارك التي جرت بينهما، واستمرّت الصلة بين مغول الشمال ودولة المماليك كل مدة الخلاف بين المماليك والدولة الإيلخانية التي أسّسها هولاكو في فارس وبلاد الجبل والعراق.

وبقي بركة خان سيد دولة مغول الشمال حتى توفي سنة ٦٦٥هـ.

لما تسلّم مانغو بن تولوي بن جنكيزخان منصب الخان الأعظم عند المغول سنة ٦٤٦هـ سيّر حملةً بقيادة أخيه هولاكو للتوجّه نحو الغرب ودخول فارس والعراق والشام، فسار هولاكو نحو بلاد ما وراء النهر فجاءه الأمراء يعلنون طاعتهم حيث ملأ الرعب من المغول قلوب الناس، ثم سار هولاكو إلى فارس وطلب من الأمراء معاونته للقضاء على الإسماعيلية، وجاء أمراء من خراسان وأذربيجان وجورجيا، وقد تمكّن من هزيمة الإسماعيلية وأسر زعيمهم ركن الدين خورشاه وقتله، واتخذ من مدينة همدان مقراً له، وكتب إلى الخليفة المستعصم بالله العباسي يعاتبه على عدم مساعدته في قتال الإسماعيلية، كما طلب منه أن يهدم الحصون ويردم

الخنادق، ويتنازل لابنه عن السلطة، ويحضر هو لمقابلته أو يرسل إليه نيابةً عنه الوزير سليمان شاه، ويُهدّده إن لم يقبل النصح.

أرسل الخليفة لهولاكو رسالةً حملها له شرف الدين ابن الجوزي فيها شيء من إظهار القوة والاستعداد، واستشار هولاكو من معه ممن ينتمي إلى الإسلام فأشار عليه حسام الدين الفلكي بعدم التعرض للخلافة وبغداد، على حين أن نصير الدين الطوسي[1] شجعه على المضي لبغداد.

انطلق هولاكو لبغداد يقود قسماً من الجيش لحصارها من ناحية الشرق ويرافقه عدد من الذين يدّعون الانتماء للإسلام، ومنهم: أمير الموصل، وأمير شيراز، ونصير الدين الطوسي، وأعطى إمارة القسم

---

(١) نصير الدين الطوسي: محمد بن محمد بن الحسن، أبو جعفر: ولد بمدينة طوس قرب نيسابور سنة ٥٩٧هـ، عمل في الفلسفة وكان رأساً بالعلوم العقلية، وعلامة بالأرصاد والرياضيات، علت مكانته عند هولاكو فكان يطيعه فيما يشير به عليه، وابتنى بمدينة مراغة قبة ومرصداً، وكذلك جعل منجمين لرصد الكواكب، واتخذ خزانةً ملأها بالكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة الفراتية. وكان هولاكو يمده بالمال، وصنّف كتباً كثيرةً، وتوفي سنة ٦٧٢هـ.

الآخر من الجيش إلى الأمير باجو وعهد إليه حصار بغداد من جهة الغرب.

وقعت فتنة في بغداد سنة ٦٥٥هـ بين أهل السنة والشيعة وسببها ممالأة الوزير ابن العلقمي للقائد المغولي هولاكو فكانت الفتنة بين هؤلاء الممانعين للصلة مع هولاكو وبين أولئك المؤيّدين، وكانت فتنةً كبيرةً وقذرةً.

وصل المغول إلى بغداد في بداية سنة ٦٥٦هـ ودخلوها يوم عاشوراء، وعددهم مائتا ألفٍ، ويتقدّمهم هولاكو، فخرج إليهم عسكر الخليفة فتغلّب المغول عليهم.

كان ابن العلقمي قد اجتمع مع هولاكو، وعندما استشاره الخليفة المستعصم بالله أشار عليه بمصانعة المغول، وقال: أنا أخرج إليهم في تقرير الصلح، فخرج بعد أن استوثق منهم لنفسه، والتقى بهم ورجع إلى الخليفة، وقال له: إن الملك هولاكو قد رغب في أن يزوّج ابنته بابنك الأمير أبي بكر، ويُبقيك في منصب الخلافة، كما أبقى صاحب قونية في سلطانه، ولا يريد إلا أن تكون له الطاعة، كما كان أجدادك مع السلاطين السلاجقة، وينصرف عنك بجيوشه، فليجب مولانا إلى

هذا فإن فيه حقن لدماء المسلمين، ويمكن بعد ذلك أن تفعل ما تريد. فخرج إليه في جمعٍ من الأعيان فأُنزل في خيمةٍ.

ثم استدعى الوزير ابن العلقمي الفقهاء والأعيان ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضُربت أعناقهم، وأخذت تأتي جماعة بعد أخرى وكلما وصلت جماعة إلى المكان قُتلت حتى قُتل جميع من هناك من العلماء والأمراء والحجاب والأعيان. ثم مُدّ الجسر وعمل السيف عمله في أهل بغداد، واستمرّ القتال فيها نحو أربعين يوماً فزاد عدد القتلى على ألف ألف قتيلٍ، ولم يسلم إلا من اختفى في بئرٍ أو قناة.

كان الأمير باجو قد أسرع بالهجوم على بغداد من جهة الغرب، واشتبك مع قوات الخليفة في معركة ضاريةٍ يوم عاشوراء فخلا الجو لهولاكو من ناحية الشرق فتقدّم، واستمرّت مقاومة المسلمين حتى اليوم التاسع عشر من شهر المحرم سنة ٦٥٦هـ، ورأى الخليفة أنه لا بدّ من الاستسلام فأرسل إلى الطاغية هولاكو مرةً ثانيةً شرف الدين ابن الجوزي ويحمل له الهدايا مُعلناً التسليم والرغبة في وقف القتال، وخدعه المغول بالوعود الكاذبة.

وفي الرابع من شهر صفر سنة ٦٥٦هـ خرج المستعصم بالله لمقابلة هولاكو، وخرج معه أولاده الثلاثة: أحمد أبو العباس، وعبد الرحمن أبو الفضائل، ومبارك أبو المناقب، وثلاثة آلافٍ من القضاة والفقهاء والأمراء وأعيان بغداد، وعندما اقتربوا من هولاكو أُخذ الخليفة لخيمةٍ، وحُجب البقية عنه، وطُلب منه أن يأمر أهل بغداد بإلقاء السلاح ففعل، وما أن ألقى السكان السلاح حتى أمر هولاكو جنده بالانقضاض على المدينة، وبدؤوا بالقتل والسلب وارتكاب المنكرات، وتهديم البيوت، وتخريب القصور، وإتلاف الكتب، واستمرّ ذلك أربعين يوماً.

وسار الخليفة إلى بغداد مكرهاً ومعه نصير الدين الطوسي وابن العلقمي ليدلّ جند هولاكو على أماكن الذهب والنفائس والمجوهرات، ولما عاد إلى هولاكو قُتل في يوم الأربعاء الرابع عشر من شهر صفر سنة ٦٥٦هـ.

وأصبحت بغداد بعد الأربعين يوماً من التدمير خاويةً على عروشها، ثم أُعطي الناس الأمان فخرج من خرج من الأقنية والآبار والقبور كأنهم الموتى خرجوا من قبورهم، وانتشرت الأوبئة والأمراض فأتت على أعدادٍ كبيرةٍ منهم أيضاً. وكان قد قتل ابنا الخليفة

المستعصم وهما: أحمد وعبد الرحمن وبقي ولده مبارك وفاطمة وخديجة ومريم في أسر المغول.

ورجع هولاكو إلى مقرّ حكمه في شهر جمادى الأولى من العام نفسه، وفوّض أمر بغداد إلى الأمير علي بهادور ومعه ابن العلقمي.

حسّن ابن العلقمي للمغول إقامة خليفةٍ من أحفاد أبي طالبٍ فلم يوافقوه إذ هم أعداء لكل من ينتمي إلى الإسلام، وألقوا برأيه جانباً، وسار معهم في صورة بعض الغلمان، ومات كمداً بعد أحلام كانت تملأ مخيلته.

هلك هولاكو في ٩ ربيع الأول سنة ٦٦٣هـ بمرض الصرع. وكان قد خضع لتأثير النصرانية فقد كانت زوجته نصرانيةً وتُحرّضه على الإسلام باستمرار، كما كان الرهبان النصارى يجوبون البلاد التي تخضع لسيطرة المغول بكل حريةٍ.

الخاتمة

قضت حكمة الله أن يكون الإسلام آخر الرسالات وأن يكون رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء والرسل. فلما ظهر الإسلام وانتشر، وارتفع لواؤه، وقوي أبناؤه، وظهر بيانه، واتسع سلطانه، وامتدّ شأنه، وقضى على من وقف في وجهه، وأزال ما ساد قبله من شركٍ ووثنياتٍ وزيغٍ وخرافاتٍ ودياناتٍ محرّفاتٍ، وإذا كان قد بقي بعض ذلك فإن أصحابه قد سكنوا، أو قبعوا في جحورهم وخنعوا، أو ابتعدوا عن الساحة وهدؤوا، فهم أصحاب دنيا ومصالح.

إن من كان لهم نفوذ في سلطانٍ قد زال وهم لذاك يعملون ولأجله يسعون، ومن كانت لهم مكانةٍ في مجوسيةٍ قد قُضي عليها ويرون فيها سعادتهم وفيها أحلامهم ولها محياهم وآمالهم، هؤلاء وأولئك وجدوا أن أتباعهم وشعوبهم قد دانوا بالإسلام وصدقوا، ورأوا فيه الحق ونطقوا، ووجدوا فيه الخير فقاموا يعملون له ويجاهدون ويدعون.

وجد أصحاب المصالح وأتباع الدنيا ما حدث

فامتلأت قلوبهم أحقاداً، وفكّروا ومكروا فلم يجدوا سوى إظهار الإسلام ليبقوا على صلةٍ وثيقةٍ بأتباعهم بالأمس فيمكن الهدم من الداخل بإثارة الحمية للعصبية وذكر المجد الماضي و.... فأبدوا الإسلام بألسنتهم ولم تُؤمن قلوبهم وأخذوا بالتخطيط للهدم وساروا برمي الفتن ونبش خلافات الماضي بين القبائل وبين العشائر وبين الأسر. وبدأ العمل مبكراً بعد زوال دولتهم الجاهلية والقضاء على مجوسيتهم مباشرةً أيّ في صدر الإسلام في العهد الراشدي.

أولاً: أخذ الماكرون يثنون على بعض الصحابة ثناءً كبيراً يرفعهم أحياناً فوق مستوى البشر ويقصدون بذلك إظهار إسلامهم بمحبتهم للصحابة الكرام وفي الوقت نفسه يبغون التهديم إذ أن إعطاء المخلوق صفةً أعلى من مستوى البشر فيه مخالفة لتعاليم الإسلام الأساسية حيث لا يمكن لإنسانٍ أن يصل إلى هذا المستوى مهما كان هذا الإنسان ولو كان أعلى الصحابة منزلةً بل ولو كان نبيّاً مرسلاً.

وفي الوقت نفسه كانوا يطعنون بصحابةٍ آخرين في سبيل التهديم أيضاً ويجب أن يكون هذا الطعن بالصحابة الذين كان لهم باع طويل بالدعوة والفتوحات والجهاد وتحمّل المسؤوليات وفي هذا يكون التهديم

أكثر أثراً والوقع أكبر عمقاً، لأن الطعن في السابقين طعنة نجلاء إذ هي في البُناة.

كانوا يختارون الطرفين: الصحابي المُثنى عليه والصحابي الذي يُطعن به من قبيلتين أو من بطني قبيلةٍ كان بينهما في الجاهلية نزاع أو منافسة، كما كان بين بني هاشم وبني أمية من منافسةٍ في المرحلة الجاهلية وكلاهما من بني عبد مناف أحد بطون قبيلة قريش، وهذا كمثل ملاحظ.

كان أهل المكر ينبشون أخبار الجاهلية ويذكرون أحداث المنافسة فتثير شجىً في النفس ويظنّ العامة أنه تجري في النفوس آثار الماضي، وينسون أن الإسلام يجبّ ما كان قبله وأن النفوس العامرة لا تنظر إلى الجاهلية ولا تبحث إلا في الإسلام ولا تأخذ الحلول إلا مما يُمليه الإيمان.

ثانياً: قضى الخليفة علي بن أبي طالب ﵁ نحبه شهيداً، واتجهت الأنظار إلى ولده الحسن ﵁ غير أن الحسن ﵁ تنازل عن الخلافة لمعاوية ﵁.

بويع معاوية ﵁ بالخلافة وانطلق الركب الإسلامي فتتابعت الفتوحات وأخذ انتشار الإسلام مجراه، وتحرّكت أحقاد الماكرين فعاد نبش الماضي

الجاهلي وإثارة الفتن من جديدٍ، وانتهت أيام معاوية رضي الله عنه.

قضت الأحداث أن يُبايع يزيد بن معاوية ولم يكن على مستوى الخلفاء الذين سبقوه إذ كانوا من صحابة رسول الله ﷺ ولم يكن هو منهم، إذ لا يبقى الصحابة إلى آخر الدهر فتحرّك الماكرون في أوكارهم، وثارت الأحقاد في نفوسهم والضغائن في قلوبهم فقاموا يريدون الهدم حيث وجدوا خيطاً أوهى من خيط العنكبوت فرفعوا هذا الخيط وساروا تحته.

أخذوا يدعون كراماً للبيعة ويطالبون آخرين بالدعوة لأنفسهم ويحضرون إلى الحرمين فيرجون أناساً للقدوم إليهم للعمل للخلافة، هذا ويستظلّون في كل عملٍ يقومون به بأحد أبناء بني هاشمٍ في محاولة لإظهار الارتباط بالإسلام ما دام محمد رسول الله ﷺ من بني هاشمٍ، ولكن هذا تجارة وكلام باللسان وما في القلب يُغاير هذا تماماً، كما أنهم في عملهم يكسبون عواطف العامة، فهم يمكرون والناس يستمعون ويتأثّرون وربما رسخت أقوال الماكرين في قلوب بعض المستمعين، ولذا يجب أن نُفرّق بين الماكرين والمستمعين.

إذا استطاع الماكرون إقناع أحد الكرام بالسير إليهم للدعوة بإظهار الإكرام له وإبداء الحاجة له وإعطاء صورة غير صحيحةٍ عن الإقليم والوالي، وإذا سار إليهم واعترض الوالي واحتدم الموقف واشتدّت الأزمة وحدث لقاء تخلّوا عن ضيفهم وأسلموه لخصمه فتكون المحنة التي يعقبها الندب والنواح والبكاء والعويل يا لآل البيت، يا لعترة آل محمد، يا للحق المغتصب!!!!. وهذا إنْ دلّ على شيءٍ فإنما يدلّ على أن ادعاء المحبة كذب وزور فلو كانت محبة صدقٍ لحموه ودافعوا عنه وفدوه بأرواحهم فهو ضيفهم وهم الذين دعوه وأظهروا له الإكرام والتقدير والواقع أنهم خدعوه وتخلّوا عنه وقد لقي حتفه بخداعهم له. فهو والوالي عندهم سواء لا يُفضّلون أحدهما على الآخر بل يكرهون كليهما ما داما مسلمين ومن الذين أزالوا سلطانهم وقضوا على مجوسيتهم، وما فعلوا ما فعلوا من دعوةٍ وتخلٍّ عن المدعو إلا لإثارة الفتنة وإضعاف الأمة وهدم المبادئ، كما أن قتل المدعو إليهم وهو من كرام الأمة إنما هو إثارة للفتنة إضافةً إلى أن ما صنعوا من نواحٍ وعويلٍ إنما هو إشعال لنار الفتنة وشحن للأحقاد وإبقاء للبغضاء، وإن إحياء ذلك كل عامٍ إنما هو للغرض نفسه وبقاء للشحناء وزيادة للبغضاء.

استمرّ ذلك معظم العهد الأموي حيث قُتل زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب سنة ١٢٢هـ أيام هشام بن عبد الملك، حيث ذهب إليه في المدينة المنورة بعض أهل الكوفة يُحرّضونه على قتال الأمويين، ورجعوا به إلى الكوفة سنة ١٢٠هـ، فبايعه أربعون ألفاً على الدعوة إلى الكتاب والسنة، وجهاد الظالمين، والدفاع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء، وردّ المظالم، ونُصرة أهل البيت، وكان العامل على العراق يومئذٍ يوسف بن عمر الثقفي، فكتب إلى الحكم بن الصلت وهو في الكوفة أن يقاتل زيداً، ففعل ونشبت معارك فلما حمي الوطيس تخلّى عن زيد أولئك الذين دعوه والذين بايعوه، فقال لهم: أرفضتموني؟ وقُتل رحمه الله.

إذن ما كانت دعوتهم له ومبايعتهم سوى مكرٍ وخديعةٍ كي تكون فتنة وتذهب الضحايا وتضعف الأمة الإسلامية عسى أن يعود ما اندثر من سلطانٍ جاهليٍ لأولئك الماكرين وتعود الروح لمجوسيتهم، وهو ما تصبو إليه نفوسهم، ويعملون له جاهدين.

ثالثاً: رأى الماكرون أن عملهم قد مضى عليه أكثر من مائة عامٍ ولم يثمر وذلك لـ:

١" ـ أن المستمعين لهم يتأثّرون بأقوالهم عاطفةً

ويسايرونهم محبةً لآل بيت النبوة ولكن لا يعرفون الأهداف البعيدة لهم ولا يمكنهم أن يوافقوا عليها أبداً حيث لا يوجد مسلم واحد يقبل أن يعود طغيان سلطانٍ جاهليٍ أو تظهر المجوسية من جديدٍ.

٢" ـ إن انتزاع الإيمان من النفوس أمر صعب جداً وخاصةً إن كان راسخاً والمسلمون ـ ولله الحمد ـ ثابتو الإيمان ـ ولا يتحدّث الماكرون إلا في العواطف، ويبالغون في إبداء المحبة مع عدم صدقها.

٣" ـ إن قاعدة الماكرين التي يواجهون بها وهم المستمعون إنما هم أصحاب حماسةٍ قليلةٍ وقوةٍ ضعيفةٍ حيث غُذّوا بالعاطفة وسلاحهم العاطفة ولا يعرفون الأهداف الحقيقية التي لا يؤمنون بها أساساً.

٤" ـ يبدو أن سلطان الخلافة لا يزال في واقعه قوياً وإن بدا عليه الضعف وظهر فيه الخلل، وتظهر فيه القوة إذا ارتفعت راية الجهاد، فكان القتال في سبيل الله لرفع راية الإسلام وإعلاء لوائه.

لذا رأى الماكرون تبديل الواجهة التي يُقدّمونها ويدعون لها ظنّاً منهم أن الضعف فيها، وكانت قد قامت دعوة للعباسيين فأسرع الماكرون نحوها وانخرطوا في صفوفها وأبدوا حماسة لها فتقدموا وبذلوا جهدهم

فظهر أمل النجاح، وأعلن قادتها القيام وخلعوا طاعة الأمويين، وكان اللقاء وبدأ الاشتباك وكان الماكرون في صفوف الجيوش العباسية وكانوا أكثرية بعضها، وقد تخلّوا عن الطالبيين الذين كانوا دعاةً لهم بالأمس.

هذا التخلّي عن جانبٍ يدّعون الارتباط به والدعوة له والاقتداء به والتبعية له والإيمان بإمامته والسير حسب منهجه إنما يدلّ هذا التخلّي على عدم الصدق بالمبدأ بل هناك أمر باطنيّ معروفٍ وهو الذي ذكرناه سابقاً وهو إثارة الفتن لإضعاف الأمة الإسلامية لإمكانية إعادة السلطان الجاهلي الذي قضي عليه وإحياء المجوسية التي زالت.

تقدّمت الجيوش العباسية وظهر تفوّقها وبدت قوة القادمين الجدد فشعر الماكرون بخيبة الأمل وبدا عليهم الفشل بالتخطيط إذ يريدون الانتهاء من قوة الدولة التي تحتضر فيُفاجؤون بدولةٍ وليدةٍ أكثر قوةً فما العمل؟

رأى الماكرون أن يبدؤوا بإثارة الشعب على الدولة الوليدة قبل أن يشتدّ ساعدها وتقوى عضلاتها فأخذوا بنبش القبور فتألّم المسلمون من هذا التصرّف ولكن لا يدعو هذا لإثارة فتنةٍ فكظم المسلمون غيظهم، وتمّ الأمر وقامت الدولة ونهضت وقويت.

أخذ الماكرون يعملون على إثارة الفتن من جديدٍ، فكانت تقع بين أصحاب مذهب الطالبيين وأصحاب مذهب العباسيين فتن هوجاء بمناسبة الذكريات التي أثاروا النواح والعويل عليها وهم فاعلوها ولا غيرهم.

وسيطر البويهيون على الدولة العباسية من ٣٣٤هـ إلى ٤٤٧هـ وهم من أصحاب المكر وتمكّن أعوانهم من السيطرة على أقاليم واسعةٍ ومتعددةٍ فالسامانيون على بلاد ما وراء النهر، والحمدانيون على الشام والجزيرة الفراتية، والعبيديون على مصر وشمالي إفريقية والشام، والقرامطة على بلاد الجزيرة، والبويهيون أنفسهم على قاعدة الخلافة غير أن تأثير هؤلاء جميعاً كان سطحياً فالإيمان في القلوب، وقد زال أيضاً الأثر السطحي بزوال أصحاب السلطان، ومع مرور الأيام.

رابعاً: رأى الماكرون أن جهدهم وتفكيرهم وتخطيطهم ومكرهم تذروه الرياح وأن عملهم ضائع كلما دبّروا أمراً أحبطه الله وكلما سلكوا درباً سدّه الله في وجههم.

ظهر المغول الوثنيون وتقدّموا نحو ديار الخلافة وقد عُرفوا بكفرهم وفسادهم ومنكراتهم التي يقومون بها في بلاد المسلمين وأهلها، وظهرت قوتهم، وتقدّموا

نحو قاعدة الخلافة بغداد واقتربوا منها، ورأى الماكرون فرصتهم فأسرع مندوبون عنهم والتقوا مع طاغية المغول هولاكو ومدّوا أيديهم إليه وكانوا عوناً له في دخول بغداد وتدميرها، ومع هذا فهم يستظلّون بظلّ الإسلام ويدّعون الانتماء إليه وهم البلاء عليه.

والواقع أن الماكرين غير المستمعين لهم وإن كان يجمعهم اسم واحد، فالماكرون يقولون بألسنتهم غير ما يخفون في قلوبهم، وأهدافهم خاصة بهم لا يطلع عليها أحد ولا يُفصحون بها لأحدٍ أما المستمعون فيتكلمون بالعاطفة ويتبعون غيرهم وينساقون لهم، ويظنّون بهم خيراً وأنهم على علمٍ ومع الحق، والواقع أنهم لا يعلمون عنهم شيئاً ولا يعرفون ما تخفي صدورهم.

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المُحتَوىٰ

الموضوع	الصفحة
* مقدمة	٥
الفصل الأول **الناصر لدين الله** **٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ**	٩
الفصل الثاني **الظاهر بأمر الله** **٦٢٢ ـ ٦٢٣هـ**	١١
الإمارات	١٤
١" ـ السلاجقة	١٤
٢" ـ خُوارزم	١٦
٣" ـ الغوريون	١٠٠
٤" ـ آل زنكي	١٠٣
٥" ـ الأيوبيون	١٣٣
سيطرة صلاح الدين على حلب	٢٠٩
دخول صلاح الدين بلدة حارم	٢١٠
جهاد صلاح الدين	٢١١
غزو الكرك	٢١٢
حصار صلاح الدين الموصل	٢١٥

الموضوع	الصفحة

وفاة صاحب حصن كيفا ٢١٨
احتلال ميافارقين ٢١٩
مصالحة صلاح الدين للموصل ٢٢١
فتنة بين التركمان والأكراد ٢٢٢
تنقلات إدارية ٢٢٢
خلاف بين الصليبيين ٢٢٤
قتال أرناط ٢٢٥
الهجوم على عكا ٢٢٧
فتح صلاح الدين طبرية ٢٢٩
موقعة حطين ٢٣١
احتلال قلعة طبرية ٢٣٤
فتح عكا ٢٣٥
فتح يافا ٢٣٧
فتح المدن الساحلية ٢٣٨
مدينة صور ٢٤١
فتح عسقلان ٢٤٢
فتح بيت المقدس وإنقاذه ٢٤٤
حصار صلاح الدين صور ٢٥٣
المسير إلى عكا ٢٥٦
فتح هونين ٢٥٦
حصار قلعة كوكب ٢٥٨
فتح جبلة ٢٥٩
فتح اللاذقية ٢٦١
فتح قلعة صهيون ٢٦٣

الموضوع	الصفحة

المسير إلى أنطاكية ٢٦٧
فتح الكرك ٢٧٠
فتح صفد ٢٧٠
فتح قلعة كوكب ٢٧١
حصار الشقيف ٢٧٣
معارك مع الصليبيين على صور ٢٧٥
مسير الصليبيين إلى عكا وحصارها ٢٧٨
الحملة الصليبية الثالثة ٢٩٠
القتال على عكا ٢٩٤
دخول الصليبيين عكا ٣٠٢
مسير الصليبيين إلى عسقلان ٣٠٦
مسير صلاح الدين إلى القدس ٣٠٩
مسير صلاح الدين إلى يافا ٣١٢
الهدنة بين المسلمين والصليبيين ٣١٢
وفاة صلاح الدين ٣١٥
آل أيوب بعد صلاح الدين ٣١٨
مسير الملك العزيز عثمان إلى دمشق ٣٢٣
استيلاء الملك العادل على دمشق ٣٢٧
العادل يأخذ يافا من الصليبيين ٣٢٩
دخول الصليبيين بيروت ٣٣١
وفاة صاحب اليمن طغتكين ٣٣٤
وفاة صاحب مصر الملك العزيز عثمان ٣٣٤
حصار الأفضل دمشق ٣٣٨
تملك العادل ديار مصر ٣٤١

الموضوع	الصفحة

المنافسة على البلدان ٣٤٧
الصراع في الجزيرة الفراتية ٣٤٧
الغارة على حلب ٣٥٠
نجم الدين بن العادل يملك خلاط ٣٥١
غارات الصليبيين بالشام ٣٥٣
الفتنة في مدينة خلاط ٣٥٥
توسّع نفوذ الملك العادل ٣٥٦
وفاة الملك الظاهر غازي ٣٦٠
الحملة الصليبية الخامسة ٣٦١
احتلال الصليبيين مدينة دمياط ٣٦٤
عودة المسلمين إلى دمياط ٣٦٧
وفاة الملك العادل أبي بكر ٣٧٢
الإغارة على حلب ٣٧٣
مسير الملك الأشرف إلى مصر ٣٧٧
القتال بين شهاب الدين غازي والكرج ٣٧٨
عصيان شهاب الدين على أخيه الأشرف ٣٨٠
وفاة الملك الأفضل ٣٨٢
٦" ـ الموحدون ٣٨٢
وفاة يوسف بن عبد المؤمن ٣٨٤
حركة ابن غانية ٣٨٥
الجهاد في الأندلس ٣٩٠
صلاح الدين ويعقوب بن يوسف ٣٩١
وفاة المنصور يعقوب بن يوسف ٣٩٢
عودة ابن غانية على الساحة ٣٩٢

الجهاد في الأندلس ٣٩٣
المغول ٣٩٧
الاستيلاء على مازندران ٤٠٩
الاستيلاء على الريّ ٤٠٩
الاستيلاء على أذربيجان ٤١٠
الاستيلاء على مراغة ٤١٢
الاستيلاء على همدان ٤١٥
الاستيلاء على أذربيجان ٤١٦
وصول المغول إلى بلاد الكرج ٤١٧
وصول المغول إلى بلاد داغستان ٤١٨
وصول المغول إلى بلاد الشراكسة ٤١٩
وصول المغول إلى روسيا ٤٢٠
الاستيلاء على بلاد ما وراء النهر ٤٢١
الاستيلاء على خراسان ٤٢٢
الاستيلاء على خوارزم ٤٢٦
الاستيلاء على غزنة وبلاد الغور ٤٢٧
عودة المغول إلى الريّ وهمدان ٤٢٩

الفصل الثالث

المستنصر بالله

٦٢٣ ـ ٦٤٠هـ ٤٣١

الإمارات ٤٣٤
١" ـ الأيوبيون ٤٣٤
تسليم بيت المقدس إلى الصليبيين ٤٣٩
الملك الأشرف يملك دمشق ٤٤١

مقتل متولي مدينة خلاط ٤٤٣
سيطرة الملك الكامل على حماة ٤٤٥
سيطرة خوارزمشاه على خلاط ٤٤٦
هزيمة جلال الدين خوارزمشاه ٤٤٧
استيلاء علاء الدين على أرضروم ٤٤٩
الصلح بين الملك الأشرف وعلاء الدين وبين جلال الدين ٤٤٩
٢" ـ الموحدون ٤٥٠
المغول ٤٥٣
استيلاء المغول على مدينة مراغة ٤٥٤
هرب خوارزمشاه إلى آمد ٤٥٤
دخول المغول ديار بكر والجزيرة ٤٥٥

الفصل الرابع

المستعصم بالله

٦٤٠ ـ ٦٥٦هـ ٤٦٠

الخلافة ٤٦٢
الافتراق والصراعات ٤٦٥
نهاية الملك الصالح نجم الدين أيوب ٤٧٢
المماليك ٤٧٤
حركة في صعيد مصر ٤٨٠
حركة في اليمن ٤٨٠
الخلاف بين المماليك ٤٨٠
المغول ٤٨٤
* **الخاتمة** ٤٩٧